دوريان لينسكي

مكتبة ١١٩١



وزارة الحقيقة

سيرة رواية «1984» لجورج أورويل

أفضل كتاب قرأته منذ زمن طويل!
سي جيه سانسوم

ترجمة:
نادر أسامة





وزارة الحقيقة

وزارة الحقيقة

The Ministry of truth

سيرة رواية «1984» لچورج أورويل

A Biography of George Orwell's 1984

دوريان لينسكي

DORIAN LYNSKEY

ترجمة: نادر أسامة

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com



ردمك: 978-9921-730-40-1

وزارة الحقيقة
THE MINISTRY OF TRUTH

سيرة رواية «1984» لچورج أورويل
A Biography of George Orwell's 1984

دوريان لينسكي

DORIAN LYNSKEY

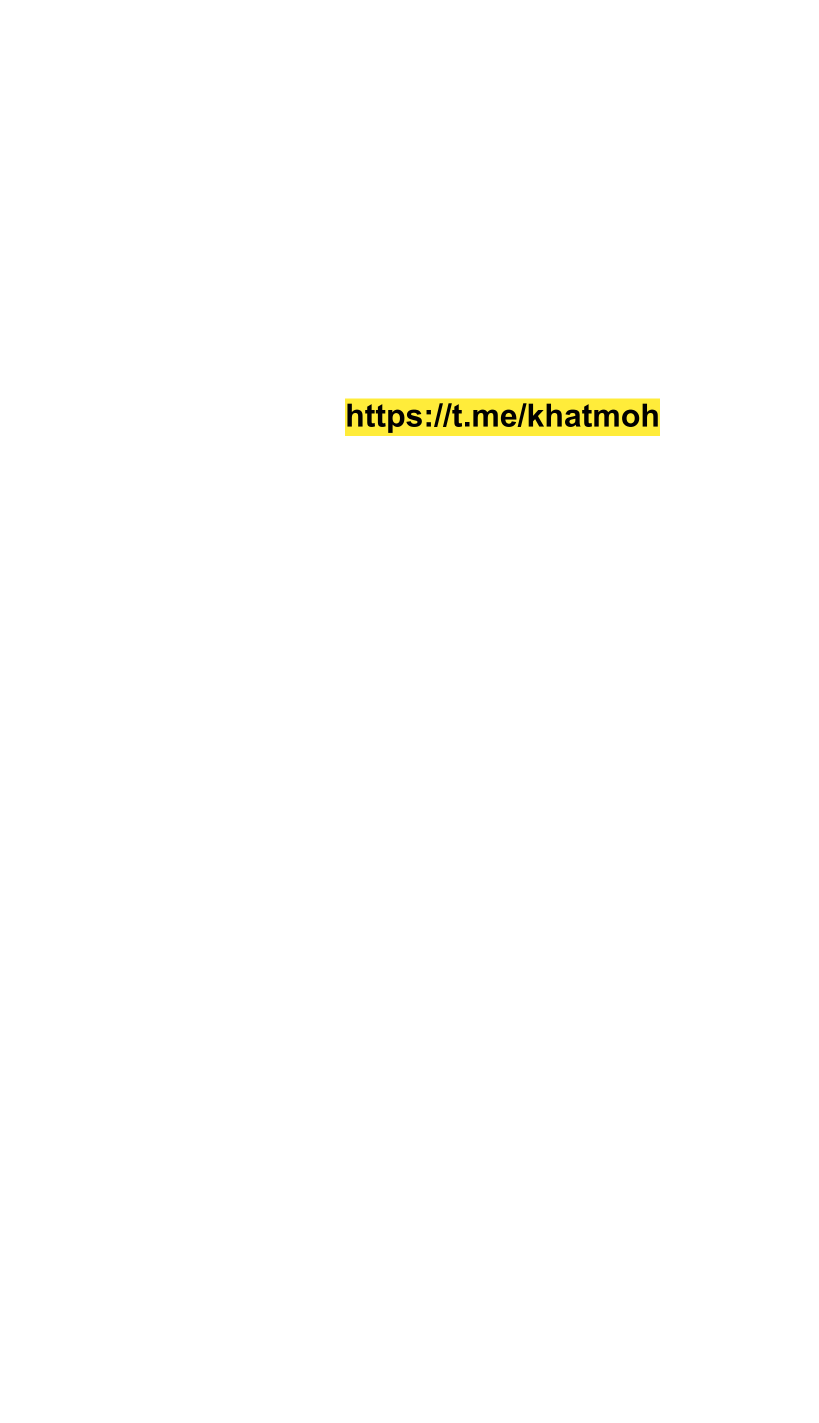
ترجمة:
نادر أسامة

مكتبة | 1191

2021

Kalemat

المحتويات


https://t.me/khatmoh

إلى لوسي وإلانور وروزا

«إنه لأمر مؤسف في عصرنا أن نجد الديستوبيات أيسر على التصديق من اليوتوبيات: لا يسعنا سوى تخيُّل اليوتوبيات، أما الديستوبيات فواقع نعيشه».

مارجريت آتوود

«الحقيقة موجودة والكذب موجود، وإذا تمسَّكت بالحقيقة ولو في مواجهة الناس كافةً فأنت لست مجنونًا».

جورج أورويل، «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»

مقدِّمة

ديسمبر 1948. على جزيرة نائية، يجلس رجل إلى آلته الكاتبة في الفراش يجاهد لإكمال كتابٍ يعنيه أمره أكثر من أيِّ شيء آخر. إنه مريض بشدة. سينتهي من الكتاب بالفعل، وبعد عام أو نحو ذلك، سينتهي الرجل كذلك.

يناير 2017. يقف رجلٌ آخر أمام جمع من الناس في العاصمة واشنطن، ويحلف يمين منصب رئيس الولايات المتَّحدة الخامس والأربعين. لم يكن الجمع بالعدد الكبير كما كان يأمل. ادَّعى السكرتير الصحفي للرجل لاحقًا أنه «أكبر جمهور شهد مراسم تنصيب رئاسية على الإطلاق، سواء بالحضور الشخصي أو بالمتابعة من جميع أرجاء العالم». عندما طُلب بعدها من مستشارة الرئيس تسويغ هذا الادِّعاء الكاذب المنافي للعقل، وصفت التصريح بأنه «حقائق بديلة». على مدى أربعة الأيَّام التالية، ارتفعت مبيعات كتاب الرجل الميِّت إلى السماء، بنسبة 10 آلاف بالمئة، ما جعله يحتل المركز الأوَّل في قوائم أكثر الكتب مبيعًا.

عندما نُشرت رواية جورج أورويل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في المملكة المتَّحدة في الثَّامن من يونيو عام 1949، في كَبِد القرن العشرين، تساءل أحد النقَّاد متعجِّبًا كيف سيتسنَّى لهذا الكتاب المناسب لعصره تمامًا أن يكون له نفس التأثير في أجيال متعاقبة. بعد خمسة وثلاثين عامًا، عندما لحق الحاضر بمستقبل أورويل ولم يكن العالم كالكابوس الذي وصفه، تنبَّأ المعلِّقون مرَّة

أخرى أن شعبية الكتاب ستذوي. انقضى خمسة وثلاثون عامًا آخر منذ ذلك الحين، ولا يزال «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هو الكتاب الذي نرجع إليه عندما تُشوَّه الحقيقة، وتُحرَّف اللغة، ويُستغلُّ النفوذ، ونكون في حاجة إلى معرفة إلى أيِّ مدى قد تسوء الأمور؛ هذا لأن شخصًا عاش ومات في حقبة أخرى كان نافذ البصيرة بما يكفي لاستبيان هذه الشرور، وموهوبًا بما يكفي لإدراجها في رواية وصفها أنتوني برجس، مؤلِّف «البرتقالة الآلية»، بـ «مخطوطة مستقبلية مُروِّعة عن أسوأ مخاوفنا».

لم تبع رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عشرات ملايين النسخ فحسب، بل تسرَّبت إلى عقول عددٍ لا حصر له ممَّن لم يقرؤوها. أضحت العبارات والتركيبات التي صاغها أورويل مصطلحاتٍ أساسية في الخطاب السياسي، ولم تزل فعَّالة بعد عقود من الاستخدام وسوء الاستخدام: اللغة الجديدة، الأخ الأكبر، شرطة الفكر، الغرفة 101، دقيقتا الكراهية، التفكير المزدوج، التَّلاشي، حفرة الذاكرة، شاشة الرصد، (2 + 2 = 5)، وزارة الحقيقة. جاء اسم الرواية ليهيمن على تقويم السنين، بينما حوَّلت الصِّفة المشتقَّة «أورويلي» اسم مؤلِّفها إلى مرادف واسع لكل ما كرهه وخافه يومًا. قُدِّمت الرواية في السينما والتليفزيون والإذاعة والمسرح والأوبرا والباليه. حثَّ الكتاب روائيًّا آخر على تأليف تتِمَّة له (رواية «1985» لجورجي دالوس)، وإعادة سرد ما بعد حداثية (رواية «انتقام أورويل: طِرس 1984» لبيتر هاربر)، ومؤلَّفات أخرى إن تُعد لا تُحصى. ألهمت عملية تأليف الكتاب نفسها هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) لصنع دراما

تليفزيونيـة بعنـوان «الـروح الشـفَّافة: أورويـل علـى جزيـرة چـورا» عـام 1983، وألهمـت أيضًـا روايـة دينيـس جلوڤـر «آخـر رجـل فـي أوروبـا» عـام 2017. أثَّـرت «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» فـي عشرات الروايات والأفلام والمسـرحيات والمسلسـلات التليفزيونيـة والقصـص المصـوَّرة والألبومـات والإعلانـات والخطـب والحمـلات الانتخابيـة والانتفاضـات. أمضـى أشـخاص كُثُـر سنوات فـي السـجون لمجـرَّد قراءتهـا. لـم يقتـرب عمـل أدبي آخـر فـي القـرن الماضـي لـه نفس الـوزن مـن الانتشـار الثقافـي ذاتـه. ادَّعـت أصـواتٌ معارضـة مثل ميـلان كونديـرا وهـارولـد بلـوم أن «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» فـي واقـع الأمـر روايـة سـيِّئة، شـخصياتها هزيلـة وسـردها مُضجـر وحبكتهـا غيـر مقنعـة، لكـن حتَّـى هـؤلاء لـم يسـتطيعوا إنـكار أهمِّيتهـا. وكمـا لاحـظ ناشـر أورويـل، فريدريـك واربـورج، فـإن نجـاح الروايـة استثنائي «بالنسـبة إلـى عمـل لـم يُصمَّـم لغـرض الإمتـاع، وليـس مـن السـهل قراءتـه».

ضـريبـة الشـعبية الهائلـة لأيِّ فنـان هـي ضمـان أن يُسـاء فهمـه. يعـرف النـاس ظاهريًـا عـن روايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» أكثـر ممَّـا يعرفونهـا بالفعـل. هـذا الكتـاب محاولـة لاسـتعادة بعـض التـوازن عـن طريـق شـرح عمَّـا تـدور روايـة أورويـل حقًّـا، وظـروف كتابتهـا، وكيـف غيَّـرت العالـم، على مدى السـنوات السـبعين الماضيـة، بعـد رحيـل مؤلِّفهـا. بالتأكيـد، لا يقتصـر معنـى أيِّ عمـلٍ فنـي علـى مقاصـد مُبدعـه، لكـن فـي حالتنـا هـذه، تسـتحقُّ مقاصـد أورويـل (التـي كثيـرًا مـا شُـوِّهت وأُهملـت) إعـادة النظـر، إذا مـا أردنـا أن يُفهـم الكتـاب بصفتـه كتابًـا، لا مجـرَّد منبـع نافـع لا ينضـب للإحـالات

الشعبية الساخرة. إنه عملٌ فني ووسيلة لفهم العالم على حدٍ سواء.

هذه إذًا قصَّة كتاب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». لقد كُتبت سيرٌ عديدة لجورج أورويل، وبعض الدراسات الأكاديمية عن السياق الفكري لكتابه، لكن لم تُجرَ محاولة من قبل لدمج الأمرين في سردٍ واحد، مع محاولة استكشاف صيرورة الكتاب أيضًا. أنا مهتم بحياة أورويل لأنها في المقام الأوَّل وسيلة لإلقاء الضوء على التجارب والأفكار التي غذَّت كابوسه الشخصي هذا، الذي دمَّر فيه بشكل منهجي كل ما كان يقدِّره: الصدق والنزاهة والعدالة والذاكرة والتاريخ والشفافية والخصوصية والفطرة السليمة والتعقُّل وإنجلترا والحب. سأتقفَّى أثر أورويل عبر قصف لندن وقوَّات الحرس الوطني وهيئة الإذاعة البريطانية ولندن الثقافية وأوروبا المنهكة بعد الحرب، وصولًا إلى جزيرة چورا حيث كتب روايته أخيرًا، كي أهدم الأسطورة التي تقول إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت نحيبًا طويلًا سبَّبه اليأس، صدر عن رجلٍ وحيد يحتضر غير قادر على مواجهة المستقبل. أريد أن ألفت الانتباه إلى ما كان يفكِّر فيه حقًّا، وكيف تأتَّى له هذا التفكير.

أحد الأسباب التي جعلت أورويل يستغرق وقتًا طويلًا جدًّا في كتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هو أنها أثمرت أفكارًا كان يطوِّرها خلال معظم مسيرته الكتابية. جاء الكتاب تتميمًا لسنوات من التفكير والكتابة والقراءة عن اليوتوبيات والدول العظمى والديكتاتوريين والسجناء والبروباجندا والتكنولوچيا

والسلطة واللغة والثقافة والمنزلة الاجتماعية والجنس والأرياف والجرذان وما هو أكثر، إلى درجة يستحيل معها تقريبًا إسناد عبارة أو فكرة معينة إلى مصدر واحد. على الرغم من أن أورويل لم يقل إلا أقل القليل عن تطوُّر الرواية، فقد ترك خلفه دربًا من الأوراق بطول آلاف الصفحات. حتَّى لو كان عمره امتدَّ لعقود بعدها، فإن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت ستكون نهاية لمرحلةٍ ما. بصفته الروائية، كان سيحتاج إلى البدء من جديد.

في الجزء الأوَّل من هذا الكتاب، سأقصُّ سيرة أورويل والعالم الذي عاش فيه: الناس الذين التقاهم، والأخبار التي تابعها، والكتب التي قرأها. سأكرِّس أيضًا ثلاثة فصول لمصادر إلهام «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الأساسية: إتش جي ويلز، ورواية «نحن» ليفجيني زامياتن، وضربي الأدب اليوتوبي والديستوبي. كل كتاب أو مسرحية أو فيلم سيأتي ذكره هو عمل كان أورويل على دراية به، ما لم يُذكر خلاف ذلك. في أثناء الرحلة، سنقابل ألدوس هكسلي وإي إم فورستر، ونستون تشرشل وكليمنت أتلي، آين راند وجوزيف مكارثي، آرثر كويستلر وهانا آرنت، لي هارفي أوزوالد وچيه إدجار هوفر، مارجريت آتوود ومارجريت تاتشر، وكالة المخابرات المركزية هيئة الإذاعة البريطانية، ديڤيد بوي وفيلم «السجين»، «برازيل» و «في فور ڤينديتا»، «البرتقالة الآلية» و «ذرِّية الرجال»، إدوارد سنودن وستيف چوبز، لينين وستالين وهتلر. على مدار الكتاب، سأعقد بعض المقارنات مع الوضع السياسي الحالي.. أحيانًا بشكل مباشر، وضمنيًّا أحيانًا أخرى. أفضِّل عدم لكز القارئ في أضلعه بشكل متكرِّر، لكن ضع حكَّامنا الحاليين في الحسبان وأنت تقرأ.

نبذة سريعة عن المصطلحات المستخدمة. للفظة «أورويلي» تعريفان متضادان، فهي تعني: إما عمل أدبي يعكس أسلوب أورويل وقِيَمه، وإما تطوُّرات على أرض الواقع تهدِّدها. لتجنُّب الالتباس، سأستخدمها فقط للإشارة إلى المعنى الأخير، وسأستبدل بها «ذات طابع أورويلي» لخدمة المعنى الأوَّل. سأستخدم أيضًا عنوان الرواية البريطاني «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بدلًا من «1984»، إلا عند اقتباس أقوال الآخرين. أشعر أن له وقعًا أثقل.

* * *

قال الفيلسوف ريتشارد رورتي: «كان أورويل ناجحًا لأنه كتب الكتب المناسبة في الأوقات المناسبة». قبل «مزرعة الحيوان» و «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، كان أورويل رجلًا يمكن مشاهدته في الدوائر الأدبية والسياسية البريطانية، لكنه لم يكن اسمًا معروفًا بأيِّ حال. الآن جميع كتبه، حتَّى تلك التي نبذها ووصفها بأنها تجارب فاشلة أو أعمال تجارية، لا تنفد من السوق، ومن الممكن قراءة كل حرف كتبه ورأى النور بفضل المجهود الأكاديمي الجبَّار للبروفيسور بيتر ديڤيسون، الذي يصل عدد صفحات إنجازه العملاق المعنون بـ «أعمال چورچ أورويل الكاملة» إلى نحو تسعة آلاف صفحة ومليوني كلمة، تقع في عشرين مجلَّدًا. قُرَّاء طبعة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الأولى في عام 1949 لا يعرفون سوى كِسرة ممَّا هو متاح اليوم.

لعلمي بمدى حرص أورويل على انتقاء ما يجب مشاركته مع الجمهور، لم أستطع قراءة أعماله الكاملة من دون رجفة شعورٍ بالذنب بين الفينة والأخرى. كان أورويل ليموت خزيًا من رؤية

إعادة نشر معظم كتاباته الصحفية، فضلًا عن نشر رسائله الخاصة، لكن لا شيء منها تقريبًا عديم القيمة. حتَّى وهو مريض، أو مثقل بالعمل، أو في أمسِّ الحاجة إلى كتابة شيء مختلف، كان دماغه يفكِّر بنشاط في المسائل الكبيرة وفي صغائر السُّلوان، وكثير من هذي وتلك صبَّ في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». ولأنه رفض استخدام فطنته في خدمة أيديولوجية أو نظام حزبي ما حتَّى وهو مخطئ (وهو ما كان يحدث كثيرًا)، فقد كان مخطئًا بطريقة صادقة ومثيرة للاهتمام. كان يمتلك ما أشاد بأن تشارلز ديكنز امتلكه: «الذكاء الحر». لم يكن بأيِّ حال من الأحوال عبقريًا فريدًا من نوعه (أريد أيضًا تسليط الضوء على بعض معاصريه الأقل شهرة)، لكنه كان الكاتب الوحيد في عصره الذي أبلى في نواحٍ عديدة بلاءً حسنًا تمامًا.

يتذكَّر سيريل كونولي، صديق أورويل في المدرسة، أن «شيئًا كان يشع منه يجعلك ترغب في أن تثير إعجابه». هذه السِّمة نفسها تشع عبر كتاباته وتجعل معجبيه يتمنَّون رضاه في أذهانهم. لكنني لا أرغب في إضفاء صفة التقديس على رجل كان متشكِّكًا في القديسين واليوتوبيات وفكرة الكمال في العموم. لن أتمكَّن من تفسير كلٍّ من الرجل والكتاب إلا بانتهاج الصراحة تجاه زلَّاته وعيوبه، كما كان عادةً. على الرغم من أن كتاباته خلقت وهمًا بأنه رجلٌ وقور حكيم يقصُّ عليك الحقيقة الواضحة التي تعرفها في قرارة نفسك لكنك لم تسلِّم بها بعد، يستطيع أورويل أحيانًا أن يكون نزقًا ومغاليًا وعنيدًا وحاد الطباع وغريب الأطوار. نحن نقدِّره على الرغم من عيوبه لأنه كان محقًّا بشأن الأسئلة

المحورية المتعلّقة بالفاشية والشيوعية والإمبريالية والعنصرية، في وقتٍ لم يفعل فيه ذلك أشخاص كُثُر كان يُفترض أنهم أعلم.

كان أورويل يشعر أنه يعيش في زمنٍ ملعون. كان يتخيَّل لنفسه حياة أخرى يمكن أن يقضي فيها أيَّامه وهو يعتني بحديقته ويكتب الأدب بدلًا من أن «يُجبر على أن يكون كاتب منشورات»، ولكن هذا كان ليشكل خسارة كبيرة. إن موهبة الرجل الحقيقية تكمن في تشريحه الدقيق لفترة مضطربة من تاريخ البشرية. على الورق، قد تبدو قِيَمه الجوهرية غامضة إلى حدٍّ كبير بحيث لا تعني شيئًا هامًّا (الصدق، الأخلاق، الحرية، العدالة)، لكن أحدًا لم يصارع مثله بلا كلل في السر والعلن مع معنى تلك الأفكار إبَّان أحلك أيَّام القرن العشرين. لطالما حاول قول الحقيقة، وكان يُعجب بأيِّ شخصٍ يفعل المثل. لا شيء يُبنى على الكذب -مهما كان مغريًا- يمكن أن يكون ذا قيمة. من الأمور الجوهرية في منظومة نزاهته هو التزامه بإعمال عقله في أفكاره وأسباب اعتناقه لها باستمرار، وعدم التوقُّف أبدًا عن إعادة تقييم هذه الآراء. نقلًا عن كريستوفر هيتشنر، أحد أفصح مُريدي أورويل: «ما يهم ليس أفكارك، بل طريقة تفكيرك».

أريد أن أرسم للقارئ صورة دقيقة عن موقف أورويل من قضايا عصره الحيوية، ووقت وسبب تغيُّر بعض هذه المواقف، من دون ادِّعاء ما كان سيفكِّر فيه بخصوص البريكست[1] مثلًا. لا تتحقَّق مثل هذه الادِّعاءات إلا عن طريق اقتطاع النَّص من

1- خروج المملكة المتَّحدة من الاتِّحاد الأوروبي. (المترجم).

سياقه، وهو ما يُعدُّ ضربًا من الاحتيال. أتذكَّر في عام 1993 عندما سمعت رئيس الوزراء البريطاني المحافظ چون ميچور يقتبس مُدلِّسًا سطرًا من أورويل حول «عذراوات عجائز يقدن درَّاجات في ضباب الصباح في طريقهن لحضور القربان المقدَّس»، كأن الاقتباس لم يأت من مقال «الأسد واليونيكورن»[2]، الذي هو حُجَّة قوية لصالح الاشتراكية. عندما يستشهد مُذيعو إذاعة «حرب المعلومات» بأورويل بشكل روتيني، يدرك المرء أن التفكير المزدوج شيءٌ حقيقي.

الرواية التي يحتفي بها الاشتراكيون والمحافظون والفوضويون والليبراليون والكاثوليك والمدافعون عن الحريَّات من كل صنف، لا يمكن أن تكون مجرَّد «فكر سياسي متخفٍّ في صورة رواية» كما زعم ميلان كونديرا. إنها قطعًا ليست حكاية رمزية محدَّدة مثل «مزرعة الحيوان»، يتوافق كل عنصر فيها مع العالم الحقيقي كالقفل ومفتاحه. عادةً ما توصف «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها رواية ديستوبية. إنها أيضًا -بدرجات متفاوتة وقابلة للنقاش- عملٌ ساخر ونبوءة وتحذير وأطروحة سياسية ورواية خيال علمي وكتاب جاسوسية شائق ورواية رعب نفسي وكابوس قوطي ونصٌّ من نصوص ما بعد الحداثة وقصَّة حب. معظم

2- «الأسد واليونيكورن: الاشتراكية والعبقرية الإنجليزية»: مقال لچورج أورويل نُشر عام 1941، عبَّر فيه عن آرائه حول الوضع في بريطانيا في زمن الحرب، وقال فيه إن النظام الطبقي البريطاني الذي عفا عليه الزمن كان يعوق المجهود الحربي، وأنه من أجل هزيمة ألمانيا النازية تحتاج بريطانيا إلى ثورة من شأنها أن تخلق نوعًا جديدًا من الاشتراكية، «الاشتراكية الإنجليزية الديمقراطية»، على عكس الشيوعية السوڤيتية القمعية. (المترجم).

الناس قرؤوا «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في سنٍّ صغيرة وصُدِموا منها؛ إنها تخلق معاناة أكثر وتمنح طمأنينة أقل من أيّ نص نموذجي آخر يُدرَّس في المرحلة الثانوية. لكنها لا تُلحُّ على عقلك ليعيد اكتشافها في سن النضج. هذا أمرٌ مؤسف. إنها أثرى وأغرب ممّا تتذكّرها على الأرجح، وإنني لأشجّعك على قراءتها مرّة أخرى. لكن لإنعاش ذاكرتك في الوقت الحالي، لخَّصت لك الحبكة والشخصيات والمصطلحات بإيجاز في ملحق هذا الكتاب.

***

صادفت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أوّل مرّة وأنا مراهق في إحدى الضواحي جنوب لندن. كما قال أورويل يومًا: «الكتاب الذي تقرؤه في الصغر يظل معك إلى الأبد». وجدتُها صادمة وآسرة، لكن كان ذلك في عام 1990 تقريبًا، عندما كان كلٌّ من الشيوعية والفصل العنصري في طريقهما إلى الاضمحلال، وساد التفاؤل، ولم يبدُ العالم بالضرورة أورويليًا. حتّى بعد أحداث 9/11، كانت صلة الكتاب بما يحدث ضئيلة. صحيح أنه اقتُبس بغرض التلميح إلى الخطاب السياسي ولهجة وسائل الإعلام وأعمال المراقبة، لكن لم يؤخذ بصورته الشاملة. كانت الديموقراطية تصعد، واعتُبر وقتها أن الإنترنت قوّة تعمل في صالح الخير إلى حدٍّ كبير.

غير أنه في أثناء ما كنت أخطط وأكتب «وزارة الحقيقة»، تغيَّر شكل العالم. أخذ الناس يتحدَّثون عن الاضطرابات السياسية في السبعينيات، والأسوأ من ذلك، في الثلاثينيات. بدأت أرفف

المكتبات في الامتلاء بعناوين مثل «هكذا تنتهي الديموقراطية، الفاشية: تحذير» و «الطريق إلى سلب الحريات» و «موت الحقيقة»، التي استشهَد كثيرٌ منها بأورويل. استحقَّ كتاب هانا آرنت «أصول الشمولية» إصدارًا جديدًا، ورُوِّج له بأنه «مسند واقعي لرواية ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». تكرَّر الأمر نفسه مع رواية سينكلير لويس عن الفاشية الأمريكية «هذا لا يمكن أن يحدث هنا» التي صدرت عام 1935. أتت المعالجة التليفزيونية التي قدَّمتها «هولو» لرواية مارجريت آتوود «حكاية الجارية» الصادرة عام 1985 مفزعة كأنها عمل وثائقي. «كنت غافلة في الماضي، هكذا سمحنا للأمر بالحدوث»، هكذا قالت أوفريد، الشخصية التي أدَّت دورها الممثلة إليزابيث موس. ذكَّرني هذا بشيءٍ كتبه أورويل عن الفاشية في عام 1936: «إن تظاهرت بأن ما يحدث من حولك مجرَّد انحراف سيمرُّ من تلقاء نفسه، فأنت تحلم حلمًا ستستيقظ منه عندما ينزل أحدهم على رأسك بهرَّاوة مطاطية». لقد صُمِّم كتاب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لإيقاظك من الغفلة.

كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أوَّل رواية ديستوبية تُكتب مع إدراك أن الديستوبيا أمر واقع. في ألمانيا والكتلة السوفيتية، شيَّد رجالٌ دولًا ظلامية وأجبروا رجالًا ونساءً آخرين على العيش والموت بين جدرانها الحديدية. قد تكون تلك الأنظمة انتهت، لكن كتاب أورويل يواصل رسم وتحديد كوابيسنا، حتَّى لو تحوَّلت وتغيَّرت. «إنها أشبه بأسطورة إغريقية في نظري، تأخذها وتسقطها على ما تشاء، لاختبار نفسك»، هكذا أخبرني مايكل رادفورد، مخرج فيلم عام 1984 المأخوذ عن الرواية.

«إنها مرآة، كل عصر يرى انعكاس صورته فيها»، هكذا قالت إحدى الشخصيات في مسرحية عام 2013 لروبرت آيك ودنكان ماكميلان. أما المغنِّي ومؤلف الأغاني بيلي براج فيقول: «في كل مرَّة أقرؤها، تبدو لي كأنها عن شيء مختلف».

ومع ذلك، فإن حقيقة أن الرواية تتحدَّث إلينا بصوتٍ عالٍ وواضح في عام 2019 لهو اتِّهام رهيب للسياسيين والمواطنين على حد سواء. في حين أنها ما زالت تُعدُّ تحذيرًا، صارت أيضًا تذكيرًا بجميع الدروس المؤلمة التي يبدو أن العالم لم يتعلَّمها منذ عصر أورويل، خاصة تلك المتعلِّقة بهشاشة الحقيقة في وجه السلطة الغاشمة. أخشى أن أقول إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وثيقة الصلة بعالمنا الآن أكثر من أيِّ وقت مضى، لكنها معلمٌ لعين أوثق صلة ممَّا يجب أن يكون.

وفي إعادة صوغ لعبارة إخلاء المسؤولية التي وضعها أورويل في كتابه «الحنين إلى كتالونيا» عن الحرب الأهلية الإسبانية، فأنا: أحذِّركم من تحيُّزاتي، لكنني حاولت قول الحقيقة.

الجزء الأوَّل

الفصل الأوَّل

التاريخ توقَّف

أورويل من 1936 إلى 1938

«نحن نعيش في عالمٍ كل من فيه ليس حرًّا، وقلَّما يُوجد فيه شخص آمن، ومن شبه المستحيل أن تكون صادقًا فيه وتظلَّ حيًّا».

چورج أورويل، «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، 1937.

قبل حلول كريسماس عام 1936 بأيَّام قليلة، دخل چورج أورويل مندفعًا إلى مكتب مجلَّة «ذا نيو إنجليش ويكلي» وهو يرتدي ملابس مناسبة لبعثة ويحمل حقيبة سفر ثقيلة، قال معلنًا: «أنا ذاهب إلى إسبانيا».

سأله فيليب ميريت رئيس تحرير المجلَّة الفرنسي المهذَّب: «لماذا؟»

فأجابه أورويل: «لا بُدَّ لأحد أن يتصدَّى لهذه الفاشية».

من كان هذا الرجل البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا الواقف في مكتب ميريت؟ أيُّ انطباع ترك على من رآه؟ كان طوله نحو 190 سنتيمترًا، وقدمه مقاسها 45، وصاحب كفَّين كبيرتين معبِّرتين، وذراعين طويلتين متدلِّيتين إلى درجة تجعله يبدو متردِّدًا أين يضعهما. كان ذا وجه شاحب، ناحل، ذابل في غير أوانه، تعطي الأخاديد العميقة حول فمه انطباعًا بمعاناةٍ نبيلة وتذكِّر

أصحابه بالدون كيخوتيه أو بإحدى لوحات القديسين للرسَّام إل جريكو. تفصح عيناه الزرقاوان الباهتتان عن ذكاء حسَّاسٍ حزين. يميل فمه إلى الالتواء في ابتسامة ساخرة، وإن كنت محظوظًا قد تسمع منه قهقهة عالية خشنة. شعره مبعثر عموديًا مثل شعيرات الفرشاة، وملابسه بحالة مزرية وليست مهندمة على جسده بقدر ما هي معلَّقة عليه، وشاربه الرفيع هو مظهر الأناقة الوحيد الذي ارتضاه. تفوح منه رائحة التَّبغ المحترق، ويقول بعض الناس إنها كانت رائحة مرض نفَّاذة غير محدَّدة. كان يتحدَّث بصوت رتيب جاف فيه خشونة، تتعلَّق به شوائب لهجة قرية إيتون العنيدة التي كان يتمنَّى ألا يلحظها أحد. في اللقاء الأوَّل، قد يبدو متحفِّظًا وشاردًا، مجرَّد عصا مكنسة قديمة يابسة. أما من تسنَّى لهم تعرُّفه جيِّدًا سرعان ما اكتشفوا كرمه وحُسن فكاهته، لكنهم كانوا يصطدمون بعزلته النفسية. كان يؤمن إيمانًا راسخًا بالعمل الجاد والمتع الصغيرة، وقد تزوَّج مؤخَّرًا بخريجة لامعة في جامعة أوكسفورد تُدعى آيلين أوشوناسي. كان منخرطًا في الفكر السياسي لكن ليس الأيديولوجي، وكان كثير السفر ويجيد عدَّة لغات. يبدو المستقبل واعدًا أمامه.

من ناحية أخرى، كانت الأشياء التي يفتقر إليها بذات الأهمِّية. لم يكن بعد شخصية بارزة ولا اشتراكيًا مخلصًا ولا خبيرًا في الشمولية ولا كاتبًا أسلوبه واضح شفَّاف كنافذة زجاجية. كان بالكاد چورج أورويل الذي نعرفه. ستشكِّل إسبانيا الفتق الأكبر في حياته: أو ساعة الصفر لها. بعد سنوات، سيخبر صديقه آرثر كويستلر: «التاريخ توقَّف في عام 1936». قصد بهذا الشمولية،

وقصد إسبانيا. لقد توقَّف التاريخ وبدأت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كتب أورويل في منتصف عمره: «إلى أن بلغت سن الثلاثين تقريبًا، كنت أخطط حياتي ليس بافتراض أن أيَّ مشروع كبير مآله الفشل فحسب، بل بتوقُّع أنني لن أعيش سوى بضع سنواتٍ أطول».

وُلِد أورويل باسم إريك آرثر بلير في 25 يونيو عام 1903 في الهند. أمه إيدا، التي أحضرته إلى إنجلترا في العام التالي، كانت امرأة نصف فرنسية متَّقدة الذكاء اختلطت بناشطات «حق المرأة في التصويت» وأعضاء «الجمعية الفابية». أما أبوه، ريتشارد بلير، فكان موظَّفًا مدنيًّا متوسِّط الرتبة في «لجنة الأفيون» التابعة لحكومة الإمبراطورية البريطانية، ولم يعاود الظهور في حياة ابنه حتَّى عام 1912، وعندما ظهر كان مجرَّد «رجل مسن أجش الصوت لا يكف عن قول: ممنوع». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، تقض خيانة ونستون سميث لأمه وأخته في طفولته مضجعه، لكنه يتذكَّر أباه بالكاد. وُلِد أورويل إذًا لأسرة تنتمي إلى ما يسمِّيه بـ «الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسِّطة العُليا»، وهي طبقة مضطربة من المجتمع الطَّبقي الإنجليزي تتمتَّع بطموح وعادات الأغنياء ولكن ليس برؤوس أموالهم، وبالتالي ينفقون معظم أموالهم على «الحفاظ على المظاهر». في وقتٍ لاحق، بات ينظر إلى فترة صباه بخزي وإحراج وبقدر كبير من الازدراء. كان يرى نفسه «متغطرسًا صغيرًا بغيضًا» صُمِّمت طبقته الاجتماعية وتعليمه لغرض التناسل. «إن لم تستأصل غطرستك

من تربتها، ستلازمك إلى القبر». بين سنَّي الثَّامنة والثَّالثة عشرة، كان تلميذًا في «مدرسة سانت سيبريان»، وهي مدرسة خاصة صغيرة في مقاطعة ساسكس ظلَّ يكرهها من شغاف قلبه ما تبقَّى من حياته. «الفشل، الفشل. الفشل من خلفي ومن أمامي. هذه أعمق قناعة حملتها بداخلي».

في السيرة الذاتية القصيرة التي أسهم بها عام 1940 في كتاب «مؤلِّفو القرن العشرين» كتب: «تلقَّيت تعليمي في قرية إيتون بين عامي 1917 و1921، لأنني كنت محظوظًا بما يكفي للحصول على منحة دراسية، لكنني لم أنجز شيئًا هناك، وتعلَّمت أقل القليل، ولا أشعر أن إيتون كان لها تأثير كبير في حياتي».

في حين أنه -على الأرجح- ضخَّم من شعور الازدراء الذي يكنُّه دافعو الرسوم تجاه الأولاد المنتفعين بالمنح الدراسية، كان أورويل بالفعل طالبًا متوسِّطًا لديه شعور عميق بعدم الانتماء. على الرغم من أنه كان يشتهر بـ «اليساري»، كانت اشتراكيته المزعومة أقرب إلى وجاهة عصرية من اقتناع راسخ. تذكَّره تلميذٌ زميل بأنه كان «صبيًا معتدًا بنفسه، يحب دائمًا إثبات أن كل شيء حوله خطأ، ويعطي انطباعًا بأنه أتى لتصحيح الأمور». وقال آخر: «كان ساخرًا أكثر من كونه متمرِّدًا، ودائمًا ما يقف بعيدًا ليراقب. دائمًا يراقب».

بعد إيتون، رفض أورويل ارتياد الجامعة، وانضم إلى الشرطة الإمبراطورية الهندية في بورما حيث ترعرعت أمه، وهو القرار المفاجئ الذي لم يحاول تفسيره لقرَّائه أو لأصدقائه. شال أورويل طموحاته في الكتابة على الرَّف، لكن السنوات الخمس التي قضاها

في بورما زوَّدته بخبرات تكفي لكتابة رواية واحدة لائقة هي «أيَّام بورما»، ومقالين جيِّدين جدًّا هما «الشنق» و«إطلاق النار على فيل»، واعتقاد راسخ بقيمة التجارب الحياتية. كان أورويل يكره المثقَّفين -وهي كلمة كان يميل إلى وضعها بين علامتي تنصيصٍ ساخرتين- الذين يعتمدون على النظريات والافتراضات؛ لم يكن يؤمن بشيء على الإطلاق إلا إذا عاشه بطريقة أو بأخرى. مقولة مثل «كي تكره الإمبريالية يجب أن تكون جزءًا منها» هي تعميمٌ خاطئ، لكنها كانت صحيحة من وجهة نظره. عندما يخاطب أورويل القارئَ في كتاباته، فهو في الغالب يقصد نفسه.

لعبت الفترة التي قضاها في بورما دور العلاج التنفيري. من خلال رؤية كيف فسدت وتقوقعت الطبقة الحاكمة بسبب إساءة استخدامها للسلطة ومناخ النفاق الذي غلَّفها، طوَّر أورويل اشمئزازًا تجاه كل أنواع القمع، وصار لفترة وجيزة أناركيًّا نوعًا ما، قبل أن يقرر أن هذا «هُراء وجداني». عاد إلى إنجلترا في عام 1927 (في إجازة لم يرجع بعدها أبدًا) وهو مُثقل بـ «شعور رهيب بالذنب يجب أن أُكفِّر عنه». تجسَّد هذا الشعور في هيئة رغبة ماسوشية جعلته يزجُّ بنفسه في مواقف شاقة، بل ومهدِّدة للحياة. «كيف تكتب عن الفقراء إن لم تصبح فقيرًا أنت نفسك، حتَّى ولو لفترة مؤقَّتة؟»، هكذا سأل صديقًا له ذات مرَّة. لاحظ أمين مكتبة قابله في هذه الفترة بذكاء أنه كان رجلًا «في طور إعادة ترتيب نفسه».

سعى أورويل - «من دون أدنى اهتمام بالاشتراكية أو بأيِّ نظرية اقتصادية أخرى» باعترافه الشخصي- لغمر نفسه في عالم

المستضعفين السفلي -أولئك الذين بعدم امتلاكهم لوظائف أو لممتلكات أو لوضع على الإطلاق، سَمَوا، أو بالأحرى غرقوا أسفل النظام الطبقي- بأن صار متشرِّدًا في إنجلترا وغاسل صحون في باريس في أواخر العشرينيات. كتب أورويل: «هذا المجتمع أشبه بعالم داخل عالم، حيث الجميع متساوون في ديموقراطية صغيرة بائسة، ربَّما هي أقرب شيء إلى الديموقراطية موجود في لندن». كان ريتشارد ريس، أحد محرِّري مجلَّة «ذا أدلفي»، يعتقد أن أورويل اختار هذا الطريق كـ «نوع من التكفير عن الذنب أو الوضوء لتطهير نفسه من رجس الإمبريالية». قاده هذا الاشتياق إلى الوحل[3]، الذي ظهر بعد ذلك في رحلات ونستون سميث الاستكشافية إلى منطقة العوام في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، إلى تأليف كتابه الأوَّل: مذكِّرات «الفقر والتشرُّد في باريس ولندن».

نُشر الكتاب في عام 1933، وكان بمنزلة ولادة «جورج أورويل». أحد الأسباب التي قال إنها جعلته يستخدم اسمًا مستعارًا هو الرغبة في تجنيب عائلته أيَّ حرج إذا صُدموا من محتويات الكتاب، أو في حال إخفاق مسيرته في الكتابة، لكنه في الحقيقة كان يكره اسم إريك وكان متعطِّشًا لتجديده. هذا الاسم الإنجليزي الأصيل المأخوذ من نهر أورويل الذي يتدفَّق عبر مقاطعة سوفلوك، نحَّى أفكاره البديلة عن الاسم: كينيث مايلز، وبي إس

3- Nostalgie de la boue: حرفيًا «الاشتياق إلى الوحل»، وهو الانجذاب إلى حياة البؤساء ومجتمع المهمَّشين الذي يعتري المثقَّفين والمفكِّرين أحيانًا. العبارة صاغها الكاتب المسرحي الفرنسي إيميل أوجيه في عام 1855. (المترجم).

بورتـون، وإتـش لويـس أولويـز، وهـذا مـن حسـن الحـظ أيضًـا: مـا كانـت لفظـة «أولويـزي» لتكـون صفـة أنيقـة.

***

بحلـول عـام 1936، صـار أورويـل مؤلّفًـا لثـلاث روايـات، وكتـاب غيـر روائـي، وبعـض القصائـد الركيكـة، وفيـض مـن الكتابـات الصحفيـة.. لـم تتضافـر جميعهـا بعـد لتُكوِّن مهنـة يُمكـن أن الاعتمـاد عليهـا كمصـدرٍ للـرزق. كان بالـكاد يسـتطيع العيـش مـن خـلال العمـل مدرِّسًـا وبائـعَ كتـب. فـي ذلـك العـام، رسـم لنفسـه صـورة ذاتيـة مبالـغ فـي قتامتهـا فـي روايتـه الثّالثـة «دع الدريقـة تطيـر». بطـل الروايـة، جـوردون كومسـتوك، رجـل فقيـر معـدوم، طريـد مـن الطبقـات الوسـطى التـي تحسـبها غنيـة مـن التعفُّـف، لديـه طموحـات أدبيـة لـم تتحقّـق ويعمـل فـي مكتبـة لتغطيـة نفقـات المعيشـة. إنـه «لـم يبلـغ الثلاثيـن بعـد، لكنـه مضعضـع، وشـاحب تمامًـا، وتغـزو وجهـه خطـوطٌ مريـرة يتعـذَّر علاجهـا». إن رثـاءه حالـه وتشـاؤمه وبغضـه للبشـر جميعهـا أشـياء تضغـط عليـه وتخنقـه، إلـى درجـة أن خضوعـه النهائـي للإمَّعيـة البرجوازيـة -التـي يُرمـز إليهـا بنبتـة الدريقـة المنزليـة- يأتـي فـي النهايـة بمنزلـة الانعتـاق الرحيـم. تمثّـل شـخصية كومسـتوك صـورة مشـوَّهة مـن أورويـل: إنـه الرجـل الـذي كان سـيصيره إذا استسـلم للمـرارة والكآبـة.

فـي ينايـر عـام 1936، قبـل أورويـل مهمَّـة أوكلهـا إيـاه ناشـره فيكتـور جولانـش، وهـو اشـتراكي يهـودي صاعـد مفعـم بالحيويـة، لاستكشـاف معانـاة الطبقـة العاملـة فـي مجـال الصناعـة فـي شـمال إنجلتـرا. الكتـاب الـذي نتـج عـن ذلـك ونُشِـر فـي العـام التالـي، الجـزء

الأوَّل من «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، هو مثال رائع على الصحافة الدعائية وإثارة تعاطف القارئ عن طريق تضفير البيانات الموثَّقة مع خليط زاهٍ من المشاهد والأصوات والأطعمة والروائح من قلب حياة الطبقة العاملة. صدم مشهد المرأة الراكعة لتسليك ماسورة صرف صحِّي أورويل، ورأى فيه لوحةً خالدةً عن الكدح لا يمكن طمسها، حتَّى أنه أعاد تقديمه بعد سنوات في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». أسرته النظرة التي كانت تعتلي وجهها. «كانت تعرف جيِّدًا ما يحدث لها». كتب أورويل مرارًا عن دور الوجه في الكشف عن شخصية صاحبه بعمق، سواء كان ديكنز أو هتلر أو رجل ميليشيات إسباني أو الأخ الأكبر. في إقليم آيرستريب وان في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وهو النسخة الخيالية من بريطانيا في عالم الرواية، يُسمَّى خطر إفشاء المرء حقيقة مشاعره «جريمة الوجه»، ونجد أن التعبير المجازي عن الاستبداد الذي يستخدمه المُعذِّب أوبراين هو «حذاء يطأ وجه إنسان.. إلى الأبد».

رغم تقليله من قدر ملذَّات حياة الطبقة العاملة للتأكيد على معاناتها، وصف أورويل أفرادها كما ينبغي في الجزء الأوَّل من «الطريق إلى رصيف ويجان البحري» بصفتهم بشرًا لا مجرَّد أرقام إحصائية أو رموز للجموع المكافحة. لهذا عندما قال لچاك كومون، أحد كُتَّاب الطبقة العاملة، «أخشى أنني حِدتُ نوعًا ما في بعض مواضعه»، كان يقصد على الأرجح الجزء الثاني الإنشائي المليء بالاستطراد، الذي وصفه لاحقًا بأنه لم يكن يستحق إعادة الطبع.

مُفتتح الجزء الثاني المُسهَب أقرب إلى مذكّراتٍ تتبّع تطوُّر وعيه السياسي بنزاهة جالدة للذات. بقوله إنه تربّى منذ ولادته على «كره وخشية واحتقار الطبقة العاملة»، فهو قد جعل الكتاب ضمنيًا وسيلة للتعليم وللتكفير عن الذنب. أما الباقي فهو جدال عنيف مشوَّش. كان أورويل يعتقد أنه إذا كانت الاشتراكية ضرورية بشكل واضح، فلا بُدَّ أن عدم تمتُّعها بشعبية يرجع إلى صورتها الذهنية، فهي «تنفِّر الأشخاص الذين كان ينبغي لهم التهافت على دعمها» من خلال تعتيم مُثُلها الجوهرية عن العدالة والحرية والآداب العامَّة. حدَّد أورويل عائقين أساسيين أمام الاشتراكية: الأوَّل هو عبادتها الآلة، ممَّا يخلق انطباعًا منفِّرًا عن «الطائرات والجرَّارات والمصانع المضيئة الضخمة المشيَّدة بالخرسانة والزجاج». العائق الثاني هو سوء طباع الطبقة العاملة. ولأنه بالكاد لاحظ وجود اشتراكيين بين أبناء الطبقة العاملة أو داخل حركة النقابات العمَّالية، تخلَّص أورويل من تحاملاته الغريبة عن طريق التفكير بعقلية الإنسان العادي، محطِّمًا كل الأوثان والنواقص التي يُزعم أنها تجعل الاشتراكية غير جذَّابة لهم (وبتعبير آخر، له)، والتي تشمل النباتيين والممتنعين عن شرب المُسكِرات ومناصري العُري والكُويكريين[4] ومُنتعِلي الصنادل وعصير الفاكهة والمصطلحات الماركسية ولفظة «رفيق» والقمصان فستقية اللون وتنظيم النسل واليوجا واللِّحَى وبلدة ويلون جاردن سيتي وضاحية

4- Quakers: يعرفون أيضًا بـ «الأصدقاء» أو بـ «جمعية الأصدقاء الدينية» أو «أصدقاء الكنيسة». طائفة من المسيحيين البروتستانت نشأت في منتصف القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس. (المترجم).

رتفوردشاير المُشيّدة وفقًا للمبادئ اليوتوبية المثالية. وعلى الرغم من أن أورويل ادَّعى في الكتاب أنه يلعب دور محامي الشيطان ليس إلا، من الصعب عدم الشعور بأنه حظي بكثير من المرح في إهانة أقلية اشتراكية حمقاء وغريبة الأطوار أكثر من الدفاع عن أشكال أخرى من الاشتراكية. وبعد أداء مثل هذا، كان اختتامه للكتاب بدعوة «اليساريين من جميع الأوساط لإسقاط خلافاتهم والتكاتف معًا» محض نفاق يدعو للسخرية.

جعل أورويل الحياة صعبة على فيكتور جولانش، الذي كان قد أسَّس مؤخَّرًا «نادي الكتاب اليساري» مع نائب حزب العمل جون ستراتشي والعالم السياسي هارولد لاسكي من أجل الترويج للاشتراكية. قال لاسكي المفكِّر الاشتراكي الأكثر تأثيرًا في بريطانيا عن الجزء الأوَّل من كتاب «الطريق إلى رصيف ويجان البحري» إنه «دعايا رائعة لأفكارنا»، لكن جولانش شعر بأنه مضطَّرٌ إلى كتابة مقدِّمة لطبعة «نادي الكتاب اليساري» تُبرِّئ النادي من الأحكام القاسية للجزء الثاني. في تلك المقدِّمة، وضع جولانش إصبعه على طبيعة أورويل المتناقضة بشدَّة: «الحقيقة هي أنه مفكِّرٌ عظيم ومُعادٍ عنيف للفكر في الآن ذاته. وبالمثل هو متعجرفٌ رهيب (ويجب أن يغفر لي قول هذا)، وكارهٌ غير زائف لكل أشكال العجرفة». إلى نهاية حياته، اعترف أورويل أن آفات كل ما ينتقده تحيا بداخله. في الواقع، كان هذا الإدراك العميق لعيوبه الخاصة هو الشيء الذي حصَّنه ضد الأوهام الخيالية عن مثالية الإنسان.

اتَّهم جولانش أورويل أيضًا بأنه لم يدافع عن نسخته المفضَّلة من الاشتراكية، ولم يُفسِّر كيف يمكن تطبيقها. وفقًا لزميل أورويل

فـي متجـر بيـع الكتـب ومحـرِّره اللاحـق چـون كيمشـيه، كان أورويـل «اشـتراكيًا بالسـليقة»: «شـريف تمامًـا، لكـن يمكننـي القـول إنـه لا ينسـجم مـع الأوضـاع السياسـية أو العسـكرية المعقَّدة». وبيد أن نقد أورويـل للاشـتراكية كان منحرفًـا وغيـر مكتمـل، كانـت نيَّاتـه صـادقـة. كان يؤمـن بـأن «لا شـيء سـواها قـادر علـى إنقاذنـا مـن براثـن بـؤس الحاضـر أو كوابيـس المسـتقبل»، وإن فشـلت الاشـتراكية فـي إقنـاع البريطانييـن البسـطاء، فمـن ثـمَّ سيسـتغل سـخطهم بـلا شـك رجـل مثـل هتلـر. كتـب أورويـل أن الاشـتراكية فـي بريطانيـا «تفـوح منهـا رائحـة غرابـة الأطـوار وعبـادة الآلـة والأفـكار الروسـية الغبيـة. وإن لـم تُـزل تلـك الرائحـة سـريعًا جدًا، قـد تفـوز الفاشـية».

حتَّـى عندمـا كتـب أورويـل هـذه الكلمـات، كان يخطِّـط لمحاربـة الفاشـية بشـكل أكثـر مباشـرة. كان محـرِّر مجلَّة «ذا ألفلـي» ريتشـارد ريـس يعـرف أورويـل منـذ عـام 1930، لكـن فقـط عندمـا ارتحـل صديقـه إلـى إسـبانيا، بـدأ ريـس «يـدرك أنـه كان رجـلًا اسـتثنائيًا».

* * *

«الحـرب الأهليـة الإسـبانية هـي إحـدى الحـالات القليلـة نسـبيًا التـي دوَّن فيهـا الطـرف الخاسـر نسـخة الأحـداث التـي حـازت قبـولًا واسـعًا، بشـكل أكثـر إقناعًـا مـن الطـرف الفائـز»، هكـذا كتـب المـؤرِّخ أنتونـي بيفـور. الأكثـر مـن ذلـك أن مذكِّـرات الصـراع التـي قُرِئـت علـى نطـاق واسـع، وهـي كتـاب «الحنيـن إلـى كاتالونيـا» لأورويـل، كتبهـا رجـلٌ قاتـل مـع أكثـر الخاسـرين خسـارةً: الـ «بارتيـدو أوبريـرو دي أونيفيكاسِـنيه ماركسيسـتا» أو (حـزب عمَّـال التوحيـد الماركسـي)، الـذي يُعـرف اختصـارًا بحـزب الـ «بـوم». هـذا منظـور خـاص جـدًا

للأحداث. كان حزب الـ «بوم» حزبًا صغيرًا في الحجم والتأثير، ضعيفًا عسكريًا ولا يحظى بشعبية سياسية. لذا عندما ادَّعى المعاصرون -والمؤرخون لاحقًا- أن كتاب أورويل رسم صورة مشوَّهة للحرب، لم يكونوا مُخطئين. لكن الكتاب لم يكذب بخصوص الحرب التي خاضها أورويل.

في فبراير 1936، عندما كان أورويل في ويجان، صوَّت الناخبون في الجمهورية الإسبانية المضطربة التي يبلغ سنُّها خمس سنوات لصالح ائتلاف الجبهة الشعبية من الأناركيين والاشتراكيين والشيوعيين والجمهوريين الليبراليين بفارق ضئيل؛ وهو ما أرعب الكنيسة والجيش: الركيزتان الأساسيتان لعقيدة الملكية الرجعية. في 17 يوليو، بعد خمسة أشهر من عدم الاستقرار، شن الجنرال فرانثيسكو فرانكو انقلابًا في حامية المغرب الإسباني وجزر الكناري، وهو ما أشعل حربًا أهلية وحشية قسمت البلاد إلى قسمين، وصارت بعدها تمثيلًا للصراع الحاسم الذي امتدَّ عقدًا بين الفاشية والشيوعية. على الفور، مدَّت ألمانيا وإيطاليا متمرِّدي فرانكو بالأسلحة والأفراد، بينما صارت روسيا -بفضل الحظر المفروض على الأسلحة من بريطانيا وفرنسا- الحليف الرئيس للجمهورية، وما ترتَّب على ذلك من عواقب وخيمة.

تتبَّع أورويل الأحداث الجارية في إسبانيا من كثب. تتضمَّن الصفحات الأخيرة من كتاب «الطريق إلى رصيف ويجان البحري» سردًا مرجعيًّا لمعركة مدريد التي دارت رَحاها في نوفمبر من ذلك العام. لقد ذهب إلى إسبانيا متوقِّعًا محاربة الفاشية والدِّفاع عن «الآداب العامَّة»، لكنه وجد نفسه غارقًا

فـي حسـاء مـن الاختصـارات اللفظيـة السياسـية التـي كانـت أحيانًـا ترسـم الخـط الفاصـل بيـن الحيـاة والمـوت لبعـض النـاس. إن شـرح مـا سـمَّاه أورويـل «وبـاء الأحـرف الأولـى» هـو شـرٌّ لا بُـدَّ منـه؛ لـذا سـأكون موجـزًا. كان الـ «بسـوك» (أو الحـزب الاتِّحـادي الاشـتراكي الكتالونـي) تابعًـا كتالونيًـا للحـزب الشـيوعي الإسـباني سـريع النمـو، وكان مـن دون منـازع الفصيـل الأكثـر ثـراءً والأقـوى تسـليحًا بفضـل الدَّعـم الروسـي. كان الأناركيـون ممثَّليـن فـي كلٍّ مـن الـ «إف إيـه آي» (الاتِّحـاد الأيبيـري الأناركـي) والـ «سـي إن تـي» (اتِّحـاد العمـل العـام). أمـا الـ «يـو چـي تـي» الاشـتراكي أو (اتِّحـاد العمَّـال العـام)، فقـد جـاء منـه رئيـس وزراء إسـبانيا الأخيـر، فرانثيسـكو لارچـو كابييـرو. ثـم كان هنـاك حـزب الـ «بـوم» بقيـادة أندريـس نيـن البالـغ مـن العمـر أربعـة وأربعيـن عامًـا، وهـو حـزب الطبقـة العاملـة الماركسـي المـارق، الـذي يقـف فـي موقـف وحيـد وضعيـف معارضًـا لسـتالين وفـي خـلاف مـع تروتسـكي. جـاءت هـذه الفصائـل اليسـارية لشـن حـربٍ أهليـة داخـل الحـرب الأهليـة. أصـرَّ الشـيوعيون -بعـد اسـتراتيچية موسـكو لإنشـاء تحالـفٍ مناهـضٍ للفاشـية مـع الرأسـماليين تحـت مُسـمَّى «الجبهـة الشـعبية» - علـى أن الفـوز بالحـرب يجـب أن تكـون لـه أولويـة علـى الثـورة. شـعر الأناركيـون وأتبـاع حـزب الـ «بـوم» أن النصـر بـلا ثـورة أمـر غيـر مقبـول، بـل مسـتحيل، ولـم يكـن مـن الممكـن التوفيـق بيـن الموقفيـن.

عنـد التفكيـر بأثـر رجعـي، يبـدو للمـرء أن ولاء أورويـل لحـزب الـ «بـوم» كان مدفوعًـا بالمثاليـة. فـي الحقيقـة، اعتـرف الرجـل لاحقًـا: «لـم أكـن غيـر مهتـم بالوضـع السياسـي فحسـب، بـل لـم أكـن علـى

دراية به». لو كان أكثر حكمة، هكذا أخبر چاك كومون، لانضم وقتها إلى الأناركيين، أو حتّى إلى الألوية الدولية المدعومة من الشيوعيين، لكن القرار كان قد اتُّخذ له بالفعل. في سعيه للحصول على خطاب توصية لتسهيل دخوله إلى إسبانيا، قصد أورويل أولًا هاري بوليت، الأمين العام الاستاليني المخلص لـ «حزب بريطانيا العظمى الشيوعي». شعر بوليت بأنه غير جدير بالثقة من الناحية السياسية (وقد كان كذلك بالتأكيد، ويفخر بذلك) ورفض مساعدته. كان حظٌ أورويل أفضل مع فينر بروكواي من «حزب العمل المستقل» (آي إل بي)، وهو حزب اشتراكي صغير متمرِّد تتماشى أفكاره مع حزب الـ «بوم»، وهكذا قُضي الأمر. أثبت حزبا الـ «بوم» والـ «آي إل بي» نزاهتهما وشجاعتهما في عيني أورويل، باستنكارهما المحاكمات الصورية الجارية في موسكو.

لم يكن مزيج المثالية والجهل والمثابرة الذي كانه أورويل أمرًا غير معتاد بين الأجانب الذين توافدوا إلى إسبانيا في عام 1936. جذبت القضية اليسارية العظيمة آنذاك كل أطياف البشر: المغامرين والحالمين، الشعراء والسبَّاكين، الماركسيين المتشدِّدين والمنبوذين المحبطين. وصف أحد المتطوِّعين الأمر بأنه «عالمٌ يشعر فيه الوحيدون والضائعون بالأهمية». خدم نحو 35 ألف رجل من 53 دولة في الألوية الدولية، بالإضافة إلى خمسة آلاف آخرين في المليشيات التابعة للأناركيين وحزب الـ «بوم». أكثر من ألف صحفي وكاتب ذهبوا أيضًا، من ضمنهم إرنست همنجواي ومارثا جيلهورن وأنطوان دو سانت إكزوبيري والشاعر ستيفن سبندر، الذي كتب لاحقًا: «لقد كانت في جزء منها حربًا أناركية،

حربَ شعراء». قلَّة من الأجانب -إن وُجدوا- كانوا يعون مدى تعقيد الوضع السياسي قبل وصولهم، ومع ذلك، قال الصحفي مالكوم موجريدج: «بدا من المؤكَّد أن الخير والشَّر انخرطا أخيرًا في قتالٍ دموي في إسبانيا».

***

غادر أورويل لندن في 22 من ديسمبر وارتحل إلى إسبانيا عن طريق فرنسا. هناك زار الروائي الأمريكي هنري ميلر، الذين كان يعدُّ مخاطرة المرء بحياته من أجل قضية سياسية حماقة سخيفة، وحاول إقناعه بالعدول عن الأمر. «على الرغم من أن أورويل كان شابًا رائعًا بطريقته الخاصة، آمنت في نهاية المطاف أنه غبي»، هكذا قال ميلر بعد عقود. «كان مثاليًّا مثل كثير من الإنجليز، وبدا لي إنه مثاليٌّ أحمق». عبر أورويل الحدود إلى إسبانيا ووصل برشلونة في يوم الصناديق[5].

كانت كاتالونيا تفخر بأنها منطقة شبه مستقلة ولها تاريخ طويل من الأناركية. أحدث انقلاب فرانكو في يوليو ثورة معادية لرجال الدين هناك. أُحرقت كنائسُ عديدة وأُعدِم كثيرٌ من القساوسة. صُفِح عن الطبقة البرجوازية إلى حدٍّ كبير، لكن أحزاب الطبقة العاملة استولت على البنوك والمصانع والفنادق والمطاعم ودور السينما وسيارات الأجرة، وزُيِّنت جميعًا بأحرف الـ «سي إن تي» (اتِّحاد العمل العام) والـ «إف إيه آي» (الاتِّحاد الأيبيري الأناركي). زار فرانز بوركناو، الكاتب الأسترالي الذي التقاه أورويل وأُعجب

5- عطلة رسمية يُحتفل بها في 26 من ديسمبر في المملكة المتحدة وكل الدول الناطقة بالإنجليزية باستثناء الولايات المتَّحدة. (المترجم).

به، إسبانيا في أغسطس وشهد نهايات الحماسة الثورية، وكتب: «كان الشعور غامرًا. بدا لي كأننا هبطنا قارة مختلفة تمامًا عن كل ما رأيته من قبل». شهد سيريل كونولي، صديق أورويل من أيَّام الدراسة، الأمر بدوره، ما جرَّده من الخيلاء بشكل مؤقَّت. «بدا كما لو أن الجموع، الرعاع الذين عادةً ما تُنسب إليهم غرائز الغباء والاضطهاد، ستتحوَّل بعد تشرنقها إلى شكل من أشكال ازدهار البشرية».

من غير الواضح ما إذا كان أورويل ذهب إلى إسبانيا للقتال قبل أن ينتهي به المطاف إلى الكتابة أيضًا أم العكس. چون ماكنير، رجل الـ «آي إل بي» في برشلونة، تذكَّر دخول أورويل إلى مكتبه وقوله: «جئت إلى إسبانيا للانضمام إلى الميليشيات ومحاربة الفاشية»، لكن أورويل أشار في كتابه «الحنين إلى كاتالونيا» أن الكتابة الصحفية أتت في المرتبة الأولى. في كلتا الحالتين، فقد قرَّر خلال أيَّام قليلة فحسب فعل الأمرين. ما وجده هناك هو «نسخة رديئة من سنوات الحرب بين عامي 1914 و1918. «حربٌ موضعية قوامها الخنادق والمدفعية والغارات والقناصين والطين والأسلاك الشائكة والقمل والركود». أمضى أورويل أربعة الأشهر التالية مع الفرقة 29 التابعة لحزب الـ «بوم» في خنادق جبهة أراجون التي كانت تفصل بين بلدة ألكوبيرا التي يسيطر عليها الجمهوريون ومعاقل الفاشية في سرقسطة وهويسكا. كانت مخاوف أورويل الرئيسية بترتيبٍ تنازلي هي: «الحطب والطعام والتبغ والشموع و...» -بمسافة بعيدة- « ... العدو». ولكونها محرومة من الأسلحة والمعدات الروسية، كانت ميليشيات الـ «بوم» عاجزة عن شنِّ

هجوم على الفاشيين. كانوا يفتقرون إلى الملبس الموحَّد والخوذ والحِراب والمناظير والخرائط والمشاعل والأسلحة الحديثة، من بين أمور أخرى. كانت بندقية أورويل الخاصة من طراز ماوزر، ويعود تاريخها إلى عام 1896. كان الشعور بالعجز والعبث يُحنقانه، ولعن الجبهة بنفس الحكم الذي أطلقه على حالة جمود عائلة كومستوك الكئيبة في رواية «دع الدريقة تطير»: «لم يكن يحدث شيءٌ على الإطلاق». قال چورج كوب -قائد كتيبة أورويل البلچيكي المتمرِّد- لرجاله: «هذه ليست حربًا. إنها أوبرا هزلية يشوبها الموت أحيانًا». ومع ذلك، وجد أورويل في الخنادق نسخة أفضل من المساواة المُطهِّرة التي وجدها بين المتشردين، وقد جعلته اشتراكيًا في النهاية. كان «يتنفَّس هواء المساواة». هذه التجربة العملية هي التي مكَّنته من القول لاحقًا أنه -على الرغم من كل شيء- غادر إسبانيا وهو يحمل «إيمانًا أكبر وليس أقل بالأخلاق البشرية».

شكَّلت إمدادات الشوكولاتة والسيجار وشاي فورتنم آند ميسون التي بدأ يتلقَّاها من زوجته آيلين عزاءً آخر أقل روحانية له، وذلك بعد أن تبعته آيلين إلى إسبانيا في فبراير لتعمل سكرتيرة لماكنير في برشلونة. كان الزوجان قد تزوَّجا قبل ثمانية أشهر، بعدما التقيا في إحدى الحفلات عام 1935، وكانا يشكِّلان من نواحٍ عديدة ثنائيًا ممتازًا. كان كلاهما كتومًا عاطفيًا، مع ميل إلى الكآبة التي يُنعشها حسُّ الدعابة الساخر وروح الكرم. كانا يشتركان في الشغف بالطبيعة والأدب، وفي الطبع المُقتصد، وفي عدم الاكتراث بالصحة والمظهر، ونادرًا ما كان أحدهما

يُـرى بـلا سـيجارة تتدلّـى مـن بيـن شـفتيه. كلاهمـا يتمتّـع بمبـادئ قويـة وبشـجاعة العمـل وفقًـا لهـا. كان الاختـلاف بينهمـا فـي الطمـوح. كانـت آيليـن الخريجـة فـي أكسـفورد شـديدة الـذكاء، ومحبوبـة علـى نطـاق واسـع، لكنهـا أخضعـت تطلّعاتهـا الخاصـة لتطلّعـات أورويـل، ووضعتهـا فـي المرتبـة الثانيـة، وانسـحبت مـن تحضيـر رسـالة الماجيسـتير فـي علـم النفـس التربـوي للعيـش معـه فـي منـزل ريفـي فـي قريـة هارتفودشـاير فـي والينجتـون. قـال أحـد الأصدقـاء: «لقـد التقطـت منـه عـدوى أحلامـه كمـا تُلتقـط الحصبـة».

شـهد أورويـل أخيـرًا بعـض الحـراك فـي شـهر أبريـل، عندمـا تقدّمـت الميليشـيا نحـو خنـادق الفاشـيين. أظهـر همّـة حقيقيـة فـي مواجهـة نيـران العـدو، وصـاح: «هـاتوا مـا عندكـم يـا أوغـاد!»، وهـو مـا ردّ عليـه أحـد زملائـه المتطوّعيـن: «بحـق المسـيح يـا إريـك، انبطـح!». غيـر أن فـي أثنـاء أسـابيع الجمـود الطويلـة، ظهـر جانبـه غريـب الأطـوار. هـذا رجـلٌ رفـض إطـلاق النـار علـى فاشـي متراجـع لأنـه كان يكافـح مـن أجـل رفـع بنطالـه بعـد قضـاء حاجتـه، وبالتالـي كان -كمـا قـال- «أخًـا فـي الإنسـانية شـبيهًا بـك، وهـو مـا يجعلـك لا تشـعر برغبـة فـي إطـلاق النـار عليـه»، لكنـه فـي يـوم روّع بشـدّة مـن جـرذ إلـى درجـة أنـه فجّـره ببندقيتـه، وبالتالـي نبّـه العـدو إلـى موقعهـم، مـا أثـار تبـادلًا شـرسًـا لإطـلاق النـار انتهـى بتدميـر مطبـخ الميليشـيا واثنيـن مـن حافلاتهـم. «إن كان يُوجـد مـا أكرهـه أكثـر مـن أيّ شـيء آخـر فـي الدنيـا، فهـو جـرذ يسـير علـى جسـدي فـي الظـلام»، هكـذا كتـب قبـل اثنتـي عشـرة سـنة مـن تحطيـم القـوارض لإرادة ونسـتون سـميث. ذُكـرت الجـرذان فـي كتـب أورويـل التّسـعة، مـا عـدا واحـدًا.

على الرغم من روح الصداقة والأخوَّة من حوله، لم يستطع أورويل بعد أن يكن حبًا لحزب الـ «بوم». يرجع سبب ذلك جزئيًا إلى تناقضاته: «أضجرني الجانب السياسي من الحرب، وكنت عادةً ما أناهض وجهة النظر التي أسمعها أكثر من غيرها». لكنه اعتقد أيضًا أن الشيوعيين كانوا يصنعون الفرق الأكبر، وقد طفت رغبته البراجماتية في إنجاز الأمور على عاطفته الرومانسية تجاه الجانب المستضعف المهضوم حقّه. حتَّى بعد سنوات، ظلَّ يعتقد أن إصرار حزب الـ «بوم» على أن الثورة الناجحة ستؤدي إلى النصر كان مضللًا.

بعد إجازة لبضعة أيَّام قضاها مع آيلين في برشلونة في أواخر أبريل، قرَّر أورويل الانسحاب من الميليشيات والانضمام إلى الألوية الدولية في مدريد، حيث كانت الأمور في حراك دائم. أخبره زملاؤه في الميليشيا بأنه أحمق وأن الشيوعيين سيقتلونه، لكنه كان عاقد العزم. فقط لاحقًا أدرك كم كان محظوظًا أن يُسمح له بتحدِّي توجُّهات الحزب من دون أن تُستنكر فعلته أو يُهدَّد. لم يكن يملك أدنى فكرة عن إلى أيِّ مدى صارت برشلونة خطرة على أُناسٍ مثله، لكنه كان على وشك أن يعرف.

***

قبل عودة أورويل إلى برشلونة بوقت قصير، مرَّ ريتشارد ريس عبر البلدة في طريقه إلى مدريد ليعمل سائق إسعاف للجيش الجمهوري. عندما قابل ريس آيلين في مكتب حزب الـ «بوم»، فسَّر سلوكها المُشتَّت الشارد في البداية بأنه قلق على زوجها، حتَّى أدرك ما كان يزعجها حقًا: «كانت أوَّل شخصٍ أرى فيه آثار العيش تحت مظلَّة من الرعب السياسي».

زار فرانز بوركناو برشلونة مرَّة أخرى في يناير ووجدها مدينة مختلفة تمامًا عن تلك التي تركها في سبتمبر. بينما استطاع في السابق الارتحال في أرجاء جمهورية إسبانيا من دون مضايقة، صارت كل الشكوك والانتقادات الآن من المحرَّمات. كتب الرَّجل: «كان مناخًا من الريبة وتوجيه الاتِّهامات، مُشبَّعًا بكراهية يصعب وصفها لمن لم يعشها». وُسِم حزب الـ «بوم» «الذي لا يحبه أحد» بأنهم «تروتسكيون»، وهي تسمية حوَّلتها محاكمات ستالين الصورية إلى حكم بالإعدام. أشار بوركناو إلى أن حقيقة تبرُّؤ تروتسكي منهم لم تُشكِّل فارقًا: «في لغة الشيوعيين، الشخص التروتسكيّ هو شخص يستحق القتل». في فبراير، أرسل يان بيرزين -المستشار العسكري الروسي للجمهورية- تقريرًا إلى موسكو عن حزب الـ «بوم»، قال فيه: «غني عن القول إنه من المستحيل كسب الحرب ضد المتمردين إن لم تُصفَّ هذه الحثالة الموجودة داخل المعسكر الجمهوري».

استشعر أورويل على الفور «شعورًا مريعًا لا لبس فيه من التنافس والكراهية السياسية» في المدينة. لقد تبخَّر التضامن الثوري، وتبخَّرت معه طوابير الطعام لبعض الناس، والنوادي الليلية والمطاعم التي تغذِّيها الأسواق السوداء لآخرين. كل شخص تحدَّث أورويل معه كان يعتقد أن العنف أمرٌ لا مفر منه. ذات صباح، في بهو فندق كونتيننتال، قدَّم أورويل نفسه إلى الروائي الأمريكي الشهير چون دوس باسوس، الذي أتى إلى إسبانيا لصنع دعاية وثائقية مع إرنست همنجواي، وكان الآن يبحث عن أخبار مُترجِمه المفقود خوسيه روبليس. لاحظ دوس باسوس أن برشلونة كانت

تعاني من «مظهر مريب محطَّم. المتاجر مغلقة، والناس يتلفَّتون من فوق أكتافهم مع كل خطوة». وبينما كانا يحتسيان الخمر في مقعدين من الخوص، تبادل الرجلان وجهات النَّظر حول استيراد الفكر الاستاليني إلى إسبانيا. شعر دوس باسوس براحة أخيرًا لكونه «يتحدَّث إلى رجلٍ صادق». لم يكن من السهل العثور على هؤلاء.

«عودُ الثقاب الذي أشعل قنبلة موجودة بالفعل»، حسب تعبير أورويل، أُضرِم في الثَّالث من مايو، عندما هاجمت قوَّات «حرس الاقتحام» في المدينة -بأوامر شيوعية- مركز الهاتف الذي يسيطر عليه الأناركيون، ما أجَّج خمسة أيَّام بلياليها من قتال الشوارع صارت تُعرف باسم «أيَّام مايو». قضى أورويل ثلاثة أيَّام منها متمركزًا على سطح مرصد سينما بوليوراما مسلَّحًا ببندقية للمساعدة في الدفاع عن مقر حزب الـ «بوم» عبر الطريق. من مكانه، رأى أن الشيوعيين يسيطرون على الشوارع شرق شارع رامبلاس، بينما يتمركز الأناركيون غربه. رفرفت الأعلام المتنافسة من الفنادق والمقاهي والمكاتب التي تحوَّلت بين عشية وضحاها إلى معاقل مسلَّحة.

وَحدهُ فندق كونتيننتال الذي يؤم شارع رامبلاس اعتُبر أرضًا محايدة؛ لذا صار مجتمعًا سرياليًّا من المقاتلين والمراسلين والعملاء الأجانب وبعض سائقي الشاحنات الفرنسيين العالقين، يبحثون جميعًا عن الطعام والمأوى. هناك رأى أورويل الروسي البدين المعروف فقط باسم «تشارلي تشان». كان هذا العميل المزعوم للـ «إن كيه في دي»، أو شرطة ستالين السرية، يُخبر أيَّ

شخص يستمع إليه بأن العُنفَ انقلابٌ أناركي يهدف إلى تقويض الجمهورية ومساعدة فرانكو. كتب أورويل: «كانت أوّل مرَّة أرى فيها شخصًا مهنته الكذب، ما لم يحسب المرء الصحفيين».*[6]

بعد أن خفَّت حدَّة العنف، وخلَّف مئات القتلى، أُلصقت تلك الأكاذيب على الجدران في هيئة أفيشات مكتوب عليها «مزِّقوا القناع». كانت الملصقات تُصوِّر قناعًا عليه المطرقة والمنجل، يُمزَّق ليكشف عن مجنونٍ مُزمجرٍ يحمل وشم الصليب المعقوف يُدَّعى أنه الوجه الحقيقي لحزب الـ «بوم». في رواية أورويل «أيَّام بورما»، يتحوَّل الطبيب البريء ڤيراسوامي إلى تروتسكيّ (أو إلى نُسخة مبكِّرة من إيمانويل جولدشتاين، الزنديق المزعوم في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون») على يد القاضي الفاسد يو بو كاين: «بعد سماع ما قيل عنه، كان يمكن لأيِّ شخص تخيُّل الطبيب على أنه مزيجٌ من مكيافيلي وسويني تود والماركيز دي ساد». كان هذا هو مصير «الفاشيين التروتكسيين» من حزب الـ «بوم» آنذاك. كانت محطَّتهم الإذاعية «ڤيرداد» تستخدم شعارًا رنَّانًا يقول «الخدمة الإذاعية الوحيدة التي تفضِّل استخدام الحقيقة بدلًا من زُخرف القول». لكنَّ زُخرف القول كان يفوز.

لم يُفاجأ أورويل بأن التوتُّر بين الفصائل ظلَّ يغلي إلى أن وصل إلى قتالٍ مُسلَّح. لكن ما لم يتوقَّعه، وما لم يستطع غفرانه، هو الخداع الذي تلى ذلك. ادَّعى الشيوعيون أنهم كشفوا

6–* على مدار القرن الماضي، تسمَّت الشرطة السرية الروسية بأسماء عديدة، منها: الـ «تشيكا»، والـ «أوه جي بي يو»، والـ «إن كيه في دي»، والـ «كيه جي بي»، والـ «إف إس بي»؛ بينما ظلَّت عقلية المنظمة متَّسقة بشكل ملحوظ. (المؤلف).

شبكة واسعة من الخونة يتواصلون مع الفاشيين عبر إذاعات راديوية سريَّة وعن طريق الحبر السرِّي، ويتآمرون لاغتيال قادة الجمهورية. كانت هذه أكاذيب شنيعة إلى درجة أن الناس ظنُّوا أنها لا بُدَّ أن تكون حقيقية، لأن أحدًا لا يجرؤ على تلفيق مثل هذه الأشياء. أيَّد فرانكو -الذي استفاد من فكرة أن الجمهورية مليئة بجواسيسه- الادِّعاء. أُنشئت محكمة خاصة للتجسُّس والخيانة العظمى، وخضعت الصحف للرقابة، واعتُقل الآلاف من الأناركيين وأعضاء النقابات، وغصَّت الشوارع بالخوف والارتياب.

ما زاد من استياء أورويل أن الصحف الشيوعية الأجنبية مثل «ذا ديلي ووركر» البريطانية كانت تتَّفق مع تشارلي تشان. «إحدى الآثار الكئيبة لهذه الحرب أنها علَّمتني أن الصحافة اليسارية لا تقل زيفًا وخداعًا عن صحافة اليمينيين»، هكذا كتب أورويل، مستثنيًا -بإجلال- جريدة «ذا مانشستر جارديان». كان الأمر يتطلَّب تأليفَ كتابٍ لوضع الحقيقة في نصابها، وقد كتب إلى جولانش ليخبره بذلك: «أرجو أن تُسنح لي فرصة كتابة حقيقة ما رأيت. ما يُنشر في الصحف الإنجليزية لهو أكاذيب مروِّعة إلى حدٍّ كبير». كان الوضع أسوأ في إقليم فرانكو، حيث ادَّعت الصحافة أن ميليشيات الجمهوريين تغتصب الراهبات، وتُطعم السجناء إلى حيوانات الحديقة، وتترك أكوامًا من الجثث لتتعفَّن في المجاري. لاحظ أحد الصحفيين الأمريكيين أن حجم الخداع في سالمنكا، العاصمة القومية، «يكاد يكون مرضًا عقليًّا». من وجهة نظر ستيڤن سبندر، الذي تبخَّرت مثاليته سريعًا جدًّا إلى درجة أنه ترك الحزب الشيوعي بعد بضعة أسابيع، فإن الحرب

كشـفت صفـةً متأصِّلـةً فـي الطبيعـة البشـرية: «وهـي ببسـاطة أن جميـع البشـر تقريبًـا لديهـم فهـمٌ مُشـوَّهٌ تمامًـا للواقـع. فقـط بعـض الأشـياء التـي تعكـس اهتمامتهـم وأفكارهـم تكـون حقيقيـة مـن وجهـة نظرهـم؛ الأشـياء الأخـرى، التـي هـي فـي الواقـع حقيقيـة بنفـس القـدر، تبـدو لهـم مفاهيـم مجـرَّدة». ولـم يسـتثن نفسـه: «لقـد صـرت تدريجيًـا أستشـعر فـي نفسـي رعبًـا مـن الطريقـة التـي يعمـل بهـا عقلـي».

بعـد صدمـة أيَّام مايـو كان مـن المسـتحيل ألَّا يهجـر أورويـل حـزب الـ «بـوم»؛ لـذا عـاد مباشـرةً إلـى جبهـة أراجـون، لكنـه لـم يسـتمر طويـلًا. كان أورويـل أطـول بكثيـر مـن الرجـل الإسـباني العـادي، إلـى درجـة أن رأسـه كان يبـرز مـن فـوق حافـة الخنـدق. فـي كل صبـاح، كان يحـب أن يقـف ليسـتمتع بـأوَّل سـيجارة لـه فـي اليـوم. عندمـا سـأله رجـل الميليشـيا الأمريكـي هـاري ملتـون ذات يـوم ألـم يكـن يقلـق مـن القنَّاصيـن، هـزَّ كتفيـه وقـال: «لا يمكنهـم إصابـة ثـورٍ فـي رواق». فـي فجـر يـوم 20 مايـو، أثبـت أحـد الرمـاة خطـأه، بطلقـة موجَّهـة بدقَّـة أصابتـه فـي الحلـق أسـفل حنجرتـه. ظـن أورويـل أنـه يحتضـر. لـو أن الطلقـة تزحزحـت بمقـدار ملليمتـر واحـد لـكان ميتًـا، لكنهـا أخطـأت الشـريان السـباتي وشـلَّت مؤقَّتًـا العصـب الـذي يسـيطر علـى أحـد أحبالـه الصوتيـة.*[7] مسـتلقيًا فـي الخنـدق، والدمـاء تنسـكب مـن حلقـه، فكَّـر أوَّل مـا فكَّـر فـي آيليـن، أمـا الشـعور الثانـي الـذي اعتـراه

7-* ربَّمـا تكـون الطلقـة قـد أنقـذت حياتـه بإبعـاده عـن الجبهـة قبـل هجـوم الجمهوريين علـى هويسـكا بعدهـا بأسـابيع قليلـة، فـي نكبـة دمويـة محـت نحـو تسـعة آلاف مـن الأناركييـن وأعضـاء حـزب الـ «بـوم». (المؤلـف).

فكان «استياءً شديدًا من الاضطرار إلى مغادرة هذا البلد الذي -بعد كل القيل والقال- يناسبني تمامًا... أغضبني سوء الحظ الغبي. أغضبتني تفاهته!».

***

مكث أورويل في المستشفى طوال الأسابيع الثلاثة التالية. من الواضح أن حربه انتهت، لكنه كان بحاجة إلى الحصول على أوراق التسريح من الخدمة من الطبيب على الجبهة. بحلول الوقت الذي عاد فيه إلى برشلونة في 20 يونيو، كان الخراب قد حل. بمجرَّد دخوله فندق كونتيننتال، أخذته آيلين من ذراعه وهمست في أذنه: «غادر».

أدَّت أزمة «أيَّام مايو» إلى عزل رئيس الوزراء لارجو كابييرو، وبالتالي إزالة آخر عائق أمام الانقضاض على حزب الـ «بوم». صار الحزب محظورًا الآن؛ هكذا اكتشف كل رجال الميليشيا العائدين من الجبهة. اعتُقل قائد كتيبة أورويل، چورج كوب. مات عضو حزب العمل المستقل بوب سمايلي («أفضل الرفاق»، حسب تعبير أورويل) في السجن في العاصمة الجمهورية ڤالنسيا. اختبأ كلٌّ من چيمس ماكنير وستافورد كوتمان من حزب العمل. كان أندريس نين مفقودًا، وسرعان ما سيتحوَّل مصيره إلى كذبة أخرى. لقد عذَّبه عملاء المخابرات الروسية بوحشية («صار وجهه كتلة لا ملامح لها» كما ذكر أحد التقارير) ثم قُتل؛ لكن بعض أعضاء الألوية الدولية الألمان تنكَّروا في ملابس عملاء الجستابو ومثَّلوا «عملية إنقاذ» كي يتمكَّن الشيوعيون من ادِّعاء أن نين ما زال حيًّا، وأنه يمكث مع أسياده الحقيقيين في سالمنكا أو برلين؛ بالضبط

مثلما أُشيع عن الخنزير سنوبول في رواية «مزرعة الحيوان» أنه السيِّد فريدريك صاحب مزرعة بينشفيلد.

كانت برشلونة خلال الحملة القمعية هي أوَّل وآخر ما تذوَّقه أورويل من «المناخ الكابوسي» الذي سيغلِّف رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». في مرق الشَّائعات والتشويه والبارانويا السام هذا، «كانت الأجواء تجبرك على الشعور بأنك متآمر، مهما كانت ضآلة تآمرك». حتَّى عندما لم يكن ثمَّة شيء سيِّئ يحدث، فإن خطورة حدوث هذا الشيء التي تلوح في الأفق كانت ممزِّقة للأعصاب. دُوهمت غرفة أورويل وآيلين في الفندق، وأُصدرت مذكِّرة باعتقالهما. في عام 1980، اكتُشفت تقارير لعملاء من الـ «إن كيه ڤي دي» ونظرائهم الإسبان وصفت الزوجين زورًا بأنهما «تروتسكيَّان بارزان» يتآمران مع المنشقِّين في موسكو.

بعد ثلاثة أيَّام وليالٍ مرعبة، أمضاها أورويل في التجوُّل في الطرقات بأكبر كم ممكن من الحذر، ونام فيها بصعوبة، تمكَّن هو وآيلين ومكنير وكوتمان من الحصول على أوراق السفر التي تخصُّهم من القنصلية البريطانية واللحاق بقطار الصباح المغادر إلى فرنسا والحرِّية. «كانت تجربة غريبة»، هكذا كتب أورويل لصديقه راينر هيبنستول. «بدأنا كأبطال مدافعين عن الديموقراطية، وانتهى بنا الأمر بالتسلُّل عبر الحدود والشرطة في أعقابنا. كانت معنويات آيلين رائعة. في الواقع، بدا أنها تستمتع بالأمر». فينر بروكواي -الذي كان يسافر في الاتِّجاه المعاكس سعيًا للإفراج عن أعضاء حزب العمل السجناء، والذي التقى أورويل في بربنيون بعد الحدود الفرنسية مباشرةً- قال

متذكِّرًا: «كانت المرَّة الوحيدة تقريبًا التي أراه فيها غاضبًا بحق».

سِيق أورويل إلى إسبانيا بدافع كرهه للفاشية، لكنه غادرها بعد ستة أشهر وقد خلق عدوًّا آخر. تصرَّف الفاشيون بشكل مروِّع كما كان يتوقع منهم، لكن قسوة وخداع الشيوعيين صدماه. لچاك برانثوايت -وهو رفيق من حزب الـ «آي إل بي» - تصريح قال فيه: «أخبرني بأنه اعتاد أن يأخذ كلام الناس عن الشيوعيين على أنه بروباجندا رأسمالية، لكنه قال لي بعد ذلك: «أتعرف يا چاك، إنها الحقيقة».

كتب المرسال الأمريكي فرانك هانيجن: «صار كل صحفي تقريبًا كُلِّف بالذهاب إلى إسبانيا رجلًا آخر في وقتٍ ما بعدما عبر جبال البرانس». هذا قطعًا ما حدث لأورويل. في مراحل مختلفة، وجد أن الفترة التي قضاها في إسبانيا مثيرة ومملَّة وملهمة ومروِّعة، وفي نهاية المطاف وجدها كاشفة. «قلبت الحرب الإسبانية والأحداث الأخرى التي وقعت بين عامي 1936 و1937 الموازين، وبعد ذلك عرفت موقفي»، هكذا كتب بعد عقد من الزمان، قبل بدء العمل على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». «كل سطرٍ كتبته في أيِّ عملٍ جاد منذ عام 1936 كتبته بشكل مباشر أو غير مباشر ضد الشمولية والاشتراكية الديموقراطية كما أفهمها».

آخر ظنٍّ ساذج صدر عن أورويل هو توقُّعه أن زملاءه القدامى سينشرون استنتاجاته. لكن بدلًا من ذلك، رفض جولانش كتابه، ورفض كنجسلي مارتن، مدير تحرير مجلَّة «ذا نيو ستيتسمان آند سوسايتي»، ليس فقط مقالته عن الحرب، بل أيضًا نَقده

لكتاب بوكارنو «غرفة القيادة الإسبانية» الذي حاول دس جوهر ذلك المقال فيه. عندما أُتيحت الفرصة لأورويل في النهاية لسرد قصّته في مجلّة «ذا نيو إنجليش ويكلي» التي يرأس تحريرها فيليب ميريت، كُتبت تحت عنوان «سكب الفاصوليا الإسبانية». كتب أورويل بعد ذلك: «كانت هناك مؤامرة متعمَّدة لمنع فهم الوضع الإسباني. جنح الأشخاص الذين يُفترض أنهم أعقل إلى الخداع، بحجَّة أنهم إذا سردوا حقيقة الوضع في إسبانيا فستُستخدم كدعاية للفاشية».

لم يكن أشد ما يغضبه الجرائم نفسها -فالحرب تُولِّد الأكاذيب مثلما تنتج الجثث والقمل- بل التستُّر عليها. في قاموس أورويل، أفحش الكلمات هي الدَّجل والزيف والاحتيال. ضربت واقعية جولانش ومارتن السياسية توقُّعاته المسبقة بقسوة. قمع الحقيقة لتحقيق مكاسب قصيرة الأجل يشبه إعلان حالة طوارئ: بسهولة يصبح التعليق المؤقت للحرية دائمًا. كان الإبلاغ عن الواقع الفوضوي للحرب داخل الحرب اختبارًا، وقد فشل فيه اليسار البريطاني المؤيِّد للشيوعية بإعادة تدوير مخلصة للبروباجندا الشمولية. لقد توقَّع ما هو أفضل.

في نظر أورويل، الحقيقة مهمَّة حتَّى -أو ربَّما بالأخص- عندما تكون غير مريحة. في كتاباته السابقة غير الروائية، ابتدع حكايات وحذف حقائق مربكة لأغراض الأدبية، ولكنه كتب «الحنين إلى كاتالونيا» بالتزام جديد بالدقَّة بصفتها فضيلة أخلاقية. جادل أورويل أنه من دون واقع توافقي سائد «لا يمكن أن يكون يُوجد نقاش؛ لا يمكن بلوغ الحد الأدنى الضروري للاتفاق». كان أورويل

بصيرًا بما يكفي ليعرف أنه لا يُمكن دائمًا الوصول إلى الحقيقة الموضوعية، لكن إذا لم يقبل المرء على الأقل وجود مثل هذا الشيء، فجميع الرهانات خاسرة. «وجدتُ نفسي أشعر بعمق أن تاريخَ هذه الحرب الحقيقي لا يمكن كتابته ولن يُكتب على الإطلاق. ببساطة، لم تكن الأرقام الدقيقة والروايات الموضوعية لما كان يحدث موجودة»، هكذا كتب بعدها بسنوات، وهو ما عناه بعبارة «التاريخ توقَّف»، العبارة التي تكرَّرت في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». عندما يكون الحَكَم الوحيد للواقع هو السلطة، يستطيع المنتصر ضمان أن تصبح الكذبة -في واقع الأمر- حقيقة.

حسنًا، إلى حدٍ معيَّن. قد يبدو خداع حكومة حزب الإنجوسك في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» منيعًا. أما في الواقع، تميل الأكاذيب إلى إحداث نتائج عكسية إن عاجلًا أم آجلًا. لاحظ بوركناو أن الشيوعيين الذين بدؤوا يكذبون لخداع الآخرين في إسبانيا، انتهى بهم الأمر وهم يخدعون أنفسهم. أنتجت البارانويا مناخًا من إلقاء اللوم وعمليات التطهير وانكسارٍ للمعنويات، بينما أدَّت مبالغات الدعاية الشيوعية إلى أخطاءٍ عسكرية. في روسيا، سرعان ما صار الكاذبون من يُكذب عليهم. أُعدِم معظم كبار المسؤولين الروس في إسبانيا أو أُرسلوا إلى معسكرات الجولاج. اتُّهم برزين -المستشار العسكري الذي أوصى بتصفية حزب الـ «بوم» - بالتجسُّس، وأطلق عليه الرصاص في سجن لوبيانكا في موسكو.

بفضل فينر بروكواي، وجد أورويل أخيرًا في «سيكر آند واربورج» ناشرًا لكتابه «الحنين إلى كاتالونيا»، وهي شركة وليدة

تتمتَّع بسُمعة معادية للاستالينية وبعقلٍ متفتِّح. «كان هدفي هو إيجاد ودعم هؤلاء الكتاب الذين يرغبون في وضع منهاج لتحقيق اليوتوبيا ورسم الطريق إليها»، هكذا كتب المدير المشارك فريدريك واربورج في مذكِّراته. «لكن أيَّ منهاج وأيَّ طريق يؤديان إلى أرض الميعاد، هذا ما لم أكن متأكِّدًا منه على الإطلاق، ويجب أن يحسب ذلك لصالحي».

«الحنين إلى كاتالونيا» هو أفضل كتاب غير روائي لأورويل. نُشر الكتاب في 25 أبريل عام 1938، قبل عام واحد من كتابه «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، وكان أكثر حكمةً وهدوءًا وتواضعًا وسخاءً. «إنه يبيِّن لنا جوهر البراءة الكامنة في الثورة، وأيضا مناخ الكذب الذي يسلبها هذا الجوهر، أكثر ممَّا تفعل القسوة بكثير»، هكذا كتب فيليب ميريت. حوَّلت الأجيال القادمة الكتاب إلى وثيقة مرجعية أساسية عن حرب الأهلية الإسبانية، لكنه في ذلك الوقت كان مجرَّد غيض من فيض، وباع نحو نصف عدد نسخه المطبوعة التي يبلغ عددها خمسمئة. نبذ النقَّاد الشيوعيون البريطانيون الكتابَ باعتباره مشتَّتًا في أفضل الأحوال، وباعتباره هدية من خائن لفرانكو في أسوَئِها. لم يبال أورويل بالمراجعات السيئة، معتبرًا حتَّى أسوأها دعاية جيدة، ولم ينكر أن كتابه كان رواية جزئية للأحداث. «أحذِّر الجميع من تحيُّزاتي، وأحذِّر الجميع من أخطائي»، هكذا كتب، لكنه أضاف: «لكنني بذلت قصارى جهدي لأكون صادقًا». ولأنه شعر أن التمييز بين الحقائق والأكاذيب حقيقي ويستحق المحافظة عليه، كتب رسائل شكوى من المراجعات التي لطَّخت سمعة رفاقه القدامى.

إن كان قد بالغ في تعاطفه مع حزب الـ «بوم» في الكتاب، فذلك لأنّ لا أحد آخر كان سيدافع عمّن اتُّهموا زورًا. «لو لم أكن غاضبًا من ذلك الشأن، ما كان ينبغي لي تأليف الكتاب أبدًا»، هكذا كتب لاحقًا.

أحد الإطراءات التي عنت له الكثير هي رسالة من بوركناو، الذي كان يعيش وقتها في إنجلترا: «من وجهة نظري، كتابك تأكيد آخر على اقتناعي أن المرء يمكن أن يكون صادقًا تمامًا مع الحقائق بغض النظر عن قناعاته السياسية». كان الاحترام بينهما متبادلًا. أثنى أورويل على كتاب «غرفة القيادة الإسبانية» باستعارة تنطوي على رهاب التكنولوجيا ليست غريبة عنه («إنه لأمر مشجع جدًّا أن يسمع المرء صوتًا بشريًا، في الوقت الذي يذيع فيه خمسون ألف جرامافون نفس اللحن») ولاحقًا قال عن كتاب «الأممية الشيوعية» لبوركناو: «كتاب علّمني أكثر من أيِّ كتاب آخر عن المسار العام للثورة». استقال بوركناو من الحزب الشيوعي الألماني في عام 1929 معترضًا على ستالين، وضخَّ مساعدات في حزبٍ مناهض للنازية، وطوَّر نظرية مبكِّرة عن الشمولية. كتب بوركناو: «الحضارة محكوم عليها بالفناء. ليس فقط لوجود قيود على التعبير عن حرية الفكر، بل بسبب الخضوع الفكري للأوامر الآتية من مراكز الأحزاب».

***

شخصٌ واحد فقط ألمح أن أورويل كان مصدِّقًا على الشيوعية في الماضي. بينما كان أورويل يتسكَّع في باريس في أواخر العشرينيات، كان يستمتع أحيانًا بكرم استضافة عمَّته

نيلي ليموزن وشريكها يوچين آدم. كان آدم وصديقه لويس بانير شيوعيين سابقين وضليعين في الإسبرانتو، اللغة الدولية المثالية التي استطاعت إثارة غضب كلٍّ من هتلر وستالين. ادَّعى بانير لاحقًا أنه تذكَّر جدالًا شرسًا دار بين آدم وأورويل الشاب، الذي «استمرَّ في التصريح بأن النظام السوڤيتي كان الاشتراكية النهائية». إنها حكاية مثيرة للفضول. بخلاف كل ما كتبه أورويل، سواء كان صحيحًا أم لا، ربَّما كان عمُّه هو مدخله إلى الحماسة الشيوعية السابقة.

كثيرٌ من كُتَّاب أورويل المفضَّلين في السنوات التي تلت إسبانيا كانوا شيوعيين سابقين: بوركناو وكويستلر من النمسا؛ إينياتسيو سيلون من إيطاليا؛ ڤيكتور سيرج من روسيا؛ ماكس إيستمان ويوچين ليونز من الولايات المتَّحدة؛ أندريه جيد وبوريس سوڤارين وأندريه مالرو من فرنسا. لقد تعلَّموا الشيوعية بنفس الطريقة التي فهم بها الإمبريالية: من داخل عرين الأسد. شهادات مثل كتاب جيد «العودة من الاتِّحاد السوڤيتي» وكتاب سوڤارين «كابوس في الاتِّحاد السوڤيتي»، غذَّت فهم أورويل الأوَّل لطريقة عمل نظام ستالين. كثيرٌ من التفاصيل والحكايات التي اكتشفها في تلك الأعمال صبَّت في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: عبادة الحاكم، وإعادة كتابة التاريخ، وطمس حرية التعبير، وازدراء الحقيقة الموضوعية، وأصداء محاكم التفتيش الإسبانية، والاعتقالات التعسُّفية، والاتِّهامات والاعترافات القسرية، وفوق كل ذلك المناخ الخانق المُعبَّأ بالشك والرقابة الذاتية والخوف.

يمكن أن نأخذ مثالًا واحدًا فقط. في رواية أورويل يكتشف

ونستون سميث صورة تثبت أن الخونة المزعومين چونز وآرونسون ورذرفورد كانوا في نيويورك بالفعل في اليوم الذي اعترفوا فيه أنهم كانوا في أوراسيا. لقد قرأ أورويل عن مثل هذه الحالات التي تتعارض فيها الاعترافات الملفَّقة مع الأدلة الدَّامغة. صُوِّر أحد المتآمرين المزعومين في مؤتمر في بروكسل في اليوم نفسه الذي «اعترف» فيه بالتآمر في موسكو. وزُعم أن شخصًا آخر التقى تروتسكي في أحد فنادق كوبنهاجن، الذي اتضح أنه هُدِم قبل خمسة عشر عامًا.

لم يُجِلَّ أورويل هؤلاء الكُتَّاب فقط بسبب المعلومات التي قدَّموها، بل لأن نيران هجماتهم على ستالين أُذكِيت بمشاعر الخزي الشخصي والحاجة العميقة إلى تطهير سذاجتهم وتواطئهم عن طريق ما سمَّاه أورويل «أدب التحرُّر من الوهم الشيوعي». في سيل الهرطقة الأوَّل المرعب والمبهج ذلك، كتب الشيوعيون السابقون بعجالة وضرورة ملحَّة. وجد أورويل أيضًا في عزلتهم بطولة. كثيرٌ منهم نبذهم الأصدقاء القدامى وتجاهلهم الناشرون. كتب سيلون متَّفقًا: «إنه واحد من أولئك الرجال الذين اتَّهمهم الفاشيون بأنَّهم شيوعيون واتَّهمهم الشيوعيون بأنهم فاشيون. إنها مجموعة صغيرة بعد، ولكنها تنمو باطِّراد».

لماذا كان أورويل ينتقد الشيوعية بقوَّة أكثر بكثير من الفاشية؟ لأنَّه اختبرها من كثب، ولأن جاذبيتها كانت أكثر غدرًا. بلغت كلتا الأيديولوچيتين الوجهة الشمولية نفسها، ولكن الشيوعية بدأت بأهداف نبيلة، وبالتالي تطلَّبت مزيدًا من الأكاذيب للحفاظ عليها. لقد أصبحت «شكلًا من أشكال الاشتراكية يجعل نزاهة

العقل مستحيلة»، وصار أدبها «آلية لتفسير الأخطاء». لم يكن يعرف أيَّ فاشيين شخصيًا، وكان يحتقر الشخصيات العامَّة منهم مثل الشاعر عزرا باوند وأوزوالد موزلي، زعيم «اتِّحاد الفاشيين البريطاني» الذي شاهده يتحدَّث في بارنسلي في عام 1936: «على الرغم من أن خطبته قُدِّمت بأسلوب منبري ممتاز، فقد كانت هراءً لا يُوصف بكلمات».*[8] لكن أورويل كان يعرف شيوعيين كُثُر. في أوساط المثقفين الأدبيين، كانت الفاشية رذيلة، بينما الشيوعية «كانت تحمل سحرًا لا يقاوم لأيِّ كاتب تحت سن الأربعين». كان لا يزال غاضبًا من ريائهم بعد ذلك بسنوات، عندما كتب في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أن الفظائع التي ارتُكِبت في الثلاثينيات «تسامح معها ودافع عنها أشخاص كانوا يُعدُّون أنفسهم مستنيرين وتقدُّميين».

لقد نبذ الشيوعيون السابقون القياس المنطقي التالي الذي ربط اليسار بستالين: «أنا أومن بالاشتراكية. الاتِّحاد السوفيتي هو الكتلة الاشتراكية الوحيدة. إذًا أنا أومن بالاتِّحاد السوفيتي». أمَّا دحض أورويل فتكوَّن من شقَّين. أوَّلًا: لا يمكن تسويغ أيَّ غايات -مهما كانت فاضلة- بهذه الوسائل البشعة. ثانيًا: لم تكن روسيا الاستالينية اشتراكية حقيقية لأنها رفضت الحرية والعدالة. لكن علاوة على ذلك، لم يستثمر أورويل نفسه أبدًا -فكريًا وعاطفيًا

8-* هذا لا يعني أن أورويل كان يرى أن موزلي غير ضار: «حتَّى موزلي سيتحمَّل بصبر السخرية منه على الملأ. لأن التجربه تُظهر -كما نرى من مسيرة هتلر ونابليون الثَّالث- أن عدم أخذه المتسلِّق السياسي على محمل الجدِّ في بداية حياته المهنية تكون مزية أحيانًا». (المؤلِّف).

واجتماعيًا- في التجربة السوفيتية. أما أولئك من فعلوا ذلك، وجدوا أنفسهم في أزمة وجودية.

أحدهم كان يوچين ليونز، مهاجر يهودي روسي نشأ في المساكن الفقيرة في الجانب الشرقي الجنوبي من نيويورك، وصار صحفيًا في الصحف الاشتراكية. في عام 1922، صار شيوعيًا وتبرَّأ من أصدقائه الأكثر اعتدالًا. بين عامي 1928 و1934 عمل مراسلًا في وكالة الأنباء «يونايتد برس» في موسكو، وكان ينقل للقرَّاء الأمريكيين الصورة في الاتِّحاد السوفيتي. وبعد أن كان في البداية مدافعًا قويًا عن ستالين، وأوَّل صحفي غربي أجرى لقاءً معه، أصيب بالرعب من البروباجاندا والملاحقة وصناعة الكذب التي شارك فيها. في يونيو 1938، قدَّم أورويل مراجعة لكتاب ليونز الملحمي الذي كان بمنزلة «إقرار بالذنب»، وبوسعنا أن نفترض بثقة كبيرة أن تفصيلة رغبة ستالين في إكمال الخطة الخمسية الأولى في أربع سنوات فحسب قد جذبت انتباهه:

> «أثارت معادلة 2 + 2 = 5 انتباهي على الفور. بدت لي في التَّو متكبِّرة ومنافية للعقل؛ كل جرأة وتناقض المشهد السوفيتي، وسخافته المأساوية وبساطته الغامضة وتحدِّيه للمنطق، اختُزلت في معادلة رياضية هازئة، رُسمت بالأضواء الكهربائية على واجهات المنازل في موسكو، ووُضعت بأرقام كبيرة على اللافتات الإعلانية. 2 + 2 = 5: خطأ مقصود، ومغالاة، وتفاؤل منحرف، وأمر طفولي عنيد مغرق في الخيال بشكل مثير.

في غضون بضعة أشهر، كان أورويل يستخدم المعادلة غير الواقعية بنفسه. في مراجعته الإيجابية بشكل عام لكتاب برتراند راسل «السلطة: تحليل اجتماعي جديد»، تحدَّى أورويل الافتراض القائل بأن الحس السليم سيفوز: «يتمثَّل رعب العصر الحالي في انعدام قدرتنا على التأكُّد من الواقع. من الممكن أن ننحدر إلى عصر يُساوي فيه جمع اثنين واثنين خمسة إن قال الزعيم ذلك... كل ما على المرء هو التفكير في احتمالات شرور الإذاعة والتعليم الذي تسيطر عليه الدولة، ليُدرك أن فكرة أن "الحقيقة عظيمة وستسود" لا تعدو مجرَّد أمل، وليست أمرًا بديهيًا».

لا بُدَّ أن أورويل قد قدَّر أيضًا وصف ليونز للثمن الذي يجب أن يُدفع مقابل الردَّة الأيديولوچية. عندما عاد إلى نيويورك، احتار ليونز بين أن يكون صادقًا بشأن ما رآه وألَّا يكون. كان قول الحقيقة واجبًا أخلاقيًا وانتحارًا اجتماعيًا في الوقت نفسه. وبعد أن اختار ليونز طريقه، سرعان ما وجد نفسه منبوذًا ومرفوضًا من رفاقه القدامى. في نظر المؤمنين الحقيقيين بالشيوعية، فإن كشفه جرائم ستالين كان إهانة روحية تقريبًا، وبالتالي كان أمرًا لا يُغتفر. «كنت مذنبًا بارتكاب أبشع الجرائم طُرًّا: هدم الأوهام النبيلة»، هكذا كتب. كان لا بُدَّ من حماية أبواب روسياهم الأسطورية من براثن الواقع البربري بأيِّ ثمن. «لقد أسس كثيرٌ من الأمريكيين الذين يشعرون بالضجر أو الملل أو الذعر منازلهم الروحية في كنفها الأسطوري، إلى درجة أن أيَّ شخص هدَّد بتقويض أُسسها كان يعامل على أنه مُخرِّبًا صفيقًا. وربَّما كان كذلك بالفعل».

من السخرية المريرة أن عنوان كتاب ليونز كان: «دراسة في اليوتوبيا».

الفصل الثَّاني

حُمَّى اليوتوبيات

أورويل والمتفائلون

«لا بُدَّ أن العمل من أجل أنبل القضايا الممكنة، في تلك الأيَّام المفعمة بالأمل في ثمانينيات القرن التَّاسع عشر، كان ماتعًا أيَّما متعة؛ ولكم كانت القضايا وفيرة للاختيار من بينها. مَن كان بوسعه توقُّع إلامَ سينتهي كل ذلك؟»

چورج أورويل، مجلَّة «ذا أدلفي»، 1940.

«إن لم تتضمَّن خريطة العالم يوتوبيا، فلا تستحق النظر إليها... التقدُّم هو تحقيق اليوتوبيا على الأرض»، هكذا كتب أوسكار وايلد في مقاله «روح الإنسان في ظل الاشتراكية». كان ردَّ أورويل الكُفء المقتضب «أجل، ولكن...». كان معجبًا بفكرة اليوتوبيا كترياق مُلهم للتشاؤم والحيطة، لكنه وجد أيَّ محاولة لوصفها مملَّة، وأيَّ مجهود يُبذل لتشييدها مشؤومًا. في عدد الكريسماس من مجلَّة «تريبيون» عام 1943، وتحت الاسم المستعار چون فريمان، كتب أورويل مقالًا بعنوان «هل يمكن للاشتراكيين أن يكونوا سعداء؟»، قارن فيه بين الفرح الملموس في نهاية رواية ديكنز «ترنيمة الكريسماس» بـ «السعادة الأبدية» غير المقنعة لليوتوبيات. قال إن السبب الذي دفع الناس إلى الخصام والقتال والموت من أجل الاشتراكية هو مبدأ الأخوَّة، لا من أجل تحقيق «جنَّة مكيَّفة

الهواء، ومركزية التدفئة، ومزيَّنة بمصابيح». بالتأكيد يمكن للعالم أن يتحسَّن، بل لا بُدَّ فعل ذلك، لكن لا ينبغي له بلوغ الكمال أبدًا. «من يحاول أن يتخيَّل الكمال يكشف ببساطة عن مدى خوائه».

تاريخيًا، سبقت فكرةُ اليوتوبيا فكرةَ الديستوبيا، بالطريقة نفسها التي سبقت بها الجنَّة الجحيم. ربَّما يُحسب للبشرية أن الناس عكفوا على تصميم المجتمع المثالي قبل وقتٍ طويل من تخيُّل العكس. المخطوطة الأولى المؤسِّسة في هذا الضرب من الأدب هي «جمهورية أفلاطون»، وهي حوار سقراطي يُعدُّ سلفًا مُعترفًا به لكتاب توماس مور «يوتوبيا» الذي نُشر عام 1516. اللفظة التي صاغها مور مستمدَّة من كلمتين يونانيتين: ou بمعنى (لا) وtopos بمعنى (مكان). اليوتوبيا مكان لا وجود له. لكن من السهل الخلط بين ou وeu بمعنى (جيِّد)، وسواء كانت كلمة مور تلاعبًا لفظيًا مقصودًا أم لا، فقد اكتسبت اليوتوبيا معنًى أكثر تحديدًا: الجنَّة على الأرض. في عالم السياسة، ساد التأويل الثاني للكلمة، لكن ظلَّ الغموض يكتنفها في عالم الأدب، وهكذا يمكن لأورويل وصف «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها «يوتوبيا». لقد فرَّق بين اليوتوبيات «الإيجابية» و«المتشائمة»، لأنه لم يكن ليخطر في باله تسمية الأخيرة باسم ديستوبيات. على الرغم من أن جون ستيوارت ميل استخدم لفظة ديستوبيا (التي تعني حرفيًا «المكان غير الجيِّد») عام 1868، ظلَّت الكلمة خامدة لقرابة القرن، وطغت عليها لفظة كاكوتوبيا (المدينة الفاسدة) التي صاغها جيرمي بنثام، أو مصطلح (نقيض اليوتوبيا)، إلى أن بدأت تشيع أخيرًا في الستينيات. صارت رواية أورويل مرادفًا لكلمة لم يستخدمها قط.

كان أورويـل علـى درايـة جيـدة بـالأدب اليوتوبـي. لقـد كتـب أكثـر مـن مـرَّة عـن روايـة صـامويل باتلـر الهجائيـة «ريوهـون» المنشـورة عـام 1972، وعـن فانتـازيـا وليـم موريـس الاشـتراكية «أخبـار مـن لا مـكان» المنشـورة عـام 1890، وعـن مسـاهمات إتـش جـي ويلـز العديـدة، لكنـه نـادرًا مـا اقتنـع أن الأفـكار اليوتوبيـة يمكـن أن تصنـع خيـالًا مُشـبعًا. «مـن الصعـب وصـف السـعادة، ونـادرًا مـا تكـون صـور المجتمـع العـادل جيِّـد التنظيـم جذَّابـة أو مقنعـة»، هـكـذا كتـب فـي مقالـه عـن «رحـلات جليڤـر». منـذ أيَّـام كتابـه «الفقـر والتشـرُّد فـي باريـس ولنـدن»، كان يعتبـر وعـدَ «اليوتوبيـا الماركسـية الكئيبـة» عقبـة أمـام الاشـتراكية. فـي صميمـه، كان يعتقـد أن اليوتوبيـات تبـدو مملَّـة وكئيبـة ولـم يكـن يؤمـن أن النـاس تريدهـا حقًّـا. «بشـكل عـام، يرغـب البشـر فـي أن يكونـوا بخيـر، ولكـن ليـس بمنتهـى الخيـر، وبالتأكيـد ليـس طـوال الوقـت»، هكـذا كتـب فـي مقالـه «فـن دونالـد مكيـل» فـي عـام 1941.

بمُعطـى اهتمامـات أورويـل، فـإن واحـدة مـن أكثـر الثغـرات المُحيِّـرة فـي كتاباتـه هـي عـدم وجـود أدنـى إشـارة إلـى الكتـاب الـذي حـوَّل عمليـة تخيُّـل المجتمعـات المثاليـة إلـى ظاهـرة ثقافيـة اجتاحـت سـنوات القـرن التَّاسـع عشـر الأخيـرة. فـي مجمـل أعمـال أورويـل، لا توجـد إشـارة واحـدة إلـى إدوارد بِلامـي.

* * *

فـي أغسـطس عـام 1887، كان إدوارد بِلامـي مؤلِّفًـا مغمـورًا وصحفيًّـا مـن ماساتشوسـتس. كان شـابًا جـادًّا حسَّاسًـا، سـنُّه سـبعة وثلاثـون عامًـا، ذا ملامـح مهذَّبـة وشـارب كـثٍّ ويتمتَّـع بـوازعٍ أخلاقـي يقـظ. وصفـه فرانسـيس ويـلارد بأنـه «هـادئٌ ولكنـه ملاحِـظ جيـد.

متواضعٌ ولكنه متَّزن داخليًا. نبيلٌ مهذَّب ولكنه ذو شخصية، كما أنه مُفعم بالنشاط». عندما تأمَّل بِلامي في حال الولايات المتَّحدة الأمريكية في العصر المُذهب رأى «أمَّة عصبية صفراوية تعاني من سوء الهضم» حطَّمتها اللا مُساواة الشنيعة. كانت أُسر المليونيرات تُسيطر على الاقتصاد الصناعي، بينما تعمل الطبقات الكادحة ستين ساعة أسبوعيًا مقابل أجر منخفض في مصانع وورش مُستغِلَّة غير آمنة، ويعيشون في أحياء فقيرة كريهة. أنتجت مسيرة التكنولوچيا العجب: المصباح الكهربائي، الفونوجراف، التليفون.. وفي الوقت نفسه لوَّثت الأنهار وسوَّدت السماء. تعثَّر الاقتصاد تحت ضربات الكساد والذعر المالي، واجتاح وباء الإضرابات العمَّالية البلاد من المحيط إلى المحيط.

في نظر بِلامي، لم يكن الوضع الراهن ظالمًا فحسب، بل لا يُطاق. كان يؤمن أنه يعيش في أوقات حرجة وأن تحوُّلًا عظيمًا -للأفضل أو للأسوأ- آتٍ لا محالة. سيُقرِّر مصيرُ أمريكا مصيرَ العالم. كتب بِلامي: «لنضع في حسباننا أنه إذا آل مصيرنا إلى الفشل، فسيكون هو الفشل الأخير. لا تُوجد عوالم جديدة يمكن اكتشافها، ولا قاراتٍ ناضرة تمتدُّ فيها حقولٌ بكر تصلح لمساعٍ جديدة».

في شهر أغسطس ذاك، أنهى بِلامي رواية أعادت تصوُّر الاضطرابات في ثمانينيات القرن التَّاسع عشر، والنظر إليها باعتبارها مقدِّمة مؤلمة ولكن ضرورية لإرساء يوتوبيا اشتراكية سلمية. كتب بِلامي لناشره: «أنا راغب بشكل خاص في أن ترى النور في أسرع وقتٍ ممكن. يبدو لي أن الآن هو الوقت الملائم لقراءة منشور يتطرَّق إلى المسائل الاجتماعية والصناعية».

فعلت رواية «النظر إلى الماضي: 2000 - 1887» ذلك بالتأكيد. نُشرت الرواية في عام 1888، وصارت الرواية الأكثر شعبية في الولايات المتَّحدة منذ رواية «كوخ العم توم»، والأكثر تعرُّضًا للتقليد منذ رواية «چين آير». مثل كثير من الكتب الأكثر مبيعًا المفاجئة، وألَّف كتاب بِلامي بين الاتِّجاهات السائدة وقتها، مستفيدًا من شعبية الرؤى اليوتوبية مثل رواية «العصر البلّوري» لدبليو إتش هادسون، ومن المسالك الراديكالية مثل رواية هنري چورج كاسحة النجاح «التقدُّم والفقر»، عن طريق دمج النوعين. في أمريكا، وفقًا للصحفي هنري لويد، «نوقشت الرواية في جميع الأوساط إلى أن وصلت إلى ماسحي الأحذية على الأرصفة». في بريطانيا، صارت نقطة حوار أساسية إلى درجة أن عدم قراءتها كان يُعتبر سقطة في الدوائر الفكرية. «أظن أنك رأيت أو قرأت أو على الأقل حاولت قراءة «النظر إلى الماضي»»، هكذا كتب المصمم والكاتب الاشتراكي وليم موريس إلى صديق له عام 1899. في روسيا، حيث انتشرت الرواية سريعًا، أشاد بها تشيكوف وغوركي وتولستوي، ووصفها الأخير بأنها «كتاب مدهش تمامًا». كان من ضمن الأمريكيين المعجبين بها چاك لندن وأبتون سينكلير وإليزابيث جورلي فلين واثنين من قادة الحزب الاشتراكي المستقبليين. أطلق عليها مارك توين لقب «أحدث وأفضل الأناجيل».

مثل الإنجيل، استقطبت الرواية حواريين، وجدوا أنفسهم مضطرِّين إلى نشر أخبار جيِّدة عن طبقة بِلامي الوسطى. الصورة المحترمة والأمريكية بشكل واضح من الاشتراكية، التي سمَّاها

القومية. كتب أحد التابعين: «بِلامي هو موسى هذا العصر. لقد أرانا أن أرض الميعاد موجودة». كوَّن مُعجبو بِلامي أوَّل نادٍ قومي في بوسطن عام 1888؛ في غضون ثلاث سنوات كان هناك أكثر من 160 ناديًا في جميع أنحاء البلاد تجذب الصحفيين والفنانين والمحامين والأطباء ورجال الأعمال والمُصلحين، وكان من بينهم المحامية الصليبية كلارنس دارو والنِّسوية شارلوت بيركنز جيلمان. في المناطق الريفية، كان البائعون يبيعون الكتاب من باب إلى باب. استمدَّ «الحزب الشعبوي» المشكَّل حديثًا، الذي فاز بخمس ولايات في الانتخابات الرئاسية عام 1892، كثيرًا من برنامجه التقدُّمي من أفكار بِلامي. استطاع سكَّان وسط مدينة لوس أنجلوس أن يروا بأنفسهم القوَّة المغيِّرة للحياة في «النظر إلى الماضي». أسَّس المهندس المعماري چورج وايمان مبنى برادبوري -الذي صار لاحقًا موقع تصوير التتابع الأخير من فيلم ريدلي سكوت «بليد رانر» - على وصف بِلامي للمتاجر الشاملة في المستقبل.

في الوقت الذي كان أورويل يبدأ فيه مسيرته المهنية في الصحافة، أعاد الكساد الكبير إحياء الاهتمام بنبوءة بِلامي المبهجة. قرأ الرئيس روزفلت كتاب بِلامي وناقشه، وتضمَّنت إدارته الجديدة كاتب سيرة بِلامي الذاتية، آرثر مورجان. في عام 1935، أعطت مجلَّة «ذا أتلانتيك» كتاب «النظر إلى الماضي» لقب ثاني أهم كتاب في آخر خمسين عامًا، زاعمة أن كتاب «رأس المال» هو الوحيد الذي كان له أثر أكبر في تشكيل العالم. استمدَّ زعيم «حزب العمل» كليمنت أتلي حماسته لحزب «اتِّحاد

الكومنولث التعاوني» من رواية «النظر إلى الماضي»، وأخبر نجله الكاتب بول بأن حكومته في فترة ما بعد الحرب كانت «من بنات أفكار بِلامي». كان الكتاب ما زال يتمتَّع بشهرة كبيرة في أمريكا في عام 1949 إلى درجة أن هاري شيرمان –رئيس «نادي كتاب الشهر» – وصف رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها «رواية بِلامي مسرودة بالعكس».

قد تندهش من أن أحد أكثر الكتب المؤثِّرة ثقافيًّا في تاريخ الأدب غير معروف الآن إلا قليلًا، لكن دهشتك ستتبخَّر ما أن تقرأه. القصص الجيِّدة تعيش، أما المواقف السياسية التي تتخفَّى في هيئة روايات فتصير إماءً للتاريخ.

***

بطلُ الرواية هو جوليان وست، أرستقراطي مُترف يعيش في رفاهية رخوة في بوسطن عام 1887، ويستعد للزواج بخطيبته الرقيقة. ولأنه يعاني من الأرق ليلًا، يذهب إلى طبيب مشعوذ ينوِّمه إيحائيًّا ويدخل في حالة من الغفوة في قبوٍ تحت الأرض عازل للصوت. مثل ريب ڤان وينكل، تطول نومة جوليان، ويستيقظ بعد قرن في منزل الدكتور ليتي، الذي يشرح له كيف بلغ المجتمع الكمال معتمدًا على «التضامن العرقي والأخوَّة بين البشر». الرواية يسردها جوليان، وهي أكثر من مجرَّد مجموعة نقاشات سياسية. اعترف بِلامي لاحقًا أنه أضاف حبكة رومانسية فرعية «على مضض، أملًا في تطعيم الرواية بما يشجِّع القارئ على إعطائها فرصة على الأقل». ومع الأخذ في الاعتبار أن المرأتين الوحيدتين اللتين يقابلهما جوليان في الرواية هما زوجة الدكتور

ليتو وابنته إديث، لا يشعر القارئ في الحقيقة بأنَّه يريد قضم أظافره من فرط الإثارة.

على الرغم من أن بِلامي تنبَّأ -بصورة عابرة- ببعض الاختراعات مثل البطاقات الائتمانية وساعات الراديو، لم يكن جول ڤيرن. كي يجعل مدينته الفاضلة جذَّابه «لجموع الشعب الأمريكي الرصينة الأخلاقية»، كان على بِلامي أن يجعلها سهلة التلقِّي. مثل رواية لويس سِباستيان مرسييه «العام 2440: حلم إن كان هناك أيُّ حلم» التي أحدثت ضجَّة وقت نشرها في فرنسا ما قبل الثورة، فإن يوتوبيا بِلامي تدور في تاريخ مستقبلي محدَّد وإحداثيات محدَّدة.*[9] خطط بِلامي في الأصل لوصف «قصرٍ مشيَّد فوق السحاب يليق بجنسٍ بشري مثالي» لكنه «تعثَّر في حجر أساس النظام الاجتماعي الجديد المحتوم». ذكر بِلامي في حاشية الطبعة الثانية أنه «قصد بكل بإخلاص أن يكون الكتاب نبوءة».

يلعب الدكتور ليتي في الرواية دور آلة شرح لا تكل. في كل فصل يسأل جوليان -بالنيابة عن قارئ القرن التَّاسع عشر- كيف صار هذا التطوُّر أو ذاك ممكنًا، فيجيب ليتي بلطف أنه لا يوجد شيء أكثر يُسرًا: كل ذلك «نتيجة منطقية لجهود الطبيعة البشرية المبذولة في ظل ظروفٍ عقلانية». كانت هذه وجهة نظر شائعة بين الاشتراكيين في ثمانينيات القرن التَّاسع عشر.

9-* في عام 1983، كتب ڤيرن رواية مماثلة بعنوان «باريس في القرن العشرين»، لكن ناشره رفضها قائلًا: «لقد أخذت على عاتقك تنفيذ مهمَّة مستحيلة». (المؤلِّف).

في مقاله «ما الاشتراكية؟» عام 1946، كتب أورويل أنه قبل الثورة الروسية «كان الفكر الاشتراكي كله يوتوبيًا بشكلٍ ما»، لأنه لم يُختبر في العالم الحقيقي. «فقط دعوا الظلم الاقتصادي ينتهي، وستنتهي معه كل أشكال الاستبداد الأخرى. سيبدأ عصر الإخاء الإنساني، وستصبح الحرب والجريمة والمرض والفقر والاستعباد أمورًا من الماضي».

في عالم الدكتور ليتي، المساواة هي المفتاح الأساسي الذي يفتح كل شيء. يلغي النظام الجديد -الذي يجنِّد كل مواطن في «جيش صناعي» - الحاجة إلى المحامين والمشرِّعين والجنود ورجال الدين ورجال الضرائب والسجَّانين. تعيش المرأة في مساواة مع الرجل، وإن كانت معزولة في جيش صناعي منفصل. الهواء نظيف، والعمل بلا مجهود، والكذب عفا عليه الزمن تقريبًا، ومتوسِّط الأعمار يتخطَّى خمسة وثمانين عامًا. الناس أصح وأطيب وأسعد وأفضل من كل النواحي. فيما يلي سرد لجميع الثوابت النموذجية التي سخر منها أورويل في مراجعته ليوتوبيا هربرت صمويل «أرض مجهولة» المنشورة عام 1942: «النظافة، الأجهزة الموفِّرة للعمالة، الآلات الرائعة، التركيز على العلم، العقلانية الشاملة التي أضعفتها نزعة دينية رديئة... لا توجد حرب، ولا جريمة، ولا مرض، ولا فقر، ولا فروق طبقية، إلى آخره، إلى آخره». إن «النظر إلى الماضي» كتابٌ مليء بالمفردات المتشابهة.

تعاني رؤية بِلامي خللًا وحيدًا استثنائيًا. بعد استيقاظ جوليان بوقت قصير، يأخذه الدكتور ليتي إلى سطح منزله ليريه المشهد. يرى جوليان أميالًا ممتدَّة من الطرق والمباني والأشجار

والحدائق والينابيع، كلها منسَّقة في تناغم دقيق، لكنه لا يرى بشرًا. المشهد أشبه بنموذج معماري مصغَّر قبل أن توضع فيه التماثيل المصغَّرة. وعندما تظهر الجماهير أخيرًا، يهتز السَّرد الروائي بالرعب. استطاع بِلامي بصورة فعَّالة أقلمة القارئ مع هدوء عام 2000 المنظَّم، إلى درجة أنه عندما يستيقظ چوليان ليجد نفسه مرة أخرى في بوسطن عام 1887، فإن الضوضاء المروِّعة تصدم الحواس. لقد صُمِّم التتابع لتشويه الحاضر وصدم القارئ لدفعه إلى العمل السياسي، كما أن التتابع يكشف أن بِلامي اشتراكي أبوي نوعًا ما، يحب العمَّال نظريًا لكن يعاني لتقبُّل الحقيقة. قبل استيقاظ چوليان مرة أخرى ليكتشف أن عام 1887 كابوس وأن عام 2000 حقيقة، يتراجع في نفور من «كتلة البؤس البشري المتقيِّحة» التي أمامه، ويقول وهو يشاهد آسفًا «أقنعتهم الوحشية»: «جميعهم موتى». إن كان ثمَّة أمل، فهو لا يكمن في العوام.

* * *

في مراجعته المتحفِّظة لرواية «النظر إلى الماضي»، كتب وليم موريس: «الطريقة الآمنة الوحيدة لقراءة رواية يوتوبية، هي أن تنظر إليها بوصفها تعبيرًا عن مزاج مؤلِّفها».

ومن المثير للسخرية لمُصلِحٍ مثل بِلامي أنه اعترف بـ «مقته العميق للتغيير». فيما مضى كان واحدًا من أربعة أبناء لقسٍّ معمداني شهير وكالڤينيٍّ متشدِّد. قضى حياته كلها تقريبًا في شيكوبي فولز في ماساتشوستس، التي كانت مدينة رعوية في السابق ثم تحوَّلت إلى قوَّة صناعية. من نافذة منزل بِلامي

المكوَّن من طابقين، كان إدوارد الصغير يرى كل شيء: الطواحين والمسابك التي تلفظ الدخان، المساكن المتهالكة المكتظَّة بالعمَّال المهاجرين، وقصور أصحاب المصانع العظيمة، الذين كانوا يذكِّرونه بالبارونات الإقطاعيين. عندما كان في الرَّابعة عشرة من عمره هبط عليه وحيٌّ ديني و «رأى العالم بعين جديدة».

وهو طالب جديد في «كلية الاتِّحاد» في مدينة سكنيكتدي بنيويورك، صادف بِلامي لأوَّل مرة الاشتراكية اليوتوبية الخاصة بالمفكرين الفرنسيين الراحلين هنري دو سان سيمون وأوجست كومت. في عام 1868، أمضى عامًا في ألمانيا مع قريبه وليم باكر. هناك صار مدركًا بجلاءٍ شنيع لـ «جحيم الفقر الذي يبرك تحت حضارتنا» وأمضى ساعات طويلة مع وليم مفكِّرًا في «خطة ما لتحقيق المساواة بين الأوضاع البشرية». بعد العودة إلى منزله في شيكوبي فولز، اجتاز إدوارد اختبار المحاماة لكنه سرعان ما ترك مجال القانون بعد أن أوكله أحد الأشخاص لطرد أرملة لعدم دفع الإيجار، وتحوَّل إلى العمل الصحفي. قضى عام 1872 في فضح الظروف المعيشية المحفوفة بالمخاطر والخداع السياسي لصالح صحيفة «إيفننج بوست» في نيويورك، المدينة القاسية التي ترزح تحت قبضة السمسار الثري واسع النفوذ، الزعيم تويد، وآلة «حزب تماني هول الديموقراطي» الفاسد. كتب بِلامي في دفتر مفكِّرته: «عندما يصعب العيش على المرء، ويشهد الكثير من المعاناة، يصبح قوميًا».

رؤية الفقر في مسقط رأسه وخارجه زعزعت إيمان بِلامي بالرب، وجعلته عازمًا على حل «غموض» الحياة بنفسه من خلال

نظرية عالمية من شأنها أن توحِّد السياسة والاقتصاد والمجتمع والفن والدين. طرح بِلامي تنويعته الغامضة على الاشتراكية في مقاله «دين التضامن» عام 1873، الذي يصبح فيه كل إنسان تجليًّا للـ «اللا ذات»[10] النهائية، ولا يمكن بلوغ السعادة إلا عن طريق وضع المصالح المشتركة قبل الرغبات الفردية. كان يريد أن يجعل الآخرين يرون العالم بأعين جديدة.

تزامن مقال بِلامي مع الذعر المالي في عام 1873. خلال الكساد الأوَّل للرأسمالية الصناعية، أفلست عشر ولايات أمريكية، ومئات البنوك، وآلاف الشركات التجارية، وأكثر من مئة خط سكك حديدية. كان إضراب السكك الحديدية الكبرى عام 1877 هو أوَّل نزاع عمَّالي على مستوى الولايات المتَّحدة، ولم يُقمع إلا بعد خمسة وأربعين يومًا من أعمال الشغب وإراقة الدماء. وقعت معارك في شوارع شيكاجو وبالتيمور، ومذبحة في بيتسبرج، وأُعلنت الأحكام العرفية في سكرانتون. حتَّى مع انتعاش الاقتصاد في عام 1879، شعرت الرأسمالية الأمريكية بالهشاشة بشكل مثير للقلق. في الفصل الأوَّل من رواية «النظر إلى الماضي»، يلاحظ جوليان أن بعض من معاصريه أبناء العصر المُذهب يخشون وقوع «كارثة اجتماعية وشيكة». هذا القلق المنعكس في جميع أنحاء العالم الغربي ألهم صيحة من روايات ما بعد الكارثة، مثل «بعد

10- في البوذية، يشير مصطلح «أناتا» أو «أناتمان» إلى الاعتقاد في «اللا ذات»، أي أنه لا يُوجد في البشر جوهر أساسي راسخ يُسمَّى الروح أو الذات. هذا المعتقد هو الذي يميِّز البوذية عن التقاليد الروحية الأخرى، مثل الهندوسية التي تؤكد أن الذات موجودة. (المترجم).

لنـدن» لريتشـارد چيفيـرز و «تدميـر جوثـام» لواكيـن ميلـر؛ وهمـا كتابـان معـادلان لأفـلام الكـوارث الحاليـة.

خـلال فتـرة الكسـاد، كتـب بِلامـي مقـالات افتتاحيـة تتَّسـم بالهوس لصحيفـة «سـبرينجفيلد يونيـون» الماساتشوستسـية، والعديـد مـن الروايات القصيـرة والقصـص القصيـرة المدفوعـة بالأفـكار بـدلًا مـن الشـخصيات المقنعـة. فـي عـام 1880، أطلـق إدوارد وأخـوه تشـارلز «ذا ديلـي نيـوز»، جريـدة الشـعب، التـي غطَّـت النزاعـات العمَّاليـة بجديـة. كان إدوارد متعاطفًـا مـع حـال المضربيـن، لكنـه كان يظـن أن النقابـات لـم ترفـع سـقف مطالبهـا كمـا ينبغـي. يجـب أن يكـون الهـدف نظامًـا جديـدًا تمامًـا، وليس مجـرَّد صفقـة أفضـل لمجموعـة مصالـح معيَّنـة. حفَّـز الـزواج ومـن بعـده الأبـوة إدوارد علـى تخيُّـل العالـم الأفضـل الـذي كان يأمـل أن يسـكنه أبنـاؤه. اعتـرف بِلامـي فـي مفكِّرتـه: «عندمـا أدركـت أخيـرًا مـا يمكـن فعلـه لإعـادة التنظيـم الاجتماعـي بشـكل جـذري، سـاعدني كل شـعورٍ بالاشـمئزاز مـن المخططـات الاشـتراكية المختلفـة اعترانـي فـي السـابق».

بـدأ بِلامـي كتابـة «النظـر إلـى الماضـي» فـي خضـم أوَّل «خـوف أحمـر» اعتـرى بـلاده. فـي 4 مايـو 1886، قتلـت قنبلـة ديناميـت سـبعة رجـال شـرطة فـي أثنـاء مسـيرة عمَّـال فـي ميـدان هايماركـت بشـيكاجو. معظـم العنـف فـي تلـك الحقبـة ارتكبتـه إمـا الدولـة وإمـا أفـراد العصابـات المسلَّحين التابعيـن للزعمـاء. أردَت قـوَّات الشـرطة عـدَّة متظاهريـن فـي هايماركـت، لكـن التهمـة التـي وُجِّهـت إلـى ثمانيـة أناركييـن -بنـاء علـى أدلـة واهيـة تمامًـا- خوَّلـت قمـع الأناركييـن والاشـتراكيين والنقابـات العمَّاليـة. وبنـاء علـى ذلـك، توجَّـب علـى أيِّ بيـان اشـتراكي ناجـح أن يكـون غيـر مهـدِّد قـدر الإمـكان.

مـن وجهـة نظـر بِلامـي -مثـل أورويـل بعـد خمسـين عامًـا- كانـت الاشـتراكية منتجًـا رائعًـا يبيعـه باعـةٌ شـنيعون. كتـب بِلامـي إلـى صديقـه وزميلـه اليوتوبـي وليـم ديـن هاولـز يقـول: «مـن الآراء الثوريـة التـي عبَّـرت عنهـا، قـد يبـدو أننـي أنـزع صفـة الاشـتراكية عـن الاشـتراكيين، لكن كلمـة اشـتراكي بالفعل مفـردة لـم أسـتطع هضمهـا جيِّدًا أبدًا. بدايةً، هـي كلمـة أجنبيـة فـي حـد ذاتهـا، وأجنبيـة بالمثل فـي كل مـا توحـي بـه. فـي نظـر المواطـن الأمريكـي العـادي، تفـوح مـن الاشـتراكية رائحـة النفـط، وتوحـي بالعلـم الأحمـر وبـكل أنـواع المستجدَّات الجنسية وبنبرة مسيئة للرَّب والدين». (اشتكى أورويل أيضًـا مـن رائحـة الشـيوعية). فـي روايـة «النظـر إلى الماضـي»، يشـرح الدكتـور ليتـي أن «أتبـاع العلـم الأحمـر» فـي ثمانينيـات القـرن التَّاسـع عشـر «أثـاروا اشـمئزاز النـاس إلـى درجـة حرمـان أفضـل مشـاريع الإصـلاح الاجتماعـي مـن حقِّهـا فـي أن تُسـمع». يكشـف لـه ليتـي أنهـم فـي الحقيقـة كانـوا يتقاضـون أمـوالًا مـن الاحتـكارات الرأسـمالية لتشـويه سـمعة الأفـكار الراديكاليـة بخطابـات عنيفـة اللهجـة؛ مـا دفـع جوليـان إلـى طـرح نظريـة المؤامـرة الشـائعة التـي تقـول بـأن رامـي قنبلـة هايماركـت الحقيقـي كان جاسوسًـا رأسـماليًّا.

فـي مثـل هـذا المنـاخ المشـوب بالتوتُّـر، اقتـرح بِلامـي التطـوُّر بـدلًا مـن الثـورة. كمـا هـو الحـال فـي عملـه الصحفـي، نصـح الرَّجـل الإصـلاحيين بـأن يكونـوا واضحيـن ومباشـرين ومهذَّبيـن، ونمَّـق الاشـتراكية فـي روايتـه وخفَّفهـا حتَّـى لـم تعـد تبـدو خطـرة. طمـأن بِلامـي قـرَّاءه الأغنيـاء بأنهـم يجـب ألَّا يشـعروا بالتوتـر أو بالذنـب، لأنهـم أيضًـا ضحايـا غيـر ملوميـن «لخطـأ فـادح مريـع، لإثـم جسـيم

ألقى بظلال داكنة على العالم». بمعنى آخر: الرأسمالية. وبمجرَّد أن أُزيل هذا الشيء في رواية «النظر إلى الماضي» من دون إراقة قطرة دماء واحدة، تلاشى التوتُّر بين الطبقات وبين الجنسين وبين الأعراق والأقاليم إلى الأبد. أربك هذا النوع من الافتراضات اليوتوبية أورويل، الذي اعتقد أن إحدى مغالطات اليسار العظيمة كانت «الاعتقاد بأن الحقيقة ستسود وأن الاضطهاد سيلتهم نفسه، أو أن الإنسان صالح بالفطرة ولا يفسده إلا بيئته».

معالجة بِلامي الدرامية لهذا الاعتقاد تحديدًا جعلت «النظر إلى الماضي» رواية سطحية وحجَّة سياسية مغرية في الوقت نفسه. كانت أمريكا في عام 1888 مليئة بالأخطاء؛ إذا قورن ذلك بمستقبل ناعم كل ما على بطلنا فعله فيه هو الجلوس في منزلٍ جميل في أثناء ما يفسِّر له الدكتور ليتي الأمور، فلا بد أنه بدا جذَّابًا جدًّا. الجنَّة مكان لا يحدث فيه أيُّ شيء على الإطلاق.

* * *

حوَّل نشر رواية «النظر إلى الماضي» بِلامي من صحفي إقليمي إلى واحد من أكثر المفكرين شهرة في العالم. أطلقت الأندية القومية عشرات الصحف، وتولَّى بِلامي رئاسة تحرير اثنتين منها، وحدَّد للشعبويين الناشئين الإطار الفكري لكتاباتهم، على الرغم من رفضه خطاباتهم النارية. في ديباجته لبيان الشعبويين في انتخابات عام 1892، حذَّر إجناطيوس دونيلي قائلًا: «ثمَّة مؤامرة هائلة تُحاك ضد البشرية في قارَّتين، وهي تستولي سريعًا على العالم. إن لم تُواجه ويُطاح بها في الحال فإنها تُنبئ بحدوث تشنُّجات اجتماعية مفزعة، أو بتدمير الحضارة، أو بإنشاء استبداد مطلق».

كان دونيلي، عضو الكونجرس من ولاية مينيسوتا الذي يُعرف أيضًا باسم «منبر الشعب» و «أمير السواعد»، أحد الأشخاص المسؤولين عن حقن نظريات المؤامرة في دماء السياسة الأمريكية. كتب دونيلي روايته اليوتوبية الخاصة البشعة التي تثير القشعريرة، «عمود قيصر»، التي نرى فيها جثَّة مؤسَّسة في أوغندا المملوكة لسويسرا، بينما ترزح الرأسمالية الأمريكية وتهلك في الدَّم والنار. يتكوَّن العمود الذي في عنوان الرواية من ربع مليون جثَّة مكدَّسة في كومة هائلة مغطَّاة بالأسمنت في يونيون اسكوير في نيويورك. في انتخابات عام 1896، أيَّد الشعبويون المرشَّح الديموقراطي وليم چيننجز برايان، الذي كان أسلوبه الفظّ الغوغائي شديد المرارة في حلق بِلامي. عندما هُزِم برايان هزيمةً نكراء، انتهت فرصة ذوي النعرة القومية.

ومع ذلك، تجاوز تأثير بِلامي الحركة. من بين جميع الاشتراكيين الأمريكيين، كانت أعماله تُقرأ على نطاق واسع أكثر من ماركس. ادَّعى يوجين دبس -المؤسس المشارك لـ «الحزب الاشتراكي الأمريكي» - أن بِلامي «لم يشحن الناس فحسب، بل وضع كثيرًا منهم على طريق الحركة الثورية». طلبت «الجمعية الفابية البريطانية» -التي كانت عضوتها بياتريس ويب تحاول كتابة يوتوبيا بِلامية خاصة بها- من بِلامي أن يكتب مقدِّمة الطبعة الأمريكية من كتاب «مقالات فابية في الاشتراكية». كان لديه معجبون داخل الحركة النسائية أيضًا. قالت فرانسيس ويلارد مازحة إن إدوارد قد يكون «إدواردينا» في السر: «امرأة كبيرة القلب، كبيرة العقل».

تُوفِّي بِلامي بالسُّلّ عام 1898 عن عمرٍ يناهز 48 عامًا. كان آخر أعماله رواية بعنوان «المساواة» نُشرت عام 1897، التي كانت محاولة مخلصة لسدِّ الفجوات التي خلَّفتها «النظر إلى الخلف»، مع الرَّد على منتقديه. بذل بِلامي قصارى جهده لاحترام الحرية الشخصية وتمكين المرأة والتأكيد على القيم التي أُسّست عليها أمريكا، مدعيًا أن المساواة الاقتصادية هي «الضمان الواضح الضروري والوحيد للحقوق الأصيلة الثلاثة: الحياة والحرية والسعادة». يرى كثيرٌ من معجبي بِلامي اللاحقين أن رواية «المساواة» أكثر أهمِّية من سالفتها. استُقِيَ أفضل فصول الرواية، الذي يحمل عنوان «مَثَلُ خزَّان المياه»، وطُبِع في هيئة منشور بيع منه مئات الآلاف من النسخ في روسيا. تنهَّد بيتر كروبوتكين، أشهر أناركي في العالم، قائلًا: «يا لها من خسارة أن بِلامي لم يعش لفترة أطول».

من الناحية الأدبية، كانت رواية «النظر إلى الماضي» هندباء برِّية، كل حبَّة لقاح نثرتها أنتجت برعمًا جديدًا. أثبت النموذج اليوتوبي الذي عمَّمه بِلامي أنه جذَّاب جدًّا للروائيين الشباب، بإزالته للحاجة إلى شخصيات ثرية أو سردٍ مفعم بالحيوية. كل ما على الكُتَّاب فعله هو نقل مراقبهم الفضولي إلى أرض أخرى، عن طريق منطاد أو حطام سفينة أو حلم أو غيبوبة، وتعيين دليل مفيد له يملك وقت فراغ كافيًا، ويبدؤون بعدها وصف المجتمع الذي يجسِّد معتقداتهم السياسية بشكل درامي. وقد كان أولئك بالعشرات؛ مفكِّرون جادون ومجانين مهوَّسون، نفعيون متحجِّرون وأنبياء شغوفون، حالمون وضيِّقو أفق. هؤلاء راحوا يغطُّون كل

هـوسٍ يمكـن تخيُّلـه فـي نهايـة القـرن التَّاسـع عشـر، مـن النباتيـة والإضـاءة الكهربائيـة إلـى علـم تحسـين النسـل والإمبرياليـة. ظهـر أكثـر مـن 150 عمـلاً استجابةً لروايـة بِلامـي فـي الولايـات المتَّحـدة وحدهـا، وكان كثيـرٌ منهـا تحيَّـة مباشـرة أو هجـوم مباشـر بعناويـن مثل «التطلُّع إلـى المستقبل»، «النظـر إلـى الأمـام»، «النظـر أبعـد إلـى الماضـي» أو «تجـارب السيِّد إيسـت فـي عالـم السيِّد بِلامـي». بعض هـذه الأعمـال يمكـن اعتبـاره أدب هـواة بحكـم إعـادة استخدام كُتَّابـه لشـخصية جوليـان وسـت لتحقيـق مآربهـم الخاصـة. حتَّـى «سـاحر أوز» كان بِلاميًّا، إن احتكمنـا إلـى وصـف المؤلِّف ليمـان فرانـك بـوم لمجتمعـه القائـم علـى المسـاواة فـي روايـة «مدينـة أوز الزمرديـة».

منـذ وقتٍ مبكِّـر يعـود إلـى عـام 1890، اشـتكى أحـد كتَّـاب مجلَّة «العالـم الأدبـي» أن «الكتـب التـي تتحـدَّث عـن القـرن العشـرين أو القـرن الحـادي والعشـرين صـارت كثيـرة جدًّا إلـى درجـة أن الموضوع برمَّتـه سـرعان مـا سـيكون قاتـلًا مـن الملـل». قيـل هـذا بينمـا كان الجنـون لا يـزال فـي مسـتهلِّه. مـع اندفـاع الولايـات المتَّحـدة المحمـوم نحـو القـرن الجديـد، واصلـت الاضطرابـات تغذيـة خيـالات المؤلِّفيـن الجامحـة. ضـرب ذعـر عـام 1893 الاقتصـاد بقـوَّة وأقعـده مـدَّة أربـع سـنوات أخـرى. لكـن مـن الجانـب الإيجابـي المبهـج، قـدَّم «المعـرض العالمـي» فـي شـيكاجو فـي ذلـك العـام المسـتجدَّات المسـتقبلية إلـى ملاييـن الأمريكييـن، مثـل غسَّـالة الصحـون، والسـير الكهربائـي، والسـحَّاب، وعجلـة الملاهـي الـدوَّارة. فـي ذلـك المعـرض، اسـتهلَّ القـس المعمدانـي فرانسـيس بِلامـي -ابـن عـم إدوارد- «عهـد الـولاء» فـي الحيـاة الوطنيـة الأمريكيـة، وأعلـن المـؤرِّخ الأمريكـي الشـهير

فريدريك جاكسون ترنر أن «الأفق اختفى، ومع اختفائه انتهت المرحلة الأولى من التاريخ الأمريكي». كانت هناك حاجة إلى آفاق جديدة: اجتماعية وسياسية وروحية وتكنولوچية.

* * *

تأثَّر عشرات الكتَّاب وبدؤوا يرسمون مستقبلًا ذهبيًا يعكس أولوياتهم السياسية الخاصة. أخبر وليم موريس صديقًا له بأن روايته اليوتوبية «أخبار من لا مكان» كُتبت كـ «رد فعل غاضب» على «الجنة المترفة» المجسَّدة في «النظر إلى الماضي». تدور الأحداث في عام 2102؛ مجتمع موريس المثالي هو مجتمع زراعي لا حضري، فوضوي لا مركزي، مدفوع بالملذَّات لا بالواجب. أصبحت الرواية من أكثر الكتب مبيعًا عالميًا، وألهمت إبنيزر هوارد لبدء حركة «جاردن سيتي»، لكن أورويل لم يكن من ضمن محبِّيها، وقال عنها «نسخة طاهرة وعفيفة من اليوتوبيا الويلزية». «الجميع طيبون وحصفاء، الأثاث والمفروشات كلها فاخرة، لكن الانطباع الذي تخلِّفه هو كآبة مائعة».

مثل رواية الاقتصادي النمساوي ثيودور هيرتسكا «الأرض الحرَّة»، وثلاثية وليم دين هاولز صديق بِلامي حول اليوتوبيا الرعوية في ألتوريا، حازت «أخبار من لا مكان» متابعة كبيرة، لكن معظم روايات ما بعد بِلامي لم يكن لها سوى تأثير متواضع.

في كتابه «الانجراف البشري»، نقل كينج كامب چيليت -قطب شفرات الحلاقة- كل مواطن أمريكي إلى مدينة عملاقة، أو متروبوليس، تستمدُّ طاقتها من من شلالات نياجرا. بتفاؤل، تضمَّنت كل نسخة من الكتاب وثيقة عضوية لـ«حزب الشعب

المتَّحد»، وهو منظَّمة حقيقية على أرض الواقع لم يُسمع عنها أكثر من ذلك. استخدم رجل الأعمال برادفورد سي بيك من ولاية مين روايته «العالم سوق تجارية» للترويج للحركة التعاونية. وفي نظر چيه ماكولو مؤلِّف رواية «رياضة الجولف في عام 2000، أو ما نحن مقبلون عليه»، تعني اليوتوبيا مباراة جولف متواصلة بلا انقطاع. ومن ناحية أخرى، نشر القس المعمداني وابن أحد العبيد السابقين، ساتون إي جريجز، بنفسه أوَّل يوتوبيا سوداء، هي «السيادة داخل الحكومة»، التي تدور حول حكومة سريَّة من الأميركيين الأفارقة في واكو بتكساس. أما اليوتوبيات النسوية مثل «أمازونيا الجديدة: لمحة من المستقبل» لإليزابيث كوربت و «هيرلاند» -الأكثر نجاحًا- لتشارلوت بركنز جيلمان التي نُشرت عام 1915، فكانت خالية من الرجال، وبالتالي من العنف. جعلت هذه اليوتوبيات القرَّاء يعتقدون أن التغيير الأساسي ممكنًا، مهما شعروا بالعجز في الحياة الحقيقية.

بالتأكيد، يوتوبيات قوم عند قوم ديستوبيات. أو كما كتب كليمنت أتلي: «لا مناص مِن أن يصبح أغلبنا تعساء في جنَّات الآخرين». رأى المحامي النيويوركي آرثر دادلي ڤينتون أن مستقبل بلامي الخيالي أقرب إلى الجحيم منه إلى الجنة. وفي تتمَّة شديدة التعصُّب كتبها ڤينتون بعنوان «النظر أبعد إلى الماضي»، نرى أن القومية والنسوية حوَّلت أمريكا إلى أُمَّة متفسِّخة وتافهة وضعيفة تغزوها الصين بسهولة، ويضطر چوليان المحبط إلى الاعتماد على الدَّهاء الذي اكتسبه من العصر المُذهَب لمحاربة الخطر الأصفر. كتب چيروم كيه چيروم، مؤلف رواية «ثلاثة

رجال في قارب» البريطاني، صفعة مضادة أكثر مرحًا، وقد أتت قصَّته القصيرة «اليوتوبيا الجديدة» محاكاة ساخرة لأفكار بِلامي وأسلوبه السردي على حدٍّ سواء. يسأل راوي چيروم ثابت الجنان عند استيقاظه بعد مرور ألف عام: «هل صار كل شيءٍ على ما يُرام في هذا العصر؟ هل الجميع سواسية الآن؟ هل نجحنا في التخلُّص من كل الآثام والأحزان وما إلى ذلك؟»، فيجيبه دليله المعادل لشخصية ليتي: «أوه، أجل. ستجد كل الأمور بخير الآن... غير مسموح لأيٍّ شخص ارتكاب أيِّ خطأ أو فعل شيءٍ سخيف». أعطى چيروم مواطني عالمه الموحَّد الباهت (الذي يرفع شعار «لغة واحدة، وقانون واحد، وحياة واحدة») أرقامًا بدلًا من الأسماء، وهي نكتة ستصير لاحقًا من كليشيهات الخيال العلمي. في رواية أورويل، يُعرَف ونستون سميث أيضًا بـ «6079 سميث دبليو».

حلمت اليوتوبيات المحافظة بلوائح تنظيمية أقل، ونقابات أضعف، وقوَّات شرطة وجيش أقوى، ومزيد من التوسُّع. باختصار: حُلمٌ أمريكي مُضخَّم. استهلَّ چون چيكوب آستور -أحد أغنى أغنياء العالم- روايته «رحلة في عوالم أخرى: رومانسية مستقبلية» في العام 2000، عندما تخطِّط الولايات المتَّحدة لاستعمار النظام الشمسي بعد أن هيمنت على نصف الكوكب، وتغيِّر اسم كوكب المشتري إلى كنتاكي. كثير من هذه الروايات تعد بتجربة قراءة مرعبة الآن. في رواية أديسون بيل راسل «ساب كولم: عالمٌ بشري مشيَّد في السماء»، يُجرى تعقيم «غير اللائقين» ويُزجُّ بالنساء «الفاسقات» في السجن بسبب جرائم مثل شرب الخمر والتصفير بالشفاه والضعف في النحو. في رواية «2050 ميلاديًّا:

التطوُّر الكهربائي في أطلانتس» لجون باتشلدر، يفرُّ اللاجئون من مجتمع بِلامي القومي الفاشل إلى أطلانتس، ويحوِّلونها إلى دولة بوليسية أورويلية ترزح تحت المراقبة المستمرة. جاء وليم هاربين بسيناريو يساري مشابه في رواية «أرض الشمس المتغيرة»، حيث تستخدم حكومة مُشكَّلة من علماء تحسين النسل -في مجتمع تحت سطح البحر يُدعى ألفا- أجهزة المسح التليفزيوني لتحديد المنشقين، وتعذيبهم نفسيًّا لسحقهم.

حتَّى أنه يُوجد تنبؤٌ مسبق بدولة أوقيانيا الأورويلية في أعمال بِلامي ذاتها. في روايته القصيرة «عملية الدكتور هيدنهوف» المنشورة عام 1880، يكتشف العالِم المُسمَّى في عنوان الكتاب طريقة لمسح الذكريات المؤلمة ومحو الشعور بالذنب: «الذاكرة هي جوهر الانحطاط الأخلاقي. إن تذكُّر الخطيئة لهو أكبر تأثير شيطاني في الكون». أما في قصته القصيرة عام 1889 «إلى من سيصل إليه الأمر»، فإن قرَّاء العقول التي قضت قدرتهم التخاطرية على الجريمة والخداع عن طريق «تمزيق حجاب النفس، وعدم ترك أيِّ مساحات معتمة في العقل تسمح باختباء الأكاذيب فيها»، جعلوا شرطة الفكر التي ابتكرها أورويل تبدو كمجموعة هواة.

ما يدلُّ على إيمان بِلامي الذي لا يتزعزع بالطبيعة البشرية والحسِّ السليم أنه فشل في رؤية الآثار الديستوبية للطاعة والولاء لدولة الحزب الواحد الباقية إلى الأبد، ولا إمكانية أن يقضي مفهوم «اللا ذات» الذي ابتكره على ما سمَّاه أورويل «الحياة الخاصة». امتلك هذا المثالي من أواخر القرن التَّاسع عشر عقلًا غير واعٍ على الإطلاق للفكر الشمولي. كان على أورويل أن

يخرق سذاجة ذلك الجيل عن طريق شخصية أوبراين في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «هل بدأت ترى الآن طبيعة العالم الذي نخلقه؟ إنه النقيض التام لليوتوبيات المائعة الغبية التي تصوَّرها المصلحون القدامى».

انتقد أورويل الكتابات اليوتوبية واستهزأ بها في مناسبات عديدة. ومع ذلك، بحلول أواخر أربعينيات القرن العشرين، طوَّر ولعًا مُشفقًا لرؤى القرن التَّاسع عشر لعالم أفضل، مهما كانت باهتة أو ساذجة. عندما كتب عام 1948 عن مقال أوسكار وايلد، «روح الإنسان في ظلِّ الشيوعية»، وجد أن تنبُّؤات وايلد الوردية عن شعب تُحرِّره التكنولوچيا، وإلغاء الملكية الخاصة كي يتمتَّع بحياة من الازدهار الفردي تحت عين الدولة المتساهلة الخيِّرة الحارسة، أدَّت إلى «قراءة عسيرة في الواقع». بدا له أن وايلد مخطئ بشكل غير عادي. ومع ذلك، رأى أورويل أيضًا قيمة كبيرة في تذكيره بأن الاشتراكية لا يجب أن تكون مرادفًا لمعسكرات العمل وطوابير الطعام والشرطة السرية. كتب أورويل عن يوتوبيات القرن التَّاسع عشر: «ربَّما كانت تطلب المستحيل، وربَّما تبدو أحيانًا متقادمة وسخيفة، لأن اليوتوبيات تعكس بالضرورة الأفكار الجمالية الخاصة بفترتها. لكنها على الأقل تُذكِّر الحركة الاشتراكية بهدفها الأصلي شبه المنسي، وهو أخوَّة البشرية».

لقد رأى أورويل كثيرًا ليكون مثاليًّا، لكنه لم يكن أسمى من أن يشعر بالشفقة، وربَّما بقليلٍ من الحسد، تجاه أولئك الحالمين الذين عاشوا في أوقات أكثر تفاؤلًا.



الفصل الثَّالث

العالم الذي نحن بصدده

أورويل من 1938 إلى 1940

«لا ينتمي المستقبل -بالأدق المستقبل الوشيك- إلى العقلاء. ينتمي المستقبل إلى المتعصِّبين».

چورچ أورويل، مجلَّة «تايم آند تايد»، 8 يونيو 1940.

في 22 مايو عام 1938، كتب أورويل إلى صديقه چاك كومون ليخبره بأنه يخطِّط لبدء كتابة روايته الرَّابعة، على الرغم من أن الظروف التاريخية كانت أقل من مثالية. قال مازحًا بحزن: «أخشى أنني لو بدأت في أغسطس سأضطر إلى الانتهاء منها في معسكرات الاعتقال»*[11].

كان يكتب من مصحَّة باترسون هول في أيلزفورد في مقاطعة كنت، لأنه بدأ يسعل دمًا قبل شهرين. أخو زوجته آيلين الكبير، لورانس أوشوناسي الشهير بإريك، أحد أكبر خبراء بريطانيا في مرض السُّل، شخَّص وجود آفة في رئة أورويل اليسرى وأوصاه بالمكوث في المصحَّة التي يعمل بها جرَّاحًا استشاريًا. في أثناء إقامته التي دامت ثلاثة أشهر، استقبل أورويل زوَّارًا من جميع نواحي حياته غير العادية كثيرة التنقُّل بين الطبقات. كانت الممرِّضات يسمعن أصوات أصدقائه الأدباء الراقية أمثال

11-* قصد أورويل هنا المعنى الأصلي لمصطلح «معسكر الاعتقال Concentration Camp»، أي مجرَّد معسكر اعتقال بريطاني في هذه الحالة، لا معسكرات الاعتقال النَّازية. (المؤلِّف).

ريتشارد ريس وسيريل كونولي في يوم، وفي اليوم التالي يسمعن لهجات الطبقة العاملة الصادرة عن رفاقه من حزب العمل المستقل في إسبانيا. أرسل إليه هنري ميلز خطابًا وديًّا ينصحه «أن يكفَّ عن التفكير والقلق بشأن الأحداث الخارجية»، وهو أمر أشبه بأن يطلب أورويل من ميلر التوقُّف عن التفكير في نفسه.

كانت آيلين تسافر إلى منزلهما في والينجتون مرَّة كل أسبوعين، حيث يحتفظان بكلبهما البودل الرَّمادي. «أسميناه ماركس ليذكِّرنا أننا لم نقرأ لماركس قط»، هكذا أخبرت إحدى صديقاتها بمزاح جاف، «الآن بعد أن قرأنا له قليلًا بتنا نكنُّ كرهًا شديدًا للرجل إلى درجة أننا لم نعد نستطيع النظر في وجه الكلب عندما نتحدث إليه». كان الزوجان يستطيعان معرفة الكثير عن زوَّارهما من تفصيلة ما إذا كان الزائر يفترض أن الكلب سُمِّي تيمُّنًا بكارل ماركس أو جروتشو ماركس أو سلسة متاجر ماركس آند سبنسر.

نصح الأطبَّاء في مصحَّة باترسون هول أورويل قضاء الشتاء في مناخٍ أكثر ملاءمة. بتمويل من تبرُّع مجهول المصدر قيمته 300 جنيه استرليني من الروائي إل إتش مايرز، قرَّر آل أورويل الذهاب إلى المغرب، ووصلا إلى مراكش في 11 سبتمبر. على الرغم من بذله أقصى جهد لملء دفتر يومياته بملاحظات دقيقة عن العادات المحلية، وجد أورويل المغرب «بلدًا مملًا نوعًا ما». لذلك، كان مكانًا جيِّدًا لتأليف رواية.

***

على الرغم من أنه قضى عامين تقريبًا في القتال في حربٍ ومحاولة القتال في حربٍ أخرى، كان أورويل من دعاة السلام. صدمته النسخة البريطانية من مناهضة الفاشية لكونها «تكبُّرًا

رديئًا للإمبريالية القومية المتطرِّفة». علاوة على ذلك، كان مقتنعًا بأن الحرب سيكون لها تأثير «فاشي» على الشعب البريطاني: «تخفيض الأجور، قمع حرية التعبير، الوحشية في المستعمرات، إلى آخره*[12]». أحد الأقوال المفضَّلة له في هذا الوقت كانت حجة نيتشه التي تقول بأن أولئك الذين يقاتلون التنانين يخاطرون بأن يصبحوا تنانينًا أنفسهم. «ليست الفاشية بعد كل شيء إلا تطوُّرًا للرأسمالية، ومن الممكن أن تتحوَّل الديموقراطية المعتدلة المزعومة إلى فاشية عندما تُحلُّ الأزمة»، هكذا كتب أورويل إلى صديقه جيوفري جور عام 1937، وقالها بصراحة أكثر في رسالة إلى أحد القرَّاء: «الفاشية وما يُسمَّى بالديموقراطية وجهان لعملة واحدة. إنهما توأما لويس كارول: تويدلدم وتويدلدي». لذلك وقَّع أورويل بيانًا مناهضًا للحرب في مجلَّة «نيو ليدر»، وانضَّم رسميًا إلى حزب العمل المستقل، وكان يكتب مقالات مناهضة للحرب في أواخر يوليو 1939. حتَّى أنه خطط لتنظيم احتجاجات غير قانونية. أخبر أورويل ريتشارد ريس ووكيله ليونارد مور في عام 1938 بأنه يكتب كُتيِّبًا مناهضًا للحرب بعنوان «الاشتراكية والحرب»، لكنه لم يُنشر قط، لهذا السبب كان أوضح تعبير علني عن معارضة أورويل للعنف، والأسباب الكامنة خلفها، هو تلك الرواية التي كتبها في المغرب.

كانت رواية «من أجل استنشاق الهواء» تتحدَّث عن الشيء عينه الذي ظنَّ أورويل أنه قد يمنعه من إكمالها. وُقِّعت معاهدة ميونيخ

12-* لم يكن هذا الاعتقاد غريبًا في ذلك الوقت. اعتقد الروائي إي إم فورستر أنه «إذا انتصرت الفاشية ستكون نهايتنا: علينا أن نصبح فاشيين أنفسنا كي نفوز». (المولِّف).

بعد فترة وجيزة من وصوله إلى المغرب، ولكن تلك المعاهدة كانت مجرَّد تأجيلٍ للمحتوم. زعم أورويل لاحقًا أنه كان يعرف منذ عام 1931 أن «المستقبل حتمًا سيكون كارثيًا»، وأنه كان يعرف منذ عام 1936 أن إنجلترا ستخوض حربًا مع ألمانيا. في وقتٍ لاحق، تذكَّر أورويل «الشعور المضني بعدم الجدوى والهشاشة، والانتظار المرير في غرفة متهالكة حتَّى يبدأ إطلاق النار». كان تشاؤمه مصدر تسلية لآيلين، التي كتبت إلى مارچوري أخت أورويل عن خططه لبناء ملجأ مضاد للقنابل في والينجتون عندما يعود إلى دياره. «فكرة المخبأ جاءته كنوع من التخفيف عن النفس بشكل عام، أما مجال تخصُّصه فهو معسكرات الاعتقال والمجاعات».

عزا بعض أصدقاء أورويل في وقت لاحق اليأس البادي في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة ثمانون» إلى حالته الصحِّية المتدهورة، لكن الإحساس المروِّع بالعجز الفردي كان حاضرًا في رواياته طوال الوقت. لم يكن أورويل يرحم في رواياته بقدر ما كان عطوفًا في كتاباته الصحفية. بطله المعتاد هو فرد عادي متواضع يكتشف أن الدور الذي يؤديه في المجتمع لا يُطاق، ومن ثم يحاول المقاومة أو الهرب، لينتهي به الأمر من حيث بدأ، لكن من دون أمل في أن حياةً أفضل ممكنة. كل حبكاته الروائية تدور في هذه الدائرة الجهنَّمية. في روايات «أيَّام بورما» و «ابنة القس» و «دع الدريقة تطير» و «من أجل استنشاق الهواء»، نجد أن شخصياته ليست مهزومة فقط، بل مكسورة ومنبوذة، وبتأثير قوى أقل عنفًا وتطرُّفًا من الصدمات الكهربائية والغرفة 101 في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

على سبيل المثال، في رواية «أيَّام بورما» المنشورة عام 1934، يعيش تاجر الخشب چون فلوري الإمبريالي المعذَّب في «عالم

خانق ومضطرب... تخضع فيه كل كلمة وكل فكرة للرقابة... ومسألة حرية التعبير غير مطروحة من الأساس». الكذبة التي يكذبها المستعمرون على أنفسهم -وهي أن دورهم هو رفع مستوى الحياة في بورما بدلًا من استغلالها- تسمّمهم، في حين ما يحكم رأي فلوري المخالف السرّي عليه بأن يعيش حياةً منعزلةً عقيمة: «إنها لمفسدة أن يعيش المرء حياته الحقيقة في السرّ». في رواية «دع الدريقة تطير»، كل شيء كئيب وبلا مذاق ورمادي، إلا عندما يكون صادمًا وجحيميًا. قصيدة بطل الرواية جوردون كومستوك (التي كان أورويل قد نشرها من قبل في مجلّة «ذا أدلفي») ترسم صورة للندن في الثلاثينيات كأنها مقاطعة آيرستريب وان، بسُلطتها الخبيثة وملصقاتها الممزّقة التي تخفق في مهب الريح «من يتجسّس بغيرة ويراقب بحذر أفكارنا وأحلامنا وأدق خصوصياتنا/ من يختار كلماتنا ويفصّل ثيابنا ويخطّط نمط أيّامنا». الطاغية في هذه القصيدة هو «إله المال»، والحزب هو «كهنوت النقود»، و «آلاف الملايين من العبيد» هم العوام. وفي حين ما تقهر الملصقات الدعائية ونستون في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، نرى أن كومستوك يتعذّب باللوحات الإعلانية: إن الأخ الأكبر في عالمه هو رولاند بوتا، الشخصية التي تروّج لمشروبٍ ساخن يُدعى «بوفكس». حتّى أن اسم الوكالة الإعلانية التي يعمل كوستوك فيها في وظيفة «تلخيص عالم من الأكاذيب في مئة كلمة» يصلح ليكون اسم حركة فاشية: ألبيون الجديدة.[13]

13- ألبيون Albion: اسم بديل لجزيرة بريطانيا العظمى أو إنجلترا، غالبًا ما يستخدم للإشارة إلى العصور التاريخية القديمة، لكنه سقط من الاستخدام الشائع في اللغة الإنجليزية. (المترجم).

بصفته كاتبًا روائيًا، كان أورويل يعاني من محدودية الخيال ومن اضطراب الاكتناز[14] على حدٍّ سواء. كانت رواياته الأربع الأولى عبارة عن متاجر خردة مكتظَّة عن آخرها بهموم متنوِّعة لم يتمكن من إيجاد منزل آخر أكثر ملاءمة لها. في عام 1946، أخبره الكاتب چوليان سيمونز بأنه على الرغم من جودة «من أجل استنشاق الهواء» كسيرة ذاتية مستترة، فهي بالكاد تُعدُّ رواية. لم يُجادل أورويل، بل كتب له قائلًا: «أنت محق تمامًا بخصوص صوتي الذي يتطفَّل باستمرار على صوت الراوي، فأنا لست كاتبًا روائيًا حقيقيًا على أيِّ حال». ما يجعل روايات أورويل المبكِّرة تستحق القراءة ليست الحبكة أو الشخصيات، بل الأفكار: تدفُّق الآراء والملاحظات والحكايات والنكات المفعم بالحيوية، وتعبيره المُقنِع عن رؤيته للعالم، والشعور بأن الكاتب ينفِّث عن شيءٍ في صدره.

في رواية «من أجل استنشاق الهواء» يمتزج الحنين بالرهبة، وتشحذ كل عاطفة نكهة الأخرى. الراوي اسمه چورج بولينج، وهو شخص متوسِّط الثقافة من سكَّان الضواحي لديه عائلة ووظيفة قوية في مجال التأمين. في أثناء تجوُّله أحد الأيَّام في لندن، تطارده هواجس الحرب بشراسة إلى درجة أنه يقرر زيارة جنوب بلدة بينفيلد، مسقط رأسه الريفي في وادي التايمز، ويذهب ليصطاد. سبقت ذكريات بولينج الشاعرية عن الفردوس الريفي أحلام ونستون سميث عن «القرية الذهبية» في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وشكَّلت في الآن ذاته مستودعًا نقل إليه أورويل مخزون ذكريات طفولته، وهو ما يعطي أهمية لسخرية سيريل

14- وسواس قهري يميل المصاب به إلى تجميع وتكديس الأشياء على نحوٍ خارج عن إرادته. (المترجم).

كونولـي مـن أورويـل ووصفـه لـه بأنـه «ثـوري واقـع فـي حـب بدايـات القـرن العشـرين». لكـن الحنيـن -الـذي ليـس بالضـرورة رجعيًـا- يبـدو مسـوَّغًا هنـا. إذا كانـت هنـاك فتـرة يمكـن أن يدَّعـي المـرء فيهـا أن الماضـي وقتهـا بـدا أفضـل مـن المسـتقبل، فهـي عـام 1938. كمـا أن الذاكـرة مهمـة، وهـي سـيفٌ ودرع فـي «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون». يعتـرف بولينـج أن المجتمـع كان أقسـى وأكثـر تفاوتًـا أيَّـام شـبابه، ولكـن «كان لـدى النـاس وقتهـا شـيء لـم يعـد لدينـا الآن. مـاذا؟ إنهـم -ببسـاطة- لـم يفكِّـروا فـي المسـتقبل علـى أنـه شـيءٌ مُوجِس».

لا يخشـى بولينـج العالـم المقبـل فحسـب، بـل هـو قـادر علـى رؤيتـه بالفعـل. وهـو يتجـوَّل فـي لنـدن - «كمـا لـو أن بصـري صـار حديـدًا» - تنتابـه رؤى مفزعـة عـن طوابيـر الطعـام والملصقـات الدعائيـة والمدافـع الرشاشـة التـي تبـرز مـن نوافـذ غـرف النـوم. والأسـوأ مـن ذلـك أنـه يتخيَّـل «مـا بعـد الحـرب»:

> العالـم الـذي نحـن بصـدده، هـو عالـم الكراهيـة، عالـم الشـعارات والقمصـان الملوَّنـة والأسـلاك الشـائكة والهـرَاوات المطَّاطيـة. عالـم الزنازيـن السـرية حيـث لا تنطفـئ المصابيـح الكهربائيـة ليـلاً أو نهـارًا، وحيـث يراقبـك المحقِّقـون فـي أثنـاء نومـك. عالـم المواكـب وملصقـات الوجـوه الضخمـة، والحشـود المليونيـة التـي تهتـف باسـم الزعيـم بهديـر مـدوٍ يَصـمُّ الآذان يجعلهـم يتوهَّمـون أنهـم يعبدونـه حقًـا، بينمـا فـي قلوبهـم هـم يكرهونـه إلـى حـدِّ التقيُّـؤ.

هـذا التصـوُّر المُسـبَق المفـزِع لمقاطعـة آيرسـتريب وان مُحمَّـلٌ بالتحذيـر نفسـه الـذي فـي روايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون»:

«الأشياء التي تقنع نفسك بأنها مجرَّد كوابيس أو تحدث في الدول الأجنبية فقط» يمكن أن تحدث هنا.

حتَّى أن بولينج يشهد بروفة لـ«دقيقتي الكراهية» عندما يحضر اجتماع «نادي الكتاب اليساري» ويسمع أحد مناهضي الفاشية يتحدَّث بشعارات ميكانيكية: «إنه لأمر مروِّع حقًّا أن يكون هناك آلة بشرية تنفث الدعاية في أذنك بلا انقطاع على مدار الساعة، وتقول الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا. اكره، اكره، اكره. لننضم جميعًا ونحظى بلحظة كراهية جيِّدة». ليست السياسة هي التي تجعل أورويل ينتكص -فهو كذلك كان مناهضًا للفاشية- وإنما النبرة واللغة المستخدمان. حتَّى بعد أن نبذ السلمية، لم يفقد أورويل شكوكيته بشأن الخطاب الوحشي أبدًا. تصدم «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» القارئ بمفاجأة قبيحة، وذلك عندما يتظاهر أوبراين -مسؤول الحزب الداخلي- بأنه عضو في جماعة «الأخوية» السُّفلية، ويسأل ونستون وعشيقته جوليا ما إذا كانا مستعدَّين للقتل والتخريب وزرع القنابل وحتَّى «إلقاء حمض الكبريتيك في وجه طفل» في سبيل هزيمة نظام الأخ الأكبر، فيوافق الاثنان بلا تردُّد. في وقتٍ لاحق، يُذكِّر أوبراين ونستون باللحظة التي أيَّد فيها فكرة أن الغاية تُسوِّغ الوسيلة. حقيقة أن معارضي الأخ الأكبر يُدعَون «الأخوية» توحي بأنهم ليسوا مُختلفين كما يودُّ ونستون أن يعتقد.

يتَّضح أن إقامة بولينج المؤقَّتة في جنوب بينفيلد خاذلة. جنَّة طفولته السابقة صارت الآن غابة أسمنتية تعجُّ بالضجيج. الحداثة طاعون في عيني بولينج، وتسدُّ لغته الفجوة بين الديموقراطية

والشمولية. «الجيل الجديد من البشر من شرق أوروبا الذين يفكِّرون وفقًا للشعارات ويتحدَّثون بالرصاص» كانوا «مُسيَّرين»، لكن بريطانيا الحديثة هي الأخرى كانت كذلك.*[15] في قاموس أورويل في الثلاثينيات، كانت كلمة «مُسيَّر» خبيثة مثلها مثل كلمات «نظيف» أو «عقيم» أو «أملس». هذه هي ديستوبيا الرأسمالية: «كل شيء أملس وانسيابي، كل شيء مصنوع من شيء آخر. السليلويد والمطَّاط والفولاذ في كل مكان، المصابيح الساطعة تتوهَّج فوق رأسك، جميع أجهزة الراديو تذيع النغمة نفسها. لم يبق نباتٌ حي، وكل شيء مغطَّى بالأسمنت...». هذا يُشبه إلى حدٍّ كبير قائمة المكاره التي ذكرها أورويل في كتاب «مؤلِّفو القرن العشرين»: «لا أحب المدن الكبيرة، والضوضاء، والسيَّارات، والراديو، والطعام المعلَّب، والتدفئة المركزية، والأثاث الحديث». بينما كان أورويل يقدِّر حياة الإنسان العادي، جعله زهده وذوقه عتيق الطراز يكره أشياء كثيرة كان الإنسان العادي يستمتع بها في الثلاثينيات.

لذلك ثمَّة أشياء لم يكن بولينج يمانع أن يراها تدكُّ بالقنابل. بالمثل، نجد أن كومستوك في «دع الدريقة تطير» يخشى الحرب ويشتهيها في الآن ذاته، بصفتها تطهيرًا بشعًا سيجرف في طريقه زخارف الحياة الحديثة الفارغة: «لم يتبقَّ إلا قليلًا قبل أن تأتي الطائرات، ثم، زووم – بووم! فقط بضعة أطنان من المتفجِّرات ستكون كافية لإعادة حضارتنا إلى الجحيم حيث تنتمي». هذه هي النَّزعة الكارثية الحادَّة ذاتها التي دفعت إتش جي ويلز إلى

15–* انظر إلى زوجة ونستون المنفصلة كاثرين: «لم يكن في رأسها فكرة لم تكن شعارًا».

تخيُّل المرِّيخيين وهم يُبيدون بلدة ووكينج، أو التي جعلت چون بِتچمان يأمل أن تُمطر السماء قنابل على مدينة سلاو: التدمير ثم البدء من جديد. تشترك روايات أورويل الأربعة الأولى -على الرغم من اختلافتها الكبيرة- في حسٍّ لاذع هو مزيج من رهاب الأماكن المغلقة والفساد وحياة الموت. وفوق كل ذلك، رائحة الخوف المعلَّقة في الهواء.

يقول بولينج: «نحن نسبح في الخوف. إنه مُكوِّن أساسي. كل شخص لا يرتعد خوفًا من أن يفقد عمله، يرتعد خوفًا من الحرب أو الفاشية أو الشيوعية أو شيءٍ ما».

***

في الثَّامنة مساءً بالتوقيت الشرقي، في 30 أكتوبر 1938، أجرت إذاعة «سي بي إس» من دون قصد دراسة في سيكولوچية الخوف على صعيد وطني. كانت حلقة عيد الهالوين من البرنامج الإذاعي «مسرح ميركوري على الهواء» عبارة عن معالجة لرواية إتش چي ويلز «حرب العوالم»، كتبها الشاب العبقري أورسون ويلز في سنّ الثَّالثة والعشرين مع الكاتب هوراد كوك. لم يقصد ويلز أن يخدع أحدًا. «كنا نظن أن الناس سيشعرون بالضجر أو الانزعاج من سماع حكاية بعيدة الاحتمال تمامًا كهذه»، هكذا قال لاحقًا. وكما لو أن احتمال هبوط آلات دمار من المريخ في نيو چيرسي لم يكن غير معقول بما فيه الكفاية، كان أورسون ويلز يبدأ وينهي كل نصف ساعة من حكايته الإذاعية التي بلغت الساعة بإعلان يوضِّح أنها خيالية. لكن النصف الأوَّل قُدِّم بشكل مقنع كمجموعة من نشرات الأخبار الطارئة، وفي ذلك العصر

بعد فترة وجيزة من معاهدة ميونيخ، كانت الأعصاب منهكة.

فتح بعض الأمريكيين الراديو وبدؤوا يستمعون إلى «حرب العوالم» في الوقت الخطأ تمامًا، وأقنعوا أنفسهم بأنها حقيقية، وخرجوا في حالة من الذُّعر. هجمت التقارير على أورسون ويلز الجافل بشائعات جامحة عن حالات تدافع وانتحار. غرقت الصحف ومحطات الإذاعة وأقسام الشرطة في طوفان من المكالمات الهاتفية التي تطالب بمزيدٍ من المعلومات. اتُّهم مذيع راديو في كليفلاند بأنه «يتستَّر على الحقيقة» بعد أن أخبر المستمعين بأنه لا يُوجد غزو. كانت ردود الفعل هذه متطرِّفة وغير متوقَّعة إلى درجة أن القصَّة أنتجت أكثر من 12 ألف خبر ومقال في الجرائد على مدار الأسابيع الثلاثة التالية. حتَّى هاورد كوك نفسه تأثَّر. وهو يسير في مانهاتن في الصباح التالي، سمع كلامًا عن غزوٍ ما وظنَّ أن ألمانيا أعلنت الحرب.

في كتابه «الغزو المرِّيخي: دراسة في سيكولوجية الذعر» المنشور عام 1940، بالغ عالم النفس هادلي كانتريل من جامعة برينستون كثيرًا في تقدير عدد الأشخاص الذين تأثَّروا بالواقعة، لكن نيَّاته كانت صادقة، والدراسة التي أجراها على الأفراد أتت نافعة. وجد فريقه أن معظم الأشخاص الذين صدَّقوا البث دون التحقُّق من مصادر أخرى هم المتدينون بشدة، والذين يعانون القلق، وغير الآمنين اقتصاديًّا، لأنه -أي البث- أكد الخوف والشعور بانعدام السيطرة على حياتهم اللذان تشعر هذه الفئات بهما بالفعل. كتب كانتريل: «تعقيد النظام الحكومي والوضع المالي الحديث، والتعارض الملحوظ بين المقترحات الاقتصادية

والسياسيات المقدَّمة من مختلف من يُدعَون بالخبراء، والتهديدات الفاشية والشيوعية المحسوسة، والبطالة الطويلة بين ملايين الأمريكيين، هذا بالإضافة إلى ألف سمة أخرى لحياتنا الحديثة، تخلق جميعها بيئة يعجز الفرد العادي عن تفسيرها بوضوح». قال واحد ممَّن أُجريت معهم مقابلات إن الأخبار الحقيقية جعلت من السهل تصديق أمورٍ لا تُصدَّق، لأن «أمورًا كثيرة نسمعها لا تُصدَّق».

اعتقد أورويل أن كتاب كانتريل ألقى ضوءًا هامًا على الأساليب الشمولية. من جهة، جسَّدت الواقعة قدرة الإذاعة على التلاعب بالرأي العام، حتَّى من دون قصد. كتب أن الجرائد «لا تستطيع أن سرد أكاذيب أكبر من حجم معيَّن». حذَّرت المجلَّة التجارية «إديتور آند بابليشر» قائلة: «لا تزال الأمة ككل تواجه خطر الأخبار غير المكتملة التي يُساء فهمها، والتي تأتي عبر وسيط لم يثبت بعد أنه مؤهَّل لأداء وظيفة نشر الأخبار».

ألقى بحث كانتريل ضوءًا أيضًا على لا عقلانية الجماهير وعدم تحقُّقهم من الحقائق. كتب أورويل: «العلاقة الواضحة بين التعاسة الشخصية والاستعداد للإيمان بالخوارق هو أكثر الاكتشافات إثارةً للاهتمام. إنه إطار ذهني مشابه دفع دولًا بأكملها إلى إلقاء نفسها في أحضان المخلِّص». من المثير للسخرية إذًا أن هتلر -سيِّد الأكاذيب الكبيرة- انقضَّ على واقعة «حرب العوالم» باعتبارها دليل على تدهور الديموقراطية. اعتقدت الكاتبة دوروثي طومسون أن الحادث كان «دليلًا ممتازًا على أن الخطر ليس من المريخ وإنما من الزعيم الديماجوجي البارع في التمثيل».

إن استطاع ويلز خداع أناس كثيرين جدًا من دون حتَّى أن يحاول، ما الذي يمكن أن يفعله كذَّابٌ ماكر بالعقل البشري؟ كانت هذه تيمة مسرحية باتريك هاملتون «ضوء مصابيح الغاز»[16] التي افتُتحت على مسرح ريتشموند في لندن في 5 ديسمبر عام 1938. في خبطة هاملتون الميلودرامية الڤيكتورية الناجحة هذه، يحاول زوجٌ مستغل يدعى مانينجهام إقناع زوجته بيلا بأنها تفقد عقلها -كي يتمكَّن من إرسالها إلى مصحَّة عقلية- عن طريق تلفيق الأدلة، ودفعها إلى عدم تصديق حواسها. يخبر محقِّق الشرطة بيلا قائلًا: «أنت لا تفقدين عقلك يا سيِّدة مانينجهام. أنت تُدفعين ببطء وبمنهجية إلى حافة الجنون». كثيرًا ما قارن أورويل آثار الكذب الممنهج بالمرض العقلي: على سبيل المثال، وصف برشلونة في أثناء التطهير الشيوعي بـ «مصحَّة مجانين». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، يحارب ونستون للتأكيد على رجاحة عقله ضد إصرار أوبراين على أنه «مختل عقليًا». في كتابها «المرأة التي لم تستطع الموت»، وهو مذكِّرات تسرد وقائع قضاء سنتين في قبضة شرطة ستالين السرية كان أورويل يملك نسخة منه لكنه لم يكتب عنه، لخَّصت الكاتبة الروسية والزوجة الدبلوماسية يوليا دي بوسوبير الآثار النفسية للوقوع في أسر قبضة نظام شمولي كالآتي: «هل أنا مجنونة حقًا؟ هل كلهم مجانين؟ هل العالَم برمَّته مجنونًا؟» التدهور العقلي تأثيرٌ مطلوب بلا شك.

16- هذه هي الترجمة الأدق للمعنى المقصود من عنوان المسرحية الأصلي: Gas Light. اكتسب العنوان بعد ذلك معنى آخر هو «التَّلاعب». (المترجم).

وجد مصطلح «التَّلاعب بالعقول»[17] طريقه إلى كتب التحليل النفسي، وفي نهاية المطاف إلى الخطاب السياسي، لكن بعدما فات أوان استخدامه لوصف هتلر وستالين، الرجلان القادران على التَّلاعب بعقول أمَّة كاملة.

***

عاد أورويل وآيلين إلى لندن في 30 مارس 1939، قبل يومين من استسلام آخر الجمهوريين الإسبانيين لفرانكو. أرسلا مخطوطة رواية «من أجل استنشاق الهواء» إلى ڤيكتور جولانش، وأمضيا ثلاثة أسابيع مع لورانس أوشوناسي في جرينتش، وزارا والد أورويل المريض في ساوثولد، وهي بلدة صغيرة قرب نهر أورويل في سوفلوك. في يونيو، مات ريتشارد بلير من السرطان عن عمر اثنين وثمانين عامًا. قبل ساعات من رحيله، قرأت أڤريل أخت أورويل مراجعة إيجابية لرواية «من أجل استنشاق الهواء» على مسمع والدهما، ومات وهو يعلم أن ابنه قد حقَّق شيئًا بعد كل شيء. عاد الزوجان إلى والينجتون انتظارًا للحرب القادمة، التي كان يراها أورويل كارثة كبيرة وإهانة شخصية له على حدٍّ سواء. كان لديه أمور يريد إنجازها، منها كتابة ملحمة عائلية من ثلاثة أجزاء بعنوان «الأحياء والموتى»، وكانت «فكرة أنني مضطَّرٌّ إلى التخلِّي عنها إما بسبب مقتلي أو ترحيلي إلى معسكر اعتقالٍ قذر تجعلني أستشيط غضبًا. قرَّرت أنا وآيلين أنه إذا جاءت الحرب، فإن أفضل شيء فعله هو البقاء على قيد الحياة، وبالتالي زيادة عدد العقلاء»، هكذا أخبر چاك كومون.

17- بالإنجليزية: Gaslighting. (المترجم).

الانطباع الذي يأخذه المرء من قراءة كتابات أورويل في تلك الفترة هي أنه رجل يحاول بشكل عاجل توضيح العلاقة بين الفاشية والشيوعية والرأسمالية. من الواضح أنه كان يفضل الخيار الرَّابع -الاشتراكية الديموقراطية- ولكن يبدو أن هذا لم يكن مطروحًا على الطاولة في ذلك الوقت. قبل أن يذهب إلى إسبانيا مباشرةً، ازدرى «الكذبة السوقية الشائعة جدًا الآن التي تقول إن الشيوعية والفاشية وجهان لعملة واحدة». لكنه عندما قرأ كتاب «دراسة في اليوتوبيا»، شعر أن الاستالينية كما وصفها ليونز «لا تبدو مختلفة تمامًا عن الفاشية».

كلمة واحدة فقط يمكن أن تفسِّر التقارب المحيِّر بين عدوَّين ظاهرين. أنصار الشمولية طوَّروا مفهومها في إيطاليا في عشرينيات القرن العشرين. عرَّفها موسوليني بأنها «كل شيء داخل الدولة، ولا شيء خارج الدولة، ولا شيء ضد الدولة»، لكنها تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية بدلالات سلبية بحتة. قدَّم كتاب بوركناو «العدو الشمولي» المنشور عام 1940 النازية والاستالينية على أنهما رأسان لوحشٍ واحد: «البلشفية البُنِّية» و«الفاشية الحمراء». يتناقض هذا جذريًا مع النظرية القديمة التي اكتسبت شعبيتها من كتاب چون ستراتشي «الصراع القادم على السلطة» المنشور عام 1932، التي تقول إن الفاشية ببساطة «هرَّاوة الطبقة الرأسمالية» وإن الشيوعية هي الدرع الوحيد ضدها. «على الرغم من أن النظامين بدآ من طرفي نقيض، فهما يتطوَّران سريعًا إلى نظام واحد: شكل من أشكال حكم الأقلية الشمولي»، هكذا كتب أورويل في مراجعته لكتاب بوركناو، في تبصُّرٍ منه بعنوان كتاب

إيمانويل جولدشتاين في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «حكم الأقلّية الشمولي: النظرية والتطبيق». «خطيئة كل اليساريين منذ عام 1933 فصاعدًا أنهم أرادوا أن يكونوا معادين للفاشية من دون أن يكونوا معادين للشمولية»، هكذا كتب لاحقًا.

لم يستطع التاريخ تفسير ما كان يحدث، كان هذا أمرًا جديدًا تمامًا. كتب أورويل في مراجعته كتابًا عن فرانكو: «عنوان هذا الكتاب الفرعي هو «العودة إلى العصور الوسطى»، وهذا ظلمٌ للعصور الوسطى. لم تكن هناك مدافع رشّاشة في تلك الأيّام، وكانت محاكم التفتيش أعمال هواة. فبعد كل شيء، حتّى توركيمادا نفسه لم يحرق إلا ألفي شخص في عشر سنوات. في روسيا الحديثة أو ألمانيا المعاصرة سيقولون إنه لم يكن يبذل جهدًا كافيًا».

* * *

في الحادية عشرة والربع صباحًا، في 3 سبتمبر عام 1939، أعلن رئيس الوزراء نيفيل تشامبرلين أن المملكة المتّحدة في حربٍ مع ألمانيا. بعدها بدقائق، أُجري أوّل تدريب عسكري جوّي في سماء لندن. بدأ إجلاء الأطفال إلى الريف. وُزِّعت أقنعة الغاز. امتلأت سماء لندن بالمناطيد الدّفاعية وتكدّست أكياس الرمل على الأرصفة وأُطفئت أنوار الشوارع. كتب الصحفي مالكوم موجريدج قائلًا: «تلمُّس الطريق ليلًا في الشوارع المظلمة أوجد شعورًا خافتًا بأن أسلوب حياتنا يتداعى، وأن راحته المألوفة ترحل من دون أمل في العودة مجدّدًا... يصعب تصوُّر أيّ ملمحٍ للمستقبل، يصعب تخيُّل استمرارية أيِّ شيء».

لم يعد أورويل داعية سلام. بعد بضعة أسابيع من اندلاع الحرب، كتبت الروائية إيثيل مانين -التي كانت لا تزال داعية سلام- إلى أورويل تثني على الرسالة المناهضة للحرب في «من أجل استنشاق الهواء». لكنها «تذمَّرت وارتبكت وانكسرت» عندما ردَّ عليها يقول إنه متلهِّف الآن للاشتراك في الحرب والقيام بواجبه. «ظننت أنك تعتقد أن صدام الوجوه النازية الجاري هذا جنون»، هكذا قالت معترضة.

ما غيَّر رأيه هو صدمته من الميثاق النازي السوڤيتي. في 23 أغسطس، استُقبِل وزير الخارجية النازي يواخيم فون ريبنتروب في مطار موسكو بأعلام الصليب المعقوف المرفرفة وفرقة الجيش الأحمر التي تعزف لحن «نشيد هورست فيسل».

كان أورويل يرى أن إنجلترا الإمبريالية التوسُّعية ما زالت أفضل من تحالفٍ شمولي استبدادي. وبشكل غير معتاد من شخص عقلاني مثل أورويل، عزا شعوره بالهلع ليس إلى التحالف نفسه بل إلى حلم كان قد حلمه في الليلة السابقة على نشر الأخبار: «لقد علَّمني شيئين: أوَّلًا، أنني يجب أن أشعر بالارتياح ببساطة لأن الحرب التي طالت خشيتها اندلعت. وثانيًا، أنني كنت وطنيًّا حتَّى النُّخاع، لن أخرِّب أو أرتكب أعمالًا ضد بلدي، وسأدعم الحرب، وسأقاتل فيها إذ أمكن». استقال أورويل على الفور من حزب الـ «آي إل بي» ووصف السلمية بأنها شكل من أشكال التسوية، بل بأنها «مؤيِّدة للفاشية» (وهو زعم وصفه فيما بعد بأنه «غير أمين»). أخبر جولانش: «إن المثقَّفون الذين يشيرون في وقتنا الحاضر إلى أن الديموقراطية والفاشية هما الشيء

نفسه وما إلى ذلك، يحبطونني بشكل مريع». هذا من قال يومًا إنهما التوأمان تويدلدم وتويدلدي.

وضعت الحكومة البريطانية خططًا لتشييد مقابر جماعية وتوابيت من الورق المقوَّى تحسُّبًا لما قد يصل إلى نحو عشرين ألف ضحية من الغارات الجوِّية الضخمة. لكن قاذفات القنابل لم تأت. وبدلًا من ذلك، كان يوم 3 سبتمبر بداية لثمانية أشهر من «الحرب الزائفة» التي وصفها أورويل في عبارة سيعيد استخدامها لاحقًا بنجاح أكبر بأنها «حرب باردة». ذكَّره الأمر بشهور جبهة أراجون الطويلة الخاوية. كان يكره الشعور بالجمود. بعد قراءة تقرير أجرته «هيئة المراقبة الاجتماعية» بعد ستَّة أشهر، وجد أورويل أن معظم البريطانيين كانوا «يشعرون بالملل والحيْرة والغضب بعض الشيء، ولكن شعورًا منعشًا زائفًا تمامًا بأن الفوز في الحرب سيكون عملًا يسيرًا كان يغذِّيهم في الوقت نفسه». تولَّت آيلين على الفور وظيفة في قسم الرقابة بوزارة الإعلام وانتقلت إلى لندن، في حين ما ظلَّ أورويل في والينجتون يسيطر عليه شعور بعدم الأهمية. كان يريد القتال في «هذه الحرب اللعينة» لكن رئتيه منعتاه من ذلك. ولأنه لم يعد يشارك بكثرة في العمل الصحفي الحر، أمضى أورويل حربه الزائفة يتأمَّل العالم وهو يغوص في الهاوية.

من الصعب فصل حجم تشاؤم أورويل الحقيقي عن حبه للمغالاة في السلبية. «أجد أن أيَّ شيءٍ شنيع الغرابة يميل بشكل عام إلى إذهالي حتَّى عندما أكرهه»، هكذا كتب في «الطريق إلى رصيف ويجان البحري». منذ أوَّل كتبه «الفقر والتشرُّد في باريس ولندن»

وصولًا إلى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، نجد أن وتيرة أسلوبه تُسرع كلَّما انحرف نحو كارثة. لذا ليس من المفاجئ أنه استمتع بكتاب مالكوم موجريدج - «الرائع والكئيب» - «الثلاثينيات». كان موجريدج -مراسل صحيفة «ذا مانشستر جارديان» السابق في موسكو- صائغ عبارات لامعًا، وكانت «الثلاثينيات» رواية قاسية وبارعة عن ذلك العقد المخجل. كتب أورويل في مراجعته للكتاب: «إنه لا يرى إلَّا الجانب المظلم، لكن من المشكوك فيه وجود أيِّ جانبٍ مضيء من الأساس. يا له من عقد! اضطرابات حمقاء مريعة تتحوَّل فجأة إلى كابوس، قطار يمرُّ بمناظر طبيعية خلَّابة ينتهي إلى غرفة تعذيب».

من بين جميع رؤى موجريدج الثاقبة، أكثر ما يلفت الانتباه الآن هو العواقب غير المقصودة لهوس العقد الجديد بتجميع البيانات في شكل أفلام وثائقية ودراسات واستطلاعات. «من المثير للسخرية، أو ربَّما كان هذا حتميًا، أن هذا التعطُّش إلى الحقائق والحاجة إلى توفيرها بكثرة صاحبه شغفٌ جديد بالوهم والحاجة إلى توفيره بكثرة... ربَّما لم يحدث من قبل أن وُجِد مثل هذا الطلب الكبير على الإحصائيات، ولم يحدث من قبل أن زُوِّرت بمثل هذا الإفراط». يحفِّز افتتان الوسط الثقافي بالبيانات صنع المعلومات الزائفة، وبالتالي بدلًا من تدعيم الحقيقة، ينتهي الأمر إلى إنتاج أكاذيب أكثر مرونة. حدث ذلك في روسيا وألمانيا ويحدث باستمرار في أوقيانيا، حيث يقضي ونستون سميث أيَّامه وهو يعيد كتابة نُسخ من صحيفة «تايمز» لصالح إدارة السجلَّات. الحقائق لا تهمُّ في وزارة الحقيقة، ولكن يجب أن يُنظر إليها على

أنها مهمة، لأن الذّاكرة الضبابية غير الموثوق بها لا تستطيع مجاراة «الأدلة».

ما الذي على الكاتب فعله في مثل هذه الأوقات العصيبة؟ ما الاستجابة اللائقة على نكبة الحرب الشنيعة؟ خلال أشهر الوحدة في والينجتون، كان أورويل يجاهد لإيجاد أجوبة. في الكتاب المعنون بـ «داخل الحوت»، أوّل مجموعة مقالات مجمَّعة له، لم يتمكَّن أورويل من إقناع نفسه -فضلًا عن القارئ- بأن انشغال هنري ميلر بذاته ولا مُبَالاته السياسية كانتا مثيرتان للإعجاب (لاحقًا نبذ هذا السلوك ووصفه بأنه «تصوُّف عدمي»)، فقط هو فضَّل إنسانية الأمريكيين الفظَّة وقلة اكتراثهم بـ «مسمَّيات وشعارات ومراوغات» المثقَّفين المؤيدين للشيوعية. «الروايات الجيدة لا يكتبها المتشدِّدون، ولا من يؤنِّبهم ضميرهم حيال هرطقتهم. الروايات الجيدة يكتبها أشخاص لا يشعرون بالخوف». كان عماد المقال هو اليأس ومحاولة إنقاذ النزاهة -ولا شيء غيرها- من خراب الثلاثينيات. عندما تكون كل الخيارات سيِّئة، عندما يكون العالم «في طريقه إلى عصر تكون فيه حرية التفكير في البداية إثمًا قاتلًا وفي وقتٍ لاحق فكرة مجرَّدة لا معنى لها»، على المرء أن يختار على الأقل أن يكون صادقًا.

لا يجب أبدًا الاقتباس من كتاب «داخل الحوت» دون الإشارة إلى أن أورويل كتبه في فترة من الكرب العاطفي والفوران العقلي. على سبيل المثال، مقولة مثل «يبدو أن تاريخ الأدبي في الثلاثينيات يُسوِّغ الرأي القائل بأن الكاتب يعمل بجهد كي يبتعد عن السياسة»، هي رأي أمضى أورويل بقية حياته يتجاهله.

خُصِّص المقال الثاني من المجموعة لكاتب رفض الاختباء داخل الحوت. كتب أورويل أن تشارلز ديكنز «ينحاز دومًا إلى جانب المهضوم حقّهم، إلى جانب الضعفاء في مواجهة الأقوياء» و «دائمًا ما يعطي موعظة في كتاباته... لأن المرء لا يمكن أن يبدع إلا لو كان يكترث حقًا». كان تعاطفه مع موضوعه شديدًا إلى درجة أن المقالة صارت أشبه بطوفان من التحليل الذاتي. في النقد الأدبي، كان أورويل أقل اهتمامًا بتحليل النصوص نفسها وأكثر اهتمامًا بالأفراد والأفكار: من كان ديكنز وشكسبير وميلر وغيرهم حقًا؟ وكيف رأوا العالم؟ تنتهي المقالة بوصفه الشهير لوجه ديكنز، أو على الأقل الوجه الذي تخيَّله أورويل: «وجه رجل لا يكف عن النضال من أجل قضيةٍ ما، لكنه يناضل في العراء بلا خوف. وجه رجل غضبه سخي، أو بتعبيرٍ آخر، وجه ليبرالي من القرن التَّاسع عشر، مثقَّف حر، نمط الرجال الذي يكرهه بالتساوي كل أنواع الأصوليين البغيضين الضؤلاء الذين يتنافسوا الآن على امتلاك أرواحنا». إنه وجل الرجل -والكاتب- الذي يطمح أورويل أن يكونه: رجلٌ -من عدة نواحٍ- لا يحدُّه زمان.

لم يكن أورويل يعرف أن النقاط التي أثارها حول خلود ديكنز بعد وفاته ستنطبق عليه يومًا: «أشك أن أيَّ شخص قرأ لديكنز حقًا يمكن أن يمرَّ عليه أسبوع من دون أن يتذكَّره في سياقٍ أو آخر. وسواء كنت تتَّفق أو تختلف معه، فهو موجود مثل عمود نيلسون». (كان للعمود قوَّة رمزية في عين أورويل: في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، استُبدِل أحد تماثيل الأخ الأكبر بتمثال الأدميرال نيلسون). في حديثٍ إلى زمالة ديكنز في لندن في مايو

1940، ذهب أورويل إلى أبعد من ذلك. وفقًا لتقرير الزمالة، «كان يشعر بأنه ليس بالضرورة لكي تكون من عشَّاق ديكنز أن تكون على دراية بأعماله بشكل مثالي، لأنه كان واحدًا من عددٍ قليل جدًّا من الكتَّاب الذين لديهم تراث يحيا خارج عالم الأدب». ذَكَر أورويل الوقت الذي قضاه في كينت عام 1931 وهو يعمل إلى جانب جامعي زهور الجنجل الذين يعرفون كل شيء عن «أوليفر تويست» دون قراءة الرواية، والذين كانوا يشعرون بأن ديكنز إلى جانبهم. أيُّ شخص يستشهد بالتفكير المزدوج أو الأخ الأكبر فهو زميل لقاطفي الجنجل هؤلاء.

* * *

انضمَّ أورويل إلى آيلين في لندن في شهر مايو، الشهر الذي حلَّ فيه ونستون تشرتشل محل تشامبرلين على مقعد رئاسة الوزراء. استأجر الزوجان شقَّة في الطابق العلوي في 18 دورست تشامبرز في شارع تشاجفورد بالقرب من حديقة ريجينتس. ولأنه كان بحاجة إلى راتبٍ شهري، عمل على مضض ناقدًا مسرحيًا لمجلَّة «تايم آند تايد»، لكن سرعان ما عاد إليه إحساسه بالعجز وعدم الأهمية في مساء يوم 29 مايو. في أثناء ما كان يشاهد مسرحية «بورتريه هيلين» لأودري لوكاس في مسرح تورش، أعلن الحاجب -خلال الاستراحة- أن قوَّات مُشاة الجيش البريطاني تُجلى الآن من دانكيرك. كان أخو آيلين يعالج الجرحى على ذلك الشاطئ. أمضى أورويل غرَّة يونيو وهو ينتظر في محطَّتي فيكتوريا وواترلو ليرى إن كان أوشوناسي من ضمن الرجال العائدين من الساحل، لكن بلا جدوى. وسرعان مع علم الزوجان

أنه قُتل بشظايا على الشاطئ في فرنسا قبل ساعات من موعد إجلائه. هزلت آيلين التي كانت تحب شقيقها إلى درجة العبادة وأنهكها الهم. خلال السنوات الأربع التالية، أخبرت صديقتها لاتيس كوبر بأنها لم تعد تهتم حقًا إذا عاشت أو ماتت.

في 10 يونيو، دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا وانتشرت شائعات الغزو الألماني. بدأ القائد والتر شلينبرج تجميع ما عُرف بـ «قائمة المطلوبين في بريطانيا العُظمى»، وهي قائمة تضم ما يقرب من ثلاثة آلاف مواطن بريطاني ومنفي أوروبي يجب القبض عليهم بعد نجاح الغزو. كانت القائمة التي اكتشفها جنودٌ بريطانيون وأطلقوا عليها اسم «الكتاب الأسود» تضمُّ إتش جي ويلز وألدوس هكسلي وفرانز بوركناو وكنجسلي مارتن وفيكتور جولانش، لكن ليس أورويل. كان من الازدراء نوعًا ألا يعتبره النَّازيون يستحقُّ الاعتقال.

كتب أورويل في مذكّراته: «كل شيء يتفكَّك. أتلوَّى ألمًا لأنني أكتب مراجعات للكتب وما إلى ذلك في مثل هذا الوقت، بل ويغضبني أن مثل إضاعة الوقت هذه ما زال مسموحًا بها. أشعر الآن كما كنت أشعر في عام 1936، عندما كان الفاشيون يقتربون من مدريد، ولكن أسوأ بكثير».

لكن على الأقل سُنحت له في ذلك الوقت فرصة لحمل السلاح، إن جاز التعبير. تحت ضغط من الصحافة والشعب، دعت الحكومة من لم يتمكَّنوا من القتال للتسجيل في ميليشيا «متطوِّعو الدِّفاع المحلي» -التي أُعيدت تسميتها لاحقًا «الحرس الوطني» - استعدادًا للغزو. سجَّل أورويل نفسه في 20 يونيو.

وبصفته الرقيب بلير، جنَّد ناشره فريدريك واربورج في شعبته، التي شملت كثيرًا من اللاجئين الأوروبيين. وكما لو أن الغرض هو توضيح كيف توحِّد الأزمة الوطنية الفصائل السياسية المختلفة، كان الضابط المسؤول عنه عضوًا سابقًا في حزب موزلي الفاشي «القمصان السوداء».

كان أورويل أبعد ما يكون عن الخوف من الغزو، بل كان يأمل في حدوثه، لذا راهن بتهوُّر على قدرة بريطانيا على صدِّه: «سنتخلص مرة واحدة وإلى الأبد من تلك العصابة التي زجَّت بنا إلى هذه الفوضى». رأى بمثالية رومانسية حمقاء أن «الحرس الوطني» قوَّات لها وزنها، وكتب رسالة إلى «تايم آند تايد» تحتوي على بعض نصائح قتال الشوارع التي تعلَّمها في برشلونة، وطلب أن يُسلَّح المدنيون بالقنابل اليدوية والبنادق وأجهزة اللاسلكي. لا بُدَّ أن القرَّاء صُدِموا لرؤية ناقدهم المسرحي يصرخ «سلِّحوا المدنيين» في العدد نفسه الذي قدَّم فيه مراجعة نقدية لمسرحية رجينالد بيكويث «شباب في ملابس بُنِّية». في أثناء سيره في شوارع لندن، وجد أورويل نفسه يتفحَّص النوافذ ويتساءل عن أيٍّ منها تصلح لأن تكون مخبأً فعَّالًا لمدفعٍ رشَّاش. مثل بطل روايته جورج بولينج وبصره الحديدي، استطاع أورويل أن يرى الجمجمة القابعة خلف وجه لندن التي تنتظر أن تتكشَّف. كان واربورج يراه «شجاعًا، متشدِّدًا، حازمًا، عازمًا على تدمير أعدائه دون خوف أو رحمة، فقط إذا صاروا في متناول يديه». لكن هذا لم يحدث قط بالتأكيد.

* * *

فـي 20 أغسـطس، استطاع رامـون ميركاديـر -عميـل المخابـرات السـوفيتية الكاتالونـي- متنكـرًا فـي هيئـة تروتسـكيٍّ فرنسـيٍّ التسـلُّل إلـى مكتـب تروتسـكي فـي مكسـيكو سـيتي، وأخـرج فـأس جليـد مـن معطـف المطـر الـذي يرتديـه، وهبـط بـه علـى جمجمـة تروتسـكي. مـات الزعيم المهرطق في المستشفى في اليـوم التالـي. قال عنـوان جريـدة «ذا ديلـي ووركـر» الرئيـس: «وفـاة زعيـم العصابـة المُعـادي للثـورة».

فكَّـر أورويـل: «كيـف ستسـتمر الدولة الروسـية من دون تروتسـكي؟ أم رُبَّمـا يُوجـد شـيوعيون فـي مـكانٍ آخـر؟ ربَّمـا سـيضطَّرون لابتـكار بديل».

* * *

فـي ذلـك الصيـف، كتـب أورويـل عـن مجموعـة روايـات ديسـتوبية فـي مقـالٍ قصيـر لمجلَّـة «تريبيـون» اليسـارية الأسـبوعية. أخـذ أربـع روايـات نُشـرت بيـن عامـي 1899 و1932 واختبـر نبوءاتهـم أمـام واقـع الفاشـية. الروايات هـي: «عندمـا يسـتيقظ النائـم» لإتـش جـي ويلـز، و «سـر العصبـة» لإرنسـت براما، و «العقـب الحديديـة» لجـاك لنـدن، و «عالـم جديـد شـجاع» لألـدوس هكسـلي. وانتهـى بتفضيـل روايـة لنـدن. كتـب إليـه اثنـان مـن القـراء ليُشـيروا إلـى أن مثـل هـذه الروايـات كانـت «مخطَّطـات عمـل ثقافيـة» زرعـت فـي عقـول هتلـر وموسـوليني أفـكارًا خطيـرة. لـم يكـن أورويـل مقتنعًـا: «لا أعتقـد أن أيَّ شـخص عليـه أن يخشـى -علـى سـبيل المثـال- كتابة عمل يكتهَّن بدولـة فاشـية بريطانيـة قادمـة لأنـه بهـذا قـد «يـزرع أفـكارًا» فـي رأس نـازيٍّ محلِّـي. سـتصل الأفـكار إلـى رأس مـن سـتصل إليـه مـن تلقـاء نفسـها، مـا دام أن الصِّـراع الطبقـي حقيقـة».

لاحِظ أن «عالم جديد شجاع» كانت الرواية الحديثة الوحيدة التي أعارها اهتمامه. لأنه كاتب روائي طموح ولكن غير ناجح، كان أورويل يميل إلى رسم صورة كاريكاتورية لأقرانه تجعلهم غير مهمين في نظره أو نظريين بشكل مضجر. وبهذا التفكير، تجاهل عددًا كبيرًا من الروايات المستقبلية من اليسار البريطاني. الروايات التي كتبت في أوائل الثلاثينيات، مثل «بين رَجُلَين» لفريدريك لي جروس كلارك و «الطاعون القرمزي» لفينر بروكواي رئيس حزب الـ «آي إل بي»، كانت تركّز على معاداة الرأسمالية. (من الجدير بالذكر أن العمل الساخر «قول الحقيقة» الذي كتبته أمابيل وليمز إليس، أخت جون ستراتشي، تضمَّن شخصيتين ثانويتين اسمهما الأخ الأكبر وجوليا). مع اشتداد ظُلمة العقد، تحوَّل التركيز إلى أنواع من الفاشية المحلية، وظهر هذا في كتب مثل «لندن تحترق: رواية عن انحدار وسقوط الليبراليين» لباربرا ووتون، و «الرجل الأدنى: أو حان وقت الذهاب» لأندرو مارفل، و «في العام الثاني» لمارجريت ستورم جيمسون.*[18] «يمكنني تخيُّل فاشية إنجليزية وحشية خبيثة نصف مقنَّعة، مُطعَّمة بنزعة الفضيلة الميثودية»، هكذا قالت مارجريت جيمسون مفسِّرة. عندما اتُّهم كتابها بالانهزامية، جاءت مراجعة مجلَّة «ذا لفت

18– * كان إتش جي ويلز في الطليعة برواية «استبداد السيِّد برام» التي كانت هجاءً غير متجانس لعام 1930، وتحكي عن أكاديمي بميني ينام في أثناء جلسة تحضير أرواح ويحلم بأنه أصبح ديكتاتورًا يغزو العالم. «لقد تفوَّق الواقع على الخيال منذ ذلك الحين»، هكذا كتب أورويل في عام 1934: «وخداع موزلي المشابه في قاعة ألبرت الملكية هو وجماعته من "القمصان السوداء" يجعل حلم برام الكبير بالاجتماع هناك يبدو منطقيًا ومعقولًا تمامًا». (المؤلف).

ريڤيو» للدفاع عنها: «ليست الرواية نبوءة، بل تحذيرًا لليبراليين».

لم تكن أيٌّ من هذه الروايات جذّابة أو مقنعة مثل نسخة سينكلير لويس من الفاشية الأمريكية «هذا لا يمكن أن يحدث هنا»، لكن كان هناك ما يكفي من تلك الروايات لجعل صمت أورويل يثير الدهشة. لم يكتب أورويل عن أبرز نموذج منها، «ليلة الصليب المعقوف» لموراي قنسطنطين، مع الأخذ في الاعتبار أن جولانش نشرها في عام 1937، وأُعيد إصدارها بعد ثلاث سنوات ضمن اختيار «نادي الكتاب اليساري». في مراجعة أورويل لكتاب «كفاحي» في ذلك العام، تكاد تكون رؤيته للنازية في عام 2040 مُوجزًا لرواية قنسطنطين. «إنها إمبراطورية مريعة لا عقل لها، لا شيء يحدث فيها تقريبًا سوى تدريب الشباب على الحرب وتفريخ المقاتلين الجدد الذي لا ينتهي».

في «عام 720 من تقويم الإله هتلر»، نجد أن العالم مقسوم مناصفةً بين الإمبراطوريتين الألمانية واليابانية. الإمبراطورية الألمانية مقسَّمة طبقيًا بشكلٍ صارم، يلعب فيها «الفرسان» دور الحزب الداخلي، ويعلب فيها النازيون دور الحزب الخارجي. تحتهما تأتي النساء، وفي القاع ترزح طبقة الهمجيين الأدنى، التي تصر على ممارسة العقيدة المسيحية. مُحيت حقيقة هتلر و «حرب السنوات العشرين» عن طريق الحرب على الذاكرة. وفقًا لإنجيل هتلر، وهو الكتاب الوحيد المسموح بقراءته بخلاف الكُتيِّبات التقنية، هتلر هو إله أشقر شبيه بثور، طوله يتجاوز المترين بعشر سنتيمترات، والنازية ديانته.

بعد عقود، اكتشفت الناقدة دافني باتاي أن موراي قنسطنطين كان اسمًا مستعارًا للروائية النسوية كاثرين بوردكين. بقراءة رواية «ليلة الصليب المعقوف، يبدو هذا واضحًا، لأن الدولة الثيوقراطية الكارهة للنساء المجسَّدة فيها تجعل من جلعاد في «حكاية الجارية» دولة هواة رخوة بالمقارنة. تُستخدم النساء -باعتبارهن أدنى من البشر- بغرض التكاثر فقط ويمكن اغتصابهن من دون عقاب. لكن الإمبراطورية الألمانية أصبحت راكدة وعقيمة لأن الرجال ينتحرون، ولأن الإناث -لسببٍ ما غامض- لم تعد تُولَد. لتعذُّر قهر بعضهم لبعض، يقبع الألمان واليابانيون أسرى لحالة من السلام المشلول الذي يُثبت سُمِّيته للمجتمعات المشيَّدة على المجد العسكري: عكس الدول العُظمى في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» المتحاربة إلى الأبد. يشتكي الفارس فريدريك ڤون هِس بخيبة أمل: «لا يمكننا خلق شيء، لا يمكننا ابتكار شيء. لسنا في حاجة إلى الخلق، ولا نحتاج إلى الابتكار. نحن ألمان. نحن مُقدَّسون. نحن مثاليون، وكذلك أموات». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، يعطي أورويل ونستون مجموعة متنوِّعة من الحجج يحاجي بها ضد استمرار الديكتاتوريات كي يدحضها أوبراين، واحدة منها حجَّة ڤون هِس. يقول ونستون إن المجتمع الذي يُشيَّد على الخوف والكراهية والقسوة «لن يمتلك أيَّ حيوية، وسوف يتفكك. سوف ينتحر».

يشير محرِّك الحبكة أيضًا إلى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». يخبر ڤون هِس بطل بوردكين -وهو مهندِّس طيران إنجليزي اسمه ألفريد- بسرٍّ عائلي كبير. إن كتابه الممنوع، الذي

كتب فيه سلفه تاريخ النازية الحقيقي، مُزعِزِع للاستقرار مثل كتاب غولدشتاين. ومثلما صُدِم ونستون عندما عثر على صورة جونز وآرونسون ورذرفورد، صُدِم ألفريد بعثوره على صورة تُظهر أن هتلر لم يكن إلهًا آريًا، بل «شخصًا ضئيلًا ناعمًا خبيثًا بدينًا مبتسمًا»، وأن النساء فيما مضى كُنَّ واثقات وجذّابات وبشريات بالكامل كالرجال. يقول فون هِس: «لا يُوجد فرق كبير بين تزوير التاريخ وتدميره». اسم الحركة السرية التي وصفتها بوردكين في روايتها، مثل حركة أورويل، «الأخوية».

لا نعرف ما كان رأي أورويل في «ليلة الصليب المعقوف»، لكنه أُعجِب بالفعل بقصَّة واحدة على الأقل عن الفاشية في إنجلترا. في 24 أغسطس عام 1940، شاهد أورويل مسرحية جديدة بعنوان «استعد حريتك» ووجدها «رائعة في نفاذ بصيرتها». بدأت الكاتبة النسوية وعضوة حزب الـ «آي إل بي»، وينفريد هولتبي، تأليف المسرحية (تحت عنوان «الديكتاتور») في عام 1934، لكنها تُوفِّيت بسبب مرض في الكُلى قبل أن تتمكَّن من إجراء التغييرات التي طلبها منتجها المسرحي، لذا أنهى الكاتب المسرحي نرومان جينزبري المهمَّة لها. أظهرت هولتبي وجينزبري فهمًا عميقًا لجاذبية الديماجوجيين الشعبويين. بطل المسرحية أرنولد كلايتون وكيل وزارة يافع وذكي وذو كاريزما. يستقيل من الحكومة ويؤسِّس «حزب التخطيط البريطاني» الذي يعمل وفقًا لشعار «الحركة - العزلة - التنظيم». فسَّر أورويل الرجل على أنه «نسخة أكثر تهذيبًا من هتلر أو نسخة أذكى من موزلي». يفوز كلايتون باكتساح مفاجئ من خلال استغلال الدوافع غير العقلانية للعوام الذين

يحتقرهم. يخبر أمه: «يجب أن نتمتَّع بالعاطفة. يقسِّم المنطق البشر إلى آلاف الأحزاب، لكن الشغف يوحِّدهم». وكما قال موجريدج عن هتلر: «كثيرون ممَّن وجدوا أن التفكير بعقولهم غير مربح كانوا على استعداد لاتِّباعه مفكِّرين بعواطفهم». بمجرَّد وصوله إلى منصبه، يصبح كلايتون طاغية يجنِّد الرجال، ويحظر النساء من أماكن العمل، ويطهِّر منافسيه ويسجن خصومه في معسكرات الاعتقال.

أعجب أورويل بالمسرحية لأنها جسَّدت كلايتون على أنه «سجينٌ للسلطة»، ضحَّى تدريجيًّا بنزاهته للبرنامج الانتخابي، وضحَّى بالبرنامج للحزب، وبالحزب لأصدقائه، وبأصدقائه لنفسه. ربما استمتع أورويل كذلك بأسطر الحوار التالية الأكثر أورويلية في المسرحية. خلال الحملة الانتخابية، قتل أربعة من حرس كلايتون الرمادي، الشبيهين برجال الجستابو، متظاهرًا يهوديًّا، وأخمد هو الفضيحة زاعمًا أن القتلة عملاء محرِّضون يعملون لصالح أعدائه. بدأت أمه التي كانت داعمة له في البداية -مع تزايد رعبها- تشك في أساليبه.

قالت السيِّدة كلايتون: «هل ما قيل عن العملاء المحرِّضين صحيح؟».

قال كلايتون: «لقد سمعتِ ما قُلت».

كرَّرت السيِّدة كلايتون: «أكرر، هل الأمر صحيح؟»

قال كلايتون: «إنه ضروري، لذا سيكون صحيحًا».

* * *

لم يحب أورويل لندن في أوقات مجدها، لكنه تعلَّق بها في أحلك الأوقات. بدأ قصف لندن في 7 سبتمبر عام 1940،

والحقيقة أن أورويل وجده مثيرًا نوعًا. قدَّر جانب التطهيري فيه المحنة، واستمتع الاشتراكي بداخله بالتضامن القسري، وأثار دوي القنابل، والسماء المحترقة، والمناطيد الدفاعية التي تصطبغ بلونٍ وردي في وهج اللهب، وإيقاع نيران الدفاع الجوي، حماسة المقاتل فيه. شكَّ سيريل كونولي في أن أورويل «شعر بانتماءٍ كاسح في أثناء قصف لندن، وسط القنابل والشجاعة والأنقاض ونقص الإمدادات والمشرَّدين ومؤشِّرات ارتفاع الروح الثورية».

في أثناء الرحلة من دانكيرك، تنزَّه أورويل وكونولي في الحديقة ولاحظَا أن سكان لندن يلعبون الكريكيت ويدفعون عربات الأطفال كما لو أن شيئًا لا يحدث. تنبَّأ كونولي: «سيستمرّون في التصرُّف هكذا حتَّى تبدأ القنابل بالسقوط، ثم سيهلعون». لكنهم -كما لاحظ أورويل لاحقًا- لم يفعلوا ذلك: «لقد حافظوا على نمط حياتهم المعتاد إلى درجة مدهشة». مرَّت أوقات مشى أورويل فيها في شوراع لندن ورصد الحياة الطبيعية العنيدة، وأوقات أخرى بدا فيها أن الحياة تحطَّمت إلى شظايا وأُعيد تجميعها في هيئة فسيفساء سخيفة: أرض شارع أوكسفورد المهجور تتلألأ بشظايا الزجاج المحطَّم. كومة من تماثيل عرض الملابس تبدو من بعيد ككومة جثث. حديقة حيوان لندن تبيع حيواناتها لأنه لا يُوجد طعام لإطعامها. شابتان مذهولتان يُغطّي الطين وجهيهما، تسألان أورويل: «من فضلك يا سيِّدي، هل تستطيع إخبارنا أين نحن؟». كانت لندن مدينة من الحطام. ذات صباح، وجدت إنز هولدن -صديقته المقرَّبة- نفسها تحدِّق إلى شجرة في حديقة ريجنت كُسيت بالجوارب وخيوط الحرير وقبَّعة سوداء مستديرة

جديدة تمامًا... البقايا الملوَّنة لفندق قُصِف في الليلة السابقة. اصطدمت هولدن بصديقٍ كان رسَّامًا سرياليًا. قال لها: «كنا نرسم أشياء من هذا القبيل منذ سنوات بالتأكيد، لكن الأمر استغرق بعض الوقت ليصل إلى هذا الحال».

اعتقد أورويل أن بريطانيا كانت بحاجة إلى تحوُّلٍ جذريٍّ من نوع مختلف. مشهد الملصقات الإعلانية المبهرجة في الأنفاق بعد ما حدث لتوِّه في دانكيرك أثار في داخله شعور اشمئزاز مروِّعًا جديرًا بكوموستوك: «كم من القمامة ستكنس هذه الحرب، إذا نجحنا في الصمود خلال الصيف؟» بعد أن جرَّب النزعة السلمية وصاغ حجَّة متضاربة للتصوُّف، بدأ أورويل يجنح نحو الوطنية الثورية. في مقاله «بلدي يمينية أم يسارية؟» الذي نُشر في ذاك الخريف، رسم أورويل صورة ميلودرامية لقتال الشوارع والميليشيات الاشتراكية في الريتز. في دفتر يومياته، كان اشمئزازه من أنانية الأثرياء تتزايد، وقارنهم بالطبقة الروسية الأرستقراطية في عام 1916: «من الواضح أن لا شيء سيعلِّم هؤلاء القوم أن 99 بالمئة من السكَّان لهم وجود». في مساهمتين في كتاب «خيانة اليسار»، وهو مختارات مقالية جمعها فيكتور جولانش للتعبير عن قلقه من الميثاق النازي السوفيتي، ردَّد أورويل صدى فكر حزب الـ «بوم»: «لن نستطيع هزيمة هتلر دون ثورة، ولن نوطِّد ثورتنا دون هزيمة هتلر».

توسَّع أورويل في هذه الفكرة في مقاله الرائع «الأسد واليونيكورن: الاشتراكية والعبقرية الإنجليزية». في يناير، رتَّب واربورج لقاءً بين أورويل والكاتب الصهيوني ألماني المولد توسكو

فيڤيل لمناقشة أهداف الحرب البريطانية. أثار فيڤيل فكرة تكليف مجموعة من الكتَّاب بإعداد منشورات «مكتوبة بلغة يسيرة من دون الرطانة السياسية المعهودة» تحت اسم «سيرشلايت بوكس». كان ستيڤن سبندر، وصحفي جريدة «ديلي ميرور» وليم كونور (الملقَّب بـ«كاسندرا»)، وكاتب الخيال العلمي الاشتراكي أولاف ستابيلدون، من ضمن المشاركين. وكذلك أورويل بعد بعض التردُّد. إن مقال «الأسد واليونيكورن» -بلا أدنى لبس- هو نتاج لعام غريب جدًّا، لكنه كان أفضل ما كتب عن إنجلترا (التي وصفها بـ «أرض العجرفة والامتيازات، التي يحكمها المُسنُّون والسذَّج» ومع ذلك «ما زالت تُطوِّقها سلسلة غير مرئية»)، وكذلك أقوى حجَّة صاغها في صالح الاشتراكية: اقترح تأميم الصناعة، وفرض الضرائب التصاعدية، وإلغاء التعليم الخاص، واستقلال الهند. وفي تنبُّؤ مبكِّر برعب مقاطعة آيرستريب وان البوليسية، كتب أورويل محتفلًا: «ما يدلُّ على أهمية الخصوصية في الحياة الإنجليزية... هو أن أكثر اسم مكروه من بين كل الأسماء على الأذن الإنجليزية هو نوزي باركر[19]». وصف فيڤل المقال بأنه «الكتاب الإيجابي الحقيقي الوحيد الذي كتبه في حياته». أما تقييم آيلين فكان طريفًا وغير مبالٍ: «كتب چورج كتابًا صغيرًا يشرح فيه كيف تكون اشتراكيًّا ومحافظًا في الوقت نفسه».

كان أورويل يؤمن أن انهيار فرنسا غيَّر كل شيء، عن طريق فضح هشاشة الرأسمالية بما لا يدع مجالًا للشك. للمرة الأولى،

19- نوزي باركر أو «الحِشري»: الشخص الفضولي الذي يمتلك طبيعة تطفُّلية مزعجة ويدسُّ أنفه في كل شيء. (المترجم).

لـم تكـن النسـخة البريطانيـة مـن الاشـتراكية ممكنـة فقـط، بـل ضروريـة (لا تجمُّعـات، ولا زي موحَّـد، ولا دمـاء فـي الشـوارع). وكمـا كتـب فـي مقالـه الـذي حـثَّ فيـه القـرَّاء علـى الانضمـام إلـى الحـرس الوطنـي فـي مجلَّـة «تريبيـون»: «نحـن فـي فتـرة تاريخيـة غريبـة جـدًّا تحتِّـم علـى الثـوري أن يكـون وطنيًّـا وعلـى الوطنـي أن يكـون ثوريًّـا». لقـد قطـع شـوطًا طويـلًا منـذ تبنِّيـه نظريـة «الفاشـية» فـي روايـة «مـن أجـل استنشـاق الهـواء» إلـى درجـة أنـه اسـتهزأ بـ «أنصـاف المثقَّفيـن» الذيـن أعلنـوا أنـه «إذا قاتلنـا النازييـن سـنكون نازييـن أنفسـنا»، كأنـه لـم يصـرِّح بهـذا الادِّعـاء مـن قبـل. لقـد تلاشـى أورويـل المسـالم ابـن عـام 1938.

عندمـا نُشـر مقـال «الأسـد واليونيكـورن» فـي فبرايـر عـام 1941، بـاع أكثـر مـن اثنـي عشـر ألـف نسـخة. «نحـن أمـام شـخص لـم يُتَّهـم مـن قبـل قـط بأنـه وطنـيٌّ كبيـر أو مؤيِّـدٌ للإمبرياليـة صـار يجـادل فجـأة بشـكل مقنـع وفعَّـال جـدًّا بـأن هـذه حـرب يجـب دعمهـا. كانـت هـذه نقطـة تحـوُّل فارقـة لأشـخاص كُثُـر مثلـي»، هكـذا تذكَّـر صديقـه جـون كيمشـي، الـذي تأثَّـر بكلماتـه واسـتقال مـن حـزب الـ «آي إل بـي». فـي هـذه الأثنـاء، ظـنَّ واربـورج أن رؤيـة أورويـل للراديكاليـة المنطقيـة مهَّـدت لفـوز حـزب العمـل فـي انتخابـات عـام 1945. لـذا كان أورويـل محقًّـا عندمـا رأى الحـرب كعامـل محفِّـز للتحـوُّل الاجتماعـي فـي نهايـة المطـاف. كان مخطئًـا بـلا شـك فـي توقُّعـه أن النصـر سـيكون مسـتحيلًا مـن دون ثـورة، لكنـه لـم يكـن الكاتـب الوحيـد الـذي استنشـق رائحـة التغييـر الراديكالـي فـي الهـواء. بعـد

واقعة دانكيرك، أعلن إتش جي ويلز، عملاق الأدب الإدواردي[20] كبير السنّ أن «الثورة بدأت في إنجلترا الآن». في أثناء ما كانوا يحاولون إنجاح «سيرشلايت بوكس»، قصد أورويل وفيڤل وواربورج بيت إتش جي ويلز في هانوفر تراس على حدود حديقة ريجنت. في سنّ الرَّابعة والسبعين، كان ويلز أسدًا عجوزًا، لكنه في شبابه كان يجسِّد قدرة ونجاح الإبداع الأدبي في التأثير على السياسة أفضل من أيّ شخصٍ آخر، لذا بدا لهم الرجل المناسب لطلب المشورة. لكن مع الأسف، وجد ثلاثي «سيرشلايت» أمامهم «رجلًا مريضًا لا يكفُّ عن الشكوى»، هكذا قال فيڤل. «شعرت أنا وأورويل بخسارة بطل الصبا».



20- بعد العصر الڤيكتوري، جاء عهد الملك إدوارد السَّابع، وارث الملكة ڤيكتوريا وابنها الوحيد. سُمِّيت فترة حكمه التي امتدَّت من 1901 إلى 1910 بالعصر الإدواردي، ولُقِّب الأدب في تلك الفترة بـ «الأدب الإدواردي». (المترجم).

الفصل الرَّابع

عالم ويلز

أورويل وإتش جي

> «فـي مطلـع القـرن العشـرين، احتلَّـت صـورة المجتمـع الثَّـري المتـرف المنظَّـم الفعَّـال إلـى درجـة يصعـب تصديقهـا، العالـم المتلألـئ المعقَّـم المشـيَّد مـن الزجـاج والفـولاذ والأسـمنت الأبيـض بلـون الثلـج، جـزءًا مـن وعـي كل مثقَّـفٍ تقريبًـا».

چورج أورويل، «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كان إتـش جـي ويلـز يلـوح فـي أفـق صبـا أورويـل ككوكـبٍ دُرِّي مذهـل، غاشـم، يسـتحيل تجاهلـه.. ولـم يسـتطع أورويـل تجـاوزه قـطّ. «أشـك فـي أن أيَّ مؤلِّـف آخـر كان يكتـب بيـن عامـي 1900 و1920، علـى الأقل باللغـة الإنجليزيـة، استطاع أن يؤثِّـر فـي الشـباب مثلـه»، هكـذا كتـب أورويـل فـي مقـال عـام 1941 «ويلـز وهتلـر والدولـة العالميـة»، «عقولنـا جميعًـا -وبالتبعيـة عالمنـا المـادي- كانـت لتكـون مختلفـة علـى نحـوٍ ملمـوس إن لـم يكـن ويلـز موجـودًا فـي دنيانـا».

فـي إيتـون، تشـارك أورويـل نسـخة مهترئـة مـن مجموعـة ويلـز القصصيـة «بلـد العميـان وقصـص أخـرى» مـع سـيريل كونولـي، الـذي تذكَّـر اسـتمتاع أورويـل بالقصـص ووصفـه لهـا بأنهـا «تطـرح أسـئلة مخيفـة وأخلاقيـة وقاتمـة». فـي أثنـاء عطلاتـه الصيفيـة مـع عائلـة بوديكـوم فـي أوكسفوردشـاير، كان أورويـل قارئًـا مخلصًـا لروايـة

«يوتوبيا حديثة». تذكَّرت چاسينثا بوديكوم قوله ذات يوم إنه «قد يكتب يومًا كتابًا مثل هذا». في الحقيقة، أوَّل قصَّة نشرها أورويل عندما كان في إيتون كانت «نظرة سريعة على المستقبل»، وهي حكاية ويلزية عن ثورة ضد دولة ثيوقراطية علمية. كاد أورويل يلتقي الرجل العظيم شخصيًا عن طريق عمَّته نيلي عضوة «الجمعية الفابية» حسنة العلاقات، لكن هذا لم يحدث. قال بوديكوم أنه بدا «شديد الإحباط إلى درجة أنني تساءلت عمَّا إذا كان سيبتسم مرَّة أخرى».

في نظر شابٍ طموح شكوكيٍّ مثل أورويل، كانت كتب ويلز قنابل فكرية فجَّرت أبواب طفولته الإدواردية المهذَّبة المغلَّفة بالامتثال المملِّ الخانع. في عقل ويلز، الذي تجاوز بدايات أكثر تواضعًا من التي حظي بها أورويل، لم يكن ثمَّة ما لا يستطيع الكاتب تحقيقه بقدرٍ كافٍ من العمل الشاق وقوَّة الإرادة. كان مُهوَّسًا بالكتابة، ونشر في حياته أكثر من مئة عمل روائي وغير روائي وهجين غير مُصنَّف من النوعين، كما لو أنه كان في مقدوره تغيير محور الأرض بمحض وزن كلماته. كتب ويلز قائلًا: «لا بُدَّ لي من الكدِّ في العمل -بغض النظر عن كل ما يحمله الكَدُّ من مضار- لإنجاز عملي». ومع ذلك، لم ينتهِ عمله أبدًا. اشتهر ويلز بأنه «الرجل الذي اخترع الغد»، فقد تنبَّأ برحلات الفضاء والدبَّابات والقطارات الكهربائية وطاقة الرياح والماء وبطاقات الهوية والغاز السام ونفق المانش والقنابل الذرية، وهو الذي أشاع في الأدب أفكار السفر عبر الزمن وغزو المرِّيخيين والاختفاء والهندسة الوراثية. كان أكثر الكُتَّاب إبهارًا وإثارةً للحنق على حدٍ سواء في

عصره، وعشَّش حتَّى في عقول من لا يطيقونه. ليس من المبالغة القول إن ضرب الأدب الديستوبي أخذ هذا المسار التطوُّري لأن أشخاص كُثُر أرادوا إثبات خطأ إتش جي ويلز.

يبدو أن أورويل قرأ كل ما كتبه ويلز، لذا كانت الرغبة التي لا تُقاوم في الإطاحة بـ «هذا الرجل الرائع» الذي هيمن على شبابه تحمل مسحة أوديبية، وهو ما جعله يتساءل عمَّا إذا كانت هجماته تشكِّل «نوعًا من العقوق المتطرِّف». بدايةً من «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، حوَّل أورويل ويلز إلى «رجل قش»: النبي الضال الذي أتت خططه الكبرى لتحسين البشرية (المدفوعة بالآلة العظيمة) غير موفَّقة في أفضل الأحوال، وفي أسوَئِها كريهة. كتب أورويل بازدراء: «يجب أن يكون العالم الاشتراكي عالمًا منظمًا قبل كل شيء، عالمًا فعالًا، ولكن رؤية المستقبل على أنه عالمٌ ويلزي متلألئ هي التي تنفِّر العقول الحساسة». على أيِّ حال، نفر عقل أورويل على الأقل، وهذه هي الرؤية التي سخر منها في كتاب جولدشتاين. في كتاب «داخل الحوت»، كان جرح أورويل شخصيًا أكثر، وقال ساخرًا: «دائمًا ما يقع «التقدُّميون» المتفائلون من نوعية ويلز وبرنارد شو في حبِّ إسقاطاتهم الأنوية، تلك التي يظنون بالخطأ أنها المستقبل».

ليس غريبًا أن ويلز التقى أورويل، لأن ويلز التقى الجميع: العديد من رؤساء الوزارة البريطانيين، وأربعة رؤساء أمريكيين، واثنين من رؤساء الوزراء السوفيت، وهنري فورد، وتشارلي شابلن، وأورسون ويلز، وكل كاتب أُعجِب به أورويل تقريبًا. كان تعطُّش ويلز للحياة لا ينضب. إذا حقق الثروة والإشادة، كان يشتهي المزيد. إذا

حظي بحب امرأة، كان يحتاج إلى واحدة أخرى (على الأقل). إذا عقد صداقة، كان يشدُّ أطرافها في أغلب الأحيان حتَّى تتقطع. بمجرَّد انضمامه إلى جماعة سياسية أو تحالف، يكون في أشدِّ الحاجة إلى الانسحاب. أينما كان موقعه في الحياة جغرافيًّا أو فكريًّا أو شعوريًّا، كان يشتاق إلى أن يكون في مكانٍ آخر، ومن هنا جاء تحمُّسه لليوتوبيات. كتب ويلز أن قيمة هذا القالب «تكمن في الاكتراث بحرية الإنسان، في رغبة الروح البشرية الدائمة في الهروب من براثن الذات، وفي قدرتها على مقاومة سببية الماضي، وقدرتها على المراوغة والمبادرة والسعي والتغلُّب». كانت هذه قصَّة حياة ويلز.

***

كان هربرت چورج ويلز -الذي يُدلَّل باسم «بيرتي» - طفلًا مشاكسًا كثير المطالب، ومن بعض النواحي، ظلَّ كذلك إلى وفاته عن عمر التَّاسعة والسبعين. لكن أنانيته الضخمة خفَّفها وعيٌ شديد -وإن كان يأتي عادةً بأثر رجعي- بنقائصه وأخطائه.

وُلِد في 21 سبتمبر 1866 في بروملي، إحدى ضواحي لندن سريعة النمو، لوالدين يعملان خادمين صارا بعد ذلك مالكي متجر. كان يرى والده شخصًا فاشلًا ووالدته متعصبة دينية، وكان يعامل إخوانه الأكبر سنًّا «بضغينة حاقدة وعدوانٍ صارخ». وهو صبي، كان يتخيَّل معارك كبيرة في حقول كينت، معارك لعب فيه دور ديكتاتور حميد قادر على إعادة شعبه إلى الطريق الصحيح بحكمته وقوته اللتين لا مثيل لهما. في عام 1934، قال عن هتلر -في وصفٍ مُروِّع- إنه «مجرَّد أحد أحلام يقظتي وأنا في الثَّالثة

عشـرة وقـد تحقَّـق». بعـد أن رفـض المسـارات رُسـمت لـه -الإمَّعيـة الدينيـة وتجـارة الأقمشـة- حصـل علـى منحـة دراسـية فـي «مدرسـة العلـوم القياسـية» فـي سـاوث كنزينجتـون فـي عـام 1884. كان هـذا هـو أول إنجـاز لـه فـي مجـال الهـروب الذاتـي.

عـززت الدراسـة تحـت إشـراف عالـم الأحيـاء التطـوُّري تومـاس هنـري هكسـلي إيمـان ويلـز بقـدرة العلـم علـى عـلاج أمـراض البشـرية وإيمانـه بهشاشـتها علـى حـدٍّ سـواء. أثـارت قـراءة كتـاب هنـري چـورج «التقـدُّم والفقـر» فضولـه تجـاه الاشـتراكية. بشـكلٍ أو بآخـر، هـذان الاهتمامـان سـيوجِّهان تفكيـره لبقيـة حياتـه. مـن خـلال سـحره وذكائـه وطاقتـه وتعصبـه الشـديد ضـد الأرثوذكسـية والهُـراء، أصبـح ويلـز نجمًـا فـي «مجتمـع المناظـرة». استعرضـت خطبتـه المعنونـة بـ «ماضـي وحاضـر الجنـس البشـري المسـتقبلي» الأفـكار التـي سـيتكرَّر ظهورهـا فـي رواياتـه. بـدأ يكتـب قصصًـا قصيـرة عـن المسـتقبل أيضًـا. لكـن نقـاط قوتـه لـم تتضمَّـن القـدرة علـى اجتيـاز الامتحانـات، وغـادر سـاوث كنزينجتـون بعـد ثـلاث سـنوات وفـي صـدره شـعورٌ سـاحق بالرفـض والذعـر. «طبَّقـت عمليًـا كل مـا هـو ضـروري لضمـان الفشـل والفصـل مـن الدراسـة، ولكـن عندمـا وقـع الأمـران أخيـرًا، وجـدت نفسـي مدهوشًـا وبـلا خطَّـة».

أصبـح ويلـز مدرِّسًـا. فـي عـام 1981، غامـر بدخـول مجـال الصحافـة بمقـال «إعـادة اكتشـاف الوحيـد والأوحـد»، واصفًـا العلـم بأنـه «ثقـاب أشـعله الإنسـان للتـوِّ»، لكنـه بـدلًا مـن أن يُضـيء غرفـة مليئـة بالعجائـب، لفـت الانتبـاه إلـى الظـلام الواسـع الواقـع وراء وهجـه الضعيـف. أصـاب عصـر القلـق الأوَّل هـذا بريطانيـا وكذلـك

أمريكا. خلال السنوات الأخيرة من القرن التَّاسع عشر، استهلكت فكرة التفسُّخ والانحدار مخيِّلة العديد من الكتاب. وقبل أن يصبح رسولًا للتقدُّم، استغل ويلز شريان مخيِّلته المروِّع بنجاح مذهل.

في عام 1895، بدأت مجلَّة «ذا نيو ريڤيو» نشر رواية ويلز الأولى «آلة الزمن» مسلسلة، والتي استطاعت أن تصيب وترًا حسَّاسًا على الفور. قالت مجلَّة «ذا ريڤيو أوف ريڤيوز» إن «إتش چي ويلز عبقري». لأكثر من قرن، كان الكتَّاب ينقلون شخصياتهم إلى المستقبل عبر سُباتٍ طويل. تطلَّب الأمر من ويلز ابتكار آلة زمن وبالتالي مفهوم السفر عبر الزمن. وفقًا لكتاب «تاريخ السفر عبر الزمن» لچيمس جليك، فـ «عندما تخيَّل ويلز في غرفته شاحبة الإضاءة آلة الزمن، ابتكر أيضًا نمطَ تفكيرٍ جديد». كان تشاؤمه خلَّاقًا بدوره. وصف الناقد مارك هيليجاس «آلة الزمن بأنها «أوَّل صورة متَّسِقة الخيال وحسنة التنفيذ لمستقبل أسوأ من الحاضر». كلمة «ويلزيّ» صارت تعني الاعتقاد في يوتوبيا علمية مستقبلية منظَّمة، لكن روايات الخيال العلمي الأربعة التي كتبها - «آلة الزمن و «جزيرة الدكتور مورو» و «الرجل الخفي» و «حرب العوالم» - فضلًا عن القصص القصيرة مثل «قصَّة الأيَّام القادمة»، هي حكايات تحذيرية عن معوِّقات التقدُّم وسوء استخدام العلم وعقاب التقاعُس القانع. في تلك الحقبة، لم يكن ويلز ويلزيًّا بعد.

بدأت مسيرته المهنية تجري على قدم وساق. «إنه لأمر طيب أن يجد المرء شيئًا لنفسه في العالم بعد كل سنوات المحاولة والإحباط»، هكذا أخبر أمه. سرعان ما كوَّن ويلز صداقات في

الوسط الأدبي (حمل كثيرٌ منهم أيضًا ذات الخوف المضطَرِب المميِّز للدخلاء)، وشَهد مطلع القرن الجديد في حفلة منزلية مذهلة في ساسكس استضافها الروائي الأمريكي ستيڤن كرين، برفقة هنري چيمس وچوزيف كونراد وچورچ جيسينج وإتش رايدر هاجارد وفورد مادوكس فورد. «لم نستغرق وقتًا طويلًا لندرك أنه عبقري، عبقري حقيقي أصيل... وأن لندن الكبرى كلها تسجد عند قدميه»، هكذا كتب فورد.

كثيرًا ما نُعت ويلز بالمعادل الإنجليزي لچول ڤيرن، لكن كلا الكَاتِبين رفض المقارنة. قال ڤيرن: «أنا أستخدم الفيزياء، أما هو فيُلفِّق». ضمن أشياء أخرى، كان ڤيرن الأكبر سنًّا بكثير يمثِّل جيلًا أكثر تفاؤلًا. كان ويلز يكتب في عصرٍ أدرك فيه الجميع أن التغيير الهائل يحدث بالفعل ولكن أحدًا لم يكن يعرف ما إذا كان سيؤدِّي إلى الجنة أم الجحيم. يمكن للعلم أن يخلق معجزات سماوية أو وحوشًا لا توصف. يمكن للرجال العظماء أن يكونوا أبطالًا خارقين أو مجانين مهوَّسين بالسلطة. يتحتَّم أن يؤدي المستقبل -عن طريق الانتروبيا- إلى الفراغ الأسود الجليدي، لكن ربَّما سيعرج على الجنة قبل ذلك. ملأ ويلز عقل القارئ بالعجائب: رُوَّاد الفضاء، ورجال وحوش، ورجال لا يمكن رؤيتهم. آلات زمن وآلات طائرة وآلات موت. «عالم من النجوم الباردة والدينوصورات المتحاربة»، على حدِّ تعبير أورويل.

كان ويلز يهضم المواد الجديدة بسرعة فائقة. كان لينتهز إحدى النظريات أو الاختراعات الجديدة، ويدمجها مع أحدث صيحات الاتِّجاهات الخيالية -كالعوالم المفقودة والهويَّات المزدوجة والاجتياحات الأجنبية والعلماء المجانين- ويربطها

بالواقع باستخدام جهاز ما -آلة أو باب أو تجربة علمية- كي ينقل بطله من إنجلترا الڤيكتورية إلى زمنٍ آخر أو مكانٍ آخر. «لقد أدركت أنه كلما زاد شطط واستحالة القصّة التي سأحكيها، على الإطار الذي تدور فيه أن يكون أكثر بساطة»، هكذا كتب. حلم ويلز برواية «حرب العوالم» وهو يقود درّاجته في أنحاء بلدة ووكينج، وتخيّل آلات مرّيخية ثلاثية الأرجل تعيث فسادًا في ريف مقاطعة ساري، وشعر بمتعة عظيمة وهو «يختار ساوث كنزينجتون أرضًا لأعمال وحشية معيّنة».

كانت كتابات ويلز المبكّرة في الخيال العلمي مبهجة لأنها احتشدت بالأفكار بدلًا من الرسائل الموجّهة. كان خياله واسعًا جدًا وأجمح من أن يُقولب لخدمة أغراضٍ تربوية. في مراجعة لكاتبٍ آخر، قدّم ويلز بعض النصائح السليمة التي نسيها لاحقًا: «الفيلسوف الذي يتنكر في هيئة روائي ينتهك شروط الفن إلى درجة تُكسب أفكاره سمعة شائنة تسيء إلى نفسه وإلى رسالته». قد تحتوي رواية «حرب العوالم» على نقد ضمني للإمبريالية، لكن هذا ليس له تأثير سلبي على استمتاع القارئ بها، والشخصية الوحيدة التي لديها خطة واضحة للمستقبل هي رجل المدفعية، الفاشي البدائي المتبجّح الذي يتطلّع إلى بناء مجتمع جديد من «الرجال أقوياء البنية نظيفي العقول». إذا كانت آمال ويلز كبيرة، فهكذا كانت مخاوفه، ولهذا كانت أعماله المبكّرة صراعًا للتوفيق بين منطقه وكوابيسه.

كان هذا التنافر حادًا بشكل خاص في رواية عام 1899 «عندما يستيقظ النائم»، التي وسمت المرة الأولى التي طغت فيها السياسة على العلم في رواياته. اعترف ويلز في وقتٍ لاحق أنه على الرغم من أنها شائقة، فهي أقل جودة من نظيراتها.

وبينما كان مثقلًا بالعمل، أعاد ويلز كتابتها في عام 1910 تحت عنوان «صحوة النائم»، لكنه تعجَّل الخاتمة ولم يصلح غير بعض من مشكلاتها الهيكلية، لكنها لا تزال واحدة من أكثر نقائض اليوتوبيات تأثيرًا. كتب أورويل: «كل من قرأ «صحوة النائم» يتذكَّرها جيِّدًا. إنها رؤية لعالم متلألئ وشرير تجمَّد فيه المجتمع وأصبح نظامًا طبقيًا يُستعبد فيه العمَّال بشكلٍ دائم». تلك الكلمة مجددًا: «متلألئ». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، تصف الكلمة كلًا من وزارة الحقيقة ووزارة الحب.

استلهم ويلز -غير آسفٍ- إدوارد بِلامي، إلى درجة جَعْل بطله النائم جرهام يقرُّ بأن رواية «النظر إلى الماضي» «تنبَّأت بشكل يثير الدهشة بهذه الأحداث الواقعية». لكن عند استيقاظ جرهام من سُباته بعد 203 سنة، لم يجد جنَّة اشتراكية، بل وجد أن لندن تطوَّرت إلى مدينة عملاقة يقطنها ثلاثة وثلاثون مليون نسمة: «خليَّة زجاجية عملاقة» ازداد فيها الأثرياء ذوو الامتيازات ترفُّلًا في «مدن المتعة»، بينما ترزح الجموع العريضة أسفلهم في البؤس. وفقًا لويلز: «هذه حال عالمنا المعاصر مع كثير من المغالاة».

منابع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» -وبالأحرى كل الأدب الديستوبي- تنبع من هنا. دور التكنولوچيا في الحفاظ على سيطرة الدولة. ارتداء الجموع المستعبدة زيًا أزرق موحَّدًا مثل حزب أورويل الخارجي، ومشيهم على الصراط خوفًا من «شرطة العمل». نشأة الأطفال في حضانات الدولة. تحريق الكتب وتفشِّي المواد الإباحية واختزال اللغة الإنجليزية إلى درجة فادحة. حلول الفونوجرافات محلَّ الطباعة، وكذلك «الكينتوتيليفوتوجرافات»، هذه الأخيرة هي نسخة ويلز من شاشات الرصد. في كل شارع

تصدح آلات ثرثارة بالبروباجندا والإعلانات و «العامية المبتذلة»، ويقف المنوِّمون إيحائيًا مستعدِّين «لطبع ذكريات دائمة على العقل... وفي المقابل يمكن محو الذكريات وإزالة العادات والقضاء على الرغبات... وهي أنواع من الجراحات النفسية كانت في واقع الأمر شائعة». مشكلة «كابوس انتصار الرأسمالية» الخاص بويلز أنه لم يكن كابوسًا بالكامل. كتب أورويل: «إنه يعاني من تناقضات هائلة. لأن ويلز -كبير كهنة التقدُّم- لا يستطيع في حقيقة الأمر الكتابة بشكل مقنع ضد التقدُّم».

في أثناء سُبات جرهام الطويل، تجعله فائدة المصرف المركَّبة ثريًا بدرجة لا يمكن وصفها. يصير «سيِّد الأرض» شبه الإله، بينما يحكم العالم أُمناؤه -أعضاء المجلس الأبيض- بالنيابة عنه. إن صحوته لم تأت مصادفةً، بل هي مؤامرة لتسهيل انقلاب بقيادة من يُدعى أوستروج، وهو رجل نيتشوي قوي ووحشي يحارب الاشتراكية والديموقراطية باعتبارهما «أحلامًا بالية من القرن التَّاسع عشر». قبل أن يتمكن جرهام من إقناع نفسه بقتال أوستروج، عليه كبح جماح إعجابه بالحُكَّام القساة الأكفَاء وآلاتهم الرائعة، وعليه أن يُطوِّر عاطفة أخوَّة تجاه «الحشود البشعة». يبدو ويلز خائب الأمل مثل جراهام لاكتشافه أن هذه الدولة المتقدِّمة تقنيًا لا تتماشى مع الحرية، واصفًا ثورة بطله المتضاربة بأنها «نزوة من القصور العاطفي إزاء أمورٍ لا مفر منها». يضع المؤلِّف على لسان أوستروج مونولوجًا بارعًا: الشر:

> ما أمل البشرية؟ أن الإنسان الأعلى قد يأتي يومًا ما؛ أن يومًا ما قد تُحكم السيطرة على الضعفاء والهمج ومن هم أدنى أو يُقضى عليهم... ليس العالم مكانًا للمعيبين

والأغبياء والواهنين. واجبهم المُجتمعي أن يموتوا، وهذا لعمري واجب نبيل! إن موت الفشل هو السبيل الذي ارتقت به الوحوش وصارت بشرًا، وهذا هو السبيل الذي سيرتقي به البشر ليصيروا مخلوقات أسمى.

لكن أوستروج هو نسخة ضارة من النخبويين المتمكّنين المناهضين للديموقراطية الذين سيقضي ويلز بقية حياته في إعلاء قيمتهم. يشير اسم الشخصية إلى مويسي أوستروجورسكي، وهو عالم سياسي روسي كان ويلز معجبًا بعمله.

***

مع اقتراب القرن الجديد، رأى ويلز فجوة في السوق الأدبية لرجل يستطيع وصف شكل الأيّام القادمة. «أنا رجل المستقبل لهذا العام»، هكذا أخبر وكيله في عام 1899. كان العالم يدخل عصر السيّارات والأفلام السينمائية والطائرات، عصر الاشتراكية والنسوية وحرية الحب (وهي قضيّة منحها ويلز اهتمامًا شخصيًا كبيرًا)، عصر الثورات في كل مناحي الحياة. «لقد تفكّك النظام المحلّي القديم أو يجري الآن تفكيكه في جميع أنحاء الأرض. في كل مكان تتحلّل المجتمعات، في كل مكان يطفو البشر وسط حطام تقاليدهم التي أغرقتها المياه»، هكذا كتب في رواية «يوتوبيا حديثة» عام 1905. وكما عبّر عن مخاوف تسعينيات القرن التّاسع عشر، كان يسعى الآن للتعبير عن آمال بدايات القرن العشرين الكبيرة، ولم يعد الأدب كافيًا.

وصف ويلز كتابه «توقّعات تأثير التقدّم الميكانيكي والعلمي في حياة الإنسان والفكر البشري» بأنه «حجر الأساس في جدار

أعمالي». بخلاف رومانسياته العلمية، كان من المفترض أن يكون هذا العمل «تنبُّؤًا رصينًا» غير مسبوق مبنيًا على اتِّجاهات معاصرة: فرع من المعرفة سمَّاه «علم البيئة البشري». أخبر ويلز صديقًا له بأن التنبُّؤات التقنية كانت مجرَّد طُعم، أما كتاب «التوقُّعات» فـ «يهدف إلى زعزعة وتدمير الملكية، والزواج التقليدي، والإيمان بالله وبقيمة الاحترام، والإمبراطورية الإنجليزية؛ كل ذلك تحت ستار من التكهُّنات حول السيَّارات والتدفئة الكهربائية».

كان لدى ويلز اعتقادٌ راسخ بأن التقدُّم العلمي غير متوافق مع الهياكل الاجتماعية والسياسية الحالية. لذلك كان يرى أن أفضل أمل للبشرية هو إنشاء دولة عالمية واحدة تحكمها نخبة جديرة بالثقة. في كتاب «التوقُّعات»، سُمِّيت هذه الزمرة الحاكمة بـ«الجمهورية الجديدة»، تيمُّنًا بأفلاطون. في أعمالٍ لاحقة سمَّاها «الساموراي»، ثم «المؤامرة العلنية». في حين ما بقي جوهر الفكرة الأساسية على حاله، واصل ويلز تغيير رأيه حول من يجب أن يكونوا أعضاء هذه النخبة، وكيف ينبغي لهم إعادة تنظيم المجتمع، وما إذا كان يمكن الوثوق بهم بعدم إساءة استغلال السلطة. كان چوزيف كونراد سريعًا في تحديد نقطة ضعف ويلز القاتلة: «بوجهٍ عام، مشكلتي معك هو أنك لا تراعي بقدرٍ وافٍ الحماقة البشرية المتمثِّلة في المكر والغدر». لم يكن الأمر أن ويلز لا يدرك اللا عقلانية، أكثر من أنه يؤمن بقدرة الرجال العظماء في التغلب عليها وإخمادها في نهاية المطاف.

كانت رؤية ويلز مثيرة للإعجاب -وقد سبقت توقُّعاتُه بوجود ثلاثة تكتُّلات عالمية بحلول عام 2000 دُولَ أورويل العُظمى

أوقيانيا وأوراسيا وإيستاسيا- لكن اقتناعه بأن أكبر عائق أمام التقدُّم هو الزيادة السكَّانية جعله يضل ضلالًا كبيرًا في الفصل الأخير، الذي يبدو سرده المريع كأنه كُتِب بتعاونٍ بين مالتوس وأوستروج ورجل المدفعية. كان حلُّه مشكلة «الناس الأدنى» الذين سمَّاهم «أهل الهاوية» -في حقيقة الأمر- هو الإبادة الجماعية: «حسنًا، العالم مجرَّد عالم، وليس مؤسَّسة خيرية، ولذا أرى أنه يتعيَّن عليهم مغادرته». فكرة أن «الجمهورية الجديدة» سيكون لها «إطار فكري يسوِّغ القتل» جلبت عليه نقدًا حادًا من القرَّاء الذين كان من ضمنهم جلبرت شيسترتون وآرثر كونان دويل، وتكبَّد عناءً كبيرًا لإصلاح الأمور في تخيُّلاته المستقبلية اللاحقة. ومع ذلك، ظلَّت البشرية فوضى تحتاج إلى ترتيب من وجهة نظره.

بخلاف خاتمته المزعجة، نجح كتاب «التوقُّعات» نجاحًا كبيرًا حين نُشر عام 1901. فجأة، بدأت بريطانيا ترى في إتش جي ويلز المفكِّر العميق الذي يراه في نفسه. عندما كتب الروائي والناقد أرنولد بينيت -أحد أقرب أصدقائه- ليقول إنه يجب أن يكون إما «أحد أبرز الرجال على قيد الحياة» وإما رجل شديد الثقة بالنفس، رد ويلز: «ليس هذا توهُّمًا. أنا عظيم». حوَّله الكتاب من روائي شعبي إلى مفكِّر مرموق، وصار جواز سفره إلى العظمة والخير. انضم إلى «الجمعية الفابية» وإلى «الأكفَاء»، وهي جماعة غير رسمية من السياسيين والفلاسفة البارزين. وجدت بياتريس ويب -العضوة الرائدة في كلتا المجموعتين- أن هذا الوافد الجديد يبعث على السخط والسرور على حدٍّ سواء بتصميمه على التخلُّص من التفكير التقليدي كي يصبح «مستكشفًا لعالم جديد».

على الرغم من أن كتاب «التوقُّعات» رسَّخ ويلز في المجتمع الأدبي وجعل منه نبيًّا، عوَّقه بصفته كاتب رومانسيات علمية. في خضم مهمَّته للترويج لعالم أفضل، فقد ويلز المذاق الحرِّيف الذي جعل قصصه الأولى مقنعة جدًّا، وأصبح تربويًّا وفاترًا بشكل متزايد. على مدار العقد التالي أو نحو ذلك، جرَّب العديد من المسارات الخيالية للكتابة عن اليوتوبيا في أعمال مثل «طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض» و «أيَّام المذنَّب» و «الحرب الجوِّية» و «تحرير العالم»، الأخيرة تنبَّأت بالقنابل الذرية قبل اثنين وثلاثين عامًا من إلقائها. «السماء تذود عنَّا من يوتوبياته، لكننا نحب انفجاراته»، هكذا صرخ ناقد مجلَّة «ذا نيشن».

أكثر إنجاز كان ويلز يفخر به هو «يوتوبيا حديثة»، التي تحكي عن رجلين يتنزَّهان في جبال الألب يتعثَّران في أرضٍ موازية يحكمها الساموراي، وهي طبقة متزمِّتة من «النبلاء المتطوعين». في أحد مستوياته، كان الكتاب جدالًا مفتوحًا مع الجميع، من مور وبيكون إلى بِلامي وموريس، ويسخر من «قوانينهم الخيالية التي تناسب بشرًا مذهلين». حاول ويلز إعادة تقديم الحرية والفردية والخصوصية والمرح إلى ضربٍ معروف بكماله «الغريب واللا إنساني»، وتقديم فكرة التغيير الحيوي بدلًا من الرخاء الممل: هذه يوتوبيا «نشطة» لا يوتوبيا «ساكنة». كانت الرواية أيضًا تحسينًا على كتاب «التوقُّعات» باستعراضها المساواة بين الجنسين وبين الأعراق والأشكال أخف من السيطرة على السكان. لم تكن أرض ويلز الموازية المتَّسمة بالكفاءة عالمًا مثاليًا، بل كانت عالمًا أفضل فحسب. كانت «أشبه بمحرِّك جيِّد التزييت قابع بجوار

كومة خردة». اختتم ويلز قائلًا: «ستكون هناك يوتوبيات كثيرة. كل جيل سيكون لديه نسخة جديدة من اليوتوبيا أكمل وأوقع وأكثر قابلية للتحقيق».

وهو في سن المراهقة، جذبت رواية «يوتوبيا حديثة» أورويل، لكن المرء لا يستطيع تخمين ذلك أبدًا من كتاباته اللاحقة عن ويلز. كتب أورويل في عام 1943: «كلنا نريد إلغاء الأشياء التي يريد ويلز إلغاءها، لكن هل يُوجد أيُّ شخص يرغب حقًّا في العيش في يوتوبيا ويلزية؟ على النقيض من ذلك، أصبح عدم العيش في عالم كهذا، وعدم الاستيقاظ في ضاحية خضراء نظيفة مليئة بالمدرِّسات الصارمات العاريات، دافعًا سياسيًّا واعيًا». اعتقد أورويل أن هتلر دليلًا على ذلك. بدلًا من السلام والرخاء، وعد الفوهْرر الشعب الألماني بـ«المعاناة والخطر والموت»، وقد شرب الشعب هذا الكلام.

ضاق صدر بعض معاصري ويلز من يوتوبياته أيضًا. اختلف جوزيف كونراد معه في ذلك الوقت قائلًا: «الفرق بيننا يا ويلز جوهري. أنت لا تكترث بالجنس البشري لكنك تظن أنه سيتحسَّن. أنا أحب الجنس البشري لكنني أعرف أنه لن يتغيَّر!». نعت كليمنت أتلي ويلز بالمصلح العلمي النموذجي «المنكوب بخطيئة العجز عن تلمُّس العذر لمختلف الحساسيات الفردية».

في هذه الأثناء، شعر إي إم فورستر برغبة في الرد عن طريق قصَّة قصيرة. في عام 1909، نشر فورستر الرواية القصيرة «الآلة تتوقَّف» بين روايتي «غرفة مُطلَّة على منظر جميل» و «منزل آل هاورد»، وكانت حسب اعترافه «ضربة مضادة لواحدة

مـن يوتوبيـات إتـش جـي ويلـز»، ويـا لهـا مـن ضربـة عبقريـة ممتدَّة التأثيـر! كان القـرن العشـرون يمـلأ نفـس فورسـتر بالخـوف، وكتـب فـي مذكِّراتـه: «لقـد وُلِـدت فـي نهايـة عصـر السـكينة ولا أتوقَّـع الشـعور بشـيء غيـر القنـوط. العلـم يجعـل البشـر عبيـدًا للآلـة بـدلًا مـن أن يحرِّرهـم... بئـس الأمـل المُرتَقـب! لسـوف تُجـرَف البيـوت الصغيـرة التـي آلفُهـا، ومـن الحقـول سـتفوح رائحـة النفـط، ويومًـا مـا سـتحطِّم المناطيـد البخاريـة النجـوم». ولأنـه مسـتجدٌّ بالكامـل فـي أدب الخيـال العلمـي، سـرق فورسـتر معظـم أفـكاره المسـتقبلية مـن كتـب مثـل «يوتوبيـا حديثـة» و «عندمـا يسـتيقظ النائـم» و «أوَّل رجـال علـى القمـر»، قالبًـا خيـال ويلـز ضدَّه. مواطنـو دولـة فورسـتر المسـتقبلية الجوفيـة يعيشـون فـي شـرنقة متقدِّمـة تقنيًـا. كل مـا يحتاجـون إليـه مـن إضـاءة وهـواء وطعـام ومـاء وموسـيقى ورفقـة تُقدِّمـه لهـم الآلـة المقدَّسـة. يسـتطيع البشـر الذيـن أضعفهـم عـدم النشـاط وحوَّلهـم إلـى كائنـاتٍ رخـوة إلقـاء المحاضـرات والتحـدُّث إلـى «عشـرات الآلاف» مـن أصدقائهـم حـول العالـم عبـر الفيديـو، فـي تكهُّنٍ صائـب بيوتيـوب وسـكايب وفيسـبوك. لا تـزال بعـض المناطيـد البخاريـة فـي الخدمـة، ولكـن قلَّـة فقـط مـن يهتمُّـون باسـتخدامها لأن الآلـة جعلـت كل الأماكـن متشـابهة: «مـا فائـدة الذهـاب إلـى بكيـن وهـي نسـخة مـن شـروزبري؟». كلمـا ازدادت قـوَّة الآلـة زاد اعتمـاد النـاس عليهـا، وكلَّمـا زاد الاعتمـاد عليهـا ازدادت قوَّتهـا. التكنولوچيـا فـي حـد ذاتهـا هـي المُسـتبدَّة. «لقـد جـاء التقـدُّم ليعنـي تقـدُّم الآلـة».

فـي النهايـة، تتعطَّـل الآلـة بصـورة غامضـة، لكـن النـاس صـاروا مُسـتعبدين إلـى درجـة تحـول دون احتجاجهـم. يتحمَّـل البشـر ميـاه

الحمام الآسنة والفاكهة الصناعية المتعفِّنة حتَّى يأتي اليوم النهائي الذي تنهار فيه الحضارة. تتضمَّن أسطورة فورستر عن إدمان التكنولوچيا فكرة أورويلية واحدة لافتة للنظر. في مجتمع تصبح فيه «الحقائق المطلقة» بغيضة، يُعاد كتابة التاريخ إلى ما لا نهاية إلى أن يتحقَّق الكمال عن طريق الجيل «فاقد الهوية تمامًا» الذي «لن يرى الثورة الفرنسية كما حدثت بالفعل، ولا كما يودُّ لو أنها حدثت، بل كما كانت ستحدث لو وقعت في عهد الآلة».

مثل هذا الرد المفصَّل لهو دليل على تأثير ويلز الثقافي. ملأت رواية «يوتوبيا حديثة» ويلز بثقة كافية لمحاولة إحداث انقلاب من شأنه أن يحوِّل «الجمعية الفابية» التي تعتنق مبدأ التدرُّجية إلى أخوية ساموراي ثورية: هذا الانقلاب كان «حملة مضطربة ومضجرة، غير مدروسة وغير فعالة» سيعتبرها لاحقًا الحلقة الأكثر إحراجًا في مسيرته المهنية. كان العمل مع أشخاص آخرين مهارة لن يتعلمها ويلز أبدًا. علَّق ويب قائلًا: «إنه لا يمتلك الصبر ولا الأخلاق الحميدة اللازمة للجهود التعاونية، وفي الوقت الحالي من المحتمل أن يكون غروره مُعوِّقًا». مثل بِلامي وأورويل، لم يقبل ويلز النسخة السائدة من الاشتراكية (كان يُعدُّ الماركسية «وباءً عقليًّا مُضعِفًا»)، لذلك كان عليه أن يضع «خطَّته الخاصة لإعادة بناء الحياة البشرية، من أجل استبدال النظام بالاضطراب، من أجل إقامة دولة تعيش فيها البشرية بشجاعة وبهاء أبعد من تصوُّرنا الحالي».

حصَّنت غطرسةُ ويلز ونفادُ صبره أورويل ضد فيروسي الفاشية والشيوعية، اللذان أصابا كثيرًا من معاصريه في الفترة

بين الحربين. فلا يمكن لأيديولوچية شخص آخر أن تنافس الخطط الرائعة في رأسه.

* * *

من الشائع التساؤل كيف كانت ستكون سُمعة أورويل حاليًا لو أنه عاش بعد سنِّ السَّادسة والأربعين، لكن التساؤل عمَّا كان سيحدث لو لم يعش ويلز لما بعد هذه السنِّ مثيرٌ بالمثل. كتب أورويل: «كثيرٌ من الكُتَّاب –ربما معظمهم– يُستحسن أن يتوقَّفوا عن الكتابة عند وصولهم إلى منتصف العمر. للأسف لن يسمح مجتمعنا له بالتوقف». كان يظنُّ أن حتَّى أفضل الكُتَّاب يتمتَّعون فقط بخمسة عشر عامًا من العبقرية، وكان يستعرض مسيرة ويلز المهنية كمثال. بين روايتي «آلة الزمن» في عام 1895 و«صحوة النائم» في 1910، كتب ويلز كل رواياته الباقية: الرومانسيات العلمية، واليوتوبيات الأكثر إقناعًا، والروايات الهزلية عن إحباطات الطبقة الوسطى مثل «تاريخ السيِّد بولي»، والكتاب الذي اعتبره دُرَّة تاج أعماله: «تونو بانجي».[21]* لو كان قد عاش عمرًا كعمر أورويل بالضبط، لمات في 19 أبريل عام 1913، ولظلَّت سمعته ناصعة لا تشوبها شائبة، لكنه عاش ثلاثة وثلاثين عامًا آخر لتزلّ قدمه.

تنبَّأ ويلز بحربين عالميتين في روايتي «الحرب الجوِّية» و«تحرير العالم»، واحدة منهما بدأتها ألمانيا. في الواقع عندما انضم فورد مادوكس فورد إلى الجيش ووصل إلى الجبهة الغربية، كان رأسه يعجُّ بتحذيرات ويلز المسبقة إلى درجة أنه لم يتفاجأ.

21–* كانت رواية «كيبس» هي النموذج الذي قصده أورويل عندما وصف روايته «من أجل استنشاق الهواء» بأنها «أشبه بويلز بعد تخفيفه. أكنُّ لويلز إعجابًا كبيرًا بصفته كاتبًا. وقد كان مصدر إلهام مبكِّرًا جدًا لي». لاحظ تعبير «بصفته كاتبًا»، وليس بصفته مفكِّرًا. (المؤلف).

لكن في قرارة نفسه، لم يكن ويلز يظن أن الحكومات معتوهة بما يكفي للسماح بحدوث ذلك بالفعل. وما أن وقعت الحرب، لم يستطع أن يقبل أن مثل هذه الكارثة لن تصدم البشرية وتعيدها إلى رشدها. في مساء 4 أغسطس 1914، اليوم الذي أعلنت فيها بريطانيا الحرب على ألمانيا، جلس ليكتب مقالة تصدَّرها ذلك العنوان الذي لا يُنسى للأسف: «الحرب التي ستنهي كل الحروب».

كانت الحرب تُفكِّك ويلز جسديًا (بدأ شعره يتساقط) وعقليًا. صار وطنيًا متطرِّفًا شرسًا إلى درجة أن بعضًا من أصدقائه دعاة السلام لم يسامحوه قط. ثم أثار غضب معجبيه العلمانيين من خلال المرور بتحوُّلٍ ديني غريب قصير الأجل. كان يحب زعم أنه من ابتكر الدبَّابة في قصَّة عام 1903 «المدرَّعات الأرضية» (إلى أن قاضاه الرجل الذي فعل ذلك)، وشعر بأنه مضطهد لأن الجيش رفض الاستفادة الكاملة من عبقريته. في عام 1918، استقطب مالك صحيفة «ديلي ميل» ومدير الدعاية الجديد اللورد نورثكليف ويلز للمشاركة في المجهود الحربي، واستأجره لكتابة صحفٍ مزيَّفة يمطرون بها الجنود الألمان لتقويض معنوياتهم. استمر في هذا العمل بضعة أسابيع.

كان ويلز يستطيع التنبُّؤ بالآلات، ولكن ليس بالطريقة التي ستتفاعل بها مع الطبيعة البشرية. على سبيل المثال، كان يعتقد أن الحرب الجوِّية -بمحوها الفرق بين العسكري والمدني- ستكون مروِّعة إلى درجة لا يجرؤ معها أحد على المشاركة فيها. أما في الواقع، أثبتت الدول بشكل ملحوظ راحتها الكبيرة في إبادة الأبرياء من ارتفاعاتٍ عالية. ثم اعتقد بعدها أن مثل هذه الحرب الكارثية

ستؤدي قطعًا إلى «موجة من التعقُّل» من شأنها أن تُسقط النزعة العسكرية والإمبريالية والأرستقراطية، وتقود إلى اتِّحاد عالمي للدول الاشتراكية. ولذلك ألقى بنفسه في الحركة الداعية لتشكيل عصبة الأمم بعد الحرب، لكن سرعان ما نفد صبره بشكل متوقَّع نتيجةً لقصور الرؤية. مرَّة أخرى، شعر بأنه عملاق محاطٌ بالأقزام، وبدأ يشعر بأن سلطته وسمعته يتراجعان. في مقالٍ مدمِّر بعنوان «المرحوم السيِّد ويلز»، اختتم الناقد إتش إل مينكن كلامه قائلًا: «إنه يعاني من عقدة المخلِّص، وبمجرَّد أن يبدأ المرء في المعاناة من عقد المخلِّص، تنتهي أيَّامه كفنَّان جاد».

غيَّرت الحرب كل شيء. تذكَّر أورويل لاحقًا أنه في عام 1918 «كان بين الشباب طائفة تكره كبار السن واعتبرت هيمنة كبار السن مسؤولة عن كل شرٍ عرفته البشرية». في سنِّ الثانية والخمسين، كان ويلز يصنِّف «كبير السن»، وأخبر أرنولد بينيت: «انتهت ازدهارتي. لقد حظيت بها ومرَّت. أنا من الماضي الآن».

لكن ويلز كان يؤمن دائمًا أنه يستطيع البدء من جديد، واختار انتزاع نفسه من براثن ذعر ما بعد الحرب بكتابة عمل ليس أقل من تاريخ الجنس البشري الكامل. استطاع كتابه الملحمي «موجز تاريخ العالم» الذي نُشر عام 1920 تعويض ما افتقر إليه من دقَّةٍ تاريخيةٍ بالحيوية، واستطاع المرور بالقارئ -كما قال ونستون تشرشل- «من السُّدُم إلى الشيوعية الدولية». في نظر ويلز، كان للتاريخ إيقاعٌ ودورة. تنهض الأمم بالطاقة الإبداعية لطبقة تشبه الساموراي، ويصيبها الركود في ظلِّ قيادة البيروقراطية القمعية، ثم تنحدر في النهاية إلى الهمجية. كان يعتقد أن العالم الآن في المرحلة الثانية، ويتطلَّب جيلًا جديدًا من الساموراي للبدء مرة أخرى.

باع كتاب «موجز تاريخ العالم» مليوني نسخة في المملكة المتَّحدة والولايات المتَّحدة وحدهما. مع انتفاخ كلٍّ من حسابه المصرفي وغروره مرَّة أخرى، كان ويلز على استعداد لمواجهة العالم من جديد. قبل دعوة الروائي الروسي مكسيم جوركي -الذي التقاه في نيويورك عام 1906- لزيارة روسيا ما بعد الثورة، وهي رحلة تضمَّنت حوارًا مع لينين نفسه. لدهشته، وجد ويلز لينين «رجلًا صغيرًا مذهلًا» براجماتيته «منعشة تمامًا» بالنسبة إلى ماركسي. للأسف لم يكن الإعجاب مُتبَادلًا. وفقًا لتروتسكي، قال الزعيم الروسي عنه: «يا له من برجوازي ضيِّق الأفق! ما هذا القرف! يا له من جاهل!»

لم يفلح نجاح «موجز تاريخ العالم» في تخليص ويلز من الشعور الممض بأنه يهدر وقته وموهبته، ولم تفلح عودته الحذرة إلى مستنقع السياسة عن طريق الانضمام إلى حزب العمل والترشُّح مرَّتين (دون جدوى) في البرلمان في التخفيف من استيائه. كانت حياته العاطفية في حالة يرثى لها، حيث أن عدم قدرته على الاختيار بين زوجته چين التي تعاني من المرض منذ فترة طويلة وعشيقته القديمة ريبيكا ويست، دفعت وست إلى إنهاء علاقتهما في عام 1923. في رحلة إلى چنيف، وقع ويلز في حب كاتبة تُدعى أوديت كيون وبدأ يقضي الوقت معها في الريڤييرا الفرنسية، حتَّى بينما كانت چين تموت بالسرطان لاحقًا. لقد هزم الملل -عدوُّه اللدود- مرَّة أخرى. ومع ذلك، صار الملل مشكلة متزايدة لقرَّائه، لأن ويلز صب جلَّ تركيزه على نسخته الأخيرة من النخبة الحاكمة التي سمَّاها هذه المرَّة «المؤامرة العلنية». في رواية «رجال

كالآلهـة»، يسـتعيد صحفـي قلـق مثقـل بالعمـل حيويتـه بالسـقوط إلـى أرض مثاليـة فـي كـونٍ مـوازٍ ذبـل فيهـا مفهـوم الدولـة. ثـم يعـود إلـى العشـرينيات عازمًـا علـى «ألا يكـف أو يرتـاح مـرَّة أخـرى حتَّـى تصبـح الأرض القديمـة مدينـة واحـدة، وتقـام فيهـا المدينـة الفاضلـة». فـي روايـة «الحلـم»، يحلـم عالـم فـي عـام 4000 بحيـاة الإنسـان العـادي فـي ظـلِ «العالـم الـذي يسـكنه الخـوف» فـي أوائـل القـرن العشـرين. ظـل ويلـز متفانيًـا فـي شـرح أحلامـه -وهـو مسـعًى محفـوف بالمخاطـر دائمًـا- لكـن القـرَّاء فضَّلـوا كوابيسـه.

عبَّـر أورويـل عـن عـدم حبِّـه لروايتـي «الحلـم» و «رجـال كالآلهـة» فـي كتـاب «الطريـق إلـى رصيـف ويجـان البحـري». شـعر أن يوتوبيـات ويلـز المريحـة مأمونـة العواقـب، مـن خـلال إزالتهـا لـكل الألـم والخطـر، مـن شـأنها أن تُضعـف العديـد مـن الصفـات الإنسـانية التـي يقدِّرهـا ويلـز. كان ويلـز يعتقـد أن مسـألة اسـتخدام الآلات للتحريـر أو الاسـتعباد، للرفـع أو للتدميـر، هـي مسـألة قيـادة. مثـل فورسـتر، شـعر أورويـل أن ويلـز لـم يسـتطع قبـول فكـرة أن الآلـة نفسـها قـد تكـون المشـكلة: «إنهـا مركبـة متلألِئـة ضخمـة تسـير بنـا إلـى حيـث لا نعلـم، لكـن ربَّمـا نحـو عالـم ويلـز المريـح وأحـلام الدمـاغ فـي الوعـاء»[22]. فـي الفصـل ذاتـه، أثنـى أورويـل علـى «عالـم جديـد شـجاع» لألـدوس

22- دمـاغ فـي وعـاء: مصطلـح فلسـفي متـداول فـي عِـدَّة تجـارب فكريـة، ويُقصـد بـه تسـليط الضـوء علـى مفاهيـم الإنسـان عـن المعرفـة والواقـع والحقيقـة والعقـل. المصطلـح مسـتمد مـن قصـص الخيـال العلمـي التـي يفصـل فيهـا عالـم مجنـون دمـاغ شـخص مـا عـن جسـده ويحتفـظ بـه فـي وعـاء يحـوي سـائل حافـظ للحيـاة، ثـم يوصِّـل الدمـاغ بحاسـوب متطوِّر عـن طريـق أسـلاك، بحيـث يصنـع الحاسـوب للدمـاغ محـاكاة تبـدو حقيقيـة. عندهـا سـيواصل الشـخص الـذي أزيـل دماغـه الشـعور بتجـارب حياتيـة لا علاقـة لهـا بمـا يجـري فـي العالـم الحقيقـي. (المترجـم).

هكسلي ووصفها بأنها «هجومٌ لا يُنسى على أفكار المثالية والكمال المبالغ فيها. السماح للمبالغات الكاريكاتورية ربما يعبِّر عمَّا يشعر به غالبية المفكِّرين تجاه حضارة الآلة». كان لويلز علاقة معقَّدة مع عائلة هكسلي. غيَّر توماس حياته، وساعده جوليان حفيد توماس في تأليف كتاب الأحياء الدراسي «علم الحياة» عام 1929، والآن ها هو ألدوس شقيق جوليان يسخر من يوتوبياته. بعد عقود، قال هكسلي لمجلَّة «باريس ريڤيو» أن «عالم جديد شجاع» بدأت كمحاكاة ساخرة لرواية ويلز «رجال كالآلهة»، لكنها «خرجت تدريجيًا عن السيطرة وتحوَّلت إلى شيءٍ مختلف تمامًا عمَّا قصدته في الأصل».

* * *

إن روايتي «عالم جديد شجاع» و «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» توأمتان أدبيتان إلى درجة مربكة. معظم القرَّاء يكتشفونهما في نفس العمر تقريبًا، ويبتاعون الاثنتين بثمن واحدة في صفقة ديستوبية كلاسية جيِّدة، وبالتالي يرون أنهما نبوءتان متنافستان، كما لو أن كلا المؤلِّفين مُنح -في الوقت نفسه- الموجز ذاته كي يتنبَّأ بالمستقبل، وعلينا الآن أن نقرِّر أيَّهما النسخة الأدق: المتعة أم العقاب؟ الجنس أم الموت؟ نشوة عقار السوما أم الحذاء الذي يطأ وجه الإنسان؟ من منهما أصاب؟

حاول هكسلي في وقتٍ لاحق تعديل «عالم جديد شجاع» لتكون نبوءة جادة، مع التأكُّد من إبلاغ أورويل بالتالي: «أشعر أن كابوس «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مقدَّرٌ له التحوُّل إلى كابوس حقيقي أكثر من ذلك الذي تخيَّلته في «عالم جديد شجاع»».

لكنه كتبها في صورة هجاءٍ سويفتي.[23] في أثناء العمل عليها في فرنسا خلال صيف عام 1931، صرَّح في إحدى رسائله: «أنا أكتب رواية عن المستقبل، عن رعب اليوتوبيا الويلزية والثورة ضدها. إنه أمر بالغ الصعوبة. لا أملك خيالًا كافيًا للتعامل مع هذا الموضوع». لذلك استخدم خيالَ شخص آخر. إن «عالم جديد شجاع» مليئة بالأفكار الويلزية التي سُخِّفت أو جُعلت شريرة. لقد سخر هكسلي قبل ذلك من مشاريع ويلز الوهمية في روايتي «أصفر بلون الكروم» و«مقارعة الحجَّة بالحجَّة»، ووصفه سرًّا بأنه «رجلٌ سوقيٌّ مبتذل ضئيل الحجم»، وكتب مجموعة مقالات تعبِّر عن القلق من التقدُّم التكنولوجي. «لم يعد البشر يُسلُّون أنفسهم بطريقة خلّاقة، بل يقعدون بلا حراك ويحصلون على تسليتهم بشكلٍ سلبي من الأجهزة الميكانيكية»، هكذا اشتكى على طريقة دودة اسبينوزا.[24] تُفتتح «عالم جديد شجاع» باقتباس من الفيلسوف الروسي نيكولاس بيردِيايف يقول: «تبدو اليوتوبيات أكثر قابلية للتحقيق ممَّا افترضنا سابقًا. والآن نجد أنفسنا نواجه

23- نسبة إلى جوناثان سويفت. (المترجم).

24- في رسالة شهيرة يعود تاريخها إلى عام 1665، يشرح اسبينوزا العلاقة بين الجزء والكل مستخدمًا تشبيهًا بيولوجيًا. يطلب اسبينوزا من القارئ تخيُّل دودة صغيرة تعيش في مجرى دم كائنٍ آخر: هذه الدودة صغيرة جدًا إلى درجة أنها قادرة على تمييز جزيئات الدَّم الفردية وحركتها وطريقة تفاعل بعضها مع بعض. يوضِّح اسبينوزا أن مثل هذه الدودة سيكون لها نظرة عالمية مختلفة تمامًا عن رؤيتنا: فهي غير قادرة على رؤية مجرى الدم على أنه (نظام موحَّد) في حدِّ ذاته، فضلًا عن عجزها عن إدراك الجسم نفسه الذي يحتوي على الدَّم واعتباره نظامًا كاملًا في حد ذاته. وهكذا يحدِّد منظور الراصد (الدودة في المثال) ما يُرى على أنه جزء وما يُرى على أنه كل. ثم يقدِّم عددًا من الاستنتاجات المثيرة للاهتمام من المثال، والتي لا مجال للخوض فيها هنا. (المترجم).

سؤالًا مؤلمًا بطريقة جديدة تمامًا: كيف يمكننا تجنب تحقُّقها في نهاية المطاف؟»

كان هكسلي يكتب في عالم مختلف عن عالم أورويل. على الرغم من أن موسوليني وستالين كانا في الحكم بالفعل، كانت الحقبة الشمولية في مهدها. ولم يكن هكسلي يفكّر في أوروبا حقًّا. في عام 1926، أبحر من آسيا إلى كاليفورنيا وقضى بضعة أسابيع يُذكي نيران فرعنته من خلال استكشاف المجتمع الأمريكي في ذروة عصر الجاز. على متن السفينة، وجد نسخة من سيرة هنري فورد الذاتية «حياتي وأعمالي»، التي أصبحت أساس الديانة الميكانيكية في «عالم جديد شجاع»: الفوردية. كان يخطط للعودة إلى أمريكا ذات يوم، «فقط لمعرفة الأسوأ، كما ينبغي للمرء أن يفعل من وقتٍ إلى آخر».

دولة هكسلي العالمية (وهي عبارة تحمل نقدًا صارخًا لويلز) ليست محكومة بالحديد والنار، وإنما بالمخدّرات، والتنويم الإيحائي، والتسلية، وبنظام طبقيٍّ معدَّل وراثيًا، يبدأ من النخبة ألفا الأعلى وينتهي بطبقةِ الإبسيلون العمّالية الأدنى. استندت الرواية باستعراضها ناطحات السحاب والسَّحّابات[25] والعلكة

25- ربّما تكون رمزية السَّحّاب أو الزمام المنزلق (السُّوستة)، هذا الابتكار اليسير الذي نستخدمه في عصرنا من دون تفكير، قد ضعفت مع مرور الزمن. لكن في وقت كتابة «عالم جديد شجاع»، كان السَّحّاب لا يزال شيئًا جديدًا، خصوصًا في ملابس النساء، التي لم يصل إليها سوى في الثلاثينيات. في الرواية، كل النساء يرتدين ملابس بسحّابات، ما يرمز إلى سهولة الوصول إلى أجسادهن، ومن ثم المتعة الجنسية. لذا يُشكّل السَّحّاب في «عالم جديد شجاع» نوعًا من الفيتيشية الجنسية. (المترجم).

والهواتف الجنسية و «الأفلام الملموسة» (وهي نسخة محسوسة من السينما الناطقة) بشكل كبير على رحلاته في أمريكا، حيث وصف لوس أنجلوس بأنها «مدينة المتع المخيفة». سيقضي هكسلي آخر ستٍّ وعشرين سنة من حياته في كاليفورنيا، لكن انطباعه الأوَّل عنها كان سيِّئًا: «إنها مليئة بالحركة والضوضاء، مثل بقبقة الماء في حوض الاستحمام وهو يمرُّ عبر البالوعة إلى المجارير». لم يقتصر هجاء هكسلي على أمريكا. لقد سخر أيضًا من فرويد وجون مينارد كينز، وعن طريق تخيُّل ما سمَّاه «محمية الهمج»، سخر من فكرة الهمجي النبيل والشاعرية البدائية التي يتبنَّاها صديقه الرَّاحل دي إتش لورانس. وعن طريق تسمية شخصياته بأسماء روَّاد الصناعة والماركسيين والملحدين والعلماء والأطباء النفسيين والسياسيين، ألمح هكسلي ضمنيًا إلى أن جميع الرجال العظماء -وجميع الحركات العظيمة- يتَّجهون صوب الاتِّجاه العصيب نفسه.

ثم صار الكتاب أكثر تعقيدًا لأن هكسلي كان ينجذب إلى بعض الأفكار التي يسخر منها. مثل أخيه جوليان، كان مفتونًا بعلم تحسين النسل، وقادته الأزمة الاقتصادية التي دمَّرت بريطانيا بينما كان يكتب الرواية إلى التفكير في أن شيئًا من فقدان الحرية قد يكون ثمنًا يستحق دفعه للحفاظ على النظام من الفوضى. وكما تساءل المراقب العالمي المقيم لأوروبا الغربية، مصطفى موند، بطريقة مغرية: «ما فائدة الحقيقة أو الجمال أو المعرفة والقنابل تتساقط من حولك في كل مكان؟»

كان أورويل معجبًا بـ «عالم جديد شجاع»، إلى حدٍّ معيَّن. كان يحمل ذكريات جميلة لفترة تعلُّمه من هكسلي في إيتون في

عام 1918. زعم أحد زملاء أورويل في المدرسة أن هكسلي جعل منه «ذوَّاقة للكلمات ولاستخدامها الدقيق المعبِّر». ولكن بصفته شخصًا يخشى الألم ويرتاب في الملذَّات، لم يقتنع أورويل بطغيان الإشباع في «عالم جديد شجاع». كتب شاكيًا في عام 1946: «لا يُوجد جوعٌ للسلطة، ولا سادية، ولا مشقَّة من أيِّ نوع. لا يحمل من في القمة دافعًا قويًا للبقاء في القمة، وعلى الرغم من أن الجميع سعداء سعادةً جوفاء، صارت الحياة عديمة الجدوى بحيث يصعب تصديق أن مثل هذا المجتمع يمكن أن يدوم». أما ديستوبيا أورويل فلا تُقدِّم الحرية ولا السعادة. إنها لا تتلألأ. لذلك وجد كلا الكاتبين أن تصوُّر الآخر للمستقبل القاتم بعيد الاحتمال. إن أوجه التشابه بين الكتابين ضئيلة، والاختلافات عميقة، لكنهما يتداخلان في منطقة واحدة: حالة العوام.

وصف أورويل للعوام هو العنصر الأقل إقناعًا في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». من الصعب تصديق أن نظامًا مهوَّسًا بالسيطرة المطلقة سيسمح لـ 85 بالمئة من السكَّان بالعيش بعيدًا عن متناول شرطة الفكر وشاشات الرصد، ولا أن يكون العوام مُحصَّنين ضد التفكير المزدوج. كما أظهرت روسيا وألمانيا، لا يمكن أن يكون لديك شمولية بلا جماهير. ما يفعله أورويل هو هجاء نظامين سياسيين متعارضين. في حين أن عمل الحزب يمثِّل الشمولية، فإن عالم العوام صورة كاريكاتورية للرأسمالية التي تسير بالأحرى مثل المجتمع الموصوف في «عالم جديد شجاع»، وإن كانت أكثر رثاثة. في كتاب «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، رفض أورويل نظرية «الخبز والسيرك» التي

تقـول إن الحكومـة البريطانيـة تعمَّـدت تخديـر الجماهيـر بالطعـام الرخيـص ووسـائل الإعـلام والسـلع الاسـتهلاكية. لقـد حـدث ذلـك، بسـبب «التَّفاعـل الطبيعـي بيـن حاجـة المُصنِّـع إلـى السـوق وحاجـة أنصـاف الفقـراء إلـى المسـكِّنات الرخيصـة». بيـد أن ذلك كان أسـلوبًا متعمـدًا وفعَّـالًا تمامًـا فـي روايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون»، يُغيِّـب وعـي العـوام ويُغـرَون بالركـون إلـى الخمـول عـن طريـق حميـة ثابتـة مـن الأفـلام والأدب الشَّـعبي والمـواد الإباحيـة وقـراءة الطالـع وكـرة القـدم والبيـرة والقمـار والأغانـي العاطفيـة. هـذا هـو مخـدِّر السـوما الخـاص بهـم.

نجـاح هـذه الاسـتراتيجية يجعـل العـوام مغيَّبيـن ولكـن ليـس جديريـن بـالازدراء. لـم يكـن أورويـل يعانـي مـن الفوقيـة النخبويـة الحـادَّة مثـل هكسـلي. توصَّـل ونسـتون إلـى إيمـانٍ بـأن العـوام فـي الحقيقـة أرقـى مـن أعضـاء الحـزب، ليـس لأنهـم -كمـا تصـوَّر فـي البدايـة- جيشٌ ثوري محتمـل، بـل لأنهـم -ببسـاطة- «ظلُّـوا بشـرًا ولـم تتحجَّـر قلوبهـم». ليسـوا موتـى. عندمـا رأى ونسـتون امـرأة تعلِّق ملابسـها المغسـولة علـى الحبـل، ربَّمـا كانـت تغنِّـي أغنيـة جاهـزة مبتذلـة تقيَّأتهـا آلـة تأليـف الأغانـي الوطنيـة، لكنهـا بعـذب غنائهـا جعلتهـا تفيـض بالإنسـانية والنقـاء. «الطيـور تغنِّـي، والعـوام يُغنُّـون، أمـا الحـزب فـلا يُغنِّـي». وعـمَّ تحكـي هـذه الأغنيـة التـي يُفتـرض ألا يكـون لهـا معنـى؟ عـن الحـب والأحـلام والذكريـات التـي لا تنمحـي. بهـذا الفعـل البشـري اليسـير، تؤكِّـد المـرأة مـن دون قصـد اعتقـاد ونسـتون: «إن كان ثمَّـة أمـل، فهـو يكمـن فـي العـوام».

* * *

كانت «عالم جديد شجاع» أُولى نقائض اليوتوبيا التي تحقِّق أعلى المبيعات، وبات عنوانها المُستوحى من شكسبير مشهورًا بما يكفي ليُقتبس ويُحال إليه على نطاق واسع. وصف عضو حزب العمل هيو دالتون مازحًا إحدى خُطب كليمنت أتلي المخيِّبة للآمال عام 1939 بأنها «عالم جديد غامض». في العام التالي، وصف مالكوم موجريدج الصدام بين النازية والشيوعية بأنه «عالم جديد شجاع يواجه عالم قديم شجاع، ويلوِّح كلاهما بالأسلحة نفسها بشكلٍ مهدِّد». في «دع الدريقة تطير»، يتخيَّل كومستوك مجتمعًا اشتراكيًا على أنه «أشبه بعالم ألدوس هكسلي الجديد الشجاع: لكنه ليس مسليًّا مثله». خلق نجاح الرواية رواجًا جديدًا لأدبيات الهجاء المستقبلي. حتَّى سيريل كونولي ألقى بدلوه بقصَّته القصيرة اللعوب «العام التَّاسع»، التي تدور أحداثها في دولة شمولية يطلُّ فيها وجه «زعيمنا» من اللافتات الضوئية، ويتجول فيها الرُّقباء العسكريون في الشوارع للقضاء على «الفن المنحط» (مثل روايات «ديد ويلز») التي خلَّفها النظام القديم.

وماذا كان رأي ويلز في «عالم جديد شجاع»؟ تناول هكسلي العشاء معه في الريفيرا بعد صدور الكتاب مباشرة وكتب عن الرجل المُسنِّ قائلًا: «أخشى أنه لم يسعد بها جدًّا». بالتأكيد، وصف ويلز الرواية لاحقًا بأنها «خيبة أمل كبيرة من وجهة نظري. لا يملك كاتب بمكانة ألدوس هكسلي أدنى حق في خيانة المستقبل مثلما فعل في ذلك الكتاب».

ردَّ ويلز الضربة أدبيًا، واصفًا «عالم جديد شجاع» بأنها «إنجيل المرموقين العاجزين جنسيًا» في رواية «النظام العالمي

الجديد»، وواصفًا هكسلي بأنه «واحد من ألمع الكُتّاب الرجعيين» في «شكل الأيّام القادمة»، آخر رواية كتبها قبل سيرته الذاتية المسلّية تمامًا. صاغ ويلز أحدث تأريخ وضعه للمستقبل في صورة كتاب مدرسي من عام 2106 يقرؤه -في حلم- دبلوماسيٌّ من عام 1933. الكتاب اسمه «عصر الإحباط»، ويُوضّح أن العالم انزلق إلى حرب عالمية أخرى واجتاحه انهيار اقتصادي وطاعون خبيث، ما ركّع الحضارة على ركبتيها. أُنقذت نخبة من الطيارين العالم من الفوضى، هؤلاء أسّسوا «طغيانًا تطهيريًا». يبدو الرفيق أوجلفي -بطل الحرب الذي اخترعه ونستون سميث في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»- أشبه بأحد طيّاري ويلز: عازب ومتعفّف ومُولع بالرياضة وتعس تمامًا. بعد مُضيٍّ قرنٍ على هذا الشر الضروري، تُسقط ديكتاتورية الهواء من دون استخدام العنف، ويحلُّ محلّها يوتوبيا سلمية من مثقّفي الطبقة المتوسطة، كل واحد منهم ألفا في حدّ ذاته.

في أثناء العشرينيات، فكّر ويلز في المصرفيين ورجال الصناعة ليكونوا أعضاءً مرشّحين في «مؤامرته العلنية»، لكن انهيار سوق المال في عام 1929 وما تلاه من كساد جعلهم غير جديرين في نظره. كان الآن يُعدُّ نفسه «يساريًا ثوريًا فائقًا»، وفي عام 1934 انطلق لزيارة اثنين من المخطّطين المحتملين لدولة عالمية اشتراكية. في العاصمة واشنطن، وجد أن الرئيس فرانكلين ديلانو روزفيلت «جهاز الإرسال الأكثر فاعلية للنظام العالمي الجديد». وفي موسكو، حاول لمدة ثلاث ساعات إقناع ستالين بأن الماركسية هراء، وأن ما يشيّده هو نسخة من الرأسمالية

الدولية الإصلاحية. انتُقِد ويلز -بإنصاف- بسبب اقتناعه بأنه «لم يلتق رجلًا أكثر صراحة وعدلًا وصدقًا قط»، لكنه لم ينخدع تمامًا مثل بياتريس وسيدني ويب أو چورچ برنارد شو.*[26] لقد كتب أن روسيا السوفيتية لم تكن الدولة العالمية التي كان يأملها، وقد سئم من قول الناس هناك له: «تعال لرؤيتنا مرة أخرى بعد عشر سنوات». لقد قالوا نفس الكلام في عام 1920. وفي نهاية المطاف أعلن: «روسيا خذلتني». تعكس الصياغة شعور ويلز بأن البشرية خيَّبت آماله بشكل شخصي، على الرغم من بذله كل طاقته لإنارة طريق المستقبل. قارنه أحد الأصدقاء وهو في هذه الحالة الغاضبة بـ«مفتِّشٍ كوني عام ساخط».

في أثناء رحلاته، كان ويلز يكتب سيناريو رواية «شكل الأيَّام القادمة» لتحويلها إلى فيلم (اختصر عنوانه إلى «الأشياء القادمة») من إنتاج المنتج ألكساندر كوردا. أعجبه إمكانية استخدام السينما كمطية لأفكاره. كانت سينما الخيال العلمي ما زالت في مهدها، وأنجح مثالٍ لها كان فيلم فريتز لانج «متروبوليس»*[27]. على الرغم من أن الفيلم كان يستند إلى رواية ويلزية كتبتها تيا فون هاربو، زوجة فريتز لانج، لم يشعر ويلز بإطراء من هذا التكريم. في مراجعته النقدية لصحيفة «نيويورك تايمز»، فعل

26-* قال مالكوم موجريدج لأورويل أن الزوجين ويب -عمّ وعمّة زوجته- حجبا في كتابهما «الشيوعية: حضارة جديدة؟» حقائق مزعجة حول الاتحاد السوفيتي، في محاولة مخجلة لتحسين صورته. (المؤلِّف).

27-* بدأ مصطلح «خيال علمي» science fiction، يستبدل المصطلح السابق «scientifiction» (الذي يمكن ترجمته إلى «خيال علومي») في عام 1929. (المؤلِّف).

ويلز بـ «متروبوليس» ما فعله المريخيّون ببلدة ووكنج: «إنه يضع أمام المشاهد طبقًا واحدًا تقريبًا فيه كل حماقة وكليشيه وابتذال وتحوير يتعلّق بقضية التقدُّم الميكانيكي والتقدُّم بشكلٍ عام، ويُقدِّمه مع صلصة عاطفية من اختراعه الخاص». بعد أن عثر على «بقايا متحلِّلة» من روايته «صحوة النائم» في الفيلم، شعر بأن رؤية لانج لمدينة عمودية مؤسَّسة على العبودية عتيقة أكل عليها الزمن وشرب. لكن فيلم «الأشياء القادمة» الذي طُرح عام 1936 لم يرق إلى مستوى «متروبوليس»، وتميَّز أكثر بتصاميمه من أفكاره (منها المشهد التنبُّؤي لقاذفات القنابل في سماء لندن)، وقد أساءت تلك الأفكار إلى الشيوعيين والفاشيين والليبراليين والمسيحيين على حدٍّ سواء. قال ويلز -مُلقيًا اللوم على كوردا- إنه «فيلمٌ مهلهل». هاجم أورويل ويلز لأوّل مرة في العام الذي طُرح فيه «الأشياء القادمة»، لذا كانت كاريكاتورية الفيلم الذاتية المخيفة هي ما قصده أورويل على الأرجح عندما اشتكى من عالم ويلز المتلألئ.

لم يساوِ أورويل التكنولوجيا بالتقدُّم قط، بل على العكس، كتب خلال الحرب: «كل تقدُّمٍ علمي يُسرِّع الخطى نحو القومية والديكتاتورية». في مراجعته سيناريو «الأشياء القادمة» الذي كتبه ويلز، سخر ممَّا سمَّاه خلط المؤلِّف بين العالِم المعتدل والشخص الرجعي العدواني. «لم يخطر على بال السيِّد ويلز أن تصنيفاته قد تكون اختلطت، وأن الرَّجعي قد يكون هو من سيحقِّق أقصى استفادة من الآلة، وأن العالِم قد يُعمِل عقله بشكل أساسي في النظريات العرقية واختراع الغازات السامَّة». لم يكن هذا نقدًا

منصفًا على الإطلاق. لأن مبتكر «الرجل الخفي» و «الدكتور مورو» لم يكن يخفى عنه العلم المنحرف. لكن فيلم «الأشياء القادمة» لم يُسدِ لسمعته أيَّ معروف.

بالاستناد إلى كتابه «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، يمكن قول إن أورويل لو كان قد كتب ديستوبيا في الثلاثينيات، لكان من المحتمل أن تكون هجاءً للآلة على غرار «عالم جديد شجاع»، يُهاجم فيها أهوال المستقبل القريب التي تصوَّرها في رسالته عام 1933: «الثقة العمياء في السلطة والتحصين الكامل لها. هذا عالمٌ سيُختزل جميع سكَّانه ليصبحوا عبيدًا بالأجر» حيث يستغلُّون بلا رحمة «باسم التقدُّم». ولكن على الرغم من بعض العناصر المستقبلية، كمبنى وزارة الحقيقة شامخ الحجم، فإن مقاطعة آيرستريب وان البائسة المنهكة بعيدة جدًّا عن عالم ويلز. في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، يصمِّم علماء في معاطف بيضاء شاشات الرَّصد وحوَّامات التجسُّس، ويخترعون أسلحةً جديدة وأجهزة تعذيب ونازعات أوراق الشجر، ويمارسون جراحات تجميلية متطرِّفة، ويعكفون على إلغاء النشوة الجنسية، ولا يفعلون شيئًا لتحسين مستوى الحياة. يمكن القول إن العلم -مثل التاريخ- توقَّف. كتاب جولدشتاين في الرواية يقول: إن ذلك «يرجع ذلك جزئيًّا إلى أن التقدُّم العلمي والتقني يرتكزان إلى التعوُّد على التفكير التجريبي، الذي لا يمكن أن ينجو في مجتمع نظاميٍّ صارم. بصفة عامَّة، العالم اليوم أكثر بدائية عمَّا كان منذ خمسين عامًا».

كان أورويل يراقب من كثب فساد العلم في عهد ستالين، وخاصَّة على يدِ تروفيم ليسينكو، المهندس الزراعي السوفيتي

الـذي أدت نظريتـه الماركسـية الزائفـة عـن الميـراث الجينـي إلـى مجاعـات لا داعـيَ لهـا، وتطهيـرٍ جائـر للعلمـاء المخالفيـن. واحـد مـن آخـر الكتـب التـي قرأهـا أورويـل كان «الجينـات السـوفيتية والعلـم العالمـي»، وهـو هـدم لعلـم ليسـينكو الزَّائـف كتبـه جوليـان هكسـلي. العلم فـي أوقيانيـا يديـن إلـى ليسـينكو أكثـر مـن ويلـز، الـذي استخفَّ مـرَّة أخـرى بالحماقـة البشـرية.

نحـن الآن نقتـرب مـن ويلـز الـذي قابلـه أورويـل فـي هانوفـر تـراس: رجـلٌ يعيـد تدويـر أفـكارٍ قديمـة، ويبحـث بيـأسٍ أكثـر مـن أيِّ وقـتٍ مضـى عـن مرشَّـحين لقيـادة نظامـه العالمـي الجديـد، وهـو مُبتلـى باعتـلال الصحَّـة والأفـكار الانتحاريـة وشـعورٌ سـاحق بالهزيمـة النهائيـة. تكهَّـن رئيـس تحريـر «نيـو ستيتسـمان» كينجسـلي مارتـن قائـلًا: «كان يشـعر بـأن فشـل البشـرية فـي الحـرب العالميـة الثانيـة هـو فشـله الشـخصي». خـلال جولـة محاضـرة غيـر ناجحـة فـي الولايـات المتَّحـدة عـام 1940 للترويـج لأحـدث أفـكاره الكبيـرة «إعـلان حقـوق الإنسـان»، التقـى ويلـز سـومرسـت مـوم، ووجـده الأخير «رجـلًا عجـوزًا منهـكًا وذابـلًا» تجـاوزه الزَّمـن، «واصـل النهـر جريانـه تـاركًا إيَّـاه خلفـه علـى الضَّفـة بـلا حـول ولا قـوَّة». سيُنظر إلـى إعـلان ويلـز، الـذي أعـاد صياغتـه عـدَّة مـرَّات بيـن عامـي 1939 و1944، بصفتـه مسـاهمة رائـدة فـي مجـال حقـوق الإنسـان، ولكـن ليـس فـي حياتـه. فـي تلـك الأيَّـام الأخيـرة، كان نبيًّـا منبـوذًا يعـظ الفـراغ.

«ليس لـدي جماعـة، ليس لـدي مريـدون»، هكـذا كتب إلـى صديقه مـع اقتـراب الحـرب. «سـيقول النقـش علـى قبـري كان ذكيًّـا، لكنـه لـم يكـن ذكيًّـا بمـا يكفـي». مـا زلـت أؤلِّـف الكتـب، لكـن الأمـر أشـبه بإلقـاء

قوالب طوب ذهبية في بركة من الطين». لكن كتبه لم تكن ذهبًا، ولم تكن حتًّى قوالب طوب. معظم أعماله الأخيرة كانت كُتيِّباتٍ ضئيلة ومتسرِّعة، طُبعت في طبعاتٍ فاخرة فقط بسبب اسمه المهيب الأثري. كان يكتب منذ زمنٍ طويل. خلَّد ويلز تشاؤمه على حائطٍ في هانوفر تراس في هيئة لوحة جدارية تمثِّل التطوُّر. بجوار الإنسان في اللوحة، طبع ثلاث كلماتٍ مؤلمة: «حان وقت الرحيل».

الفصل الخامس

إذاعة أورويل

أورويل من 1941 إلى 1943

«كل البروباجندا أكاذيب، حتَّى عندما يقول المرء الحقيقة. أعتقد أن الأمر ليس مهمًّا ما دام المرء يعرف ماذا يفعل ولماذا».

من دفتر يوميَّات چورچ أورويل، بتاريخ 14 مارس 1942.

في أغسطس عام 1941، دعا أورويل وآيلين إتش چي ويلز إلى العشاء. قبل عدة أشهر، خسرت صديقة أورويل، إنز هولدن، منزلها في قصفٍ من قوَّات اللوفتفافه، وعرض ويلز استضافتها في شقَّة صغيرة يملكها. تركت هولدن -البوهيمية التي تخلَّت عن الأرستقراطية- انطباعًا أوليًّا رائعًا في عشرينيات القرن الماضي باعتبارها «شابَّة ساطعة». وصفها أنتوني باول -الذي عرَّفها بأورويل ذات ليلة في مقهى رويال في لندن- بأنها «رفيقة ممتازة»، ثرثارة وتعج بالآراء وبارعة في تقمُّص الشخصيات. في سنِّ السَّابعة والثلاثين، كانت مؤرخة نشطة لوضع بريطانيا في الحرب في رواياتها ومذكِّراتها، وصديقة مخلصة لأورويل طوال الأربعينيات. كانت هولدن سعيدة لتيسير لقاءٍ ملائم بين رجلين تكنُّ لهما إعجابًا وتُقدِّرهما. غير أن قبل يومين من موعد العشاء، علم ويلز أن أورويل نشر مقالًا عنه في مجلَّة سيريل كونولي «هورايزون» واشترى نسخة. لم يملأ المقال المعنون بـ «ويلز وهتلر والدولة العالمية» قلبه بالسرور.

كان أورويل وآيلين يعيشان في الطابق الخامس من لانجفورد كورت، وهو برج سكني ارتفاعه ثمانية طوابق بُنِيَ في الثلاثينيات، يقع في شارع آبي في شمال غرب لندن، وهو على الأرجح الذي ألهم «قصور النصر» في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كان فراش التخييم في غرفتهما الأمامية يستضيف في أغلب الليالي أحد أصدقائهما الذين تعرَّضوا للقصف. في تلك الليلة كان ضيوفهما ويلز وهولدن والناقد المعروف الشاب وليم إمبسون. كتم ويلز الأمر إلى أن انتهى العشاء. وفقط عندما بدأت الأواني تُرفع من على المائدة أخرج من جيب معطفه نسخته من مجلَّة «هورايزون» بطريقة تنذر بسوء. ردَّ أورويل بجلب نسخته الخاصة وضرب مائدة العشاء بها بقوَّة. انخرط الرجلان في معركة حامية الوطيس، بينما جلس إمبسون -الذي لم يعرف أورويل إلا منذ يومٍ واحد- في صمت، مُغرقًا إحراجه في الويسكي.

قسَّم أورويل الكُتَّاب المنخرطين في السياسة إلى فئتين: من يفهمون طبيعة الشمولية الحقيقية (لا يُوجد منهم بريطاني واحد)، ومن لا يفهمونها. في المقال المُهين، ادَّعى أن عقل ويلز المنطقي العلمي المحصَّن من إغواء شعار الدَّم والأرض لم يكن قادرًا على أخذ هتلر (الذي وصفه بـ «هذا الجعجاع الصغير المختل في برلين») على محمل الجدِّ. كتب أورويل: «ويلز أعقل بكثير من أن يفهم العالم الحديث»، ثم اختتم بمزيجٍ غريب من المدح والتنديد: «منذ العشرينيات وهو يهدر مواهبه في ذبح تنانين لا وجود لها. لكن كم يملك من المواهب لتبديدها على أيِّ حال؟»

كان أورويل فخورًا بـ «وحشيته الفكرية»، وكثيرًا ما عقد صداقات مع أشخاصٍ أهانهم من قبل في مقالاته، من ضمنهم ستيڤن سبندر، وكاتب الجريمة چوليان سيمنوز، والأناركي الكندي چورج وودكوك الذي قال عنه أنه «أحد تلك الكائنات الغريبة التي تشعر بألفة معها بسبب اختلافكما في الرأي». أخبر أورويل سبندر بأنه بمجرَّد ما يلتقي بشخص يصبح هذا الشخص «إنسانًا وليس كاريكاتيرًا يجسِّد أفكارًا معيَّنة»، لكن حرية التعبير عن نفسه على الورق من دون حاجة إلى الاعتذار كانت مهمَّة وجوهرية جدًّا لأورويل إلى درجة لم يخطر معها على باله أن بعض الناس قد يستاؤون من السخرية منهم، وقد يعبِّرون عن هذا الاستياء في وجهه. حطِّم أصنامك، لكن لا تدع ذلك يمنعك عن دعوتهم إلى العشاء.

استمرَّ الجدال في شقَّة أورويل لبعض الوقت قبل أن يأكل غضب ويلز نفسه ويذوي. في طريقه إلى المنزل، قال لهولدن أنها كانت «أُمسية مسلِّية». لكن بعد سبعة أشهر، قرأ ويلز مقالًا آخر بعنوان «إعادة اكتشاف أوروربا: الأدب بين الحروب»، وأغضبه الادِّعاء الذي اتَّهمه بأنه يؤمن بأن العلم قادر على «شفاء كل العلل التي ورثتها البشرية». في رسالة كتبها إلى رئيس التحرير، اعترض ويلز على «تعميمات أورويل الحمقاء». وفي خطاب خاص إلى أورويل، كَتَب بأسلوب مباشر أكثر: «لم أقل ذلك على الإطلاق. اقرأ أعمالي المبكِّرة أيها القذر». كانت هذه نهاية علاقتهما.

كان المقال المُهين عبارة عن نسخة مطبوعة من أحاديث أورويل في «القطاع الهندي» التابع لهيئة الإذاعة البريطانية

الشـرقية، حيـث كان يعمـل بيـن عامـي 1941 و1943. مثـل ويلـز فـي عـام 1918، كان أورويـل الآن يكتـب علـى مضـض باسـم الدولـة. لاحقًـا وصـف تلـك الفتـرة بأنهـا كانـت «عاميـن مهدريـن»، لكـن علينـا ألَّا نصدِّقـه. يومًـا بعـد يـوم، عرَّفتـه الوظيفـة الجديـدة بآليـات البروباجنـدا والبيروقراطيـة والرقابـة ووسـائل الإعـلام، مـا أعطـاه الوعـي الـلازم لكتابـة وظيفـة ونسـتون سـميث فـي وزارة الحقيقـة. عـلاوة علـى ذلـك، تألَّـف إنتاجـه فـي هيئـة الإذاعـة البريطانيـة مـن سـاعات مـن التأمُّـلات فـي الحـرب والسياسـة والفكـر الشـمولي والأدب، وهـو مـا مهَّـد الطريـق لعمليـه الروائيِّيـن الرائعيـن وأفضـل مقالاتـه. بالنسـبة إلـى عقـل مشـغول طـوال الوقـت كعقـل أورويـل، لا يُوجـد مـا يُسـمَّى بعـامٍ مُهـدر.

* * *

طـوال النصـف الأوَّل مـن عـام 1941، كان أورويـل بـلا هـدف ويهيـم علـى غيـر هُـدى فـي «كابـوس لنـدن الغريـب والممـل» فـي وقـت الحـرب. بـدأ العـام بموجـة جديـدة مـن الشـائعات حـول الغـزو الألمانـي لبريطانيـا، مـا ألهـم وزارة الإعـلام لإصـدار كُتيِّـب يوضِّـح العواقـب. تصـف الروايـة القصيـرة «أنـا چيمـس بلانـت» لكاتـب الرحـلات إتـش فـي مورتـون الاحتـلال الألمانـي مـن وجهـة نظـر رجـل مُسـنٍّ عـادي فـي قريـة إنجليزيـة عاديـة. بعـد شـرح كيفيـة ترسُّـخ نظـام الرقابـة والمراقبـة والتَّلقيـن والاضطهـاد النـازي فـي إنجلتـرا، اكتشـف التَّاجـر المتقاعـد چيمـس بلانـت أن موظَّفًـا سـابقًا مقيتًـا انضـمَّ إلـى الجسـتابو وأبلـغ عنـه بسـبب كلام سـابق مناهـض للفاشـية تفـوَّه بـه. أهـدى مورتـون قصَّتـه القصيـرة القويـة إلـى «المتفائليـن المطمئنيـن

والمُغرقين في التمنّي». في عام 1943، بعدما تبخّر خطر الغزو، استخدم المحامي والجندي روبن موم القالب الذي صاغه مورتون -وهو مذكّرات تنتهي قبل أن تقرع الشرطة السرية الباب مباشرةً- لكتابة رواية «1946 إم إس»، التي يستولي فيها بطل حرب بريطاني على السلطة وسط الاضطرابات التي تلت الحرب ويقيم دولة فاشية. كان ختام رواية موم التي نشرتها «صحافة حقائق الحرب» المرتبطة بوزارة الداخلية مباشرًا وصريحًا مثل كلمات مورتون: «لا وجود للورد مردوخ وشخصية «المؤشّر العام». هذه القصة كُتِبت كي لا يُوجدا أبدًا، وكي لا يصبح البريطانيون عبيدًا».

كتب أورويل مراجعة لـ «أنا جيمس بلانت» ووصفها بأنها «عمل يثير القشعريرة»، وكان يمتلك نسخة من «1946 إم إس» في مجموعته الكبيرة من الكُتيّبات، لذلك كان على دراية بأدب «يمكن أن يحدث هنا» الوعظي، لكنه شعر بأنه غير قادر على إنتاج هذا النوع من الأدب بنفسه. «فقط الموتى عقليًا من يستطيعون الجلوس وتأليف الروايات في أثناء هذا الكابوس»، هكذا كتب في أبريل عام 1941. وفقًا لسيريل كونولي، كانت حالة الشلل هذه عامّة: «يجب أن نتذكّر أن الحياة التي يعيشها كثيرٌ منا الآن غير مناسبة لتقبُّل الأدب. نحن نعيش فترة تاريخية، وهذا يعني أننا نعيش على الكفاف ونقرأ إصدرات لا حصر لها من الجرائد المسائية».

كانت تلك أخبارًا جيّدة للصحافة الحرّة على الأقل، وهي الطريقة التي كان أورويل يسدّد بها فواتيره. استغلّ أورويل مراجعات الكتب كفرصة لاستكشاف آليات عمل الفكر الشمولي

من كل زاوية ممكنة. لاحظ أورويل أن «ملحمة الجستابو»، حكاية السير بول دوكس الحيوية عن تحقيقه في حوادث الاختفاء في تشيكوسلوفاكيا المحتلة، وصفت مجتمعًا «صارت فيه ممارسة الكذب أمرًا معتادًا إلى درجة يكاد يستحيل معها تصديق أن أيّ شخص يمكن أن يقول الحقيقة». جعلته المقالات القصيرة عن شكل الحياة في ظلّ حكم هتلر في كتاب «إطفاء الأضواء» لإريكا مان يتساءل كيف يمكن لنظام يبدو «شديد الشناعة إلى درجة لا يمكن أن يقبلها أيُّ شخصٍ عاقلٍ محترم» أن يحظى بدعمٍ شعبي؟ رأى أورويل أن رواية جون مير المؤامراتية البوليسية الصعبة «لا تُعد أبدًا» دليلٌ على أن «مفهوم الغابة السياسية الرهيبة، بأحزابها السرية، والتعذيب الواقع فيها، والإدانات، وجوازات السفر المزوَّرة، وكلمات المرور، والرسائل المشفَّرة وما إلى ذلك، اشتهرت بما يكفي لتكون مادة مناسبة للأدب الخفيف». إن السرِّية والخداع والخيانة لمكوِّنات أساسية لكلٍ من الواقع الاستبدادي والأدب الشائق كما ستُظهر رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لاحقًا. المشاهد التي يعتقد فيها ونستون أنه يتآمر مع أوبراين و «الأخوية» ضد الحزب تشعرك بأنها خارجة من رواية جاسوسية.

بالإضافة إلى الكتب، قدَّم أورويل مراجعات لعشرات الأفلام لمجلَّة «تايم آند تايد» بين شهري أكتوبر 1940 وأغسطس 1941، لكن وصفه بأنه ناقد سينمائي سيكون قولًا سخيًا. لم يكن لديه أيُّ تقدير للتقنيات السينمائية أو التمثيل، ولا احترام للمهنة التي توقَّع أنه بامتهانها «سيبيع شرفه مقابل كأسٍ من نبيذ الشيري الرخيص». في الحقيقة، كان غير مُعجب بتاتًا بالسينما الأمريكية:

فـي فهرسـه الخـاص للأوبئـة المعاصـرة فـي كتـاب «داخـل الحـوت»، تقـع أفـلام هوليـوود بيـن المسـكّنات والجرائـم السياسـية. قـال أنتونـي بـاول إن أورويـل كان «سـريع الملـل. إذا ظهـر موضـوع لا يـروق لـه فـي محادثـة، فلـن يبـذل أيَّ جهـد لاسـتيعابه». ولأن مـن الواضـح أن السـينما كانـت تثيـر مللـه، فقـد علّـق علـى عديـدٍ مـن الأفـلام العظيمـة إمـا بمـدحٍ خافـت أو بـازدراءٍ فـظٍّ. فيلـم «هـاي سـييرا»، الـذي يُعـدُّ حاليًـا فيلـم نـوار كلاسـيًا، لـم يـرَ فيـه غيـر احتفـالٍ بـ «السـادية» و «عبـادة المتسـلّط».

فقـط الأفـلام التـي كانـت تذكـر الشـمولية هـي التـي أثـارت فضـول أورويـل. علـى سـبيل المثـال، أثنـى علـى فيلـم حربـي هوليـوودي منسـي اسـمه «هـروب» لأنـه اقتنـص «أجـواء الدولـة الشـمولية الكابوسـية، وعَجْـز الإنسـان العـادي المطلـق، وغيـاب مفاهيـم العدالـة والحقيقـة الموضوعيـة بالكامـل». بمعنـى آخـر، أعجبتـه الأجـزاء التـي نسـتطيع وصفهـا بالأورويليـة. بمجـرَّد هـروب البطـل والبطلـة، رأى أن بقيـة الفيلـم هـراء. أيُّ فيلـم معقـول عـن ألمانيـا النازيـة لـن يكـون لـه نهايـة سـعيدة، ولـن يُسـمَّى «هـروب» لأنـه لا يُوجـد مهـرب. كان لديـه أشـياء ألطـف ليقولهـا عـن فيلـم تشـارلي شـابلن «الديكتاتـور العظيـم». علـى الرغـم مـن كونـه مدافعًـا عنيـدًا عـن الاتِّحـاد السـوفيتي فـي السِّـر، كان شـابلن علـى الشاشـة يمثِّـل، فـي نظـر أوروريـل، «جوهـر الإنسـان العـادي، والإيمـان بالأخـلاق الـذي يتعذَّر استئصاله فـي قلـوب النـاس العاديـين». مسـتمتعًا بمفارقـة التشـابه الجسـدي بيـن تشـابلن وهتلـر، حسـب أورويـل أن الحكومـة البريطانيـة سـتبذل جهـدًا كبيـرًا لدعـم الفيلـم وتوزيعـه كدعايـة مناهضـة للفاشـية بسـبب «قـدرة شـابلن علـى

إعادة ترسيخ الحقيقة التي طمستها الفاشية و-للمفارقة أيضًا- الاشتراكية السوفيتية. الحقيقة التي تقول إن صوت الشعب هو صوت الرب، وإن العمالقة في حقيقتهم طفيليات».

بحلول عام 1941، لم يكن صوت الشعب في حالة جيِّدة جدًّا. أُوصِدت نافذة الفرصة الثورية التي ظنَّ أورويل أنها فُتِحت بسبب إذلال دانكيرك بإحكام. وطَّد الأثرياء امتيازاتهم عن طريق صفقات السوق السوداء، بينما ساير الآخرون الوضع طوعًا. أخبر أورويل مازحًا صديقًا له بأنه خلال سنة سنرى «حساء فئران» في قوائم الطعام، وفي العام الذي سيليه سيكون «حساء فئران مغشوش». في مذكِّرات الحرب التي كتبها وفي «رسائل لندن» التي كانت تصدر كل شهرين عن «بارتيزان ريفيو»، وهي مجلَّة يسارية نيويوركية مناهضة للاستالينية يديرها فيليب راف ووليم فيليبس، وثَّق أورويل الحياة في زمن الحرب بدقَّة رائعة. أخبر أورويل قرَّاء المجلَّة بأن الغارات الجوِّية «أقل إفزاعًا ممَّا تتصوَّرون، ولا تعدو كونها مصدر إزعاج». لم يكن احتمال سقوط قنبلة على سقفه هو ما يزعجه، بقدر ما أزعجته المضايقات اليومية التي ظهرت الفصل الأوَّل من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: انقطاع الكهرباء المتكرِّر وغلق المتاجر وخطوط الهاتف المقطوعة ونقص الحافلات وأكوام الحطام وارتفاع سعر البيرة. صارت الحياة «تدافعًا مستمرًا لتعويض الوقت الضائع». كان كل شيء مزعجًا جدًّا. كان يذكي نيران مدفأته بصحف قديمة تعود إلى فترة ما قبل دانكيرك، و «يلقي نظرة خاطفة على عناوين الأخبار المتفائلة قبل أن تتطاير محترقة مع الدُخان».

استمرَّ قصف لندن ثمانية أشهر، لكن أورويل لم يتأثَّر حتَّى الساعات الأخيرة. في ليلة 10 مايو، ألقت قوَّات اللوفتفافه ثمانمئة طن من القنابل على العاصمة. كان هو وآيلين من بين مئات الضحايا تقريبًا. في الثانية صباحًا، استيقظا على انهيارٍ مروِّع. لقد أُصيب مبنى لانجفورد كورت الذي يقطنانه وامتلأت الأروقة برائحة المطّاط المحترق الخانقة والدخان الكثيف المُسبِّب للعمى. اسودَّ وجهيهما بالسخام، وتمكَّنا من التقاط بعض الأغراض وفرَّا إلى منزل أحد الأصدقاء حيث تعافيا بالشاي والشوكولاتة. في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، الشوكولاتة سلعة رمزية: عندما تحصل جوليا على بعضٍ منها من أجل ونستون، فهي بادرة حب.. وعندما يسرق ونستون قطعة شوكولاتة من أخته، فهي خيانة أثيمة.

على الرغم من أن لندن تحمَّلت الهجوم الألماني، كانت الأخبار الآتية من أوروبا قاتمة. كتب أورويل لاحقًا: «في منتصف عام 1941، كان الشعب البريطاني يعلم ما هو بصدده». استولى الفيرماخت على اليونان ويوغوسلافيا، بينما نجح فيلق روميل الإفريقي في صدِّ الحلفاء في شمال إفريقيا. في الساعات المبكِّرة من يوم 22 يونيو، كسر هتلر الميثاق النازي السوفيتي وعبر ثلاثة ملايين جندي ألماني الحدود الروسية، مُجبرًا الشيوعيين المناهضين للحرب على تحوُّل هزلي مفاجئ. اعتاد أورويل الاستمتاع بسرد حكاية سمعها، تحكي عن عضو في الحزب كان في حمَّام أحد مقاهي نيويورك عندما اندلعت الأخبار، وعاد إلى أصدقائه ليجد أن المسار قد تغيَّر بالفعل: يُحتمل أن يكون هذا الرجل هو الذي

ألهم خطيب الحزب الداخلي في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الذي «تحوَّل من اتِّجاه إلى آخر في منتصف الجملة». فأغرقت أحداث الصيف أورويل في مستنقعٍ من اليأس: «في غضون عامين سنكون إما أُمَّة مُحتلَّة وإما جمهورية اشتراكية تقاتل من أجل حياتها، ويتضوَّر نصف شعبها جوعًا، وتحكمها الشرطة السرِّية».

* * *

كان أورويل يتوق إلى فعل ما هو أكثر من ارتياد اجتماعات الحرس الوطني مرَّتين أسبوعيًّا، لكن ماذا؟ لم يكن يتمتَّع بصحَّة جيِّدة للقتال، أو حتَّى ليخدم كمراسلٍ حربي، كما قُوبِل الطلب الذي قدَّمه للعمل عند مدير العلاقات العامَّة بوزارة الطيران بالرفض. كان لا بُدَّ من استحكام الأمور قبل أن تقبل الحكومة البريطانية تعيينه بأيِّ صفة، لأسبابٍ ليس أقلها سياسته. في عام 1937، درست إدارة «المكتب الهندي» أعماله وحدَّدت أنه «ليس مجرَّد يساري عازم، بل متطرِّف محتمل الأرجح». لكن بحلول عام 1941، كانت هيئة الإذاعة البريطانية في حاجة إلى موهبة أورويل أكثر من خشيتها من آرائه. كتب لاحقًا: «بدأت الحكومة البريطانية الحرب الحالية بنيَّة معلنة بشكل أو بآخر باستبعاد النخبة الأدبية المثقَّفة، لكن بعد ثلاثة أعوام من الحرب، أُقحِم كل الكُتَّاب تقريبًا، بغضِّ النَّظر عن تاريخهم السياسي أو آرائهم غير المرغوب فيها، في الوزارات المختلفة أو في هيئة الإذاعة البريطانية». كان الخطر السياسي من توظيف أورويل ضئيلًا لأن كل بثٍ إذاعي كان يمرُّ مرَّتين على الرقابة: مرَّة للرقابة الأمنية،

ومرَّة للرقابة السياسة. كان ذو الفقَّار علي بخاري، مدير «القطاع الهندي»، قد اختبره بالفعل من خلال تكليفه بكتابة أربعة حوارات عن النقد الأدبي. في حلقة «الأدب والفكر الشمولي»، التي أذيعت في شهر مايو من ذلك العام، جادل أورويل بأن الأدب مشتَقٌّ من الحقيقة الشعورية، وبالتالي لا يمكن أن يستمرَّ في ظلِّ نظامٍ يعتمد على تشويه الحقيقة:

> تكمن غرابة الدولة الشمولية في أنها على الرغم من تحكُّمها في الأفكار، فهي لا تُصلحها. إنها ترسِّخ لمعتقدات لا جدال فيها، وتغيِّرها من يوم إلى آخر. إنها تحتاج إلى تلك المعتقدات لأنها تريد الطاعة العمياء ممَّن تحكمهم، لكنها لا تستطيع تجنُّب التغييرات التي تمليها احتياجات سياسات السلطة. إنها تعلن أنها معصومة من الخطأ، وفي الوقت نفسه تهاجم مفهوم الحقيقة الموضوعية.

التحق أورويل بـ «القطاع الهندي» في وظيفة مساعد محادثات الإمبراطورية في 18 أغسطس، براتب سخي مبدئي قدره 640 جنيهًا استرلينيًا سنويًا، وهو المبلغ الذي قزَّم دخله من العمل الحر. أمضى أسبوعين في كليِّة بيدفورد في ريجنت بارك في دورة تمهيدية مع مجنِّدين جدد آخرين، كان من ضمنهم وليم إمبسون، التي منحها اسم «مدرسة الكذَّابين». خلال وجوده هناك، توقَّف أورويل عن الكتابة في مذكِّراته الحربية في الوقت الحالي، متعهدًا ألا يستأنفها إلى أن يتغيَّر شيءٌ مهم: «لا يلوح النَّصر في الأفق في الوقت الحالي. سنخوض حربًا طويلة وكئيبة

ومرهقة يزداد الجميع فيها فقرًا طوال الوقت». في 23 سبتمبر، وصل إلى شارع بورتلاند بالاس، مقرِّ هيئة الإذاعة البريطانية الرئيس في قلب لندن، ليبدأ العمل لصالح بخاري تحت سيطرة مدير المحادثات جاي بيرچس الكاملة. بالنسبة إلى عنصر حر مثل أورويل، كان العمل لصالح بيروقراطية كبيرة في زمن الحرب يُعدُّ بحثًا لا يقدَّر بثمن في آليات عمل الدولة.

خلال السنوات القليلة الماضية، استغلَّت هيئة الإذاعة البريطانية ارتباطها بأورويل بطرق كان يُمكن أن تسلِّي الرجل نفسه. في الاحتفال بذكرى أورويل المئوية في عام 2003، كلَّفت الإذاعة الفنانة راشيل وايتريد بإنتاج مجسَّم من الجص للغرفة 101 وُضِع في البناية رقم 55 في بورتلاند بالاس، فقط ليكشف إلى أيِّ مدى كانت الغرفة عادية وغير ذات أهمية في الرواية. وفي عام 2017، نصبت هيئة الإذاعة البريطانية تمثالًا برونزيًا لأورويل خارج مقرِّها الرئيس في دار الإذاعة، عليه اقتباس محفور من مقدِّمة غير منشورة لـ «مزرعة الحيوان» يقول: «إذا كانت الحرية تعني أيَّ شيءٍ على الإطلاق فهي تعني حق الناس في إخبارهم بما لا يريدون سماعه»، وهو وصف جيِّد لما لم تكن عليه وظيفة أورويل في «القطاع الهندي».

وصف إمبسون الفصول الأولى من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها في حقيقتها «محاكاة هزلية صارخة» لهيئة الإذاعة البريطانية. هذه مغالاة خطيرة، لكن هذا لا ينكر أن أورويل استخدم صورًا وكلمات وأصواتًا وروائحَ من الوقت الذي قضاه هناك لمنح مكان عمل ونستون أصالة حرِّيفة. في عام 1942،

انتقل «القطاع الهندي» من بورتلاند بالاس إلى مخزن بضاعة مُصادَر في شارع أكسفورد، حيث كان الموظفون يعملون في مقصورات مثل تلك الموجودة في إدارة السجلّات بوزارة الحقيقة. ظهر مقصف الموظفين الجوفي الذي تفوح منه رائحة الملفوف المسلوق المميَّزة في الرواية، وكذلك عمَّال النظافة الذين يغنُّون لأنفسهم كل صباح وهم يمسحون الممرَّات. مبنى وزارة الحقيقة، «الهيكل الهرمي الضخم المغطَّى بخرسانة بيضاء متلألئة بلون الثَّلج» كان مبالغة ويلزية لمقرِّ وزارة الإعلام الرئيس في مجلس الشيوخ في جامعة لندن، حيث كانت آيلين تعمل. على الرغم من أن حجمه كان خُمس حجم الوزارة الخيالية، كان البرج المزخرف هذا الذي يبلغ ارتفاعه أربعة وستين مترًا ثاني أعلى مبنى في لندن، وكان الزوجان يستطيعان رؤيته من نوافذ شقَّتهما في بناية لانجفورد كورت. كان عنوان الوزارة لتلقِّي رسائل التلّغراف هو «مينيفورم»، ومن هنا جاء اسم «مينيترو» في الرواية. أما الارتباطات الأخرى بالرواية فأكثر هشاشة بكثير. الغرفة 101 كانت واحدة من غرف الاجتماعات ولم تكن غرفة مزعجة بشكل خاص. بريندان براكين، وزير معلومات تشرشل المخيف، كان من المؤيِّدين المتحمِّسين لـ «لغة تشارلز كاي أوجدن الإنجليزية الأساسية»، وهي حصيلة مفردات مبسَّطة جدًا تتكوَّن من 850 كلمة جوهرية فقط استخدمها إتش جي ويلز لتكون اللغة العالمية في القرن الحادي والعشرين في روايته «شكل الأيَّام القادمة». غالبًا ما يقال إن تلك «اللغة الأساسية» كانت هي النموذج الذي اعتمد عليه أورويل في قاموس «اللغة الجديدة» الأكثر محدودية

المصمَّم «لتضييق نطاق الفكر»، لكن أورويل لم يكن يرى أن فكرة اللغة الإنجليزية الأوضح والأنقى خبيثة بالضرورة. في عام 1944، دافع الرجل عن «اللغة الأساسية» من هجوم عددٍ كبير من النقاد وقال إنه باستخدام لغة أوجدن «لا يمكن الإدلاء ببيان أجوف من دون أن يتَّضح أنه أجوف». ثم حدث أن كتب لاحقًا في عام 1947: «تُوجد مناطق لا غنى فيها عن استخدام لغة مشتركة من نوع ما، والانحرافات المستخدمة بالفعل في الخطاب السياسي تجعل المرء يرى ما يمكن أن يُقال عن "اللغة الأساسية"».

لذا فإن وزارة الحقيقة لم تكن بأيِّ حال من الأحوال هيئة الإذاعة البريطانية متنكِّرة. كانت الهيئة ببساطة هي بيئة العمل المؤسَّسية الوحيدة التي اختبرها أورويل من كثب. علَّمته مهنته أن بريطانيا بعيدة كل البعد عن التحوُّل إلى دولة شمولية. «كلَّما كبرت آلة الحكومة، زاد تشتُّتها والأركان المنسية فيها»، هكذا كتب قبل أن يغادر الوظيفة. كان عمله في حدِّ ذاته دليلًا على ذلك. إن كان قد عاش ليعرف حقيقة رئيسه في العمل، لصار أكثر دهشة من سهولة اختراق الدولة البريطانية. في عام 1951، عاد جاي بيرچس إلى موسكو. كان جاسوسًا سوفيتيًا منذ الثلاثينيات.

* * *

قبل أن يعرف بأمر انضمامه إلى الهيئة، كتب أورويل في «رسائل لندن» الشهيرة عام 1941: «أعتقد أن هيئة الإذاعة البريطانية، بخلاف حماقة دعاياتها الأجنبية وأصوات مُذيعيها التي لا تطاق، صادقة جدًا». سرعان ما وجد أورويل نفسه متورِّطًا في هذين العيبين. على الرغم من سهولة تعيين صوتٍ جيدٍ للإذاعة،

بالإمكان قول إن أورويل لم يكن يتمتَّع بهذا الصوت. لم ينجُ أيُّ تسجيلٍ إذاعي له، لكن صوته كان ضعيفًا ورتيبًا بكل المقاييس، وبسبب الرصاصة الإسبانية التي اخترقت حلقه كان أوهن من أن يُسمع وسط ضجيج مطعمٍ صاخب. قارن ستيڤن سبندر إجراء محادثة مع أورويل بـ «المشي في ضباب لندن». معظم ما كتب لصالح هيئة الإذاعة البريطانية عُيِّن له مُذيعون محترفون. بعد سماع إحدى الخطب التي أذاعها أورويل بنفسه، اشتكى چي بي كلارك، مدير الخدمات الخارجية، في مذكِّرة من أن صوته قد ينفِّر المُستمعين ويحرج الهيئة «ويظهرها كجاهلة تمامًا بملكات الإذاعة الأساسية ومستهترة بالجمهور إلى حدٍّ جعلها تلجأ إلى مثل هذا الصَّوت غير المناسب على الإطلاق». لم يكن أورويل يكن أيَّ حبٍّ للوسيط، واعتبر الراديو -كما كان في الأربعينيات- «شموليًا بطبيعته».

بيد أن أورويل كان يتمتَّع بعقلٍ رائع يناسب الإذاعة. بعد أن طلب منه بخاري أن «يرتدي قبَّعة تفكيره الخاصة»، أنتج أورويل سيلًا من الأفكار، تلك التي طوَّرها مع زملائه وهم يحتسون البيرة في الحانات القريبة من بورتلاند بالاس، أو مع قدامى المحاربين الإسبان في الحرب الأهلية وهم يشربون نبيذ ريوخا ويأكلون أرز البايلا في مطعم برشلونة في سوهو، محاطين بسحابة دخان دائمة تفوح منها رائحة التبغ الأسود، ودوَّنها «في تعجُّلٍ مُلح» قبل تبخُّرها.

بكثيرٍ من النشاط والفاعلية وبروح دعابة جيِّدة، ابتكر أورويل لصالح «القطاع الهندي» برنامج «جامعة على الهواء» غير المسبوق.

لأنـه عَلِم أن مستمعيه الهنـود المتعلِّميـن سيغلقون الراديو فـي وجـه الدعايـة البريطانيـة المتعجرفـة، ولعِلمـه أن الاحتفـاء الضمنـي بالديموقراطيـة مطلوب، جـرَّب أورويـل أنمـاط محتوى جديـدة جعلتـه يعيـد التفكيـر فـي عدائـه للراديـو. كتـب أورويـل فـي مقـال «الشـعر والمذيـاع»: «قلّـة مـن النـاس قـادرون علـى تخيُّـل استخدام الراديـو فـي نشـر أشـياء أخـرى غيـر التوافـه، يجـب علـى المـرء ألا يخلـط بيـن إمكانيـات الوسـيط والطريقـة التـي يُسـتخدم بهـا فـي الواقـع».

دعـا أورويـل كلًا مـن تـي إس إليوت وديلان توماس وإي إم فورسـتر ليقـرؤوا نصوصًـا علـى الهـواء، واسـتهل مشـروع قصـة قصيـرة تجريبيـة مـع خمسـة مؤلّفيـن مـن ضمنهـم فورسـتر وإنـز هولـدن، وقـدَّم معالجـات إذاعيـة لقصـص ويلـز وإينياتسـيو سـيلون وأناتـول فرانـس وهانـز كريسـتيان أندرسـن، وكتـب مقـالاتٍ عـن شكسـبير وأوسـكار وايلـد وبرنـارد شـو وجـاك لنـدن، وقـدَّم برنامجًـا إذاعيًـا شـعريًا باسـم «ڤويـس» استضـاف فيـه ضيوفًـا مثـل سـبندر وسـتيڤي سـميث وهربـرت ريـد. أصبحـت بعـض القوالـب التـي اسـتحدثها ركائـز أساسـية للراديـو، لكنـه كان صريحًـا بشـأن محدوديـة نفعهـا. لـم تكـن مقدِّمتـه لحلقـة «ڤويـس» الأولـى دعـوة أكثـر مـن كونهـا اعتذارًا: «أعتقـد أنـه فـي أثنـاء كل ثانيـة نقعدهـا هنـا، يمـوت شـخص واحـد علـى الأقـل ميتـة عنيفـة». ومـع ذلـك تابـع البرنامـج، وقـرأ أبياتًـا لوردسـورث.

سـبقت اثنتـان مـن أفـكاره الإذاعيـة بعـض الأفـكار المسـتقبلية التـي سـتظهر لاحقًـا فـي «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون». أوَّلهـا كان برنامـج باسـم «لمحـات مـن المسـتقبل»، والآخـر كان باسـم «2000

ميلاديًا»، وهو برنامج تكهَّن العلماء فيه بأحوال الهند في مطلع القرن المقبل. بينما احتفل برنامج ثالث بنوع النصوص التي سيكتبها أورويل قريبًا. كان اسمه «الكتب التي غيرت العالم».

* * *

في 14 مارس 1942، واصل أورويل الكتابة في مذكِّراته الحربية للمرَّة الأولى منذ سبعة أشهر، مازجًا مرَّة أخرى أفكاره حول تطوُّر الصراع بالتذمُّر المعتاد من أسعار التبغ وندرة شفرات الحلاقة، وهو مصدر قلق ونستون سميث الخاص. في اليوم التالي، سمع أوَّل صافرة إنذار من غارة جوِّية منذ نهاية قصف لندن. تظاهر بأنه لم يلحظها، لكنه كان يرتعد من الداخل. كانت المتع صغيرة وثمينة في ذلك الوقت. كتب في مذكِّراته يقول: «تبرعمت زهور الزعفران. يدرك المرء لمحات منها وسط ضباب أخبار الحرب».

كان إحباطه من هيئة الإذاعة البريطانية موضوعًا آخر متكرِّرًا: «الأجواء في الداخل خليط من مدارس البنات ومصحَّات المجاذيب، وكل ما نفعله حاليًا لا طائل منه، أو أسوأ قليلًا». فليضعوا هذا الاقتباس على قاعدة تمثالٍ له إن كانوا يجرؤون. ثم أضاف في يونيو: «الشيء الذي يصدم المرء في هيئة الإذاعة البريطانية ليس القذارة الأخلاقية والعقم المطلق لما نقوم به، بل الشعور بالإحباط، واستحالة إنجاز أيِّ شيء، أو حتَّى النجاح في الخداع ولو مرَّة». ومع ذلك، إن كان يشعر بأنه ليس أكثر من مجرَّد كاتب فاشل منافق لم يحقِّق شيئًا، لكان استقال قبل ذلك بكثير. كان يفضي بشكوكه إلى مذكِّراته الشخصية، لكن إذا قال شخصٌ آخر شيئًا مشابهًا، كان يدافع بحدَّة عن موقفه. وفقًا

لليتيس كوبر، محرِّرة أورويل السابقة في مجلَّة «تايم آند تايد» وواحدة من أقرب أصدقاء آيلين، فهو «لم يتأكَّد تمامًا إن كان يخسر نزاهته بالفعل بسبب وجوده في هيئة الإذاعة البريطانية. أظن أنه شعر أن موقفه يتعلَّق بالدفاع عن أمرٍ سيِّئ ضد الأسوأ».

كان أحد منتقديه هو الأناركي جورج وودكوك، الذي لم يكن صديق أورويل بعد، وقد سدَّد إليه لكمة أسفل الحزام في مناظرة عن النزعة السلمية في مجلَّة «بارتيزان ريڤيو»: «والآن يعود الرفيق أورويل إلى ولائه الإمبريالي القديم ويعمل في هيئة الإذاعة البريطانية ويصنع بروباجندا بريطانية لخداع الجماهير الهندية!». أجاب أورويل بصراحة أنه ليس واهمًا ولكنه يعتقد أنه «أبقى البروباجندا البريطانية أقل إثارة للاشمئزاز نوعًا ممَّا كان يمكن أن تكون عليه». قال إن المرء يستطيع «إدراك ما الأوساخ والقذارة التي تتفَّق عادةً عبر الهواء» فقط بعد التعرُّض اليومي للأصناف الأخرى. اعتقد ديزموند هوكنز زميله في الهيئة أن الذي بلور دور آلة البروباجندا في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لم يكن هيئة الإذاعة البريطانية وإنما البث النازي، الذي طُلب من موظِّفي الإذاعة البريطانية دراسته: «كنا نستمع إلى برنامج «الدعوة الألمانية»، الذي يضمُّ كل أشكال تزييف الحقائق و«التفكير المزدوج». لذا كنا نرى كيف تُستغل وسائل الإعلام الجديدة، أيضًا يجب أن يؤخذ في الحسبان أنني وأورويل وُلدنا في عالم بلا إذاعة». تذكَّر ديڤيد أستور، رئيس تحرير جريدة «ذا أوبزيرڤر» الأرستقراطي الذي قدَّمه سيريل كونولي إلى أورويل، أن الأخير كان يفكِّر في إعادة تحرير مقتطفات من خطب تشرشل لجعلها

تبدو كما لو كان يعلن السلام، فقط لإظهار مدى سهولة التلاعب بالتسجيلات. قال أستور: «أظن أنه كان يؤمن بإمكانية استخدام آلات الدعاية لاختراع أيِّ شيء، ولجعل الناس يلقون خطبًا لم يلقوها من قبل».

كان أورويل أسرع غضبًا بكثير عندما نشر ألكس كومفورت، الطبيب وداعي السلام الذي سيشتهر في السبعينيات بصفته مؤلِّف كتاب «متعة الجنس»، قصيدة طويلة باسم مستعار في مجلَّة «تريبيون» هاجمت الكُتَّاب الذين انضمُّوا إلى المجهود الحربي. ردَّ أورويل بقصيدة أوضحت تناقض مشاعره إزاء وظيفته في هيئة الإذاعة البريطانية:

لا يحتاج الأمر إلى عيني محقِّق
لمراقبة جادَّة «بورتلاند بالاس» ورصد العاهرات
لكن يُوجد رجال -أعترف أنهم ليسوا الأشد يقظة-
بضِعف مواهبك وثلاثة أضعاف جرأتك
يؤدُّون ذلك العمل القذر لأنه مطلوب،
وهم -لأسبابٍ وجيهة وليس بطاعةٍ عمياء-
يفنون أعمارهم ويهدرون مواهبهم.

أخفى هذا التحدِّي العلني قدرًا كبيرًا من القلق الخاص حول تأثير الحرب على مستوى الخطاب. كتب أورويل في دفتر يوميَّاته: «في هذه الأيَّام، مهما قيل أو فُعِل، يبحث المرء على الفور عن الدوافع الخفية ويفترض أن الكلمات تعني أيَّ شيءٍ آخر غير ما يبدو أنها تعنيه... عندما أتحدَّث إلى أيِّ شخصٍ أو أقرأ كتابات أيِّ شخصٍ لديه وجهة نظر قوية، أشعر أن الصِّدق الفكري وحسن

التقدير قد اختفيا ببساطة من على وجه الأرض... السلطة برمَّتها في أيدي المصابين بجنون العظمة».

كان صيفًا مملًا كئيبًا. انتقلت أيدا أم أورويل وأخته أفريل إلى لندن، حيث عملت الأولى في سلسلة متاجر سيلفريدچز والثانية في مصنع صفائح معدنية، حتَّى تُوفِّيت أيدا في شهر مارس التالي. انتقلت آيلين إلى وزارة الغذاء، حيث عملت في ابتكار وصفات طعام اقتصادية لصالح خدمة هيئة الإذاعة البريطانية المنزلية. انتقل الزوجان من لانجفورد كورت إلى شقَّة كبيرة معرَّضة لتيَّارات الهواء في شارع مورتايمر كرسنت في حي مايدافيل. أخبرت آيلين إحدى صديقاتها: «لو لم نكن أنا وچورج ندخِّن كثيرًا، لاستطعنا الحصول على شقَّة أفضل».

***

مال النقد الأدبي الذي أنتجه أورويل لصالح «القطاع الهندي» -بسبب ضيق الوقت وهواجس معيَّنة- إلى الكتب التي كان يعرفها عن ظهر قلب بالفعل، والتي لها بعض الصلة بالشمولية. صار «ماكبث» على سبيل المثال «النموذج المثالي للطاغية المسكون بالإرهاب الذي يكرهه ويخشاه الجميع، ويحيط نفسه بالجواسيس والمجرمين والمتملِّقين، ويعيش في خوفٍ دائم من الغدر والتمرُّد... إنه نسخة بدائية نوعًا ما للديكتاتور الفاشي الحديث».

كانت رواية «رحلات جليفر» نموذجًا آخر، وهي رواية الطفولة المفضَّلة لأورويل التي مثَّلت «الهجوم الأدبي الأفدح في التاريخ رُبَّما على المجتمع البشري». شعر أورويل أن سلسلة يوتوبيات جوناثان سويفت الساخرة التي نُشرت عام 1726 كانت وثيقة

الصلة بالعصر الحديث بشكل ملحوظ. في مقالٍ لاحقٍ له، وصف الجزء الثَّالث بأنه «رؤية جليَّة تمامًا للدولة البوليسية المسكونة بالجواسيس، بمطاردتها الدائمة للهراطقة ومحاكمات الخيانة العظمى». الدَّافع الأدبي الذي حثَّ سويفت على ابتكار «أكاديمية لاجادو» في روايته يقود مباشرةً إلى شخصية جوليا التي تعمل مُشغِّلة آلة في إدارة الخيال في وزارة الحقيقة.

كان أكثر أعمال أورويل غرابة في هيئة الإذاعة البريطانية حوارًا مُتخيَّلًا مع شبح سويفت، لعب فيه أورويل دور المتفائل الحذر من بُغض سويفت الوحشي للبشر. لم تتأثَّر النسخة التي تخيَّلها من سويفت بهتلر أو ستالين أو بقصف لندن، لأن التقدُّم ليس إلا خداعًا ولأن العلم لا ينتج سوى آلات قتل أكثر فاعلية. ربَّما كان أورويل يستخدم سويفت لتجسيد دوافعه الكئيبة ليتمكَّن من تكوين حجَّة ضدَّها. فعلى الرغم من أنه أصبح متشائمًا، لم يكن يعتقد أن البشر مخلوقات وضيعة وعديمة القيمة تحمل في طيَّاتها بذور الهزيمة. «لم يستطع أن يرى ما يراه أبسط البشر»، هكذا خلص أورويل بعد انقطاع المكالمة الهاتفية الخارقة للطبيعة مع سويفت، «وهو أن الحياة تستحق أن تُعاش وأن البشرَ -حتَّى لو كانوا قذرين وسخيفين- جديرون في العموم. ولكن في النهاية، أفترض أنه لم يكن ليكتب «رحلات جليفر» لو كان في مقدوره رؤية ذلك». وكما قال آرثر كويستلر: «لم يفقد أورويل إيمانه قط بالرعاع البلهاء نخري الأسنان».

فقط عندما حاول سويفت تخيُّل مجتمعٍ مثالي في الجزء الرَّابع من «رحلات جليفر» خذلته مخيِّلته، هكذا اعتقد أورويل.

ابتكر سويفت عرقًا نبيلًا من الجياد الذكية يُدعى «هوينمز» يرفل في الطهارة، وبالتالي أتى «مضجرًا بشكل لا يُطاق». كما نعرف، يرى أورويل أن اليوتوبيات الإيجابية مملة إلى أقصى درجة. في مراجعته لرواية هربرت صمويل «أرض مجهولة» عام 1942، لم يستطع أن يقاوم النيل من ويلز مجدَّدًا: «العجرفة الواثقة والميل إلى إطراء الذات من عيوب سكَّان اليوتوبيات الشائعة، كما يُمكن أن تُظهر أيُّ دراسة لأعمال السيِّد إتش جي ويلز».

ألقى أورويل أيضًا محاضرة عن جاك لندن، وهي واحدة من ستِّ مرات كتب فيها عن المؤلف الأمريكي. بعد سويفت وويلز، لم يجذب أيُّ كتاب انتباه أورويل أكثر من رواية لندن «العقب الحديدية» المنشورة عام 1908، التي جذبت جمهورًا جديدًا من القرَّاء الأوروبيين خلال الثلاثينيات. قال عنها أورويل: «نبوءة رائعة جدًّا عن صعود الفاشية»، ثم بميله المعتاد للاستخفاف بالكتب التي فتنته أكثر من غيرها، وصفها بـ «كتاب سيِّئ جدًّا» من نواحٍ عديدة، لكن لا يمكن نسيانه.

كتب أورويل أن لندن كان «اشتراكيًا بغرائز قرصان وبثقافة ماديٍّ من القرن التَّاسع عشر». على الرغم من انضمامه إلى حزب العمل الاشتراكي في 1896، كان لندن عنصريًا حادًا وإمبرياليًا يسترشد بفكرة هربرت سبنسر «البقاء للأصلح» أكثر ممَّا يسترشد بماركس. ذات مرَّة صدم الجميع في اجتماع حزبي عندما صرخ قائلًا: «أنا أوَّلاً وقبل كل شيء رجلٌ أبيض، واشتراكي في المرتبة الثانية». قبل تحوُّله السياسي، كان مؤلِّف «نداء البرِّية» و «الناب الأبيض» يرى نفسه «أحد وحوش نيتشه الشُقر. يرتحل

فـي الأرض ويفتـح البلـدان بشهوة، عـن طريـق تفوُّقـه المطلق وقوّتـه الفاشـمة». لقـد أعـاد توظيـف تلـك الغريـزة، لكنـه لـم يفقدهـا أبـدًا. فـي خريـف عـام 1905، نظَّـم لنـدن جولـة محاضـرات حـول حتميـة الاشـتراكية، تفاعـل خلالهـا أثريـاء نيويـورك بحـدَّة بعبـاراتٍ مثـل: «لقـد أسـأت إدارة العالـم، ولسـوف يؤخـذ منـك!». دفعـه غضبهـم الشـديد، والثـورة البلشـفية المخفقـة فـي روسـيا، وقـراءة روايـة ويلـز «عندمـا يسـتيقظ النائـم» إلـى حبـك كابـوسٍ حـول القمـع الوحشـي للاشـتراكية فـي أمريـكا.

كان مـن بيـن المعجبيـن اللاحقيـن بروايـة «العقـب الحديديـة» زعيم الحـزب الاشـتراكي الأمريكـي يوجيـن دبـس، والسياسـي البريطانـي أنوريـن بيڤـان مـن حـزب العمـل، وتروتسـكي، لكـن لـم يـدَّع أيٌّ منهـم -مثـل أورويـل- أنّ الروايـة كانـت قطعـة نفسـية مـن الأدب. إن قراءتهـا تـورِّث -إذا أسـأنا اقتبـاس فيليـب لاركيـن- الملـل أوَّلًا، ثـم الخـوف. يحكـي الجـزء الممـلُّ مـن الروايـة عـن إرنسـت إڤرهـارد، الفحـل الاشـتراكي المسـتوحى مـن المؤلـف، إلـى درجـة الاقتبـاس المباشـر مـن محاضراتـه. الروايـة ترويهـا آڤيـس عشـيقة إڤرهـارد، وتسـرد مـن خلالهـا قصصًـا فيَّاضـة عـن تمتُّـع عشـيقها بـ «جسـد مصـارع وروح نسـر»، وهـي قصـص تصـل إلـى درجـة حـب مفـرط للـذات مـن جانـب لنـدن. يصـف كاتـب سـيرة المؤلـف إيـرل لابـورز الروايـة بأنهـا ««ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» لـو صاغتهـا إليزابيـث باريـت براونـنج».

لكـن إن كان النصـف الأوَّل محاضـرةً، فالنصـف الثانـي حمَّـام دم. عندمـا فـاز إڤرهـارد وفصيلـه الاشـتراكي فـي انتخابـات الكونجـرس، انتقمـت الأقلِّيـة الرأسـمالية بتفتيـت النقابـات العمَّاليـة أو شـرائها،

وإخضـاع الإعـلام والمعارضـة السياسـية، وسـحق الطبقـة الوسـطى، وتجنيـد الميليشـيات، واسـتخدام عمـلاء محرِّضيـن للقيـام بأعمـال شغب واعتداءات إرهابية لتسـويغ تعليق العملية الديموقراطية. كما كتـب تروتسـكي فـي عـام 1937: «عنـد قراءتهـا، لا يصـدِّق المـرء مـا يـراه بـأمِّ عينـه: إنهـا الفاشـية في أبـرز تجلٍ لهـا، باقتصادها وأسـاليبها الحكوميـة وسـيكولوچيتها السياسـية!». كان معجبًـا بتصميـم لنـدن علـى «زعزعـة مـن ركنـوا إلـى الروتيـن، لإجبارهـم علـى فتـح أعينهـم لرؤيـة الواقـع والمستقبل الـذي يقتـرب». تنتهـي الروايـة فجـأة بإعـدام إفرهـارد فـي الكواليـس وانتصـار الأقليـة الحاكمـة، التـي تُسـمَّى الآن «العقـب الحديديـة». رأى أورويـل أن حكايـة لنـدن عـن ضـراوة الأقليـة الحاكمـة واعتقادهـا شـبه الدينـي بنزاهتهـا كانـت «أحـد أفضـل التصريحـات التـي كُتبـت فـي التاريـخ عـن المسـتقبل الـذي لا بُـدَّ أن الطبقـة الحاكمـة سـتحظى بـه إذا قُـدِّر لهـا الاسـتمرار». باختصـار: «السـلطة، لا الـرب ولا شـيطان الجشـع، لا شـيء إلا عبـادة السـلطة».

رأى أورويـل أنـه مـن المسـتحيل تحديـد إلـى أيـن كانـت رحلـة لنـدن السياسـية سـتقوده لـو لـم يمـت فـي عـام 1916 عـن عمـر ينـاهـز الأربعيـن. كان مـن الممكـن أن يتحـوَّل إلـى شـيوعي أو تروتسـكي أو أناركـي أو نـازي. «فكريًّـا كان يعـرف أن الاشـتراكية تعنـي أن يـرث الودعـاء الأرض، لكـن هـذا لـم يكـن يتوافـق مـع طبعـه. علـى الأقـل مـا كان ليرتكـب خطـأ عـدم أخـذ هتلـر علـى محمـل الجـدِّ»، هكـذا كتـب أورويـل. بسـبب «نزعتـه الوحشـية» و«فهمـه للبدائيـة»، كان لنـدن «نبيًّـا أفضـل مـن مُفكِّريـن كُثـر أكثـر اسـتنارة ومنطقيـة» مثـل ويلـز. مثـل هـذه البصيـرة النافـذة للعنـف والسـلطة لـن يملكهـا غيـر رجـل حافـظ علـى بعـض الصِّلـة بالوحـش الأشـقر الـذي بداخلـه. كتـب

أورويل: «يمكنك القول إنه يستطيع فهم الفاشية لأنه يحمل بذور الفاشية داخله». ربَّما إذًا لم يكن أورويل بدوره ليبتكر وزارة الحب ما لم يكن يحمل بذور الوحشية.

ربَّما تكون رواية «العقب الحديدية» قد ألهمت التسلسل الهرمي للأقلية الحاكمة، والعوام، وصورة الحذاء الذي يطأ وجه الإنسان إلى الأبد في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كتب أورويل لأول مرة عن «صورة الحذاء الذي يهبط على وجه إنسان» في مقال «الأسد واليونيكورن»، واستخدم الحذاء كمجاز عن عنف الدولة ما يقرب من عشرين مرة في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». ومع ذلك، ربَّما كانت أعظم هدية قدَّمها لندن لأورويل هي البناء الراوئي. تحتوي كلٌّ من «رحلات جليڤر» و «النظر إلى الماضي» على مقدِّمة من محرِّرٍ وهمي، كي تُقرأ على أنها مذكِّرات لا رواية، لكن لندن ذهب إلى أبعد من ذلك. لقد صاغ حكاية آڤيس عن عشيقها على أنها «مخطوطة إڤرهارد»، وهي وثيقة قدَّمها وكتب لها الهوامش أنطوني ميرديث، المؤرخ الذي يعيش في المدينة الفاضلة الاشتراكية في القرن السَّابع والعشرين، ويُعدُّ النص «تحذيرًا للمنظرين السياسيين المتهورين الحاليين، من يتحدَّثون بيقين عن التطوُّرات الاجتماعية». تُعدُّ هوامش الرواية أداة لإدخال السياق السياسي في السرد القصصي إلى حدٍّ كبير، لكنها توضِّح أيضًا أن الأقلية الحاكمة المعروفة بالـ«العقب الحديدية» أُطيح بها أخيرًا بعد ثلاثة قرون، وحلَّت محلَّها أخوية إنسانية.

يقودنا هذا إلى ما سأسمِّيه «نظرية الملحق».

* * *

«النهايـة» ليسـت آخـر كلمـة فـي روايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون». الكلمـة الأخيـرة الفعليـة هـي «2050»، التـي تختتـم الملحـق المعنـون بـ «مبـادئ اللغـة الجديـدة». لهـذا الملحـق سـمتان بارزتـان: الأولى أنـه مكتـوب بإنجليزيـة القـرن العشـرين المعروفـة باسـم اللغـة القديمـة، والثانيـة أنـه مكتـوب بصيغـة الماضـي. لـذا فهـو يثيـر بعـض الأسـئلة الملحَّـة: مـن كتبـه، ومتـى، ولمـن؟

يُوجـد تفسـيران محتمـلان لهـذا: التفسـير الأوَّل هـو أنـه خطـأً فـادح مـن المؤلِّـف الـذي بـدا -بخـلاف ذلـك- متحكِّمًـا بشـكل كامـل فـي أدواتـه، وكان بإمكانـه بسـهولة إضافـة تحليـل «اللغـة الجديـدة» إلـى كتـاب جولدشـتاين. التفسـير الآخـر، أو نظريـة الملحـق، هـو أن قصـة ونسـتون سـميث نـصٌ داخـل عالـم الروايـة مؤلِّفـه مجهـول، ومـن هنـا جـاء الهامـش الوحيـد فـي الفصـل الأوَّل الـذي يُحيـل القـرَّاء إلـى الملحـق.

منطقيًـا، هـذا يعنـي أن كل الحقائـق المذكـورة حيَّـة بدقَّـة فـي ذاكـرة التاريـخ، وأن اللغـة الإنجليزيـة لـم يُقـض عليهـا بحلـول عـام 2050، وهـذا يعنـي بالتبعيـة أن حـزب الإنجوسـك لـم يـدم «إلـى الأبـد». لا بُـدَّ أن ونسـتون كان مخطئًـا عندمـا ظـن أن «اليوميـات سـتتحول إلـى رمـاد وأنـه هـو نفسـه سيتلاشـى»، لأن هـا هـو مؤلـف الملحـق يعـرف القصـة كاملـة. يكمـن فـي سـرد الملحـق النزيـه الدقيـق لتاريـخ اللغـة الجديـدة نهايـة سـعيدة مـن نـوعٍ مـا: إنـه صـدعٌ فـي بـدن اليـأس الهائـل. لا يسـتطيع ونسـتون لمـس التغييـر فـي «زمنـه الحالـي»، لكنـه يتصـوَّر «تـرك بعـض السـجلَّات خلفـه، كـي يتمكَّـن الجيـل التالـي مـن المضـي قدمًـا مـن حيـث انتهينـا». فـي مقدِّمتهمـا للنسـخة المسـرحية مـن

الرواية عام 2013، وهي أوَّل معالجة دمجت الملحق في حداثها، كتب روبرت آيك ودانكان ماكميلان أنه «يفتح بجرأة شكل الرواية ويعكس تساؤلاتها الجوهرية إلى القارئ مرَّة أخرى. أيمكنك الوثوق بالأدلة؟ كيف يمكنك تمييز الحقيقة؟ وفي أيِّ عصرٍ ومكان أنت الآن أيها القارئ؟».

أبرز مناصر لنظرية الملحق هي مارجريت آتوود. «أورويل أكثر تفاؤلًا ممَّا يعتقده الناس»، هكذا قالت في عام 1986. وفي مقابلة لاحقة أضافت أن كثير من الروايات الديستوبية «لديها قالب محدَّد، وهو أن كل تلك الأشياء الفظيعة حدثت في يوم من الأيَّام، لكننا الآن ننظر إليها من المستقبل». ملحق آتوود الذي بعنوان «الملاحظات التاريخية» في رواية «حكاية الجارية» يتبع القالب نفسه، وينظر إلى عالمٍ استبدادي لا يُطاق في الماضي من ملاذ عام 2195 الآمن. تقول آتوود: «التفاؤل شيء نسبي، بصيص الأمل شيءٌ جيِّد. لم نعد نؤمن بالحياة السعيدة الدائمة، لكن يمكننا التعايش من بصيص الأمل».

هذه إذًا هي نظرية الملحق.

* * *

كان أحد آخر الأعمال التي كتبها أورويل لصالح «القطاع الهندي» هي المعالجة الدرامية لقصَّة إتش جي ويلز القصيرة «زلَّة تحت المجهر» المنشورة عام 1896، وهي حكاية صغيرة عن التحيُّز الطَّبقي والبيروقراطية التي لا ترحم والمصير القاسي، النابعة جميعًا من تجارب الكاتب في «مدرسة العلوم القياسية». بعد حفل العشاء الناري في لانجفورد كورت، أخبر وليم إمبسون

إنـز هولـدن بأنـه يعتقـد أن ويلـز غضـب لأن أورويـل كان وقحًـا. ردَّت هولـدن قائلـة بـل إن ذلـك كان لأن ويلـز اعتقـد أن أورويـل كان مخطئًـا. وقـد كان أورويـل مخطئًـا بالفعـل، أو اختزاليًّـا علـى الأقـل، عندمـا سـخر مـن الرجـل الأكبـر سـنًا باعتبـاره مؤثِّـرًا ذا حظـوة لا يملـك أدنـى فكـرة عمـا تواجهـه الديموقراطيـة. فـي الواقـع، كان ويلـز عجوزًا مكتئبًـا تنتابـه ميـولٌ انتحاريـة بيـن الحيـن والآخـر. كانـت رؤاه اليوتوبيـة فـي حقيقـة الأمـر تحذيـرات بقـدر مـا كانـت نبـوءات: إمـا أن تتَّبـع البشـرية طريـق التقـدم (كمـا وصفـه ويلـز) وإمـا تنزلـق مـرَّة أخـرى إلـى الهاويـة. ويبـدو أنهـا اختـارت الأخيـرة. «نحـن الشـعب البريطانـي مجموعـة مـن الحمقـى لا أمـل فـي تعليمهـم، فـي حـربٍ مـع مجنـون مُعـدٍ وضحايـاه». هكـذا كتـب ويلـز إلـى برنـارد شـو فـي عـام 1941.

ليـس مـن المسـتغرب إذًا أن ينفجـر ويلـز غضبًـا كلَّمـا شـعر أن شـخصًا مـا يُشـوِّه تاريخـه المهنـي. السُّـمعة شـيء نفيـس وهـش ويجـب الدفـاع عنهـا. كان يؤمـن بـأنَّ سـيرته المهنيـة برمَّتهـا تمثِّـل «أوضـح إصـرار علـى طـرح مخـاوف التقـدُّم وإمكانيـة اضمحـلال الإنسـان وانقراضـه... أعتقـد أن الاحتمـالات ليسـت فـي صالـح الإنسـان ولكـن الأمـر لا يـزال يسـتحق القتـال ضدَّهـا». لـذا تسـاءل كيـف أن شـخصًا ذكيًّـا مثـل أورويـل لـم يلتفـت إلـى تلـك النقطـة الجوهريـة؟ بنهايـة العقـد، سيكتشـف أورويـل بنفسـه شـعور المـرء عندمـا يـرى وجهـة نظـره الأساسـية تجـاه العالـم يُسـاء فهمهـا.

اقرأ أعمالي المبكِّرة أيها القذر.

فـي الوقـت الـذي أُذيعـت فيـه معالجـة «زلّـة تحـت المجهـر» فـي أكتوبـر عـام 1943، كان أورويـل قـد قـدَّم اسـتقالته بالفعـل مـن هيئـة الإذاعـة البريطانيـة. «ربَّمـا سـأعود شـبه إنسـان مـرَّة أخـرى فـي وقـتٍ مـا مـن عـام 1944 وأتمكَّـن مـن كتابـة شـيءٍ جـادٍ. فـي الوقـت الحالـي أنـا مجـرَّد ثمـرة برتقـال صـارت مداسًـا لـكل حـذاءٍ قـذر»، هكـذا كتـب إلـى رايـنـر هبنسـتال، صديـق قديـم لـه كان يعمـل حاليًـا فـي قسـم آخـر مـن هيئـة الإذاعـة البريطانيـة. ابتهجـت آيليـن مـن قـرار اسـتقالته، وأخبرتـه لاحقًـا: «أظـن أنـك لـو امتهنـت جمـع القمامـة سـيكون أكـرم لـك وأفضـل لمسـتقبلك ككاتـب».

فـي خطـاب اسـتقالته، شـدَّد أورويـل علـى أنـه عُومـل بشـكلٍ جيِّـد وأُتيـح لـه قـدرٌ كبيـر مـن الحريـة: «لـم أجبـر ولا مـرَّة علـى أن أقـول شيئًـا علـى الهـواء لـم أكـن لأقولـه كشـخص عـادي». كانـت تلـك مبالغـة مهذَّبـة، فقـد وُبِّـخ ذات مـرَّة لأنـه مـرَّر نقـدًا لسـتالين فـي بـثٍّ إخبـاري، لكـن السـبب الرئيسـي وراء اسـتقالته كان اقتناعـه المزعـج بـأن عملـه لـم يكـن سـوى مضيعـة لوقتـه ولأمـوال الشـعب. لـم يكـن فـي الهنـد غيـر 121 ألـف جهـاز راديـو، فـي دولـة يبلـغ عـدد سـكَّانها ثلاثمئـة مليـون نسـمة، ولـم يكـن أولئـك الذيـن يسـتمعون بالفعـل يألفـون عـادة الكتابـة ليرسـلوا آراءهـم. عندمـا أجـرت هيئـة الإذاعـة البريطانيـة اسـتطلاعًا للمسـتمعين، كانـت نسـبة تأييـد أورويـل منخفضـة، إلـى حـدٍّ 16 بالمئـة. فقـط بعـد الحـرب عَلِـم أن عملـه لـم يكـن لـه أيُّ معجبيـن فـي الهنـد علـى الإطـلاق. لـم يقـرأ أبـدًا التقريـر الدَّاخلـي المفعـم بالحماسـة الـذي كتبـه راشـبروك وليمـز، مديـر «القطـاع الهنـدي»، الـذي أشـاد بموهبتـه وأخلاقياتـه فـي العمـل ونزاهتـه:

«إن صادق تمامًا وليس من شيمه الخداع، وفي العصور القديمة كان سيُعلن قدِّيسًا أو سيُعدم حرقًا، وكان سيتقبَّل أيَّ المصيرين بشجاعة رزينة». في اليوم الذي غادر فيه، أقام له زملاؤه حفلة مفاجئة. كانوا يخشون أنهم إذا أخبروه مسبقًا، لما كان ليحضر.

لقد شهد أورويل أسلوب عمل آلة البروباجندا على الأقل عن طريق وظيفته ووظيفة آيلين، وقد تركه هذا مهوَّسًا بصناعة الكذب. تمامًا مثلما علَّمه توجُّهه الإمبريالي أن يكره الإمبريالية، ومثلما أكسبته مؤاخاة المتشرِّدين وعمَّال المناجم إحساسًا عميقًا بالظلم الاقتصادي، ومثلما عزَّز القتال في إسبانيا معارضته لكل من الفاشية والشيوعية، أعطاه عمله الإذاعي -حتَّى وإن كان حميدًا بشكل بنسبي- السلطة الأخلاقية لنقد البروبجاندا بأشدِّ لهجة. في مقالٍ طويل بعنوان «تأمُّل الحرب الإسبانية من جديد» كُتب عام 1942، فهم أورويل بشكل أفضل ما رآه يتكشَّف في إسبانيا: «للمرَّة الأولى أرى تقارير إخبارية ليس لها أدنى علاقة بالأحداث، ولا حتَّى تلك العلاقة التي تنطوي عليها كذبة عادية... رأيت أن التاريخ يُكتب ليس من منظور ما حدث بل بما كان يجب أن يحدث وفقًا لمختلف «التوجُّهات الحزبية»».

كان هذا أمرًا جديدًا، هكذا فكَّر. في الماضي، كان الناس يُدانون بالخداع المتعمَّد أو التحيُّز اللا واعي، لكنهم على الأقل كانوا يؤمنون بوجود الحقائق ويميِّزون بين الصواب والخطأ. أما الأنظمة الشمولية فتكذب على نطاق هائل إلى درجة جعلت أورويل يشعر أن «مفهوم الحقيقة الموضوعية نفسه يتلاشى من العالم». ما كان مجرَّد فكرة في عام 1937 تحوَّل إلى اقتناع

سيُشكِّل الركيزة التي تتَّكئ عليها وزارة الحقيقة ومصدر سلطة حزب الإنجوسك الحقيقي: هذه السلطة «لا تتحكَّم في المستقبل فحسب، بل في الماضي. إذا قال الزعيم عن حدثٍ ما إنه لم يحدث قط، فهو لم يحدث قط. إذا قال إن 2 + 2 = 5، إذًا 2 + 2 = 5. هذا الاحتمال يخيفني أكثر من القنابل، وبعد التجارب التي خضناها في السنوات القليلة الأخيرة، ليس هذا تصريحًا تافهًا».

هنا تكمن بلا شك الأسس الأخلاقية والفكرية لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». حرب الشمولية على الواقع أكثر خطورة من البوليس السري والمراقبة المستمرة أو الحذاء الذي يطأ وجه الإنسان، لأن في «هذا العالم الوهمي المتغيِّر الذي قد يصبح الأسود فيه أبيض غدًا ويمكن فيه تغيير طقس الأمس بفرمان» لا توجد أرضية صلبة لشنِّ تمرُّدٍ، ولا ينجو أيُّ ركن من أركان العقل من فساد وتشويه الدولة. إنها سلطة تمحي إمكانية تحدي السلطة. لهذا السبب لم يكف أوبراين إجبار ونستون على قول إن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة، ولم يريح حقًّا إلا عندما آمن ونستون أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة.

خلال فترة عمل أورويل في هيئة الإذاعة البريطانية، انقلبت كفَّة الحرب. عندما بدأ يومه الأوَّل في «مدرسة الكاذبين» في أغسطس عام 1941، كانت ألمانيا تهيمن على أوروبا وتتقدَّم إلى موسكو، واليابان تجتاح جنوب شرق آسيا، ولم تكن الولايات المتَّحدة قد دخلت الحرب بعد. لكن في شهر نوفمبر عام 1943، كانت قوَّات هتلر قد طُردت من شمال إفريقيا ومن معظم الاتِّحاد السوفيتي، واستسلمت إيطاليا للحلفاء، ووصف الإمبراطور

هيروهيتو الوضع الياباني بأنه «خطير حقًا». كان تشرشل وروزفلت وستالين على بعد أيَّام من الاجتماع في طهران لمناقشة «مناطق النفوذ» بعد الحرب، وهي القِمَّة التي وصفها أورويل بأنها شكَّلت إلهامًا مبكِّرًا جدًّا لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كانت مسألة وقت فقط قبل أن تنهار ألمانيا واليابان. تحوَّل عقل أورويل إلى الاهتمام بمستقبل الشمولية، الآن بعد أن هُزمت الفاشية وبدأت الاستالينية تنتفش بالكبرياء.

في مرحلة ما رسم الخطوط العريضة لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، التي كان عنوانها وقتها «آخر رجل في أوروبا» (نجا أثرٌ من ذلك العنوان الأصلي في كلمات أوبراين الساخرة: «إن كنت رجلًا يا ونستون، فأنت آخر الرجال. لقد انقرض نوعك، ونحن الوارثون»). إن دفتر يوميات أورويل غير مؤرخ، ويبدو واضحًا أن محتوياته منسوخة من مسوَّدة أو أكثر، لكن يميل الباحثين إلى إرجاع وقت كتابة خطوط الرواية العريضة إلى نهاية عام 1943 أو بداية عام 1944. بعض مكونات الرواية الجوهرية لا تظهر في هذا المُخطَّط، ولكن المحتوى الأساسي موجود، بما في ذلك حزب الإنجوسك واللغة الجديدة والتفكير المزدوج والتَّأثير الذي خطَّط لخلقه: «الأجواء الكابوسية الناتجة عن اختفاء الحقيقة الموضوعية». تلك العبارة مرَّة أخرى. إن لم يكن هناك شيء آخر، فإن الفترة التي قضاها في هيئة الإذاعة البريطانية منحت هذه الأفكار المستهلكة وقتًا كي تتطوّر إلى مفاهيم معقَّدة.

نُشر مقال «تأمّل الحرب الإسبانية من جديد» في «نيو رود» في يونيو 1943، محذوفًا منه أجزاء جوهرية تتحدَّث عن الدعاية

وإساءة استخدام التاريخ. لن يُنشر الأصل كاملًا حتَّى عام 1953، وهذه خسارة كبيرة، لأن هذه الأجزاء لم تشرح فقط الأفكار الكامنة وراء «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، بل شكَّلت دفاعًا استباقيًّا عن الكتاب ضد أيِّ شخص سيتَّهمه مستقبلًا بالإغراق في الميلودراما الهستيرية. «هل من التصابي أو التشاؤم أن يُفزع المرء نفسه برؤى مُستقبلٍ شمولي؟»، هكذا تساءل أورويل. «قبل نبذ فكرة العالم الشمولي باعتبارها كابوسًا لا يمكن أن يتحقَّق، تذكَّروا أن عالمنا الحالي كان سيبدو كابوسًا لا يمكن أن يتحقَّق في عام 1925».



الفصل السَّادس

المهرطق

أورويل وزامياتن

«أعلم أن لدي عادة مزعجة جدًا هي التفوُّه بما أراه حقيقة بدلًا من قول ما قد يكون ملائمًا في الوقت الراهن».

يفجيني زامياتن، خطاب إلى ستالين، 1929.

في يناير 1944، لفت بروفيسور في الأدب روسي المولد يُدعى جليب ستروف انتباه أورويل إلى رواية يفجيني زامياتن «نحن» المناهضة لليوتوبية، التي كُتبت بين عامي 1920 و1921. ردَّ أورويل: «أنا مهتم بهذا النوع من الكتب، حتَّى أنني أدوِّن ملاحظات لنفسي من أجل رواية سأبدأ في كتابتها آجلًا أو عاجلًا».

عثر أورويل في ذلك الصيف على نسخة من الترجمة الفرنسية المنشورة عام 1929 بعنوان «نوز أوتغ»، وكتب عنها في النهاية في مجلَّة «تريبيون» في يناير عام 1946 تحت عنوان «الحرية والسعادة». كان الحكم الذي أطلقه أورويل عليها أنها «ليست عملًا من الطراز الأوَّل، لكنها عملًا فريدًا بلا شك»، وأشار إلى أن «عالم جديد شجاع» «يجب أن تكون اشتُقَّت جزئيًا منها». في رسالة لاحقة إلى فريدريك واربورج، تجاوز ذلك إلى «سُرقت جزئيًا». لم يكن هذا ادِّعاءً متماديًا -فقد قال كورت فونيغوت شيئًا مشابهًا لاحقًا- لكن هكسلي لم ينفك عن نفي أنه قرأها،

وقـد صدَّقـه زامياتـن فـي ذلـك قائـلاً إن التشـابه «يثبـت أن تلـك الأفـكار تحـوم فـي الهـواء العاصـف الـذي نتنفسـه».

جـاءت العاقبـة لأورويـل فـي صـورة اتّهـام نُقّـاد عديديـن لـه بأنـه سـرق مـن «نحـن». الأوّل كان المـؤرّخ آيـزك دويتشـر، الـذي اتّهـم المؤلّـف بانتحـال «فكـرة 1984 وحبكتهـا وشـخصياتها الرئيسـية ورمزيتهـا وأجوائهـا العامّـة» مـن روايـة «نحـن». فـي هـذا الادّعـاء ثـلاث مشـكلات. الأولـى: بالـغ دويتشـر فـي التشـابه بيـن الروايتيـن. الثانيـة: كمـا رأينـا، كان أورويـل قـد كتـب خطـوط روايتـه العريضـة قبـل أن يقـرأ «نحـن» بأشـهر. الثّالثـة: بـذل أورويـل جهـودًا متكـررة لإعـادة نشـر روايـة زامياتـن بالإنجليزيـة وشـجّع قُـرّاءه أكثـر مـن مـرة علـى «البحـث عـن هـذا الكتـاب». بالتأكيـد ليـس هـذا مـا يفعلـه عـادةً مُنتحلـو الأدب.

إن الأصالـة مفهـومٌ محيّـر فـي الأدب الروائـي. نحـن لا نتّهـم كل مـن يكتـب عـن محقّـق عبقـري غريـب الأطـوار بالسـرقة مـن آرثـر كونـان دويـل. الخيـال اليوتوبـي بـدوره نـوعٌ أدبـيٌ فيـه مجموعـة مـن الأفـكار والموضوعـات المتكـرّرة. أثّـر إدوارد بِلامـي فـي وليـم موريـس، وأثّـر كلاهمـا فـي إتـش جـي ويلـز. وأثّـر ويلـز فـي هكسـلي وأورويـل وزامياتـن، وقـد قـدّم كل هـؤلاء الكُتّـاب أفـكارًا وتقنيـات وأسـاليب جديـدة رائـدة. كمـا قـال موريـس، كل عمـلٍ «يُعبّـر عـن مـزاج مؤلّفـه». ومـع ذلـك، مـن المسـتحيل قـراءة روايـة زامياتـن الغريبـة المتبصّـرة مـن دون تذكّـر القصـص التـي كُتبـت بعـد ذلـك، بمـا فـي ذلـك روايـة أورويـل.

وصـف زامياتـن «نحـن» بأنهـا «أهـم أعمالـي وأخفّهـا ظـلًا». تـدور

أحداث الرواية التي بدأ كتابتها في بتروجارد*[28] عام 1920 -وهو في سنّ السّادسة والثلاثين- بعد مئات السنوات في المستقبل، في دولة واحدة استبدادية متطرّفة التعقُّل، في تعبير متّسم بالغلو عن اعتقاد المؤلِّف بأن الحياة الحضرية «تجرِّد البشر من فرديتهم، وتجعلهم نسخًا متشابهة شبه آلية». يشحذ زامياتن أفكار ويلز ودوستوفسكي ويطوِّرها إلى نموذج قوي لحكايات عديدة عن الفردية في مواجهة التماثل. يحكي لنا زامياتن عن عالم يحكمه ديكتاتور غامض لا اسم له يتظاهر بأنه حامي الحمى، ويلقِّب نفسه بـ «المُنعم»، يعيش الناس في ظلِّ حُكمه في دولة واحدة تمثِّل «انتصار الكل على الفرد»، يرتدون زيًا موحَّدًا ويُمنحون أرقامًا بدلًا من الأسماء. يلغي الديكتاتور الخصوصية بإسكان هؤلاء «المرقّمين» في منازل زجاجية تراقبها الشرطة السرية («الحرَّاس») باستمرار، باستثناء «ساعة الجنس» التي تفرضها الدولة، والتي تُنظِّم -في عالم بلا حب- عن طريق التذاكر. يُقدِّم لهم طعامًا مصنَّعًا، ومناخًا ثابتًا تحت السيطرة، وموسيقى آلية (كالتي ظهرت في رواية أورويل)، ويجبرهم على القيام بطقس يومي يُدعى «جدول الساعات»، يحاكي بسخرية «مبدأ الكفاءة» للمستشار الإداري فريدريك وينسلو تايلور. يشيِّد الديكتاتور كذلك مدينة زجاجية هندسية مستقيمة الخطوط على غرار معمار بتروجارد، يقع خلفها ما يُسمَّى بـ «الجدار الأخضر»، وهي بريّة جامحة تمثِّل دوافع الإنسانية الرجعية. يؤسِّس زامياتن في روايته كذلك لشخصية الجبان النمطية: ترس الآلة الرعديد الذي تدفعه أنثى خلَّابة مهرطقة إلى التمرُّد.

28-* تغيَّر اسم مدينة سانت بطرسبرج إلى بتروجراد في عام 1914، ثم صارت لينينجراد في عام 1924، وعادت إلى اسمها الأصلي في عام 1991. (المؤلِّف).

على الرغم من أهميتها، لا تحظى رواية «نحن» بشعبية كبيرة لأنها عملٌ صعب. إن متابعة المرء لأسلوب زامياتن المُوجَز الانطباعي تُشعره بأنه يدرس إحدى لوحات معاصريه مالفيتش وإل ليسيتزكي، التي تتكوَّن من محض ألوان وأشكال. على سبيل المثال، أسراب الطيور «مثلَّثات حادة سوداء نافذة تهبط»، والضحك «مفرقعات نارية حمراء وزرقاء وذهبية»، فضلًا عن أنه يصف علم التشريح كما الهندسة. أراد زامياتن لغة مناسبة لعالم متسارع. كتب في عام 1923: «عندما تتحرَّك بسرعة، لا تلمح العين المألوف والمعتاد، ولهذا استخدمت الرمزية والمفردات غير المألوفة والمدهشة في كثير من الأحيان. الصورة التي أريد رسمها حادة واصطناعية وتتمتَّع بخصيصة بارزة واحدة: خصيصة المشاهد التي تلمحها من سيارة مسرعة». أراد زامياتن أيضًا التعبير عن عقلية راويه، دي 530. استخدم كُتَّابٌ مثل بِلامي وويلز بطلًا معاصرًا كنائب عن القارئ، لكن زامياتن الذي انغمس مباشرة في المستقبل احتاج إلى لغة جديدة لتحريك عالمه الجديد. فيما بعد قارن كتاباته بالسينما: «لم أشرح قط، بل استعرضت وأوحيت دائمًا».

دي 530 هو عالم رياضيات يعمل على مركبة الفضاء «إنتجرال»، التي تهدف إلى توسيع رقعة الدولة الواحدة إلى كواكب جديدة، ويكتب في يومياتٍ تشرح عالمه للقرَّاء الذين يعتقد أنهم سيشبهون أسلافه البربريين. إن حكيه المتعجرف والمتعالي عن «السعادة المعصومة رياضيًا» يحاكي النبرة الإنجيلية للمرشدين السياحيين اليوتوبيين، مثل الدكتور ليتي الذي ابتكره بِلامي. يقول دي 530:

«إن شرح كل هذا أمرٌ مسلٍّ، وفي الوقت نفسه شاقٌ جدًا». أحب زامياتن رواية «اليوتوبيا الجديدة» لجيروم كيه جيروم، وثمَّة فكاهة بالفعل في شروحات دي 530 المتفاخرة بصدق، مثل عنوان ملهاة الدولة الواحدة المأساوية «هو الذي تأخَّر عن العمل».*[29] لكن ينتهي الأمر بدي 530 إلى توثيق رحلة عقله المفكَّك بدلًا من ذلك، عندما يشيع الاضطراب في معادلة حياته المثالية بسبب القيمة المجهولة إكس والرقم المستحيل $\sqrt{-1}$. وفي أثناء تعطُّله الفكري «كمحرِّك آلة يُجبر على الدوران بسرعة فائقة»، تُصاب كتاباته بذكريات معيبة وانتكاسات وتناقضات وشكوك وأحلام: إنه «المرض القديم» الذي أصابه من الثورية المتحرِّرة جنسيًا آي 330. وتبدأ قصَّته تتفلَّت منه.

شعَر أورويل أن لـ «نحن» «حبكة ضعيفة غير مترابطة نوعًا أعقد من أن تُلخَّص». لتيسير الأمر، إنها تتضمَّن عصابة من الثوَّار تُسمَّى ميفي تحاول اختطاف السفينة «إنتجرال» وتفجير الجدار الأخضر وإسقاط الدولة الواحدة، كل ذلك بمشاركة متردِّدة من دي 530. يُقاوِم «المُنعم» عن طريق ما يُدعى بالعملية الكبرى، وهي عملية شبيهة بالجراحة الفصِّية تزيل المخيِّلة وتجعل المواطنين «على قدم المساواة مع الآلة» وتجعل «الطريق إلى السعادة الكاملة واضحًا». بئس المجتمع المثالي الذي يتطلَّب عقولًا مثالية. ينتهي الكتاب بتعذيب آي 300 إلى الموت وهي

29-* كان الفكاهي البريطاني جيروم كيه جيروم محبوبًا جدًا في روسيا. وفقًا للمؤرِّخ برايان مونيهان فإن «كل كشك كُتُب من موسكو إلى هاربن كان به نسخة من رواية جيروم "ثلاثة رجال في قارب"». (المؤلف)

تبتسـم، وباستسـلام دي 530 الـذي يصـر علـى أن الدولـة الواحـدة سـوف تربـح: «لأنـه ينبغـي للمنطـق أن تربـح».

لـم ينتـه صـراع زامياتـن نفسـه مـع الدولـة بشـكل جيـد. بالنسـبة إلـى هـذا الرجـل الرائـع، الـذي دائمًـا مـا تطغـى مبادئـه علـى غريـزة حمايـة النفـس، كانـت «نحـن» بالتحديـد الروايـة التـي حطَّمـت حياتـه. لهـذا وصفهـا أورويـل بأنهـا «واحـدة مـن الأعمـال الأدبيـة الغريبـة اللافتـة للنظـر فـي عصـر تحريـق الكتـب الـذي نعيشـه».

كتـب زامياتـن ذات مـرَّة: «ربَّمـا لـم أكتـب أكثـر القصـص إثـارة للاهتمـام أو أكثرهـا جديـة، لكنهـا حدثـت لـي».

* * *

كان يفجينـي زامياتـن عازمًـا علـى جعـل الحيـاة صعبـة علـى نفسـه. وُلِـد الرجـل فـي بلـدة ليبديـان الإقليميـة فـي 1 فبرايـر 1884، وكان صبيًّـا وحيـدًا يعيـش حياتـه فـي الكتـب. «كان نيقـولاي جوجـول صديقـي»، هكـذا كتـب، كأنمـا لـم يكـن يحتـاج إلـى آخريـن. عندمـا تخـرَّج فـي المدرسـة فـي فورونيـج عـام 1902، حصـل علـى ميداليـة ذهبيـة لإنجازاتـه الأكاديميـة، بالإضافـة إلـى تحذيـر. أطلعـه مفتـش المدرسـة علـى كُتيِّـب لأحـد خريجـي فورونيـج اعتُقـل بسـبب أنشـطته الثوريـة قبـل ثـلاث سـنوات: «هـو أيضًـا أنهـى دراسـته بميداليـة ذهبيـة، ثـم مـاذا حـدث لـه؟ انتهـى بـه الأمـر فـي السـجن. نصيحتـي لـك: لا تكتـب. لا تسـلك هـذا المسـار». أضـاف زامياتـن فـي روايـة هـذه الحكايـة: «لـم يكـن لتحذيـره أيّ تأثيـر».

هـذا علـى الأقـل مـا رواه زامياتـن فـي واحـدة مـن ثـلاث مسـوَّدات السـيرة الذاتيـة التـي كتبهـا للصحـف الروسـية خـلال عشـرينيات القـرن الماضـي. سـواء تمَّـت المحادثـة علـى هـذا النحـو أم لا، هـذا

غير مهم. هذه هي القصة التي أراد أن يرويها: قصَّة الرجل الذي سبح عكس التيار مهما كلَّفه الأمر. وصفه ستروف بأنه «متمردٌ أبدي على طبائع الأشياء الراسخة».

ذهب زامياتن لدراسة الهندسة البحرية في معهد سانت بطرسبرج للعلوم الهندسية، لتستقبله مدينة تتنازعها التجمُّعات والمظاهرات الثورية. «في تلك السنوات، أن تكون بلشفيًا كان يعني اتِّباع مسار المقاومة الأكبر، وقد كنت بلشفيًا في ذلك الوقت»، هكذا كتب. على مدار العقد التالي، اعتقلته شرطة القيصر ثلاث مرَّات. خلال إحدى فترات إجباره على المنفى خارج المدينة، بدأ يكتب الروايات. قال مازحًا لاحقًا: «إن كنت أحظى بأيِّ مكانة في الأدب الروسي، فأنا مدين بها بالكامل لشرطة سانت بطرسبرج السرِّية». في أثناء الحرب العالمية الأولى، كان زامياتن متمرِّدًا معروفًا ومواطنًا ذا قيمة لديه مهارات لا يمكن أن تخسرها روسيا. في مارس عام 1916، بُعِث إلى بريطانيا لتصميم وبناء كاسحات الجليد للبحرية الروسية. انخرط زامياتن في المجتمع الإنجليزي بشكلٍ جيِّد، فهو حليق ووسيم وأنيق ويحب ارتداء البزَّات الصوفية وتدخين الغليون، وشعر أصدقاؤه أنه يتمتَّع باحتياطي عاطفي لا يختلف عن رجل إنجليزي. هناك كتب رواية «سكَّان الجزيرة»، وهي هجاء شديد اللهجة لخنوع الطبقة الوسطى. عاد زامياتن إلى بتروجارد قبل أسابيع قليلة من قيام ثورة أكتوبر. شعر زامياتن -الذي لم يعد بلشفيًا- كأن قنبلة أُلقيت في فبراير وظلَّت تتدحرج لمدَّة ثمانية أشهر قبل أن تنفجر بالفعل. كتب بعدها: «عندما انقشع دُخان هذا الانفجار الهائل أخيرًا، اتَّضح

أن كل شيءٍ مقلوب رأسًا على عقب: التاريخ، والأدب، والرجال، وسيرهم».

كان لزامياتن نظرة جدلية عن التاريخ. «الأمسُ أطروحة، واليومُ نقيض تلك الأطروحة، والغد توليفٌ بينهما»، هكذا كتب في مقال بعنوان «الغد» عام 1919. كان يعتقد أن التوليفة السياسية الروسية، التي تضمن العدالة الاجتماعية وحرية الفرد، لم تأت بعد. أضاف إلى ذلك فكرة العالم الفيزيائي الألماني يوليوس روبرت فون ماير حول الصراع الكوني بين الثورة وقوَّة الحياة والإنتروبيا التي تميل نحو الركود والموت. كانت الدوجمائية في نظر زامياتن إنتروبيا سياسية. «عدم الرضا الأبدي هو الضمان الوحيد للتقدُّم الأبدي، هو الضمان الوحيد للخلق الأبدي. لا يحيا العالم إلا بالهراطقة: المسيح المهرطق، كوبرنيكوس المهرطق، تولستوي المهرطق».

وقع زامياتن وسط مجموعة من الكُتَّاب، بقيادة الناقد رازومنيك إيڤانوف رازومنيك، الذين سمُّوا أنفسهم الإصقوث، تيمُّنًا باسم قبيلة من الرُّحل كانت تجوب السهوب الروسية قبل ألفي عام. لكن سرعان ما افترق زامياتن عن المجموعة لأنه كان يعتقد أن القول بأن ثورة أكتوبر هي الإجابة النهائية وتحويل البلشفية إلى دين جديد، هو قولًا غير إصقوثيٍّ في جوهره. وأصر على أن الإصقوثي الحقيقي هو متمرِّدٌ دائمًا «يعمل فقط للمستقبل البعيد، لا المستقبل القريب أو الحاضر على الإطلاق». كانت كلماته مثيرة ومثقِلة في الآن ذاته. فوسط حرب أهلية طويلة ودموية لحماية الثورة، لم يرغب معظم الناس في العيش والموت من أجل المستقبل البعيد. ضمن زامياتن بشكل عملي

أن الشـرطة السـرِّية البلشفية الجديدة، الـ «تشيكا»، ستكرهه مثل سـالفتها القيصريـة. أُغلِقـت المجـلَّات التـي تجـرَّأت علـى نشـر مقالاتـه النضاليـة وقصصـه القصيـرة الساخرة. فـي فبرايـر 1919، اعتُقِل زامياتـن، لكنـه خـرج مـن السـجن عـن طريـق الإقنـاع، ووجـد راعيًـا متعاطفًـا معـه هـو مكسـيم جوركـي.

قابل زامياتـن جوركـي أوَّل مـرَّة عندما عـاد إلى بتروجـارد فـي خضم فوضـى سـبتمبر 1917، لـذا ارتبـط فـي ذهنـه دائمًـا بصـوت الرصـاص. بشـاربه المصفـر مـن أثـر التبـغ وسـعاله الصاخـب، كان مكسيم جوركي وهـو فـي التَّاسـعة والأربعيـن عمـلاقَ الأدب الروسـي. اشـتهر بمسـرحيته الواقعيـة الاجتماعيـة «الحضيـض» عام 1902 وبدعمه المبكِّر للبلاشـفة، ممَّـا أدى إلـى سـجنه ونفيه. اختلف مـع صديقـه القديم لينيـن فـي عـام 1917، لكنـه أصلـح الجسـور بينهمـا فـي العـام التالـي واسـتخدم نفـوذه لدعـم الكُتَّـاب ذوي الأوضـاع الأكثـر هشاشـة.

خـلال الحـرب الأهليـة، عندمـا كان الشـعب الروسـي يعانـي لتوفيـر الخبـز والوقـود، فمـا بالـك بالكتـب، استطاع الكُتَّـاب أصحـاب العقليـات الدعائيـة وحدهـم كسـب لقمـة العيـش. كان الإصـلاح فـي نظـر جوركـي هـو أن يصبـح -علـى حـد تعبيـر زامياتـن- «أقـرب إلـى وزيـر ثقافـة غيـر رسـمي، ومنظِّـم أشـغال عامَّـة للمثقفيـن الجائعيـن الذيـن خرجـوا عـن المسـار». ولكونـه الجسـر البشـري الوحيـد بيـن الفنانيـن والبيروقراطييـن، أسَّـس جوركـي منظَّمـات تشـمل «بيـت الفنـون»، وهـو قصـر حوَّلـه إلـى سـكنٍ جماعـي للكُتَّـاب، ودار نشـر «الأدب العالمـي» التـي ترجمـت الأعمـال الكلاسـيكية بمقدِّمـات جديـدة لكُتَّـابٍ روس. غمرتـه الطلبـات مـن عائـلات الرجـال الذيـن اعتقلتهـم

شرطة الـ «تشيكا»، وكثيرًا ما سافر إلى الكرملين لتقديم التماس شخصي إلى لينين لإطلاق سراحهم. في عام 1920، شارك زامياتن في تأسيس اتِّحاد الكتَّاب الروس، أو «الفي إس بي»، وتولَّى إدارة المكتب في بتروجارد. «الكاتب الذي لا يستطيع أن يكون (فهلويًا) عليه -إذا أراد البقاء على قيد الحياة- الذهاب يوميًا إلى مكتب وفي يده حقيبة جلدية للعمل»، هكذا كتب. كان (الفهلوية) هم الكُتَّاب المرنون فكريًا الذين اتَّبعوا توجيهات الحزب. «يجب بالفعل أن تكون بهلوانًا»، هكذا قال أليكسي تولستوي، وهو كاتب أرستقراطي أعاد اختراع نفسه بسلاسة ليكون متملِّقًا رشيقًا. رأى زامياتن أن هذا انتحارًا فنيًّا: «الأدب الحقيقي لن يُوجد إلَّا عندما تبتدعه قرائح المجانين والنُّساك والهراطقة والحالمين والمتمردين والمتشكِّكين، لا عقول المسؤولين الدؤوبين ذوي الثقة». كان رجلًا مشهورًا، «سهل الإقناع، وسريع البديهة، ونشيط في عمله، وسلسًا»، كما قال أحد زملائه، ومصدر إلهام لمدرسة الكُتَّاب التجريبيين الشباب المعروفة باسم «الإخوة سيربيون». كان كذلك «بابوتشيك»، أو «رفيق الرحلة»، وهو المصطلح الذي أطلقه تروتسكي على المثقَّف الدَّاعم لأهداف الثورة من دون أن يكون عضوًا في الحزب الشيوعي. لم يكن رفاق الرحلة محبوبين، لكن كان يُغضُّ الطرف عنهم في ذلك الوقت.

بصفته عضوًا في «مجلس التخطيط التحريري للأدب العالمي»، حرَّر زامياتن وقدَّم عِدَّة مجلَّدات لإتش جي ويلز، لكونه كان يعشق «حكاياته الميكانيكية والكيميائية الخرافية» عن عصر الطائرات والأسفلت. عندما زار ويلز بتروجارد في عام 1920،

ألقى زامياتن كلمة في المأدبة التي أقيمت على شرفه. في مقاله «إتش جي ويلز» المنشور عام 1920، فهم زامياتن -عكس أورويل- أن مواضيع ويلز الكُبرى كانت مجرَّد جسرٍ هشٍّ معلَّق فوق هاوية من الفوضى والعنف. كتب زامياتن: «تحمل معظم تخيلاته الاجتماعية إشارات سلبية لا إشارات إيجابية، إن رواياته الاجتماعية مجرَّد أدوات تفضح عيوب النظام الاجتماعي الحالي، بدلًا من رسم صورة جنَّة مستقبلية». وبذلك كان ويلز يستخدم «ألوان جويا المعتمة»، وليس «ألوان اليوتوبيات السكَّرية الوردية» (باستثناء رواية «رجال كالآلهة»).

كشف المقال أيضًا عن معرفته الموسوعية باليوتوبيات والخيال العلمي، من بيكون وسويفت، إلى الأعمال المتأثِّرة بويلز، مثل كتابات التشيكوسلوفيكي كارل تشابيك (التي سكَّت مسرحيته «روبوتات روسوم العالمية»، التي أعجب أورويل بها، لفظة روبوت)، والبولندي جيرزي زولاواسكي والروسي أليكسي تولستوي. ألمح زامياتن باقتضاب شديد في مقاله إلى كتاب لم يكن قرَّاؤه ليعرفوه لأنه لم يحظ بعد -لن يحظى أبدًا- بموافقة الرقابة السوفيتية، قائلًا: «رواية "نحن"، لكاتب هذا المقال».

***

من الصعب تحديد ما إذا كان أرورويل استقى أفكارًا مباشرةً من زامياتن، أم أنه كان يفكر ببساطة في نفس الاتجاه. إن وصفه لشخصية دي 530 كـ«إنسان تقليدي مسكين، أقرب إلى نسخة

يوتوبيـة مـن بيلـي بـراون مـن لنـدن تـاون»[30] يمكـن إسـقاطه علـى ونسـتون سـميث، ولكـن يمكـن إسـقاطه أيضًـا علـى فلـوري وكومسـتوك وبولينـج. وإذا كانـت شـرطة الفكـر تتشـابه مـع «الحـرَّاس»، أليـس ذلـك لأن كليهمـا نسـخة متطرِّفـة مـن الشـرطة الروسـية السـرِّية؟ وفـي الوقـت الـذي كان فيـه سـتالين يُنعـت بـ «العـم چـو»، هـل كان أورويـل فـي حاجـة إلـى «المُنعـم» ليكـون مصـدر إلهـام لـلأخ الأكبـر؟ أمـا آي 330 «الغريبـة والمزعجـة» التـي تدخِّـن وتشـرب وتسـتمتع بالجنـس وتعقـد مواعيـد غراميـة سـرِّية تبـدو بالفعـل سـالفة شـخصية چوليـا. بينمـا يلعـب إس 4711، الأحـدب الغامـض الـذي يبـدو كأنـه يسـبر أغـوار عقـل دي 530، دورًا شـبيهًا بـدور أوبرايـن. كمـا أن استسـلام دي 530 النهائـي يعـزف علـى ذات وتـر حـب ونسـتون لـلأخ الأكبـر. تذكَّـر أن أورويـل كتـب مسـوَّدة المخطوطـة الأولـى قبـل أن يقـرأ «نحـن»، لكـن چوليـا وأوبرايـن والأخ الأكبـر وشـرطة الفكـر أتـوا لاحقًـا جميعًـا.

حتَّـى لـو كان أورويـل أخـذ بعـض أجـزاء هيـكل روايتـه مـن زامياتـن، فـإن محرِّكـه الفلسـفي مختلـف تمامًـا. عندمـا يقـول «المُنعـم» أن النـاس طالمـا أرادوا «شـخصًا يخبرهـم بمعنـى السـعادة، ثـم يضـع فـي أعناقهـم أغـلال هـذه السـعادة»، فهـو يبـدو مثـل مصطفـى مونـد مـن روايـة «عالـم جديـد شـجاع» والمحقِّـق الكبيـر مـن روايـة دوسـتوفسـكي «الإخـوة كارامـازوف»، الـذي قـال مقولتـه المشـهورة بـأن فقـدان الحريـة هـو الثمـن الـذي سـيدفعه النـاس مقابـل السـعادة. رفـض

30- «بيلـي بـراون مـن لنـدن تـاون»: شـخصية كرتونيـة ابتكرهـا ديڤيـد لانجـدون، وكانـت تُرسـم علـى ملصقـات هيئـة النقـل فـي لنـدن خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة. (المترجـم).

أورويل تلك الفكرة. عندما يتخيَّل ونستون أن أوبراين سيسوِّغ قانون الحزب الحديدي بحجة المحقِّق الكبير التي تقول إن «خيار البشرية يكمن بين الحرية والسعادة»، يُعاقب على غبائه. مواطنو أوقيانيا ليسوا أحرارًا ولا سعداء. لا مكان للمساواة والتقدُّم العلمي في ديكتاتورية أورويل الراسخة التراتبية، لكنهما أمران بالغا الأهمية في رواية «نحن». وبالمثل فإن الخداع الممنهج، وهي التفصيلة جوهرية تمامًا في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، لم تشغل بال زامياتن.

من رواية أخرى لدوستوفسكي بعنوان «مذكِّرات من العالم السفلي»، أخذ زامياتن معادلة 2 X 2 = 4 واستخدمها لتمثِّل «جدار العقلانية الحجري»[31]. يصرُّ راوي دوستوفسكي على حرية الاختلاف مع تلك المعادلة: «بعد التسليم بأن ضعف اثنين يساوي أربعة بالتأكيد لن يتبقَّى شيءٌ ليس لفعله فحسب، بل حتَّى لاكتشافه». مرة أخرى، يتشدَّق أورويل بالنقيض تمامًا. في مواجهة الوَجد والجنون المتعمَّد، يرى أورويل أن «الحرية هي حرية القول بأن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة. إذا صار ذلك أمرًا مفروغًا منه، كل شيء آخر سيتبع». في نظر زامياتن ودوستوفسكي، كانت أبسط المعادلات الحسابية قفصًا فكريًا. لكن في نظر أورويل، هي ركيزة. وجهتا النظر إلى العالم ببساطة لا تتوافقان. أيضًا من

31- استخدم دوستوفسكي رمز الجدار الحجري (أو أحيانًا مجرَّد جدار) لتمثيل مجتمع يشبه السجن يريد العقلانيون الأنانيون خلقه. في اليوتوبيا الأنانية العقلانية، تُقيَّد الفردية بجدار العقلانية. يقيِّد هذا الجدار الفكر والسلوك الفردي وممارسة الإرادة الحرة، وبالتالي يحدُّ بشدة من التفكير. (المترجم).

الحقائق الكاشفة أن أورويل ركَّز على تفصيلة صغيرة منفِّرة تنطوي على غلطة بيولوچية: آلة «المُنعم» التي تحيل أجساد أعداء الدولة إلى سائل في «احتفال عام بالعدالة». اكتشف أورويل في هذا الطقس بعضًا ممَّا أثار اهتمامه بچاك لندن: «هذا الفهم البديهي للجانب اللا عقلاني من الشمولية. إن الأضاحي البشرية، وعبادة زعيم له صفات إلهية، وأن تكون القسوة غاية في حد ذاتها، هي الأشياء التي تجعل كتاب زامياتن يتفوَّق على كتاب هكسلي».

عن رواية «نحن»، قال أورويل لواربورج: «تبدو لي كحلقة مثيرة للاهتمام في سلسلة الكتب اليوتوبية». لنتوقَّف هنيهة إذًا لنتتبَّع هذه السلسلة.

***

يصرُّ بعض النقَّاد أن آين راند كانت ستكتب روايتها القصيرة «النشيد» عام 1938 من دون أن تقرأ «نحن». هؤلاء أتمنَّى لهم التوفيق. ربَّما كانت مصادفة أنها اختلقت شخصية كاتب اليوميات السرِّية إكواليتي 7-2521، والمدينة اللامعة الموحَّدة، والجدول الزمني الصارم، وتراتيل الدولة، والسعادة الإجبارية، والعلاقة العاطفية الحادَّة الصعبة، والهروب إلى «الغابة المجهولة»، والتوتُّر بين الأنا والنحن: «الوحش العالق كسحابة سوداء فوق الأرض يحجب ضوء الشمس عن البشر». ربما من سوء الحظ أن يبدو هذا «النشيد» كأنه تقليدًا بدائيًا لأغنية غريبة وجميلة.

فرَّت راند من روسيا عام 1926 في سنِّ العشرين، وحملت معها إلى أمريكا كرهًا مشتعلًا أبديًا للشيوعية. كتبت راند رواية «النشيد» في ثلاثة أسابيع في صيف عام 1937، زاعمة أنها تخيَّلت

لأوَّل مَّرة «عالمًا مستقبليًا لا وُجود فيه لكلما أنا» عندما كانت في المدرسة في روسيا. نُشرت الرواية -التي قُوبلت بالتجاهل في الولايات المتَّحدة- في بريطانيا أوَّلًا، وهناك وصفها مالكوم موجريدج في «ذا ديلي تلغراف» بأنها «رؤية مريعة للمستقبل... صرخة استغاثة من القلب بعد طوفان من التعصُّب العقائدي».

في رسالة إلى ناشرها، كتبت راند: «إنها عملٌ ذاتي جدًا. إنها -بطريقة ما- بيان رسمي مني، تعبير عن إيماني، جوهر فلسفتي بأكملها». كانت معاداتها الصارخة للشيوعية تعني أن مجتمعها القمعي الجماعي لا يمكن أن يكون متقدمًا تكنولوجيًا مثل مجتمع زامياتن. يجب أن يكون مجتمعًا استبداديًا بدائيًا هشًا أخرق، يمكن لإكواليتي 7-2521 الاحتيال عليه بسهولة. بهروبه إلى الغابة المجهولة، يعيد البطل تسمية نفسه بروميثيوس ويلقي «النشيد» الذي يخبرنا به عنوان الرواية: وهو نثر متبجِّح عن استثنائيته وخطَّته لبناء مدينة أكبر من تلك التي تركها خلفه. هذه بالضبط حبكة رواية «نحن» بعد إعادة كتابتها كأسطورة خلق رأسمالية، الجنة فيها موقع بناء. يختتم بروميثيوس كلامه قائلًا: «كي يكون المرء حرًا، عليه التحرُّر من إخوته. تلك هي الحرية، ولا شيء غير ذلك». كان يجب أن يكون عنوان الكتاب «الأنا».

شرعت راند في بيع ملايين الروايات، وأسَّست مدرسة للفكر السياسي اسمها «الموضوعية»، وشكَّلت أيديولوجيات السياسيين أكثر من أيِّ روائي آخر في القرن العشرين، لذا فمن المرجَّح أن مَن اقتبسوا مِن كتابها كانوا أكثر ممَّن اقتبسوا مِن رواية «نحن». في فيلم چورج لوكاس الروائي الأوَّل «تي إتش إكس 1138»، يهرب

مهندس يحمل اسمًا أبجديًا/ رقميًا من مجتمع سرِّي تحت الأرض شديد التنظيم (شعاره: «اعمل بجد، وزد الإنتاج، وامنع الحوادث، وكن سعيدًا»)، ويبرز وحيدًا تحت شمس لا يألفها. تسبَّبت رغبة لوكاس في تقديم «رؤيته الحالية لمدينة لوس أنجلوس، ربَّما مع بعض المبالغة» في جعل الأحداث تأخذ منعطفًا ساخرًا ليس في صالح دولة راند العقيمة: لقد تخلّى ضبَّاط الشرطة الآليين عن مهمَّة إلقاء القبض على تي إتش إكس لأن فريق تصوير الفيلم تجاوز الميزانية. «تؤكِّد الفكرة أننا جميعًا نعيش في أقفاص أبوابها مفتوحة على مصارعها، وكل ما علينا فعله هو الخروج»، هكذا فسَّر لوكاس.

ليس من الصعب معرفة من أين استقت فرقة الروك الكندية راش فكرة ألبوم «2112» الذي طرحوه عام 1976 مع شركة الإسطوانات «أنثوم ريكوردز» وأهدوه إلى «عبقرية آين راند». الشاعر الغنائي نيل بيرت وصف الألبوم بأنه هجوم على «أيِّ عقلية جماعية». في الأغنية الرئيسية الطويلة جدًا، يكتشف مواطن من اتِّحاد الطاقة الشمسية الاستبدادي جيتارًا قديمًا، وبالتالي يكتشف فن الروك آند رول المفقود. عادت هذه الفكرة إلى الظهور في المسرحية الديستوبية كاسحة الناجح «وي ويل روك يو» التي طُرحت عام 2002. كتب بِن إلتون النص الغنائي مستخدمًا أغاني فرقة كوين، ليحكي عن فرقة من متمرِّدي موسيقى الروك البوهيميين الذين يواجهون شركة جلوبال سوفت التي تُجرِّم التلحين وحيازة الآلات الموسيقية، وتُغرق سكان كوكب الأرض (المعروف أيضًا باسم «آي بلانت») بثقافة استهلاكية

تشمل الموسيقى المولَّدة حاسوبيًا (وهي معادل موسيقى البابلوم التي تُصنع في مصنع الموسيقى الذي تخيَّله زامياتن في روايته). يتَّضح -في النص الخيالي- أن نقطة ضعف جلوبال سوفت هي موسيقى فرقة كوين.

أيضًا من المفارقات الساخرة نوعًا أن تُنتقد الرأسمالية في فيلم «ذا ليجو موفي»، وهو الفيلم المبني على علامة ألعاب تجارية شهيرة. إن المشهد الافتتاحي، الذي يبدأ فيه سكان مجتمع بريكسبيرج الآلي يومًا نموذجيًا، هو نسخة من طقس «جدول الساعات» الذي ابتكره زامياتن (كل صباح، وبدقَّة شديدة، في نفس الساعة ونفس الدقيقة، ننهض نحن الملايين كرجلٍ واحد. في نفس الساعة نبدأ نحن الملايين الموحَّدة عملنا كرجلٍ واحد، وفي نفس الساعة ننهيه)، لكن الروتين هنا يشمل رحلة إلى سلسلة مقاهي عالمية على غرار ستاريكس. إن معادل مجتمع بريكسبيرج لـ «ترنيمة الدولة الواحدة» هي الأغنية الحماسية «كل شيء رائع». مثل رواية «نحن»، يحكي الفيلم عن تقني مطيع يصبح ثائرًا بالصدفة هو (إيميت بريكوسكي)، وفتاة ثورية هي (وايلد استايل)، وديكتاتور لقبه (رئيس الأعمال)، وبناء سلاح فائق هو (الكراجل)، في قصَّة تروِّج لتفوُّق الخيال الفردي على سعادة الخضوع الزائفة -تفوُّق الثورة على الإنتروبيا- عبر استخدام المكعَّبات البلاستيكية.

يوضِّح هذا المسار المتعرِّج من لينين إلى الليجو أن الأدبيات المناهضة لليوتوبيا تتمتَّع بمرونة وقابلية تحوير الأساطير. وليس من الواضح دومًا من يقرأ ماذا ومتى، وعادةً ما تفوق التغييرات

أوجه التشابه. خذ «تي إتش إكس 1138» على سبيل المثال. يبدو أن لوكاس قد استوحى منحناه السردي من زامياتن أو راند، وأخذ فكرة العقاقير التي تتحكَّم في العقل من هكسلي، وشاشات الرصد والحاكم الغامض شبه الإله من أورويل، فضلًا عن أفكار من «متروبوليس» و «الأشياء القادمة» وفيلم الخيال العلمي النوار «ألفاڤيل» للمخرج چان لوك جودار، لكنه غربل حساء الأفكار هذا عبر غربال ثقافة أمريكا في السبعينيات ومخيِّلته البصرية القوية لإنتاج ديستوبياه الخاصة بنكهته المميِّزة. وبالتأكيد كان زامياتن نفسه يعيد صياغة مادة موجودة بالفعل. إن مواطنيه «المرقَّمين» الذين يرتدون زيًّا أزرق موحَّدًا، و «الحرَّاس» المنتشرون في كل مكان، لهم سوابق في أدب ويلز، وعلى الأخص في «صحوة النائم» و «قصَّة الأيَّام القادمة». إليك منعطف جدلي آخر: في حين أنها رفضت الاعتراف بتأثُّرها برواية «نحن»، ألمحت راند أن أورويل سرق منها. عندما نقَّحت راند رواية «النشيد» من أجل طبعتها الأولى في الولايات المتَّحدة عام 1953، خفَّفت أهوال الدولة الجماعية خشية أن «تعطي القارئ انطباعًا أن «النشيد» مجرَّد قصَّة خسيسة أخرى من نوعية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لأورويل (التي -بالمناسبة- كُتِبت بعد سنوات عديدة من نشر «النشيد» في إنجلترا)».

لذا، بدلًا من التفكير في الأفكار الديستوبية على أنها نتاج قريحة عباقرة فرديين، يمكن للمرء مقارنتها بالأغاني الشعبية التي تتغيَّر باستمرار في أثناء انتقالها بين الأفراد وبين السياقات السياسية. يقول إيميت إلى الرئيس في فيلم «ذا ليجو موفي»:

«انظر إلى كل تلك الأشياء التي بناها الناس. قد ترى فوضى... لكنني أرى أناسًا استوحى بعضهم من بعض، ومنك. أناس أخذوا ما بنيته وصنعوا منه شيئًا جديدًا».

إنه جهد جماعي إذًا، ولو كرهت آين راند.

***

لنعد إلى زامياتن الجالس إلى مكتبه في بتروجارد عام 1920. ما الذي كان يحاول قوله؟ في مقال «الحرية والسعادة»، أشار أورويل إلى أن زامياتن -الذي بدأ يكتب قبل صعود ستالين- كان يهجو الآلة وليس البلشفية. أما جليب ستروف فأصرَّ على أن الكاتب كان يتكهَّن بإمكانية تحوُّل روسيا البلشفية -التي كانت بالفعل ديكتاتورية ذات حزب واحد لديها شرطة سرية نشطة وأداة دعاية هائلة- إلى دولة شمولية: «إنه عملٌ مهم لأنه ببساطة تنبُّؤي أكثر من كونه مرتبط بأحداث جارية». في لقاء معه عام 1932، أشار زامياتن إلى أن كليهما على صواب: «هذه الرواية تحذير من الخطر المزدوج الذي يهدد البشرية: تضخُّم سطوة الآلات وتضخُّم سطوة الدولة».

الارتياب الشديد والاضطهاد الذي اقترن بستالين في ذهن أورويل كان قد استقرًّا في روسيا بالفعل بحلول الوقت الذي كتب فيه زامياتن «نحن». في مسرحيته «حرائق سانت دومينيك» عام 1922، استخدم زامياتن محاكم التفتيش الإسبانية للتهكُّم على «الإرهاب الأحمر»، وجعل أحد محققيه يلقي خطبة بنكهة أورويلية: «إذا أخبرتني الكنيسة بأنني لا أملك سوى عين واحدة، فسأقرُّ بذلك، بل سأومن بذلك، لأنه على الرغم من أنني أعلم

جيدًا أنني أمتلك عينين، فأنا أعلم أكثر أن الكنيسة لا يمكن أن تخطئ». وفقًا للمنفي الروسي مارك سلونيم فإن «زامياتن لم يستطع تسمية ما رآه حوله من الآتي ثورة: المبادئ المغلَّفة بحمم التمرُّد، والإعدامات المتعطِّشة للدماء، والنظام الغبي، وخلق الأيديوقراطية بدلاً من الأوتوقراطية».

في نظر الرقباء البلاشفة، قطعًا كانت رسالة رواية «نحن» غير مقبولة. لم تنشر الرواية في بلد زامياتن الأم حتَّى عام 1988، بعد نصف قرنٍ من موته. يسخر عنوان الرواية التحريضي من المبدأ الذي لخَّصه الشاعر البروليتاري ألكسندر إيليتش بيزيمنسكي: «لقد طرد ضميرُ الجمع «نحن» ضميرَ المفرد «أنا»». الأسوأ من ذلك أن زامياتن شكَّك في الثورة. في فقرة جريئة، تشرح آي 330 كيف أن فكرة حدوث ثورة أخرى قائمة دائمًا عن طريق سؤال دي 530 -بصفته عالم رياضيات- أن يخبرها بالعدد الأخير.

- «لكن يا آي 330، هذا سُخف. الأعداد لا نهائية، أيُّ عدد أخير تريدين؟».

- «أيُّ ثورة أخيرة تُريد إذًا؟ لا تُوجد ثورة أخيرة. الثورات لا نهائية».

هذا هو زامياتن، الثوري الصفوثي الذي يسأل دائمًا: «ماذا بعد؟». لقد اقتبس سطري الحوار ذينك في افتتاحية مقاله «عن الأدب والثورة والإنتروبيا وأمور أخرى»، وهو مقال رائع نُشر عام 1923، طبَّق فيه نظريته عن الثورات اللا نهائية على الرياضيات والفيزياء والفن والسياسة. كانت هذه فكرة قوية تمامًا، لكنها شكَّلت لعنة على حُماة الثورة البلشفية. حتَّى جوركي استنكر رواية

«نحن» باعتبارها «بالغة السوء، وعقيمة بدرجة ميؤوس منها. إن غضبها بارد وجاف كغضب امرأة عجوز».

ما تبقَّى من عشرينيات القرن العشرين، عاشه زامياتن بسيفٍ مُسلَّط على رقبته. كثيرٌ من النقَّاد المتشددين الذين اعتبروه برجوازيًا مُعاديًا للثورة ومذنبًا بـ«بإهانة ثوَّار أكتوبر السخرية منهم» كانوا يتوقون إلى غرس السيف في عنقه. في عام 1922، كان زامياتن واحدًا من عشرات المثقَّفين الذين اعتُقلوا بسبب أنشطة غير مرغوب فيها، ووجد نفسه في زنزانة في نفس الممر من نفس السجن الذي سُجن فيه عام 1905. أصيب بخيبة أمل عندما تدخَّل أصدقاؤه لإنقاذه من الترحيل، إلى درجة أنه طلب الترحيل رسميًا بعد ذلك، لكن من دون جدوى. كان يعلم ما هو قادم. في السنوات القليلة التالية، أدَّى واجباته الرسمية بصفته مترجمًا ومحرِّرًا ومحاضرًا. وانخرط كذلك عبثًا في كتابة سيناريوهات للأفلام السينمائية، وبدأ رواية ملحمية لن يكملها أبدًا، وكتب مسرحية «أتيلا» التي مُنعت من العرض على المسارح. خضعت رسائله للرقابة، ورفضت المجلات الأدبية مقالاته. كانت تفوح منه رائحة الهرطقة.

كانت آفاق الأدب الروسي تضيق بسرعة. بعد وفاة لينين في عام 1924، وحلول ستالين محلَّه وليس تروتسكي، بات يُنظر إلى «رفاق الرحلة» بريبة متزايدة. قضى جوركي معظم العقد خارج البلاد، عاجزًا عن تخفيف الضربات. في عام 1925، شكَّلت مجموعة من المتشددين بقيادة الناقد الماركسي ليوبولد أفرباخ «جمعية الكُتَّاب البروليتاريين الروسية»، التي عُرفت اختصارًا

بـ«راب»، والتـي ازدهـر كَتَبَتها متدنِّيـو الجـودة عـن طريـق مهاجمـة غيـر الموثـوق بهـم سياسـيًا وإدانـة الخبـث الدعائـي، مثـل الخنزيـر مينيمـوس فـي روايـة «مزرعـة الحيوانـات». كمـا كتـب أورويـل: «تُوجد مواضيـع معيَّنـة لا يمكـن الاحتفـال بهـا بالكلمـات، الاسـتبداد أحدهـا. لـم يؤلِّـف أحـدٌ كتابًـا جيِّـدًا فـي مـدح محاكـم التفتيـش». هـذه هـي العقليـة التـي سـخر منهـا زامياتـن بالفعـل فـي مقالـه عـام 1921 بعنـوان «الجنـة»: «جميعهـم رماديـون أُحاديُّـو اللـون... وكيـف لا؟ فبعـد كل شـيء، رفـض الابتـذال يعنـي الانشـقاق عـن الصـف وانتهـاك قانـون المسـاواة العالميـة. الأصالـة جريمـة بـلا شـك». فـي صيـف عـام 1928، كان هـو وبوريـس بيلنيـاك، الروائـي الـذي كان يديـر فـرع «اتِّحـاد الكُتَّـاب الـروس» فـي موسـكو، مـن بيـن عـدَّة كُتَّـاب أُرسـلوا إلـى المـزارع الجماعيـة لكتابـة روايـات ملهمـة عـن الحاجـة إلـى تسـريع جمـع الحبـوب. لكـن الوحـي لـم يهبـط عليـه.

فـي ديسـمبر عـام 1928، أعلنـت اللجنـة المركزيـة خطـة خمسـية لـلأدب. فقـط الكاتـب الـذي كان يحتفـل بـ«البنـاء الاشـتراكي» هـو المؤهـل ليكـون كاتبًـا سـوفيتيًا حقيقيًـا، وهـذا الكاتـب لـم يكـن زامياتـن بالتأكيـد. كتـب قائـلًا: «كل شـيءٍ سُـوِّي واسـتُنسـخ، كل شـيء اختفـى وسـط دُخـان المذبحـة الأدبيـة». قـال جوركـي مازحًـا سِـرًا: «فـي الأيَّـام الخاليـة، كان الكُتَّـاب الـروس يخشـون الشـرطي ورئيـس الأسـاقفة فحسـب. أيُّ مسـؤول شـيوعي اليـوم هـو كلاهمـا فـي آنٍ واحـد. إنـه يريـد نشـب براثنـه القـذرة فـي روحـك باسـتمرار». كان أفرباخ، الديماجوجـي الماكـر الـذي يصاهـر رئيـس الشـرطة السـرِّية المسـتقبلي جينريـك ياجـودا، مصممًـا علـى وضـع حـدٍّ لـ«رفـاق

الرحلة» عن طريق النيل من البارزين منهم. في عام 1929، العام الذي نعتته هانا آرنت بـ«العام الأوَّل للديكتاتورية الشمولية واضحة المعالم في روسيا»، رأى هذه الفرصة.

نُشرت رواية «نحن» باللغة الإنجليزية والتشيكية والفرنسية، لكن زامياتن رفض جميع الطلبات الخارجية لنشر طبعة باللغة الروسية الأصلية. لكن مجموعة من المهاجرين الليبراليين في براغ نشرت مقتطفات باللغة الروسية من دون إذنه في مجلَّة «فوليا روسي» (إرادة روسيا) في عام .1927 طلب زامياتن من المحرِّرين التوقُّف، لكنهم تجاهلوه. لم يهتم أحدٌ في روسيا حتَّى أغسطس عام 1929، عندما اكتُشف هذا المنشور غير الرسمي (أو أُعيد اكتشافه بالأحرى) بواسطة الـ «راب». كان بيلنياك مهدَّدًا بالمثل لأن روايته «ماهوجني» نشرها مهاجرون في برلين. اتَّهم الـ «راب» الكاتبين بالتعاون، وطبعت صحيفة «ذا ليتراري جازيت» برقيات تهاجمهما بوصفهما بورچوازيين معاديين للثورة.

انهار فرع «اتِّحاد الكُتَّاب الروس» في موسكو تحت الضغط، وطرد بيلنياك ووجَّه اللوم بعنف إلى زامياتن، الذي أشار متهكِّمًا إلى أنهم إذا كانوا يريدون مهاجمة «نحن»، فكان عليهم فعل ذلك قبل ست سنوات، عندما قرأ أجزاء منها في إحدى أمسياتهم الأدبية. في 22 سبتمبر، عقد «اتِّحاد الكُتَّاب الروس» في لينينجراد اجتماعًا عامًا بشأن التحقيق في نشر «نحن». اكتظَّت القاعة إلى درجة أن كثيرين من غير الأعضاء، الذين أثارت قضية زامياتن فضولهم، أُبعدوا. أقنع تفسير زامياتن الذي قُرئ في غيابه الذي يشرح عدم تدخُّله في حادثة «فوليا روسي» كُتَّابًا كثيرين ممَّن

أحبوه وأُعجبوا به لسنوات، ولكن في هذا المناخ المخيف كان من الأيسر بكثير إدانته على أيٍّ حال. كتب الثوري الروسي والمناهض للاستالينية فيكتور سيرج بازدراء أنهم «صوَّتوا ضد رفيقيهم كما هو مطلوب، فقط ليذهبوا ويطلبوا العفو له على انفراد». على الرغم من أن «اتِّحاد الكُتَّاب الروس» برَّأ زامياتن من تهمة التعاون النشط في النشر، فقد أدان فشله في التنصُّل من «الأفكار المُعبَّر عنها في الرواية، والتي اعترف بها رأينا العام على أنها معادية للسوفيت». إذًا «فوليا روسي» كانت مجرَّد ذريعة، أمَّا «نحن» نفسها كانت جريمته. استقال زامياتن من «اتِّحاد الكُتَّاب الروس» وهو مُشمئز، قبل أن يُطهَّر هيكل الاتِّحاد بالكامل وتُعاد تسميته ويُدمَّر بشكل فعال. في خطاب استقالته، كرَّر زامياتن تفاصيل القضية بمصطلحات ذات طابع أورويلي: «الحقائق عنيدة، إنها أعند من القرارات. يمكن تأكيد كل حقيقة بالوثائق أو بالأشخاص. أريد أن أوضح هذه الحقائق لقرَّائي».

بعد أن دُفع إلى شفا الانتحار، تراجع بيلنياك عن خطاياه المزعومة بشكل فاضح وأهان نفسه بشدة إلى درجة أنه أصبح أحد أغنى الكُتَّاب في روسيا في الثلاثينيات. لكن زامياتن صمد. كتب الصحفي الأمريكي المعادي للاستالينية ماكس إيستمان في كتابه «فنانون يرتدون الزي الرسمي»: «كانت تهمة زامياتن هي حفاظه على استقلاله الفكري ونزاهته الأخلاقية. رفض بصفته فنَّانًا أن يأخذ أوامر من البيروقراطية السياسية».

وقد دفع ثمنًا باهظًا مقابل ذلك. سُحبت كتب زامياتن الحالية من المطابع وأُبعدت عن أرفف المكتبات، ورُفضت أعماله

الجديد. وصفت الموسوعة السوفيتية الأدبية «نحن» بأنها «قدح خسيس في المستقبل الاشتراكي». عدَّد أحد نقَّاد الـ «راب» خطايا زامياتن كالتالي: «كُفرٌ كامل بالثورة لا يستحي، شكوكية عميقة متواصلة، انفصال عن الواقع، فردية متطرِّفة، موقف عدائي واضح تجاه النظرة العالمية الماركسية اللينينية، تسويغ أيِّ هرطقة وأيِّ احتجاج تحت اسم الاحتجاج، موقف مُعادٍ لعوامل الحرب الطبقية».

في يونيو عام 1931، بعد أن زاد التهاب القولون المزمن من إضعاف معنويات زامياتن، أعطى جوركي خطابًا لتسليمه إلى ستالين، يطلب فيه الإذن بمغادرة روسيا. بالنظر إلى موقفه الحسَّاس، كانت رسالته تنطوي على تحدٍّ كبير. قال إنه سيعود إلى روسيا فقط عندما «يصبح من الممكن في بلدنا طرح الأفكار العظيمة في الأدب من دون التذلُّل أمام صغائر الرجال»، واختتم بأن وضعه على القائمة السوداء بمنزلة «حكم بالإعدام»: إذا لم يستطع الكتابة في روسيا، فلن يتمكن من العيش في روسيا.

كان ستالين رجلًا متقلِّبًا، يعفو عن الناس أحيانًا -خاصة الفنانين- لأسباب لا يفهمها إلا هو. قُوبل طلب زامياتن بالموافقة. وفي نوفمبر، غادر وطنه إلى الأبد.

***

تمنَّى زامياتن الانتقال إلى الولايات المتَّحدة وكتابة أفلام لسيسيل ديميل، لكن هذا لم يحدث أبدًا. بدلًا من ذلك، استقرَّ في باريس، حيث عاش هو وزوجته حياة الضيق والوحدة. تجنب المهاجرين الروس البيض الكُثُر في المدينة ورفض أن يصبح شيوعيًا سابقًا مشهورًا. كما قال لستالين: «أعلم أنه على الرغم

من اشتهاري هنا بأنني يميني بسبب عادتي في الكتابة وفقًا لما يمليه ضميري وليس وفقًا للأوامر، فمن المحتمل أن أُعلَن بلشفيًا إن عاجلًا أم آجلًا للسبب نفسه في الخارج». اشتغل زامياتن في كتابة القصص القصيرة والروايات والمسرحيات والمقالات وسيناريوهات الأفلام بنجاح قليل. بعد تعثُّر خطَّة تحويل «نحن» إلى فيلم سينمائي، كانت المعالجة الفرنسية لمسرحية جوركي «الحضيض» التي أخرجها چين رينوار عام 1936 وفازت بجائزتين هي السيناريو الوحيد الذي كتبه ووجد طريقه إلى الشاشة (عن جدارة).

لم ير جوركي الفيلم قط. لقد مات في 18 يونيو عام 1936، ما أصاب كثيرين بخيبة أمل.*[32] عندما أعاد ويلز التواصل مع جوركي في موسكو قبل عامين، شعر بالقنوط: «لم أحب رؤية جوركي ضد الحرية. شعرت بجرح بالغ». أما زامياتن، في نعي مفعم بالأسى، أصرَّ على أن الرجل العجوز أحاط كثيرًا من الكُتَّاب الضعفاء بمجال طاقة لحمايتهم، هو واحد منهم: «العشرات مدينون له بحيواتهم وحرياتهم».

في الديار، راح أصدقاء وأعداء زامياتن يتساقطون كقطع الدومينو. أمضى صديقه الصقوتي المُسنُّ إيڤانوف رازومنيك سنوات عديدة في سجون موسكو. أُغلقت «جمعية الكُتَّاب البروليتاريين الروسية» عام 1932. كتب يوچين ليونز في «دراسة في اليوتوبيا»: «لم يبق شيء للإشارة إلى عهدهم، باستثناء

32-* تردَّدت شائعات على نطاق واسع بأن جوركي سُمِّم بأوامر من ستالين استعدادًا للمحاكمة الصورية التي بدأت سنوات «التطهير الكبير» في أغسطس. (المؤلِّف)

فوضى من التصريحات ورماد الفنانين الذين عذَّبوهم بالاضطهاد ودفعوهم إلى الانتحار». اعتُقِل مُعذِّب زامياتن، ليوبولد أفرياخ، وأُعدِم في عام 1937، وتبعه صهره ياجودا. اتُّهِم بيلنياك -الذي قال يومًا لفيكتور سيرج «لا يُوجد مفكِّرٌ بالغ في هذا البلد لم يشعر بأنه قد يُطلق عليه النار» - بأنه جاسوس ياباني وقُتل عام 1938. في روسيا الاستالينية، كان هناك دائمًا شخص أذكى منك. كان المذهب الأدبي الجديد، «الواقعية السوفيتية»، شكلًا من أشكال الأدب اليوتوبي في جوهره. لاحظ الصحفي الأمريكي لويس فيشر أن الغرض منه كان «التعامل مع الحاضر كما لو أنه غير موجود، ومع المستقبل كما لو كان قد وصل بالفعل».

يبدو أن أورويل لم يعرف إلا قليلًا عن حياة زامياتن. لو كان يعرف أكثر، لو كان قرأ «نحن» قبل عقد من الزمن، لربَّما زار روسيا عندما مر بباريس في طريقه إلى إسبانيا. ربَّما لو خاض محادثة معه لسرَّعت من فهمه لروسيا واهتمامه بنقائض اليوتوبيات. لكن ربَّما كان الأوان قد فات بالفعل. أصيب زامياتن بذبحة صدرية وصار مريضًا جدًّا. بعد فجر يوم 10 مارس عام 1937 بقليل، عندما كان ضوء البزوغ -كما كتب في «نحن» - «غريرًا وجيَّاشًا»، استسلم قلبه. كان في الثَّالثة والخمسين. شيَّع جثمانه مجموعة صغيرة من الأصدقاء تحت المطر. في روسيا، لم يُحدث خبر وفاته أيَّ تأثيرٍ يُذكر.

منح زامياتن مواطني دولته الواحدة الاختيار بين الحرية المؤلمة الفوضوية وسعادة الطاعة العمياء. في نظره، كما في نظر أورويل، لم يكن هذا خيارًا مطروحًا من الأساس. كان رجلًا عنيدًا كالحقائق.

الفصل السَّابع

حقائق مزعجة

أورويل من 1944 إلى 1945

«حين يتوطَّد كلٌّ من الخوف والكراهية والغيرة وعبادة السلطة، يصبح الإحساس بالواقع مفكَّكًا».

چورچ أورويل، «ملاحظات على القومية»، 1945.

لم يستمتع أورويل بكتابة كتاب مثلما استمتع بكتابة «مزرعة الحيوان» خلال الشتاء الضبابي الموحل بين عامي 1943 و1944. كل ليلة في البناية رقم 10 ألف في شارع مورتايمر كرسنت، كان يقرأ حصيلة عمل اليوم على مسمع آيلين ويطلب ملاحظاتها. في الصباح التالي، كانت تسرد على زملائها في وزارة الغذاء أفضل المقاطع وهم ذاهبون لاحتساء القهوة في سيلفريدچز. كانت تقول -بفخرٍ له ما يُسوِّغه- إنها أفضل عملٍ كتبه على الإطلاق. تدفَّق النَّص كشلالٍ هادر. لكن كان أورويل يعلم أن المعاناة الحقيقة لم تأت بعد. أخبر جليب ستروف: «أكتب عملًا لاذع السخرية قد يروق لك عندما ينتهي، لكنه ليس حسنًا من الناحية السياسية، لذا لست متأكِّدًا من أن أحدًا قد ينشره. ربَّما يعطيك هذا لمحة عن موضوعه».

ظهرت «مزرعة الحيوانات» إلى الوجود بفضل جدول أعمال أورويل الذي صار أكثر ملاءمة. بإيجاز، لقد استقال من هيئة الإذاعة البريطانية ومن الحرس الوطني، وانضم إلى مجلَّة

«تريبيون» يوم الاثنين 29 نوفمبر عام 1943، حيث عمل محرِّرًا أدبيًا وكاتب عمود «كما يحلو لي» ثلاثة أيَّام في الأسبوع. أُسِّست «تريبيون» عام 1937 على يدي نائبي حزب العمل ستافورد كريبس وجورج شتراوس، وكانت داعمة لستالين في البداية، ولكن تحت رئاسة تحرير أنورين بيڤان الشهير بناي، الذي تولى المنصب في عام 1942، صارت المجلَّة القلب النابض للأحزاب العمَّالية اليسارية غير الشيوعية، ووقفت في موقفٍ غير مألوف تنتقد كلًا من ستالين وتشرشل. وصفها أورويل بأنها الصحيفة الأسبوعية الوحيدة التي بذلت «جهدًا حقيقيًا للجمع بين سياسة اشتراكية راديكالية واحترام حرية التعبير وموقفٍ حضاري من الأدب والفنونِ». كان بيڤان -الابن الذكي والمشاكس جدًا لعامل منجم فحم من ويلز- السياسي الوحيد الذي أحبه أورويل وأُعجب به حقًا، والاحترام بينهما كان متبادلًا.

كان أورويل ألطف من أن يكون محرِّرًا أدبيًا جيِّدًا. لقد أعطى الكُتَّاب المتعثرين أجرًا مقابل مقالات لم يكن لديه مساحة لطبعها، وربما لم يكن يظنُّ أنها تستحق الطباعة، لأنه كان يعرف التأثير الذي سيحدثه الأجر في ظلِّ ظروفهم المادية الصعبة. ودافع عن درج مكتبه المليء بمخطوطات غير منشورة باهظة الثمن بقول إن هذا ما يحدث عندما تُحوِّل كاتبًا مستقلًا إلى محرِّر: «الأمر أشبه بإخراج محكوم عليه من زنزانته وجعله مأمور السجن».

ومع ذلك، برع أورويل في وظيفة كاتب العمود. بعد سنوات من الزجِّ بهواجسه في المراجعات أو البرامج الإذاعية، تمكَّن أخيرًا

من نشر كل ما يدور في ذهنه، من العنصرية والدعاية وحرية التعبير، إلى الماكياج ومراقبة الطيور وأسعار الساعات. تناقضت المواضيع القاتمة التي كتبها مع النكات والأحاجي وتوافه الأمور. كان لدى أورويل آراء حول كل شيء في الحياة، وكانت جميعها تستحق القراءة حتّى إن كنت لا تتّفق معها، وهو ما كان قرّاء «تريبيون» يفعلونه كثيرًا وبصوت عالٍ. نعت نائب حزب العمل المستقبلي مايكل فوت، الذي كان يرأس مجلس إدارة «تريبيون»، عمود «كما يحلو لي» بأنه «العمود الوحيد في المجلّة الذي يكتبه رجلٌ يأتي إلى المكتب كل أسبوع متعمّدًا الإساءة إلى أكبر عدد ممكن من القرّاء».

كان عمود «كما يحلو لي» يعرض أفكار أورويل كما هي من دون تنقية، وهي الأفكار التي كان ينقلها إلى الصفحة بانسيابية مسهبة واثقة. كان يتدرّب على أفكاره في النقاشات أوّلًا. أصدقاءٌ له مثل توسكو فيفل، زميله السابق في «سيرشلايت بوكس»، كانوا يجدون في عموده بعض العبارات التي سمعوها منه قبل أيّام قليلة. بعض هذه الأفكار عاودت الظهور في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، ما يجعل من «كما يحلو لي» ورشة كتابة للرواية تقريبًا. في أحد الأعمدة، وصف الراديو كما لو أنه شاشة رصد: «إنه عالمٌ شمولي في حدٍّ ذاته، ينهق بالدعاية ليل نهار في آذان أشخاص لا يستطيعون الاستماع إلى أيِّ شيءٍ آخر». وفي عمود آخر، تذكّر لقاء رسّام شاب من دعاة السلام في الليلة الأولى من قصف لندن أصر علًى أنه يستطيع الصمود في وجه الاحتلال الألماني من دون المساس بنزاهته. «المغالطة هي الاعتقاد بأنه

في ظلِّ حكومة ديكتاتورية يمكنك أن تكون حرًا في الداخل... في الشارع، تهدر مكبِّرات الصوت، وترفرف الأعلام من فوق أسطح المنازل، وتتجوَّل الشرطة بأسلحتها جيئة وذهابًا، ويحملق فيك وجه القائد -بعرض متر ونصف- من الملصقات الضخمة. لكن في الغرف المغلقة، يمكن لأعداء النظام السرِّيين تدوين أفكارهم بحرية تامة». المغالطة أنه سيدحض ذلك بشكل مباشر في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، حيث نرى أن الغرفة التي تعلو حانوت السيِّد تشارنجتون هي خلوة يتَّضح أنها فخ. يقول أوبراين: «وجود فكرة خاطئة في أيِّ مكان في العالم لهو أمر لا يمكن التسامح معه، مهما كانت تلك الفكرة سرِّية وبلا قيمة».

***

ظهر النفوذ الجديد والوضوح اللذان غلَّفا أسلوب أورويل منذ عام 1943 فصاعدًا في مقالاته ومراجعاته للكتب أيضًا. انجذب عقله المشاكس إلى الكُتَّاب الذين اعتقد أنهم يستحقون تحمُّل عبء جدالهم: إتش جي ويلز، وهنري ميلر، والآن جيمس بيرنام.

كان بيرنام -الهادئ المهذَّب في الحقيقة، العنيف على الورق- أستاذًا للفلسفة، وكان أحد التروتسكيين الرائدين في أمريكا، إلى أن أدَّى الميثاق النازي السوفيتي والخلاف العام المرير مع تروتسكي بتعجيل الانهيار الكامل لإيمانه المترنِّح بالماركسية. طالب عقل بيرنام المنهجي بنظام شاملٍ لشرح العالم، لذلك اضطر إلى تشييد نظام بديل. برغم رفضه من عشرات الناشرين وتمزيق النقَّاد له شر ممزَّق، أصبح كتاب بيرنام «الثورة الإدارية: حقيقة ما يحدث في العالم» المنشور عام 1941 من أكثر الكتب مبيعًا

بشكل مفاجئ، ووصفته مجلّة «فورتشن» بأنه «بكل المقاييس، الكتاب الأكثر إثارة للجدل الذي نُشر حتّى الآن هذا العام». استند الكتاب إلى افتراضين: لن تستطيع الديموقراطية الرأسمالية البقاء بعد أيّ حرب، ولا يمكن أن تحلّ الاشتراكية محلها. بدلًا من ذلك، سيأتي المستقبل في هيئة دولة مركزية ضخمة تديرها طبقة من «المديرين»: فنّيين وبيروقراطيين ومديرين تنفيذيين وما إلى ذلك. لم تكن فرضية بيرنام أصيلة تمامًا -قارنها أورويل بكتاب إيلير بيلوك الجدلي «المتبصّر جدًا»، «الدولة المستعبدة»، المنشور عام 1912- لكنها أصابت وترًا حسّاسًا.

كتب بيرنام كما لو أنه الوحيد الذي يستطيع رؤية الواقع بوضوح، وأن تحليل أيّ شخص آخر كان متأثّرًا بالعواطف. كتب يقول بأسلوبه المتحذلق الساخط نوعًا ما: «لا تقتصر نظرية الثورة الإدارية على مجرَّد توقُّع ما قد يحدث في المستقبل الافتراضي، فالنظرية، بادئ ذي بدء، هي تفسير لما حدث بالفعل ويحدث الآن». أيُّ شخصٍ يعتقد بخلاف ذلك فهو «يعيش في عالم موازٍ من الأحلام الرائعة وليس على الأرض». حذَّر إتش جي ويلز شخصيًا بيرنام من تقديم نبوءات مفرطة الثقة (وقد كان خبيرًا، على الرغم من كل شيء)، لكن بيرنام لم يكن من النوع الذي يتقبَّل النصيحة.

بحلول الوقت الذي كتب فيه أورويل لأوَّل مرة عن بيرنام، في يناير عام 1944، كان أهم تنبُّؤ قصير الأجل لكتاب «الثورة الإدارية» -وهو أن ألمانيا ستغزو بريطانيا أوَّلًا قبل أن تسحق روسيا- قد تمزَّق إلى أشلاء. اعتقد أورويل أن بيرنام أخطأ بشدَّة

عندما بالغ في صلابة الشمولية وقلَّل من قوَّة الديموقراطية بسبب «ازدرائه للرجل العادي»: على سبيل المثال، لو كان هتلر مضطرًا إلى الاستماع إلى الرأي العام، لما كان سيغزو روسيا أبدًا. اتَّهم أورويل بيرنام «بمحاولة نشر فكرة أن الشمولية لا مفر منها، وبالتالي يجب ألا أن نفعل شيئًا لمعارضتها». بعث بيرنام بشكوى متعجرفة إلى مجلَّة «تريبيون»، سبقت الدفاع الذي سيقدِّمه أورويل لاحقًا عن روايته «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «لم أصرِّح قط بأنه "لا مفر من الشمولية". لقد ذكرت -وأنا أومن بذلك- أن الشمولية احتمالٌ قائم الحدوث في جميع الدول الكبرى. هل يفهم السيِّد أورويل الفرق بين الأمرين؟». لكنه كان مخادعًا، وقد امتلك أورويل الاقتباسات التي تثبت ذلك. «نستطيع أن نكون جميعًا أنبياء حقيقيين إذا سُمح لنا بتغيير نبوءاتنا بعد الحدث»، هكذا كان ردَّ أورويل اللاذع. في سلطة الأخ الكبير أن يأمر بتعديل خطبه القديمة «بطريقة تجعله يبدو أنه تنبَّأ بالشيء الذي حدث بالفعل»، لكن بيرنام لم يتمكن من محو الدليل على آرائه السيِّئة.

ظلَّ أورويل شوكة في حلق بيرنام طوال السنوات الثلاث التالية، ما جعل الكاتب الأمريكي يشتكي قائلًا إن «شأن أورويل صار بمنزلة وباء عالمي في اعتقادي». لكن أورويل لم يكن ليكلِّف نفسه عناء كتابة آلاف الكلمات حول أفكار بيرنام، في «تريبيون» و«بوليمك» و«ذا نيو ليدر» و«مانشستر إيفنينج نيوز»، لو لم يكن مفتونًا بها. فقط كان من الصعب تنقية الثناء من وسط الإهانات. وفقًا لأورويل، كان كتاب بيرنام «الميكافيليون: حماة الحرية» «قطعة

مـن البـذاءة الضحلـة»، وأعـرب مقالـه فـي مجلّـة «بارتيـزان ريڤيـو» بعنـوان «وارث لينيـن» عـن «نـوع مـن الإعجـاب المذهـل بسـتالين»؛ لقـد ضلَّ بيرنـام مـرارًا وتكـرارًا بسـبب عبادتـه للسـلطة. كتـب أورويـل فـي مقالـه «إعـادة نظـر فـي أفـكار چيمـس بيرنـام» عـام 1946 يقـول: «يـرى بيرنـام الاتِّجـاه ويفتـرض أنـه لا يقـاوم، مثلمـا يـرى أرنـبٌ مفتـونٌ بأصلـة عاصـرة أن الأصلـة هـي أقـوى شـيء فـي العالـم».

ومـع ذلـك، اسـتحوذت أفـكار بيرنـام علـى مخيِّلـة أورويـل حتَّـى عندمـا رفضهـا عقلـه، ولهـذا ربـط بيـن كتـاب «الثـورة الإداريـة» بالكوابيـس الخياليـة لروايـات «نحـن» و «صحـوة النائـم» و «العقـب الحديديـة» و «عالـم جديـد شـجاع».

إن رؤيـة بيرنـام لعالـم ثلاثـي الأقطـاب («ثـلاث دول عُظمـى فائقـة قسَّـمت العالـم بالتسـاوي، وتحافـظ علـى جـذوة الحـرب مشـتعلة بينهـا، وتُبقـي علـى الطبقـة العاملـة فـي حالـة خضـوعٍ دائـم»، كمـا ورد فـي ملخَّـص أورويـل)، لهـي مخطَّـط نموذجـي واضـح لأوقيانيـا وأوراسـيا وإيستاسـيا. ربَّمـا كان أورويـل يـرى أن فكـرة بيرنـام عـن «إمبراطوريـة العبيـد الضخمـة، الأبديـة، التـي لا تقهـر» مجـرَّد وهـم، تمامًـا مثـل ادِّعائـه بـأن السياسـة لـم تكـن أكثـر مـن صـراع علـى السـلطة، ولكـن هـذه أوقيانيـا بالتأكيـد. ربَّمـا يكـون جولدشـتاين «الخائـن الأساسـي» فـي «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» قـد صُمِّـم علـى شـاكلة تروتسـكي (الـذي اسـمه الحقيقـي ليـڤ برونشـتاين)، لكنـه يديـن فـي «الفصـل الثَّالـث: الحـربُ سـلامٌ» لأفـكار بيرنـام أكثـر ممـا يديـن لكتـاب تروتسـكي «الثـورة المغـدورة». كان أورويـل يعتقـد أن فـي مجتمـع الثـوَّار «دائمًـا مـا يختلـط التـوق إلـى مجتمـع عـادل علـى

نحوٍ مهلك بالرغبة في تأمين السلطة لأنفسهم». لكن في عالم «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الافتراضي، قُضي على التوق إلى مجتمعٍ عادل. «لا يؤسِّس المرء ديكتاتورية من أجل حماية الثورة، بل يقوم بالثورة من أجل إقامة الديكتاتورية». لم يتَّفق أورويل مع بيرنام، لكنه تأكَّد من جعل أوبراين يفعل ذلك. في بضعة مواضع، فإن الكاتب («لا نظرية ولا وعود ولا أخلاق ولا دين ولا أيُّ قدر من حسن النية سيكبح جماح السلطة») وشخصيته («نحن مهتمُّون بالسلطة فحسب. ليس الثروة أو الرفاهية أو العمر الطويل أو السعادة: السلطة فقط، السلطة البحتة»)، وجهان لعملة واحدة تقريبًا.

عقد أورويل علاقة جوهرية بين فرضية دولة بيرنام العُظمى وهوسه طويل الأمد بالكذب الممنهج. أيُّ بيئة أفضل لإعادة كتابة الواقع من دولة مغلقة علاقتها الوحيدة مع جيرانها هي القتال؟ يقول أورويل في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «في الواقع، كلٌّ منها كونٌ منفصل يمكن ممارسة أيِّ إفسادٍ للفكر فيه بأمان». في مايو عام 1944، كتب نول ويلمِت، أحد قُرَّاء «تريبيون»، إلى أورويل يسأله إذا كان يظن أن الشمولية يمكن أن تترسَّخ في بريطانيا. تحت تأثير بيرنام، بدا ردُّ أورويل الرصين كأنه ملخَّصٌ لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «إذا جاء العالم الذي أخشاه، المكوَّن من دولتين أو ثلاث دول عُظمى فائقة بعضها غير قادر على التغلُّب على بعض، يمكن أن يُساوي جمع اثنين واثنين خمسة إذا رغب الفوهرر في ذلك... على الرغم من أن العملية يمكن عكسها بالطبع». وبالتالي تأتي أهمية وصف السيناريو الأسوأ:

«إذا صرَّح المرء ببساطة أن كل ما يحدث على أرض الواقع يحدث للأفضل، وأن لا شيء يشير إلى أعراض شريرة، فإن المرء يسهم في جعل الشمولية أكثر قربًا». هذا لا يبعد كثيرًا عن رسالة بيرنام الغاضبة إلى مجلَّة «تريبيون»: «فقط عن طريق التحدُّث بشفافية مطلقة في احتمالية مجيء الشمولية، واتِّجاه تقدمها، سنتمكن من أن نحظى بفرصة التغلُّب عليها أو تجنُّبها».

في عام 1944، ازدادت وتيرة التحذيرات بسوء العاقبة. كتب الاقتصادي النمساوي فريدريك هايك في كتابه «الطريق إلى القنانة»، وهو كتاب آخر أثار ضجَّة كبيرة غير متوقَّعة وأصبح نصًّا مقدَّسًا للمؤمنين بالسوق الحرة: «فقط إذا أدركنا الخطر في الوقت المناسب يمكننا أن نأمل تفاديه». كان تشخيص هايك للشمولية يقترب بشكل غريب أحيانًا من تشخيص أورويل، لكن من المؤكد أن أورويل لم يتَّفق مع ادِّعاء هايك بأن نسخة حزب العمل من التخطيط الاقتصادي المركزي كانت «مصدر الخطر المميت لكل شيء نقدِّره».*[33]

كتب أورويل مراجعة لـ«الطريق إلى القنانة» مع كتاب «مرآة الماضي، لئلَّا تعكس المستقبل» الذي كتبه نائب حزب العمل المؤيد للشيوعية كوني زيلياكوس: «كل كاتب مقتنع بأن سياسة الآخر تؤدِّي إلى العبودية مباشرة. الشيء المقلق هو أن كليهما

33-* خذ هذه الفقرة ذات الطابع الأورويلي مثلًا: «لم يعد لكلمة حقيقة في حد ذاتها المعنى القديم نفسه. لم تعد تصف شيئًا يمكن أن يستشفَّه ضمير المرء وحده، بل صارت شيئًا تقرِّره السلطة، شيئًا يجب التصديق فيه بما يخدم مصلحة الجهد المنظم الموحَّد، شيئًا قد يتعيَّن تغييره عندما تتطلَّب ضرورات الجهد المنظم ذلك». (المؤلِّف)

قد يكون على حق». لقد جرى توضيح مخاطر مذهب الجماعية بشكلٍ وافٍ، لكن أورويل قرَّر أن أصولية السوق الحرة لدى هايك ستعني «طغيانًا ربما يكون أسوأ لكونه أكثر استهتارًا من طغيان الدولة». أسوأ؟ هذا قولٌ خطير عندما يصدر من مؤلِّف كتاب «مزرعة الحيوانات».

***

كان لڤيكتور جولانش حقُّ الأولوية في نشر روايات أورويل، لذا حذَّره الأخير من أن «مزرعة الحيوان» «غير مقبولة سياسيًا من وجهة نظرك (فهي مناهضة لستالين)». طلب جولانش قراءتها على أيِّ حال قبل أن يتنازل عنها. قال جولانش -مستخدمًا بعناد اسم ميلاد أورويل- لوكيله ليونارد مور: «لديَّ اعتراضات كبيرة على كثيرٍ من الجوانب السياسة السوڤيتية الداخلية والخارجية، لكنني -كما توقَّع بلير- لا أستطيع نشر هجومًا عامًا من هذا القبيل». رأت شركة «نيكلسون وواتسون» أنه من قلَّة الذوق مهاجمة حليف. أحب الناشر جوناثان كيب الكتاب، لكنه شعر بأنه مضطَّر إلى تمريره أوَّلًا على صديقٍ له يعمل في وزارة الإعلام لمعرفة ما إذا كان نيل الكتاب من ستالين قد يضر بالجهود الحربية. قرَّر المسؤول أن الرواية قطعًا ستحدث ضررًا، وبالتالي انسحب كيب بهدوء. لم يدرك أن «مزرعة الحيوان» تتناول روسيا على وجه التحديد. وهل يجب فعلاً تصويرهم على أنهم خنازير؟ «أظن أن اختيار الخنازير كطبقة حاكمة سيسيء بلا شك إلى كثيرٍ من الناس، وبالأخص إلى أيِّ شخصٍ سريع الغضب بعض الشيء، كما هو حال الروس بلا شك». وجد أورويل أن الرفض مضحك،

وأخبر إنز هولدن: «تخيَّلي العم جو العجوز (الذي لا يفقه كلمة واحدة من أيِّ لغة أوروبية)، جالسًا في الكرملين يقرأ «مزرعة الحيوانات» ويقول: «هذا الكلام لا يعجبني»».

كان المستلم التالي للمخطوطة التي رثَّت إلى حدٍّ ما من كثرة تناقلها هو تي إس إليوت من دار «فاربر آند فاربر». قارنها إليوت بشكل إيجابي مع «رحلات جليڤر»، لكنه وجيفري فاربر لم يشعرا بأن «هذه هي وجهة النظر الصحيحة التي يمكن من خلالها انتقاد الوضع السياسي في الوقت الحالي». أخذها جورج وودكوك إلى زملائه الأناركيين في «فريدام برس»، لكنهم لم يغفروا لأورويل هجماته السابقة على المذهب السلمي. في الولايات المتَّحدة، رفض عشرات الناشرين النصَّ، بما في ذلك أنجوس كاميرون، رئيس التحرير الموالي للشيوعية في دار نشر «ليتل براون». وسط كل هذه الاعتراضات السياسية المتنوِّعة، كان منطق الناشر «دايل برس» بسيطًا وممتعًا: قالوا إنه لا يُوجد سوق لقصص الحيوانات.

فكَّر أورويل، الذي أُحبط إلى حدٍّ ما، في نشر «مزرعة الحيوان» بنفسه في صورة كُتيِّب بقيمة شلنين عن طريق «ويتمان برس»، وهي دار نشر أناركية منزلية يديرها صديقه الشاعر بول بوتس. حتَّى أنه كتب مقدِّمة قوية بعنوان «حرية الصحافة» عن القوَّة الخفية للرقابة غير الرسمية: «يمكن إسكات الأفكار التي لا تحظى بشعبية وإخفاء الحقائق المزعجة دون الحاجة إلى أيِّ حظرٍ رسمي». لكن تلك المقدِّمة ستُلغى حتَّى عام 1972، لأن فريدريك واربورج، الذي أنقذ سابقًا كتاب «الحنين إلى كتالونيا»،

تدخَّل بعريون قيمته 100 جنيه استرليني، بشرط أن يجد ما يكفي من الورق لطباعتها. متجاهلًا اعتراضات زوجته وبعض زملائه، أقنع قرار واربورج الجريء أورويل بالتمسُّك بالناشر من لحظتها فصاعدًا، وصرَّح: «علمت أن الشخص الذي قد يخاطر بنشر هذا الكتاب سيخاطر بأيِّ شيء».

في مذكِّراته، تساءل واربورج بميلودرامية عمَّا كان سيحدث لو لم يراهن على الرواية. «ربَّما كانت معنويات أورويل ستتصدَّع لو فشلت «مزرعة الحيوان». وعندها؟ ربَّما لم تكن رواية تُدعى «1984» لتُوجد».

* * *

تأخَّر نشر «مزرعة الحيوان» لعدة أسباب، أحدها أن غارةً جوِّية دمَّرت مقرَّات واربورج في ذلك الصيف. في يونيو، بدأت قوَّات اللوفتفافه الجوِّية تضرب لندن بصواريخ في-1 المجنَّحة، والمعروفة باسم «دودلباج»، انتقامًا لغارات سلاح الجوِّ الملكي البريطاني على ألمانيا. سمَّاها إتش جي ويلز «قنابل روبوتية». سمعت إنز هولدن امرأة خائفة تدَّعي أن الصواريخ كانت أشباح طيارين اللوفتفافه الذين قُتِلوا في معركة بريطانيا. ضربت صواريخ في-1 شقَّة أورويل عندما كان هو وزوجته في الخارج، ما أجبرهما على الانتقال إلى منزل هولدن الخالي في ماريليبون، قبل أن يستقرَّا في منزلهما اللندني الأخير رقم 27 بي، في ساحة كانونبيري بإزلينجتون. استعاد أورويل عشرات الكتب، بالإضافة إلى مخطوطة «مزرعة الحيوان» المقصوفة من تحت الأنقاض. كان قد أصبح أبًا مؤخَّرًا. كان أورويل يعتقد أنه عقيم (غير واضح على أيِّ أساس)، وطلب من زوجة أخو

آيلين، جوين أوشوناسي، التي كانت تدير عيادة طبية في نيوكاسل، أن ترتِّب لهما عملية تبنٍّ. كان تكوين أسرة يمثِّل أولوية لأورويل أكثر من آيلين، لكنهما أصبحا والدَين محبَّين لريتشارد هوريشيو بلير البالغ من العمر ثلاثة أسابيع، والذي سُمِّي على اسم والد أورويل الراحل. كانا يخطِّطان للانتقال إلى الريف بمجرَّد انتهاء الحرب. قال أورويل لكاتب الجريمة جوليان سيمونز: «أنا أكره لندن. أودُّ الخروج منها حقًّا، لكن المرء لا يستطيع المغادرة والناس يُقصفون في كل مكان من حوله».

مع دخول الحرب مرحلتها الأخيرة، بدأ عقل أورويل يتحوَّل إلى حقبة «ما بعد الحرب»، ولكن كان عليه أولاً الكشف عن أخطائه: كانت «رسالة لندن» الأخيرة اعترافًا ماسوشيًا دقيقًا بعدم أهليته كنبي. مقتبسًا اثنتي عشرة نبوءة خاطئة له، أوضح أورويل كيف كان «مخطئًا بشكلٍ فادح» بشأن بقاء الميثاق النازي السوفيتي، وسقوط تشرشل، واحتمال دفع الحرب ببريطانيا نحو الفاشية أو الاشتراكية. لقد أدرك أنه لم يعمل بجدٍّ بما يكفي للوقوف على تحيُّزاته والتغلُّب عليها، وتعهَّد بمضاعفة جهوده. «يبدو لي أنه من المهم جدًا إدراك أننا كنا مخطئين، وأن نقول ذلك. معظم الناس في هذه الأيَّام، عندما يُثبت خطأ تنبُّؤاتهم، يزعمون بوقاحة أن لها ما يُسوِّغها ويَلوون الحقائق وفقًا لذلك... أعتقد أنه من الممكن أن يكون المرء أكثر موضوعية من معظم الناس، لكن ذلك يتطلب جهدًا أخلاقيًا. لا يمكن للمرء الهروب من مشاعره، ولكنه على الأقل يستطيع معرفة ماهية هذه المشاعر وأن يأخذها في الاعتبار».

كانت لندن في أواخر عام 1944 مدينة كئيبة، ساخطة، ممزَّقة، يقصفها هجوم هتلر اليائس الأخير. صواريخ في-2 الباليستية الجديدة –التي تشبه إلى حدٍّ كبير «القنابل الصاروخية» التي ضربت آيرستريب وان– كانت كافية لجعل أهل لندن يشعرون بالحنين إلى أزير قنابل «دودلباج» الشرير: على الأقل كانت تلك تعطي بعض التحذير. كتب أورويل في عمود «كما يحلو لي»: «في كل مرَّة ينفجر فيها إحداها أسمع تعليقات يائسة تشير إلى «الحرب القادمة». لكن إذا سألت أحدًا مَن سيحارب مَن عندما تندلع هذه الحرب المتوقَّعة عالميًا، فلن تحصل على إجابة واضحة. إنها فكرة مجرَّدة عن الحرب فحسب؛ على ما يبدو أن الفكرة القائلة بأن البشر يمكن أن يحسنوا التصرُّف قد تلاشت من ذكريات كثيرٍ من الناس». لقد صدمه تقرير «المراقبة الجماعية» عام 1943 الذي وجد أن 46 بالمئة من سكَّان لندن كانوا متأكدين من اندلاع حرب عالمية ثالثة، وأن 19 بالمئة ظنُّوا أن احتماليتها ممكنة. توقَّع معظمهم أن يحدث ذلك في غضون الأعوام الخمسة والعشرين القادمة.

***

في سبتمبر عام 1944، كتب أورويل مقالًا رائعًا في «تريبيون» عن صديقه آرثر كويستلر. إذا كان چيمس بيرنام زوَّد أورويل بالهيكل الچيوسياسي العلوي لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، فإن كويستلر زوَّده بالمشهد العقلي من خلال تحفته الرائعة «ظُلمة في كَبِد النهار» المنشورة عام 1940. تدور أحداث الرواية داخل سجن، وكويستلر بالتأكيد لم يكن غريبًا عن الزنازين.

وُلد كويستلر في بودابست عام 1905، وكان مغامرًا لا يهدأ. سُجن لأول مرة في فبراير عام 1937، عندما كتب تقريرًا عن الحرب الأهلية الإسبانية لصحيفة «نيو كرونيكل». من دون علم أرباب عمله، كان عضوًا في الحزب الشيوعي الألماني لمدة ست سنوات، ويعمل لصالح شبكة منظَّمات الدعاية التي يديرها دعائي الشيوعية الدولية ويلي مونزينبرج. احتجز الفاشيون كويستلر داخل زنزانة حبسٍ انفرادي في إشبيلية لمدة أربعة وتسعين يومًا، عاش خلالها تحت تهديد مستمر بالإعدام. تسبَّب هذا الدنو من الموت في تجربة روحية مزَّقت إيمانه بالشيوعية. أُطلق سراحه نتيجة حملة دولية، واستقال كويستلر من الحزب الشيوعي في العام التالي في اجتماع في باريس، حيث اقتبس من توماس مان: «حقيقة مؤذية خيرٌ من كذبٍ مفيد».*[34] لاحقًا قارن نفسه بمدمن على الكحول خرج من «عطلة نهاية أسبوع ضالة في المدينة الفاضلة». للتعبير عن تحرُّره من الوهم الشيوعي، بدأ في كتابة «ظُلمة في كَبِد النهار» (التي كانت تُسمَّى في الأصل «الحلقة المفرغة»)، مستوحيًا مشاهد السجن من تجاربه في إشبيلية، وتجارب صديقه إيڤا سترايكر الذي كان معتقلًا في موسكو بتهمة وهمية هي التآمر لاغتيال ستالين. لم يكن مستقبله يخلو من تجارب اعتقال أخرى قادمة.

عندما كان يعيش في باريس وقت اندلع الحرب، صُنِّف كويستلر على أنه أجنبي غير مرغوب فيه ووُضع في معسكر

34—* قارن هذا بقول شخصية المخلص للحزب في رواية «ظُلمة في كَبِد النهار»: «الحقيقة هي كل ما هو مفيد للإنسانية، والبهتان هو كل ما هو ضار». (المؤلِّف)

الاعتقال لو ڤيرنيه. أُطلِق سراحه لفترة قصيرة كانت كافية لإنهاء الرواية وإرسال المخطوطة إلى لندن، قبل أن يعتقل مرَّة أخرى عندما اجتاح الفيرماخت فرنسا. هرب إلى إنجلترا في نوڤمبر عام 1940، حيث سُجِنَ على الفور باعتباره أجنبيًّا بإقامة غير قانونية مرَّة أخرى: في اليوم الذي نُشرت فيه «ظُلمة في كَبِد النهار»، كان كويستلر في الحبس الانفرادي في سجن بينتونڤيل. في عام 1931، اعتُقِل أورويل عن عمد بتهمة السكر كي يرى زنازين الشرطة بنفسه، لكنه سرعان ما أُطلِق سراحه، وكانت الذِّكرى الوحيدة التي أثبتت نفعها له في كتابته «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هي الرائحة النتنة الخارجة من مرحاضٍ مكسور. لذلك كانت أوصاف كويستلر الأصيلة للسجن مصدرًا لا يقدر بثمنٍ لمشاهد وزارة الحب. وكذلك كانت أفكاره حول السجن العقلي الذي تفرضه الشمولية.

«من يستطيع أن ينسى المرَّة الأولى التي قرأ فيها ظُلمة في كَبِد النهار؟ في نظر الاشتراكيين على وجه الخصوص، كانت التجربة لا تُمحى. أستطيع أن أتذكَّر قراءتها كاملةً في ليلة واحدة وأنا مفزوع ومُكتسح ومفتون»، هكذا كتب مايكل فوت. عرض كويستلر حلًا محتملًا للغز محاكمات موسكو الصورية الجوهري: لماذا وقَّع هذا العدد الكبير من أعضاء الحزب الشيوعي على اعترافات بجرائم ضد الدولة، وبالتبعية مذكِّرات إعدامهم؟ إما أنهم جميعًا مذنبون لأنهم متَّهمون (وهذا مستحيل)، أو أنهم حطَّموهم بالتعذيب (وهذا غير كاف)، أو -كما جادل كويستلر- فإن سنوات ولائهم غير المشروط قد أذابت إيمانهم بالحقيقة

الموضوعية: إذا طلب الحزب منهم أن يكونوا مذنبين، يجب أن يكونوا مذنبين إذًا. كما قال بارسونز باكيًا في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «قطعًا أنا مذنب! لا تظن أن الحزب سيعتقل رجلًا بريئًا، أليس كذلك؟». في أوقيانيا، لا وجود للقوانين، فقط الجرائم، ولا فرق بين التفكير والفعل. ومن ثم يمكن أن يعترف ونستون بتهم ملفَّقة تتعلَّق بالتجسُّس والاختلاس والتخريب والقتل والانحراف الجنسي وما إلى ذلك، مع الاعتقاد نوعًا ما بأنه مذنب بالفعل. يقول أوبراين في الرواية: «كل الاعترافات التي قيلت هنا حقيقية. نحن نجعلها حقيقية». وكذلك كان الحال في روسيا السوفيتية. كتب أورويل في مراجعته لـ«ظُلمة في كَبِد السماء» عام 1941 أن في عهد ستالين كان المرء «يُسجن ليس بسبب ما يفعله، ولكن بسبب أنه هو، أو بالأحرى بسبب الاشتباه في كينونته».

روباتشوف، بطل رواية كويستلر، هو مسؤول سوفيتي رفيع اعتُقِل خلال حملة تطهير أجبرته على إعادة التفكير في الأوقات التي كان يرسل فيها أعضاء الحزب الأبرياء إلى حتفهم. لقد تحوَّل بين عشية وضحاها من جانٍ إلى ضحية «الرقم واحد» المعصوم من الخطأ، بديل ستالين الغامض الذي يزيِّن وجهه كل جدار. لم يكتفِ ستالين بالقضاء على أعدائه، بل أراد اعترافاتهم وتوبتهم ليقضي عليهم أخلاقيًا ويؤكِّد انتصاره على الواقع. كتب كويستلر: «الرعب الذي ينبثق من «الرقم واحد» يتمثَّل في المقام الأوَّل في احتمال أن قد يكون على حق. وعلى كل من قتلهم أن يعترفوا، حتَّى ولو بمسدَّسٍ مصوَّب إلى مؤخِّرة أعناقهم، بأنه

ربَّما يكون على حق». قال المسؤول السوفيتي جيورجي باياتاكوف، الذي أُعدم في عام 1937، إن البلشفي الحقيقي «سيكون مستعدًا للاعتقاد بأن الأسود أبيض، والأبيض أسود، إذا طلب الحزب ذلك... فلم تتبقَّ ذرَّة في جسده ليست متوحِّدة مع الحزب، ولا تنتمي إليه».

روباتشوف مُحتَجز في سجن تسطع أنواره ليلًا ونهارًا، ويُستجوب فيه بلا هوادة في عملية تُعرف في روسيا باسم «الناقل». يستجوبه في البداية صديقه السابق إيفانوف، ثم الموظَّف الشاب عضو الحزب الشيوعي جليتكين الأكثر تعصُّبًا. وصف أورويل الأخير بأنه «نموذج شبه مثالي للجرامافونات البشرية»*[35] لا تقض تفكيره ذكريات العالم القديم. كتب كويستلر: «هذا الجيل الجديد من أمثال جليتكين لا يملكون ذكريات لمحوها. هم ليسوا في حاجة إلى إنكار ماضيهم، لأنهم لا يملكون ماضيًا». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، أكثر المواطنين تعصُّبًا هم الصغار: «كان من الطبيعي أن يخاف الأشخاص دون سن الثلاثين من أطفالهم». ربَّما كانت ابنة آل بارسونز، التي وشت بأبيها لشرطة الفكر، مستوحاة من بافليك موروزوف، الشيوعي البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، الذي يُزعم أنه قُتل على يد عائلته في عام 1932 بسبب خيانته لوالده للشرطة السرية، ثم صار يُنعت بـ«الصبي البطل» في الدعاية السوفيتية. في آيرستريب وان، حيث يغنِّي الناس «تحت شجرة الكستناء المُورقة،

35-* يشير هذا التشبيه إلى طريقة الكلام الميكانيكية الأوتوماتية التي ارتبطت على سبيل المجاز بالجرامافون، الذي كان لا يزال اختراعًا جديدًا نسبيًا وقتها. (المترجم).

وشيتُ بك ووشيتَ بي»، يُروِّج للخيانة على أنها فضيلة. الأسرة كيان لا يُقارن بالدولة.

التقى صديق يفجيني زامياتن القديم، إيڤانوف رازومنيك، نحو ألف سجين خلال السنوات التي قضاها في سجون موسكو، ولم يعرف غير اثني عشر شخصًا رفضوا الاعتراف على أنفسهم. بخلاف معظمهم، لم يتعرَّض روباتشوف في الرواية للتعذيب الجسدي؛ إن تفكيكه نفسيٌّ بحت. بسبب ألم أسنانه وحرمانه من التبغ وتأنيب الضمير، يفقد روباتشوف تدريجيًا كل أساس أخلاقي وفكري للمقاومة. بمنطق الحزب الذي خدمه بإخلاص، لا يُوجد «أنا»، فقط الضمير «نحن» الجماعي، وهو الحزب الذي يمثِّل التاريخ والذي لا يمكن أن يكون مخطِئًا أبدًا. يسأل ونستون سميث: «كيف يمكن للعقل الجماعي الخالد أن يُخطِئ؟ بأيِّ معيار خارجي يمكنك التحقُّق من حكمه على الأمور؟». وإذا كانت الأخطاء غير مطروحة، فعلى الحزب أن يحذف باستمرار الأدلة المتناقضة، تاركًا فقط مساحات مستطيلة باهتة على الجدران وفجوات في أرفف المكتبات لتحدِّد الفراغ. «قال روباتشوف مازحا لأرلوفا إن الشيء الوحيد المتبقي هو نشر طبعة جديدة معدَّلة من أعداد جميع الصحف السابقة». أحال أورويل مُزحة روباتشوف إلى وظيفة ونستون سميث في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

بالتأكيد يعترف روباتشوف في النهاية، وبالتأكيد يموت. ومع ذلك فهو لم يُهزم بالكامل. إن الهدف النهائي للحزب هو استعمار العقل والقضاء على ما سمَّاه أورويل «جرائم الفكر». كتب روباتشوف: «لقد قمعنا بذور الشر ليس في أعمال البشر

فحسب، بل في أفكارهم. لم نسمح بأيِّ مساحة خاصة، ولا حتَّى داخل جمجمة الفرد». لكنه يلقي حتفه برأسٍ مليء بأفكارٍ مارقةٍ حول فساد الثورة و «الشعور المحيطي» الروحاني الذي يسمو فوق كل شيء. كان كويستلر أرحم من أورويل. لقد منح ضحايا ستالين احتمالية ألا يكونوا قد استسلموا استسلامًا شخصيًا نهائيًا على الرغم من تحطُّمهم العلني. يبدو أوبراين كمن يصف هذا المشهد بالتحديد في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «حتَّى ضحايا التطهير الروسي يمكن أن يحملوا تمرُّدًا محبوسًا في عقولهم وهم يسيرون في الممر في انتظار الرصاصة». ليس هذا هو الحال في أوقيانيا: «إننا نطهِّر العقل ونجعله مثاليًا قبل أن نفجِّره إلى أشلاء».

في مقاله في مجلَّة «تيربيون»، وازن أورويل بين امتداح رواية «ظُلمة في كَبِد النهار» والنقد القاسي لكتاب كويستلر الأخير «الوصول والمغادرة»، وهي رواية «ضحلة» عن لاجئ هارب من الفاشية. لقد شعر أن كويستلر جمع بين السخرية كالحة السواد من التقدُّم قصير المدى مع «اعتقاد شبه صوفي» بمدينة فاضلة بعيدة، لأنه كان ساعيًا دائمًا خلف اللذَّة (وهو عيب فظيع في الشخصية في نظر أورويل)، ما منعه من قبول حقيقة الحياة بأنها مؤلمة وفوضوية وتجربة مُذِلَّة. قال أورويل: «ربَّما يتعذَّر استئصال درجة معينة من المعاناة في الحياة البشرية. ربَّما تكون الخيارات التي أمام الإنسان دائمًا خيارات شريرة، وربَّما يكون هدف الاشتراكية ليس جعل العالم مثاليًا بل محاولة تحسينه. كل الثورات فاشلة، لكن لكل ثورة فشلها الخاص».

كان أورويل ومعاصروه حفنة قوية مشاكسة. بعقد صلة بين مراسلات أورويل وأسماء الكُتّاب الذين قدّم مراجعات لأعمالهم، أو الذين كتبوا مراجعات لأعماله، قد تتوقّع منهم أن يكونوا قد كوّنوا دائرة مريحة تحفُّها المجاملات المتبادلة. لكنهم في الواقع كانوا يتفاخرون بنزاهتهم النقدية ويسدّد بعضهم اللكمات إلى بعض بقوّة. إن كان أورويل قد قوبل بفتور من كل من انتقده في مقالاته، لتقلّصت دائرته الاجتماعية الأدبية كثيرًا.

ومع ذلك، فإن صراحته الزائدة قادته إلى بعض المواقف المحرجة. في عام 1945، دعا كويستلر وشريكته مامين باجيت أورويل لقضاء الكريسماس معهما في ويلز. في اليوم السابق لوصول أورويل، قرأ كويستلر عددًا حديثًا من مجلّة «تريبيون» وشعر بالفزع لرؤية صديقه يصف مسرحيته الخيالية الجديدة «حانة الشفق» بأنها «ملهاة تافهة». لذلك عندما راح كويستلر لاستقبال أورويل في محطّة لاندودنو، كان غاضبًا.

«يا لها من مراجعة نقدية بالغة السوء تلك التي كتبتها، أليس كذلك؟».

أجاب أورويل بفتور: «أجل، ويا لها من مسرحية بالغة السوء، أليس كذلك؟».

فقط بعدها بأسبوع وهو في طريق العودة إلى لاندودنو اعترف أورويل بهدوء أنه ربّما كان قاسيًا بعض الشيء. ومع ذلك، لم يفسد الاختلاف في الرأي العطلة. ربّما لأن كويستلر كان يعرف ما مرّ أورويل به في ذلك العام، لم يرغب في الضغط على هذه النقطة.

* * *

في فبراير عام 1945، حصل أورويل على فرصة ليكون مراسلًا حربيًّا أخيرًا. أرسلته جريدتا «ذا أوبزرفر» و «مانشستر إيڤنينج نيوز» إلى باريس المُحرَّرة، بينما ذهبت آيلين وريتشارد للإقامة مع جوين أوشوناسي في ستوكتون أون تيز، في مقاطعة دَارِم. في رواية ثورستون كلارك «الساعة الثَّالثة عشرة» -وهي قصة تشويق نُشرت عام 1984 تحكي عن زوجة عضو في البرلمان الأمريكي تكتشف مذكِّرات أورويل المفقودة- يقضي أورويل وقته في أوروبا وهو يتتبَّع أثر الكولونيل الأمريكي الذي خان رفاقه الإسبان وباعهم إلى شرطة ستالين السرية. الحقيقة أقل درامية ولكنها أبعد عن أن تكون مملَّة. عندما سجَّل الكابتن إريك بلير وصوله إلى فندق سكريب في باريس في 15 فبراير، وجد كثيرًا من الكُتَّاب في العاصمة الفرنسية، كما كان الحال في إسبانيا. أصبح صديقًا للفيلسوف آيه چيه آير، وتناول العشاء مع بي چي وودهاوس، وتقاطع طريقه مع مالكوم موجريدچ الذي كان يعمل في جهاز الاستخبارات البريطاني، وأعاد الاتصال بقائده الإسباني خوسيه روڤيرا، وقدَّم نفسه إلى أندريه مالرو الذي كان وقتها مستشارًا لشارل ديجول، وادَّعى أنه اصطدم بهمنجواي.*[36] رتَّب أورويل أيضًا للقاء ألبير كامو في مقهى ليه دوه ماجو، لكن مرضَ السُّلِّ كان قد اشتدَّ على كامو في ذلك اليوم، ممَّا أحبط ما

36-* لا تتطابق القصَّتان اللتان تسردان هذه الواقعة على الإطلاق. وفقًا لهمنجواي، طلب منه أورويل وهو مذعور استعارة مسدَّسه. أما القصَّة التي زعم الشاعر والأناركي بول بوتس أنه سمعها من أورويل فتضمَّنت جلسة شراب صاخبة، لكن بلا ذكر لأسلحة نارية. لم يكتب أورويل نفسه شيئًا عن الأمر. إن عدم الموثوقية في الذاكرة يتضاعف عندما تقف الرغبة في سرد قصَّة جيدة حائلًا في الطريق. (المؤلِّف)

كان يمكن أن يكون لقاءً بارزًا بين رجلين متمرِّدين بالسليقة قدَّما المبادئ على المصلحة السياسية وحوَّلا الكتابة السياسية إلى فن. أرسل أورويل لاحقًا نسخة من الترجمة الفرنسية لـ«مزرعة الحيوان» إلى كامو.

في أواخر مارس، رافق أورويل قوَّات الحلفاء في مسيرتهم إلى كولونيا. «بعد سنوات من الحرب، كان شعورًا غريبًا جدًّا أن تقف أخيرًا على الأراضي الألمانية»، هكذا كتب في رسالته الوحيدة قبل أن يمرض ويدخل المستشفى. وهو هناك، فاتته الرسائل العاجلة التي كانت آيلين ترسلها إلى فندق سكريب... رسائلها الأخيرة. كان من المقرر أن تجري آيلين عملية استئصال رحم طارئة في نيوكاسل في 29 مارس لإزالة عدة أورام تنمو سريعًا من رحمها. في رسائلها، كانت ناكرة للذات بطريقة تدمي القلوب بشأن تكلفة العملية («لا أظن أنني أستحق هذا المال») وغير آبهة باحتمال موتها على طاولة العمليات، لكنها كانت عنيدة بشأن المستقبل الذي تريده له. أخبرت أورويل بأن عليه ترك العمل في الصحافة والتركيز على كتابة الروايات، والانتقال إلى الريف في أسرع وقت ممكن. «لا أعتقد أنك تفهم مدى كابوسية الحياة في لندن في نظري... طوال هذه السنوات أشعر كأنني أحيا في نوع مخفَّف من معسكرات الاعتقال». عند عودته إلى باريس، قرأ أورويل الرسائل وأرسل برقية إلى آيلين، لكن بعد فوات الأوان.

في اليوم التالي أبلغته برقية من صحيفة «ذا أوبزرفر» بأسى بأن زوجته التي دام زواجه بها تسع سنوات ماتت عن عمر التَّاسعة والثلاثين. لقد أصيبت بسكتة قلبية تحت التخدير.

عـاد أورويـل علـى متـن طائـرة عسـكرية إلـى لنـدن، وظهـر أمـام عتبـة بـاب منـزل إنـز هولـدن فـي حالـة يُرثـى لهـا، ثـم سـافر إلـى ستوكتون أون تيـز لحضـور الجنـازة. أربك تحفُّظـه العاطفـي الأصيـل الـذي ورثـه عـن والـده بعـض الأصدقـاء ودفعهـم إلـى التفكيـر فـي أنـه كان شـديد التماسـك أمـام خسـارته، لكـن مشـاعره تسـرَّبت فـي رسـائله، التـي بـدا فيهـا أقل اهتمامًـا بحزنـه وأكثـر اهتمامًـا بالظلـم الـذي وقـع علـى آيليـن ومسـتقبلها المسـروق. «مـا حـدث هـو أفظـع شـيء كان يمكـن أن يحـدث، لأنهـا قضـت خمـس سـنوات بائسـة حقًـا بصحَّـة معتلَّـة وإفـراط فـي العمـل، وكانـت الأمـور قـد بـدأت بالتحسُّـن لتوِّهـا»، هـكـذا كتـب لأنتونـي بـاول. شـعـر بذنـب كبيـر لأنـه كان غيـر مخلـص جنسـيًا، وأنانيًـا، وغافـلًا عـن خطـورة مرضهـا، ولأنـه تغيَّـب عنهـا عندمـا كانـت فـي أمس الحاجـة إليـه. طاردتـه الصدمـة والوحدة التـي تلـت ذلـك طـوال السـنوات الأربـع التاليـة. «لا أظـن أنـه كان يعتنـي بهـا كثيـرًا، لكننـي أظـن أنـه أحبهـا. لا أظـن أنـه كان يعـرف كيـف يعتنـي بـأيِّ شـخص، ولا حتَّـى بنفسـه»، هكـذا قالـت لاتيـس كوبـر صديقـة وزميلـة آيليـن.

كالعـادة، دفـن أورويـل نفسـه فـي العمـل. بعد أيَّام قليلـة من الجنـازة عـادة إلـى أوروبـا. فـي باريـس، حيـث استسـلمت ألمانيـا، شـاهد المحتفليـن يسـدُّون الشـوارع لمـدَّة يوميـن وهـم يهتفـون «بصحبتنـا» ويغنُّـون النشـيد الوطنـي الفرنسـي. زار بعدهـا شـتوتجارت ونورمبنـج والنمسـا، ليـرى بنفسـه أطـلال الديكتاتوريـة المنهـارة. دفعـه الدمـار إلـى الشـعور بالرعـب والشـفقة: «المشـي فـي طرقـات مـدن ألمانيـا المدمَّـرة يصيبـك بشـكٍّ حقيقـي فـي اسـتمرار الحضـارة البشـرية».

كان هـذا قـولًا سـهلًا علـى رجـل لـم يختبـر الاحتـلال النـازي مـن قبـل، ولكنـه عندمـا رأى ضبَّـاط الشـوتزشـتافل المهزوميـن يتعرَّضـون للضـرب والإهانـة فـي معسـكر أسـرى الحـرب، شـعر بـأن «فكـرة الانتقـام والعقـاب برمَّتهـا هـي حلـم يقظـة طفولـي». كان قلقًـا مـن أن تُصعِّـب محاكمـات جرائـم الحـرب وتقسـيم ألمانيـا عمليـة شـفاء أوروبـا، وأنهـا لـن تُرضـي سـوى شـهوة الانتقـام فـي نفـوس الجماهيـر. شـعر أنـه لـو سـيق مجرمـو الحـرب إلـى اسـتاد ويمبلي لتأكلهم الأسـود أو تدهسـهم الأفيـال، سـتكتظُّ المدرَّجـات عـن آخرهـا. جاءتـه تلـك الصـورة الذهنيـة فـي ينايـر عندمـا زار معرضًـا فـي لنـدن يُدعـى «أهـوال معسـكرات الاعتقـال النازيـة»، وغـادره وهـو يشـعر أنـه شـاهد نوعًـا مـا مـن الفـن الإباحـي. فـي آيرسـتريب وان، تحوَّلـت كنيسـة سـانت مارتـن إن ذا فيلـز إلـى معـرض فظائـع، وصـار شـنق مجرمـي الحـرب علنًـا يـوم نزهـة مبهـج لجميـع أفـراد الأسـرة. بعـد الحـرب، شـعر أن عـودة مثـل هـذه الإعدامـات فـي نورمبـرج وخاركـوف أمـرٌ «بربـري»، وشـجب -مثـل ونسـتون سـميث- «الطريقـة السـلبية التـي يشـارك بهـا الشـعب...» البريطانـي «بمشـاهدته للأفـلام الإخباريـة». كان ذلـك مؤشِّـرًا بـ«منحـى جديـد فـي دوَّامـة الهبـوط التـي نهبـط فيهـا منـذ عـام 1933».

* * *

كان التحيُّـز مشـكلة أخـرى ذهـن أورويـل فـي عـام 1945. تظهـر معـاداة السـامية فـي روايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» فقـط مـن خـلال شـخصية إيمانويـل جولدشـتاين، أمـا العنصريـة فـلا تظهـر علـى الإطـلاق. فـي الواقـع، يصـرُّ كتـاب جولدشـتاين علـى أنـه لا يوجـد

تمييز عنصري في أوقيانيا، لأن الحزب موحَّدٌ بالأيديولوچية وليس بالدمِّ. ومع ذلك، فكَّر أورويل في جعل العنصرية سمة من سمات حزب الإنجوسك. تتضمَّن خطوط الرواية العريضة الأصلية أفكار معاداة السامية و «الدعاية المعادية لليهود». في مسوَّدات الرواية المبكِّرة، يُستهدف اللاجئون الفارقون الذين يراهم ونستون في شريط إخباري لأنهم يهود، ويحكي لنا عن عملية إعدام متلفزة شنيعة بلا محاكمة في القسم الأمريكي من أوقيانيا.

لذا سيكون من الخطأ استنتاج أن أورويل لم يعتقد أن التحيُّز العرقي أمرٌ خطير. منذ كتبه الأولى مثل «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، نعت التحيُّز العرقي بأنه «زائف تمامًا» بجميع أشكاله. في عمود «كما يحلو لي»، استنكر بقوَّة الإهانات العنصرية وإساءة معاملة الجنود السود في لندن، وهاجم الطريقة التي حُرِم بها الأمريكيون الأفارقة من حق التصويت بعد أن «طُردوا من الوظائف التي تتطلب مهارة، وعُزِلوا وأُهينوا في الجيش، واعتدى عليهم رجال الشرطة البيض، ومارسوا القضاة البيض التمييز ضدَّهم». في «معاداة السامية في بريطانيا»، مقاله في كتاب «السجل اليهودي المعاصر» المنشور عام 1945، كتب أورويل: «تفتقر الحضارة الحديثة إلى شيءٍ ما، إلى نوع من الڤيتامينات النفسية، ونتيجة إلى ذلك جميعنا معرَّضين بشكل أو بآخر لجنون الاعتقاد بأن أجناسًا أو أممًا بأكملها خيِّرة بطبعها أو شريرة بطبعها».

أطلق أورويل على هذا الجنون اسم «القومية»، وهي كلمة شملت في نظره كل أشكال الانحياز السياسي، من الفاشية إلى الصهيونية. بالتأكيد لم يكن يعتقد أنها جميعًا متساوية في

السوء، لكنها جميعًا تظهر أنماط التفكير نفسها. أما الوطنية، فكان يظنُّ أنها فطرية وحميدة إلى حدٍّ كبير: إنها شعور وليست أيديولوجية. أوضح أورويل في مقال «ملاحظات على القومية» الذي كتبه وهو في أوروبا، أن القومية «هي جوع للسلطة يخفِّفه خداع النفس. كل قوميٍّ قادر على ارتكاب أكبر قدر من التضليل السافر، لكنه أيضًا -بما أنه يعي أنه يخدم شيئًا أكبر منه- واثق بشكل لا يتزعزع من كونه على حق». أورد أورويل عشرات الأمثلة لأشخاصٍ يؤمنون بأكاذيب مُرضية عاطفيًا، ويرفضون الحقائق التي لا ترضيهم، ويطبِّقون المعايير المزدوجة الفاحشة، ويعيدون كتابة الأحداث. هذه هي المكوِّنات النفسية للتفكير المزدوج، أو «التحكم في الواقع»، كما عرَّفها في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها «القدرة على اعتناق معتقدين متناقضين في عقل الفرد في آن واحد وقبولهما معًا... أن يكذب المرء متعمِّدًا وهو يؤمن بصدق بكذبه، وأن ينسى أيَّ حقيقة باتت غير ملائمة، ثم عندما تصبح ضرورية من جديد، تُستدعى من غياهب النسيان وتستخدم إلى أن ينقضي الغرض منها، وأن ينكر وجود الحقيقة الموضوعية وهو يضع في الحسبان الواقع الذي أنكره».

كانت القومية هي نظرية أورويل الموحدة لعلم النفس السياسي: مفتاح رئيس يفتح كل أنواع التحيُّزات والمغالطات والظواهر العقلية الخبيثة. كانت أنماط التفكير التي سيدفعها لاحقًا إلى حدودها القصوى في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» تنبثق في كل مكان كأعشابٍ قاتلة. وكان مبيد الأعشاب الوحيد هو بذل «الجهد الأخلاقي» ليعترف المرء بتحيُّزاته ويخضع نفسه

لفحصٍ ذاتي عديم الشفقة. جادل أورويل بأن معاداة السامية، على سبيل المثال، يجب أن يُحقِّق فيها «أشخاص يعرفون أنهم ليسوا محصَّنين ضد هذا النوع من المشاعر». شمل ذلك نفسه. في الثلاثينيات، لا سيَّما في كتابه «الفقر والتشرُّد في باريس ولندن»، أدلى ببعض الملاحظات العدائية العرضية عن اليهود، وهي ملاحظات نموذجية لمن هم من جيله ومن طبقته، ولم يبذل جهدًا للتفكير في تحيُّزاته المسبقة إلا في أثناء الحرب، على الرغم من أنه أهمل أيضًا إعادة النظر في رهاب المثلية الجنسية اللا إرادي ورفضه للنسوية بلا تفكير. لقد لاحظ أن الإجماع العام على أن معاداة السامية غير مقبولة لم تجبر الناس على تدبُّر تحيُّزاتهم الخاصة كما قد يأمل المرء، ولكنها جعلتهم يعيدون رسم حدود التعريف بطريقة تستبعد تلك التحيُّزات، مع محاولة البحث عن أمثلة على سلوك اليهود السيِّئ. كتب أورويل: «من الواضح أن هذه الاتهامات تُمنطِق بعض التحيُّزات المتجذِّرة فحسب. إن محاولة مواجهتها بالحقائق والإحصائيات عديمة الجدوى، وقد تكون أحيانًا أسوأ منذ ذلك».

تخيَّل أورويل التحيُّز العنصري في صورة عصب لا يُلاحظ حتَّى يتعرَّض للوخز. أيديولوجيات مثل النازية نشَّطت هذا العصب لتحقيق غاياتها الخاصة، لكن الديكتاتورية لن تنجح في وظيفتها إلا إذا تماشى معها عامَّة الناس، سواء عن طريق الضغينة أو اللا مبالاة أو الخوف. كان إيمان أورويل بالنقد الذاتي على الصعيدين الشخصي والوطني يعني الاعتراف بأن الشمولية لم تكن آفة تنفرد بها ألمانيا وروسيا، بل آفة لديها القدرة على الاستيلاء

على أيِّ مجتمع على وجه الأرض. كل إنسان مجبول على الاعتقاد بأنه صالح، ومجبول على الدفاع عن مواقفه بأيِّ درجة مطلوبة من النفاق وخداع الذات. في آيرستريب وان، لا يهم ما إذا كان الأخ الأكبر موجودًا بالفعل، أو ما إذا كانت شرطة الفكر تراقب طوال الوقت، ما أن يتمكَّن الفيروس، لأن أقوى الأكاذيب هي تلك التي يقولها الناس لأنفسهم. في عمودٍ صحفي عام 1944 عن الكُتيِّبات، لاحظ أورويل أنه عبر كل ألوان الطيف السياسي «لا أحد يبحث عن الحقيقة، الجميع يطرح "قضيته" بتجاهلٍ تام للعدالة والدقة، ويمكن لهؤلاء الذين لا يريدون رؤية الحقائق الأكثر وضوحًا غض الطرف عنها... إن الاعتراف بأن الخصم قد يكون صادقًا وذكيًا في الوقت نفسه أمر لا يطاق».

عند قراءة مقال «ملاحظات على القومية» الآن، يمكنك تطبيق قائمة التحيُّزات المعرفية التي ذُكِرت فيه على تلك التي لم تكن موجودة آنذاك: الانحياز التأكيدي، وفقَّاعات الترشيح، وتأثير النتائج العكسية، والتفكير الجماعي.*[37] كان أورويل مهتمًا بالأسباب التي جعلت كثيرًا من الناس العاديين يتبعون هتلر وستالين، أكثر من اهتمامه بشخصيتيهما (كتب عنهما أقل القليل بشكل يثير الدهشة). أحد تلك الأسباب كان تفسُّخ إجماع الآراء عليهما. وصف كيف أن قراء الصحف، الذين وجدوا أنفسهم

37-* التفكير الجماعي Groupthink: مصطلح صاغه عالم النفس إيرفينج جانيس في عام 1971 لوصف «التدهور في الكفاءة العقلية والأحكام الأخلاقية وعملية اختبار الواقع نتيجة لضغوط الجماعة». أسلوب صوغ المصطلح تحيَّة صريحة للغة الجديدة. (المؤلف).

يواجهون ارتباكًا حقيقيًا وخيانةً صريحةً، تخلَّوا عن فكرة أن الحقيقة يمكن بلوغها على الإطلاق: «عدم اليقين العام بشأن ما يحدث على أرض الواقع يجعل من السَّهل التمسُّك بالمعتقدات الجنونية».

* * *

في 4 يونيو عام 1945، كان البثُّ الأوَّل الذي أذاعه ونستون تشرشل لحملة الانتخابات العامَّة أشبه بمقتطف من رواية ديستوبية عن دولة بوليسية يحكمها حزبٌ واحد. قال تشرشل هادرًا: «لا يمكن أن يُوجد شك في أن الاشتراكية مرتبطة ارتباطًا لا ينفصم بالشمولية وبعبادة الدولة المُهينة. لا تستطيع أيُّ حكومة اشتراكية تدير كل أشكال الحياة والصناعة في البلاد أن تسمح بتعبير حر وحاد أو عنيف عن السخط العام. لا بُدَّ لها من أن تنتكص إلى شكل من أشكال الجستابو، مهما كانت موجَّهة بطريقة إنسانية في المقام الأوَّل».

أصاب زعيم حزب العمل كليمنت أتلي عندما وصف خطاب تشرشل الإذاعي بأنه «نسخة مستعملة» من كتاب «الطريق إلى القنانة». في تلك الأثناء، وجد الجمهور صعوبة في مواءمة هذا التكهُّن الهستيري مع الرجل الخجول الثابت الصادق غير القابل للإفساد الذي قضى خمس سنوات كتفًا بكتف تشرشل في الحكومة الائتلافية في زمن الحرب. ربما تكون جمجمة أتلي -كما أشار أورويل- تحمل شبهًا تشريحيًا بجمجمة لينين، لكن مع صوته الجاف الضعيف وسلوكه المتواضع، لم يكن الرجل يثير في عقل أحد فكرة الرجل القوي المتعطِّش إلى السلطة. لم يكن

الشعب البريطاني يتوق بالضرورة إلى الاشتراكية -ففي استطلاع عام 1943، لم يذكرها إلا 3 بالمئة فقط من الأشخاص الذين أرادوا «تغييرات كبيرة» بعد الحرب- ولكنه كان مهتمًا بالمجتمع الأكثر عدلاً الذي كان حزب العمل يعد به في بيانه الرسمي «دعونا نواجه المستقبل الآن».

كانت خطة أورويل في أثناء تغطيته الانتخابات لصالح «الأوبزرفر» بعد عودته من باريس هي نقل آراء رجل الشارع العادي، لكن رجل الشارع العادي لم يكن متعاونًا. في الحانات وفي الحافلات، لم تحقِّق الانتخابات اهتمامًا يُذكر. «في مواجهة المخاطر المرعبة والفرص السياسية الذهبية، يواصل الناس المضي قدمًا فحسب، في نوع من فقدان الشعور»، هكذا قال متذمِّرًا. توقَّع أورويل، بسبب ضعف المعلومات الآتية من النشطاء المحبطين واستطلاعات الرأي غير الكافية، بأن حزب تشرشل ما زال سيفوز بأغلبية ضئيلة في الخامس من يوليو. لكن بدلًا من ذلك، فاز حزب العمل بـ 393 مقعدًا من أصل 640 مقعدًا، بزيادة تأييد غير مسبوقة قدرها 12 بالمئة. «كنت مخطئًا في عدة نقاط»، هكذا اعترف أورويل في تشريحه لـ«بارتيزان ريڤيو»، لكن «كل شخص آخر، على حد علمي، كان مخطئًا أيضًا». وشمل ذلك المنتصرين. في صباح اليوم التالي لظهور النتائج، أرسلت السفارة الأمريكية في لندن برقية إلى واشنطن لتقول «لم يفاجأ أحد أكثر من قادة حزب العمل». في نهاية «ذلك اليوم الغريب، الدرامي، الشبيه بالحلم»، غطَّت مراسلة صحيفة «ذا نيويوركر» في لندن، مولي بانتر داونز، الاحتفال في قاعة وستمنستر المركزية،

حيث غنَّى أعضاء حزب العمل نشيد «القدس»، وقدَّم رئيس الحزب هارولد لاسكي نفسه بمكر على أنه «الرئيس المؤقت لجهاز الجستابو الاشتراكي».

يمكن مسامحة أورويل عن فشله كخبير انتخابات. لكن خيبة الأمل الأكبر كانت حماسته الخافتة لحكومة استمرت في بذل مزيد من الجهود لجعل الاشتراكية الديموقراطية حقيقة واقعة أكثر من أيِّ إدارة عمَّالية قبل أو بعد ذلك. كانت اشتراكية أتلي وطنية وبراجماتية ومناهضة للإمبريالية ومعادية للاستالينية، ترتكز على «الآداب الأساسية للحياة» وإلى يوتوبيات وليم موريس وإدوارد بِلامي الودِّية التي قرأها في شبابه. لقد تردَّد صدى إصرار أتلي على ضرورة إعادة تشكيل الاشتراكية «وفقًا للعبقرية المحلية لشعب ذلك البلد» في مقال «الأسد واليونيكورن»، وتداخل جدول أعمال حزب العمل إلى حدٍّ كبير مع برنامج النقاط الست لهذا المقال.

ومع ذلك، كان أورويل قريبًا من اليسار العمَّالي وشاركه وجهة نظره القاتمة عن حُنكة أتلي السياسية. قال بيڤان، الذي كان يشغل منصب وزير الصحة، إن أتلي «يجلب إلى صراع السياسية العنيف، الحماس الفاتر لمباراة كريكيت صيفية كسول». أطلقت عليه مجلَّة «تريبيون» -في تحيَّة إلى إتش جي ويلز- لقب «الرجل الخفي». شبَّه أورويل نفسه ذات مرة زعيم حزب العمل بـ«سمكة ماتت حديثًا ولم يُتح لها الوقت للتصلب»، لذلك كان دمثًا نسبيًا الآن وهو يصف أتلي بأنه «باهت» ويفتقر إلى «الكاريزما التي

يحتاج إليها رجل الدولة في الوقت الحاضر».*[38] لكن حتَّى مع قلقه بشأن قدرة الحكومة على حلِّ المشكلات الهائلة في الديار وخارجها، فقد اعتقد أن انهيار الحزب المُفاجئ كان دليلًا مُرحَّبًا به على أن الشعب البريطاني لم يفقد عقله. كتب أورويل في المجلَّة الأمريكية «كومِّنتاري»: «كدليل على حيوية الديموقراطية، وقوَّة الشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية على التعايش من دون فوهرر، فإن نتيجة هذه الانتخابات يجب أن تثير الابتهاج، حتَّى لو فشل الرجال الذين جاءت بهم إلى السلطة فشلًا ذريعًا». لاحظ أورويل أن ملصقات وجه تشرشل الانتخابية كانت صغيرة إلى حدٍ مطمئِن مقارنةً بملصقات ستالين أو ديجول.

***

بينما كان لا يزال في أوروبا، قدَّم أورويل طلبًا في اللحظة الأخيرة إلى «سيكر آند واربورج» لتغيير كلمة واحدة في «مزرعة الحيوان» تصف الخنزير الأوتوقراطي نابليون، لعكس حقيقة أن ستالين لم يفر من موسكو عند تقدَّم الألمان. كتب قائلًا: «أدركت لتوِّي أن التعديل سيكون عادلًا لجي إس». ربَّما كان جوزيف ستالين طاغية مجرمًا، لكن هذا ليس سببًا كافيًا لنعته بالجبان. قال واربورج: «في نظري، تلقي هذه الجملة الواحدة قدرًا من الضوء على شخصية أورويل أكثر من أيِّ جملة أخرى».

زعم أورويل بعد ذلك بعامين أن الدافع وراء تأليف الكتاب

38-* ومع ذلك، أصبح أتلي من محبِّي أورويل. بعد وفاة تشرشل في عام 1965، كتب: «كان بعض الجنرالات في الميدان يظنُّون أنه مثل الأخ الأكبر في كتاب أورويل، يحملق فيهم من الجدران طوال الوقت».

يعود إلى الوقت الذي قضاه في إسبانيا الذي جعله مقتنعًا بأن «تدمير الأسطورة السوفيتية ضروري إذا أردنا إحياء الحركة الاشتراكية». والعكس صحيح. بعد أن رأى أورويل المثالية الثورية محطَّمة في برشلونة، اعتقد أنه من الضروري ابتكار بديل عملي للاستالينية. كان يعتقد أن المهمَّة ستتطلَّب كتابًا يمكن استيعابه عالميًا بأيِّ لغة.

على الرغم من بعض الحرية الإبداعية في السرد الزمني، فإن «مزرعة الحيوان» قصة رمزية دقيقة للتاريخ الروسي من الثورة إلى مؤتمر طهران. كل حيوان في الرواية يمثِّل فردًا أو نوعًا شائعًا من التفكير: نابليون هو ستالين، وسنوبول هو تروتسكي، والسيِّد فردريك هو هتلر، وهكذا. ومع ذلك، ففي الوقت نفسه، وعلى الرغم من طرافتها الكبيرة، فالقصَّة قادرة على إبكاء القارئ الذي لا يعرف شيئًا عن روسيا. كتب عنها جرهام جرين قائلًا: «إنها حكاية رمزية حزينة، وهي مؤشِّر على أن موهبة السيِّد أورويل الرفيعة بائسة حقًا وليست مجرَّد صدى منفصل عن الواقع لأخطاء البشر». عندما يُرسل بوكسر -الحصان الساذج المجتهد- إلى ساحة الموهوبين، فإن القارئ يبكي بوكسر ذاته، وليس رمزية البروليتاريا الروسية الذكية.

وصف أورويل مزرعة الحيوانات بأنها «نوع من الحكايات الخرافية... قصَّة رمزية بمدلول سياسي». كان يحب القصص الخرافية، وقد قدَّم معالجتين إذاعيتين لكلٍّ من «ملابس الإمبراطور الجديدة» و «ذات الرداء الأحمر» في الراديو، وفكَّر مليًا في تقديم «سندريلا»، التي كان يُعدُّها «الأروع». المأساة

في «مزرعة الحيوان» يمكن أن يستشعرها الأطفال بعمق: تحطُّم الآمال، وخيانة الخير، والكذب بلا عقاب. كانت مارجريت آتوود -في سنِّ تسع سنوات- واحدة من هؤلاء الأطفال. قالت متذكِّرة: «إذا قلت إن الكتاب أصابني بالذعر سيكون بخسًا له. كان مصير حيوانات المزرعة بائسًا جدًّا. كانت الخنازير لئيمة وكاذبة وغادرة، والخراف حمقاء. يتمتَّع الأطفال بحسٍّ عالٍ تجاه الظلم، وهذا أكثر ما أزعجني. لم تكن الخنازير عادلة على الإطلاق».

يمكن قراءة «مزرعة الحيوان» على أنها مقدِّمة تمهيدية لموضوع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: في البداية غُدر بالثورة، ثم انتصر الطغيان. على الرغم من وجود إشارات عابرة إلى حدوث ثورة وحرب أهلية في أوقيانيا بعد حرب نووية محدودة، لا يُوجد وصفٌ واضح لكيفية استيلاء حزب الإنجسوك على السلطة وتوطيد نفسه، لكن مزرعة الحيوانات تشير بقوَّة إلى كيفية حدوث الأمر، بافتراض أن سنوبول هو نسخة أصغر من «الساحر الشرير» جولدشتاين، الذي تحوَّل بفعل الارتياب الشديد إلى «كيانٍ خفي يملأ الأجواء من حولهم ويهدِّدهم بكل أنواع الأخطار». في الواقع، ألمحت مسوَّدة مبكِّرة من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إلى «مزرعة الحيوان» عن طريق جعل أوبريان يعقد مقارنة بين عدم احتمالية حدوث انتفاضة عوام و «الاحتمال النظري بأن الحيوانات قد تثور في يوم من الأيَّام ضد البشرية وتحتل الأرض».

يتشارك الكتابان أيضًا في الهوس بتآكل الذاكرة وفسادها. تظهر كلمة «تذكُّر» 110 مرَّة في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وكلمة «ذاكرة» 47 مرَّة، وكلمة «نسي» أو «طي النسيان» 46 مرَّة. وفي

حين أن التلاعُب بالماضي في أوقيانيا عملية صناعية مدروسية، ففي مزرعة الحيوانات يوصف الأمر بغموض غريب كما لو كان تعويذة سحرية: «كلهم تذكَّروا، أو ظنُّوا أنهم يتذكَّرون...»، وحده القارئ يستطيع أن يرى بجلاء كيف تُمحى ذكريات الحيوانات بالتدريج.

أوَّلًا، بتزوير الأدلة. عُدِّلت وصايا الثورة السبع تدريجيًا، واختزلت في النهاية إلى عبارة شهيرة تناقض نفسها: «جميع الحيوانات متساوية، لكن بعضها أكثر مساواة من غيرها». عندما احتجَّت الحيوانات الأخرى، يسأل ملازم نابليون، سكويلر: «هل أنتم متأكِّدون من أن هذا القول لم يكن شيئًا توهَّمتموه أيها الرفاق؟ ألديكم أيُّ وثيقة لهذا التصريح؟ هل هو مُدوَّن في أيِّ مكان؟». بالتأكيد ليس مُدوَّنًا، وبالتالي يجب أن يكونوا مخطئين. وإن كان لدى سكويلر إحصائيات «تثبت» أن الحياة صارت أفضل الآن، فلا بدَّ من أنها كذلك. يتذكَّر ونستون سميث أن الطائرات كانت موجودة في طفولته، لذلك لم يكن بوسع الحزب أن يخترعها، «لكن لا يمكنك إثبات أيِّ شيء. لا يُوجد أيُّ دليل على الإطلاق».

ثانيًا، بعصمة القائد من الخطأ. عندما أقسم بوكسر أن سنوبول كان بطل حرب وليس خائنًا طوال الوقت، يخبره سكويلر بأن نابليون هو المرجعية المطلقة. يقول بوكسر نادمًا: «آه، هذا مختلف! إذا قال الرفيق نابليون ذلك، فلا بُدَّ أنه صحيح». الشاعر الدعائي، الخنزير مينيموس، يمجِّده باعتباره شخصية إلهية (أو مثل الأخ الأكبر): «أنت تسهر لمراقبة الجميع، أيا الرفيق نابليون».

ثالثًا، باللغة. وحدهم الخنازير، «المفكِّرون»، يستطيعون الكتابة،

لذلك يتحكَّمون وحدهم في السرد. عندما يختزلون المفردات اللغوية (كما في عبارة «ذوات الأربع صالحة، وذوات القدمين طالحة»، وهو شكل بدائي من اللغة الجديدة)، فهم يضيِّقون أفق التفكير. الأفكار الأخرى تختنق بشعارات الخراف غير المفهومة، أو تستعصي على التعبير. تعرف الفرسة كلوفر أن هذا ليس ما حاربت الحيوانات وعملت من أجله «رغم افتقارها إلى الكلمات للتعبير عن ذلك». وبالمثل في اللغة الجديدة، لا يمكن التلفُّظ بالمعارضة لأن «الكلمات الضرورية لم تكن متاحة».

وفي النهاية، بالزمن. يرحل الثوار القدامى أو يموتون، بينما تولد حيوانات جديدة أو تُشترى: جيل جديد من من ذوات الأربع أشباه جليتكين من رواية «ظُلمة في كَبِد النهار» ليس لديه ما ينساه. يتنبَّأ ونستون سميث بأنه في غضون عشرين عامًا «لن تعود هناك إجابة على السؤال الهائل واليسير «هل الحياة قبل الثورة كانت أفضل مما هي عليه الآن؟»». ستكتمل الحرب على الذاكرة.

* * *

في يونيو عام 1945، أخبر أورويل واربورج بأنه كتب 12 صفحة من روايته الجديدة ووظَّف مدبِّرة منزل لمساعدته في الاعتناء بابنه ريتشارد. أحبَّت سوزان واتسون ربَّ عملها الجديد، وأشاد هو بحيويتها التي أعادت الضوء إلى منزلٍ كان مليئًا بالغبار بالحزن. كما أنه استمتع بكعكة الشوكولاتة التي تخبزها. تذكَّرت سوزان قائلة: «في مرَّة هبطت الكعكة من المنتصف، لكنه كان يحبُّها هابطة. كان يحب الأشياء التي تكون معيبة قليلًا».

بالتأكيد كان كذلك. في قرارة نفسه كان أورويل يرى أنه فاشل

ومهزوم داخليًا. لاحظ واربورغ أنه «لم يحب قط أن يكون مرتبطًا بأيِّ شيءٍ قوي جدًا أو ناجح جدًا». ومع ذلك، كان كثير من أصدقاء أورويل يعتقدون بأنه جاء الدنيا ليكون عظيمًا. في سبتمبر عام 1941، حضرت إنز هولدن غداءَ «مؤتمر القلم العالمي» مع آرثر كويستلر وسيريل كونولي وستيفي سميث، وراهن كويستلر بخمس زجاجات نبيذ عنَّابي أن أورويل سينشر أحد أكثر الكتب مبيعًا في غضون خمس سنوات.

ربح كويستلر الرهان قبل عام من انتهاء مهلة الرهان. باعت «مزرعة الحيوان: حكاية خرافية» المنشورة في 17 أغسطس جميع النسخ التي امتلكت دار «سيكر آند واربورج» الورق الكافي لطباعتها: ما يقرب من عشرين ألف نسخة. شعر أورويل بالفخر لأنه تمكَّن أخيرًا من دفع الفاتورة بعد تناول الغداء مع واربورج. لقد صُدِم مسرورًا -نظرًا لمعاناته في العثور على ناشر- من عاصفة المديح والثناء من النقَّاد، باستثناء «ديلي وركر» و «ذا نيو ستيتسمان» بالتأكيد. جلبت الترجمات الأجنبية مزيدًا من الإشادة، حتَّى لو كانت الكلمات الوحيدة التي استطاع أن يفهمها من بعض المراجعات هي سويفت وجليڤر. «فوجئت بردود الفعل غير الودية التي لم تنلها الرواية»، هكذا قال لمؤسس مجلَّة «بارتيزان ريڤيو»، فيليب راهف. كان مصدر شكوى أورويل الوحيد هو أن بعض المكتبات أخطأت بوضعها في قسم الأطفال، لذا أخذ على عاتقه مهمَّة نقل النسخ إلى مكانها الصحيح.

نجحت «مزرعة الحيوان» أيضًا مع أشخاصٍ لم يسع قط إلى إثارة إعجابهم. استعار ابن تشرشل، راندولف، نسخة، وقيل إن

الملكة قرأتها، ودعاه اللورد بيفربروك، قطب الصحافة اليميني المحارب الذي وصف أورويل سلوكه في عبارة مشهورة بأنه «أشبه بلعبة القرد الهائج على العصا إلى درجة لن تصدِّق أنها ممكنة من شخص لا يفعل ذلك عن عمد»، إلى العشاء. سرعان ما أُجبر أورويل على تذكير معجبيه بأنه كان في الواقع اشتراكيًا. عندما دعته دوقة آثول للتحدُّث في اجتماع «رابطة الحرية الأوروبية» ذات الميول اليمينية، أوضح أنه لا يستطيع احترام منظمة تدافع عن الحرية في أوروبا ولكن ليس في الهند. كتب إليها يقول: «أنا أنتمي إلى اليسار ويجب أن أعمل في إطاره، بقدر ما أكره الاستبداد الروسي وتأثيره السام على هذا البلد».

كان أورويل قد أخبر آيه چيه آير في باريس بأنه قلق بشأن إرضاء أعدائه السياسيين. أعرب وليم إمبسون عن مخاوف مماثلة في رسالة ودية: «يكمن خطر هذا النوع من الإتقان في العمل في أنه قد يعني أمورًا مختلفة جدًا لقرَّاء مختلفين. أعتقد أن الأمر يستحق تحذيرك. عليك توقُّع أن «يُساء فهمك» على نطاق واسع بسبب هذا الكتاب. الكتب بطبيعتها وسيط يحوي أكثر مما يقصده المؤلف، عندما يتعامل معها المؤلِّف بشكل جيد». كان مؤلف كتاب «سبعة أنواع من الغموض» محقًا تمامًا مرتين: لأن كل ما قاله عن «مزرعة الحيوان» سيكون قابلًا للتطبيق بشكل مضاعف على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

أثارت الإشادة بالرواية من التيار اليميني دهشة التيار اليساري، ويرجع ذلك في الغالب إلى عدم اليقين حيال ما كان

أورويل يقوله عن الثورة.*[39] اعتقد بعض أصدقاء محرِّر «بارتيزان ريفيو» السابق، دوايت ماكدونالد، في نيويورك أن رسالة الرواية تقول: «تبًا لهذا، وليحيَ الوضع الراهن». اتهم كينجسلي مارتن، خصم أورويل القديم، الأخير بأنه «بلغ استنفاد المثالية، واقترب من تفاهة السخرية»، ورأى المؤلف مجسَّدًا في شخصية بنيامين، الحمار العجوز العنيد الذي تشكِّل الحياة في نظره «جوعًا ومشقة وخيبة أمل» أيًا كان الشخص المسؤول. لكن بنيامين أشبه بأحد المحافظين المتشائمين أكثر من أورويل، الذي أوضح في مقاله عن كويستلر أنه يمكن للمرء أن يرفض إمكانية تحقيق الجنَّة على الأرض، من دون التخلي عن فكرة أنه يمكن تحسين الحياة.

جدير بالذكر أنه لا يوجد تجسيد للينين في «مزرعة الحيوان». من خلال وضع أفضل صفات لينين في الخنزير المتبصِّر أولد ميجور وأحقرها في نابليون، ترك أورويل تقديره للأمور غامضًا، على الرغم من أنه كتب بعد وقت قصير من نشر الكتاب أن «كل بذور الشر كانت موجودة منذ البداية، ولم تكن الأمور لتختلف إلى حدٍّ كبير لو ظلَّ لينين أو تروتسكي مسيطرين». ومع ذلك، فإن قراءة «مزرعة الحيوان» على أنها معادية للثورة لهو ببساطة تصوُّر أن أورويل كان يفضِّل السيِّد جونز. إن خطاب ميجور ملهم حقًا، ونشوة الحيوانات بعد الثورة لها ما يُسوِّغها. كتب أورويل عام 1948: «أكثر حقيقة مشجِّعة بشأن النشاط الثوري هي أنه على الرغم من فشله دائمًا، فهو يستمر دائمًا. رؤية عالمٍ يحيا

39–* اختلقت آين راند بطريقة ما أنها أساءت قراءة الرواية على أنها «أكثر تبشير جيَّاش العاطفة ومفرط في المشاعر قرأته عن الشيوعية منذ وقت طويل». (المؤلِّف)

فيه البشر أحرارًا ومتساوين في حالة من الأخوة لا تتجسَّد أبدًا، لكن الاعتقاد بها لا يبدو أنه يفنى».

من منظور أورويل، تأتي نقطة اللا عودة في القصة عندما تسمح الحيوانات الأخرى للخنازير باحتكار الحليب والتفاح، وهي واقعة تمثِّل سحق تمرُّد كرونشتادت عام 1921، آخر صمود للاشتراكية الديموقراطية في روسيا. «إذا ظن الناس أنني أدافع عن الوضع الراهن»، هكذا أخبر مكدونالد، «فهذا في رأيي لأنهم أصبحوا متشائمين ويفترضون أنه لا يُوجد بديل غير الديكتاتورية أو رأسمالية الحرية الاقتصادية الكاملة». لم تكن «مزرعة الحيوان» لتكون بنصف الأسى الذي يغلِّفها من دون معرفة أن الأمور كان يمكن أن تكون مختلفة.

***

نُشرت «مزرعة الحيوان» -بأعجوبة- في عالم ما بعد الحرب. كان أورويل قد كتب إلى ديفيد أستور من باريس في أبريل، متطوِّعًا للسفر إلى بورما في نوفمبر لتوثيق المراحل النهائية للحرب مع اليابان لصالح «ذا أوبزرفر»، لكن النهاية أتت أقرب ممَّا كان يتوقع. في 14 أغسطس، قبل ثلاثة أيَّام من نشر «مزرعة الحيوان»، كان أورويل في شارع فليت عندما انتشرت الأخبار بأن اليابان على وشك الاستسلام. مزَّق موظَّفو المكتب الأوراق، وأمطروا على المحتفلين في الشارع قصاصات ورق ملوَّنة. كان ردُّ فعل أورويل محتدًّا على نحو معاكس: «في إنجلترا لا يمكنك الحصول على ورق لطباعة الكتب، ولكن من الواضح أنه دائمًا ما تُوجد وفرة منه لهذا النوع من الأشياء».

لم يدم الابتهاج طويلًا. عززت خطَّة الترشيد، والنقص الحاد في المساكن، والتوقُّف المفاجئ للأموال المقترضة من الولايات المتَّحدة، إحساسًا واسع النطاق بالإحباط والكآبة. وجدت دراسة استقصائية أجريت في شهر يونيو أن واحدًا فقط من كل سبعة لندنيين كان «سعيدًا أو مبتهجًا» بنهاية الحرب، وأن 40 بالمئة يعانون القلق أو الاكتئاب. كتب أورويل في أحدث رسالة من «رسائل لندن»: «يبدو لي مزاج البلد العام أقل ثورية وأقل مثالية وأكثر يأسًا ممَّا كان عليه في عام 1940 أو 1942». كان محرجًا من اصطحاب إينياتسيو سيلون، الذي جاء لزيارته من إيطاليا، لتناول طعام الغداء في مثل هذه المدينة المليئة بالضياع، حتَّى أشار سيلون إلى أن الحال هنا أفضل كثيرًا من الحال في روما.

فِي «ذا نيويوركر»، كتبت مولي بانتر داونز أن البريطانيين متصالحون مع حقيقة حدوث «قصفٍ اقتصادي هائل»: «الشيء الوحيد الذي يبدو أنهم متأكِّدون منه تمامًا حاليًا هو أن الحياة في وقت السلم ستكون بنفس صعوبة الحياة في وقت الحرب». أيضًا لوَّثت آثار القنبلتين الذريتين اللتين ألقتهما الولايات المتَّحدة على هيروشيما وناجازاكي طعم النصر بالمرارة. كتبت بانتر داونز: «في إنجلترا، كما في كل مكان آخر، سقط ظلٌّ الطاقة الذرية على أعلام ورايات النصر وأرجف معظم القلوب، وصار مثل مسخ فرانكشتاين هائلًا محتملًا».

ظنَّ أورويل أن هذا التطوُّر الصادم جعل رواية سي إس لويس الجديدة «تلك القوَّة الشنيعة»، التي تحكي عن طائفة شريرة من العلماء يتآمرون لاستعباد العالم، «محورية تمامًا»، وجعل كتاب

إتش جي ويلز الأخير «العقل المستنزف» أكثر مصداقية ممَّا كان يمكن أن يكونه لولا ذلك. كتب أورويل في مراجعته: «ليست هذه لحظة يمكن للمرء فيها ببساطة تجاهل القول بأن البشرية محكوم عليها بالهلاك. قد يكون هذا مصيرها إلى حدٍّ كبير».

في مقال بعيد النظر نشرته «تريبيون» بعنوان «أنت والقنبلة الذرية»، اقترح أورويل أن هذا هو السلاح الذي قد يثبت أن بيرنام كان على حق في نهاية المطاف، عن طريق وضع الولايات المتَّحدة والاتِّحاد السوفيتي (بمجرَّد أن يطوُّر قنبلته الخاصة) في مأزق طويل تتنازعه الريبة. صار الآن قادرًا على تصوُّر «النظرة إلى العالم والمعتقدات والبنية الاجتماعية التي من المحتمل أن تسود في دولة لا يمكن أن تُقهر، وفي الوقت نفسه تحيا في حالة "حرب باردة" دائمة مع جيرانها». إن المواجهة النووية الطفيفة في خلفية أحداث «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لأقل إقناعًا بكثير من وجهة نظر أورويل بعدها بعامين، التي رأت أن «الخوف المُستوحى من القنبلة الذرية والأسلحة الأخرى القادمة سيكون هائلًا إلى درجة ستمنع الجميع من استخدامها». بعد أن ابتكر مصطلح «الحرب الباردة»، توقَّع أورويل أيضًا عقيدة الدمار المتبادل.

في خضم ضائقة ما بعد الحرب، شعر أصدقاء أورويل أنه بدا أكثر هزالًا وضعفًا من المعتاد. كان في أمسِّ الحاجة إلى تغيير. طوال خمس سنوات وهو يحلم بأن ينعزل على إحدى جزر أرخبيل هبريدس. اقترح عليه ديفيد أستور ذو العلاقات الجيدة جزيرة جورا ضمن جزر هبريدس الداخلية، حيث كان يمتلك ضيعة. كان لورد جورا، روبن فليتشر، وزوجته مارجريت، يمتلكان مزرعة نائية

اسمها بارنهيل كانت بحاجة إلى مستأجر لإنقاذها من الخراب. كان أورويل يخطِّط للانتقال إلى هناك بينما كانت آيلين لا تزال على قيد الحياة. في شهر سبتمبر من ذلك العام، قطع أورويل الرحلة الطويلة إلى الشمال بمفرده، وأمضى أوَّل أسبوعين له في المنزل الذي سيكتب فيه «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».



الفصل الثَّامن

كل الكُتُب فاشلة

أورويل من 1946 إلى 1948

«كان تسويد الورق فعلًا حاسمًا».

چورچ أورويل، «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

قال أورويل ذات مرَّة: إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» «لم تكن لتكون قاتمة جدًّا لو لم أكن مريضًا جدًّا». تشير الأدلة إلى خلاف ذلك. في أيَّام عام 1945 الأخيرة، فوجئ قرَّاء «تريبيون» بمقال مُحبط بعنوان «تقويم چورچ القديم». صُمِّم العنوان ليكون تنويعة شبه هزلية على توقُّعات أورويل لعام 1946، التي تضمنت حدوث كارثة اقتصادية، وعودة الفاشية، «وحروب أهلية، واعتداءات بالقنابل، وإعدامات علنية، ومجاعات، وأوبئة وصحوات دينية». سنة جديدة سعيدة! أنهى أورويل كلامه: «قد يكون هناك اعتراض على أن توقُّعاتي قاتمة جدًّا. لكن أهي كذلك؟ أتخيَّل أنه سيتضح أنني كنت مفرطًا في التفاؤل وليس العكس». بعد أن أنهى غداءً مع أورويل في نفس تلك الفترة تقريبًا، صاح الشاعر والناقد هربرت ريد، الذي لم يكن متفائلًا هو نفسه: «يا إلهي، إن أورويل لنذير شؤم!». تعطي الطرفة انطباعًا بأن أورويل كان أتعس رجل في لندن، لكنه لم يكن يحتكر التشاؤم. في مقدِّمته لطبعة عام 1946 من رواية «عالم جديد شجاع»، تنبَّأ ألدوس هكسلي بتفشِّي الشمولية في جميع أنحاء العالم، وبأنها ستستدرج الشعوب إلى

العبودية بالمخدرات والتحرُّر الجنسي والهندسة الوراثية. وقرَّر أن العدَّ التنازلي في روايته لتحقُّق الديستوبيا -الذي يصل إلى ستمئة عام- كان ورديًا جدًا: «اليوم يبدو من الممكن جدًا أن يحلَّ الرعب علينا في غضون قرن واحد. هذا إذا لم ندمِّر حضارتنا إلى شظايا خلال هذه المدَّة». في نفس العام، كتب ألبير كامو: «قرننا العشرين هو قرن الخوف».

وهذا يعني أن أورويل كان يضخِّم إحساس القلق واسع الانتشار من الحرب الذرِّية أكثر من كونه يُسقط عذابه الشخصي الغريب على العالم. أو كما كتب في إحدى «رسائل لندن» عام 1946: «لا أعرف شخصًا ذا عقل يحمل أيَّ صورة متفائلة للمستقبل». بسبب كل ذلك، ظلَّ رفيقًا ممتازًا. وصفه مايكل ماير، أحد رفاقه في الغداء، بأنه «أكثر متحدِّثٍ سياسي اطِّلاعًا وتنويرًا التقيت به على الإطلاق. كانت محادثاته أشبه بكتاباته؛ غير متأثِّرة وواضحة وذكية وإنسانية». وتذكَّر كاتبٌ آخر، هو كريستوفر سايكس، أنهما كلَّما التقيا «كنا نتحدَّث في موضوعات سوداوية، وكان يُحلِّي يومي».

***

اتَّسم نشاط أورويل بعد الحرب بنوع من الجنون. ربَّما كانت هذه آخر عربدة له بصفته صحفيًا متفرِّغًا ولندنيًا، أو ربَّما كان يملأ أيَّامه إلى حافتها حتَّى لا يترك مساحة للحزن. انكبَّ على العمل كالعبيد وانخرط في المجتمع بشكل لم يسبق له مثيل: راح يشرب الشاي في ساحة كانونبيري مع أصدقاء قدامى مثل فيڤل وبوتس، ويتناول الغداء في شارع فليت مع معارف أدبيين مثل

مالكوم موجريدج وچوليان سيمونز وأنتوني باول: أوَّل مجموعة من الأصدقاء تعرفه باسم چورج فقط، دون معرفة اسمه الحقيقي إريك قط. على الرغم من أنه كان يعلّي من شأن رجل الشارع العادي دائمًا، قضى أورويل معظم وقته مع رجال غير عاديين. تذكَّر موجريدج مأدبة غداء مفعمة بالحيوية مع أورويل وسيمونز وكاتب آخر قائلًا: «كنا جميعًا مناهضين للشيوعية، ولكن لأسباب مختلفة، ومن المثير للاهتمام كيف كنا نختلف في اتفاقنا».

على الرغم من كرهه للمجموعات واللجان، وافق أورويل على أن يصبح نائب رئيس لجنة «الدفاع عن الحرية» التابعة لچورج وودكوك، والتي شنَّ مؤيِّدوها المتنوِّعون سياسيًّا، ومنهم إي إم فورستر وتي إس إليوت وبرتراند راسل وڤيكتور جولانش، حملة تطالب بالعفو عن أيِّ شخص أُدين بموجب قوانين زمن الحرب الوحشية، سواء كانوا أناركيين أو شيوعيين أو فاشيين. اتَّهم أحد قُرَّاء «تريبيون» أورويل بأنه يعاني «انجذابًا قهريًا نحو القضايا التي لا تحظى بشعبية لمجرَّد افتقارها إلى الشعبية»، لكنه تمسَّك لسنوات بالرأي القائل بأن بعض الممارسات صحيحة أو خاطئة في المطلق بغض النظر عمَّن يفعلها. كان يعتقد أنك إذا قمعت حقوق أعدائك السياسيين، فتأكَّد من أنهم سيقمعون حقوقك في يوم من الأيَّام. لذلك كان فخورًا بقول إنه في أثناء الحرب دافع عن حقوق كلٍّ من أوزوالد موزلي (بمجرَّد ما انعدمت خطورته) وجريدة «ذا ديلي ووركر» على الرغم من كرهه الشديد لكليهما. أو كما قال لوودكوك: «لا ينبغي اضطهاد أحدٍ بسبب تعبيره عن

آرائه مهما كانت معادية للمجتمع، ولا قمع أيِّ منظَّمة سياسية ما لم يكن من الممكن إثبات أنها تشكِّل تهديدًا كبيرًا على استقرار الدولة».*[40]

حاول أورويل أيضًا ملء الفجوة العاطفية التي خلَّفها موت آيلين بسلسلة من عروض الزواج غير الملاءمة لنساء أصغر سنًّا: سيليا باجيت، الأخت التوأم لشريكة كويستلر مامين وابنة عم إنز هولدن؛ سونيا براونيل، تلميذة سيريل كونولي المفضَّلة في مجلَّة «هورايزون»؛ وآن بوبام، المؤرِّخة الفنية التي تعيش في الطابق السفلي. «المشكلة أنني أشعر بوحدة مريعة أحيانًا»، هكذا أخبر بوبام وهو يعتذر عمَّا سبَّبه لها من إحراج. «لديَّ مئات الأصدقاء، لكن لا يُوجد بينهم امرأة تهتم بأمري وقادرة على تشجيعي». إذا كان هذا القول يبدو أنه يفتقر إلى الرومانسية، فهو في غاية الرقة عند مقارنته بطلب الزواج الواقعي الكئيب في رسالته التالية: «ما أطلبه حقًّا هو ما إذا كنت ترغبين في أن تكوني أرملة أديب». غني عن القول أن بوبام لم تقع في شراك هواه.

حسنًا، لنستأنف العمل. كان أورويل ينشر في المتوسِّط مقالين أو ثلاثة في الأسبوع في أكثر من ستَّة مطبوعات. تطلَّب الأمر أن يسعل دمًا بسبب مرضِ السُّلِّ غير المشخَّص بعد كي يأخذ إجازة لمدَّة أسبوع في فبراير. احتوت معظم رسائله على بعض الشكوى

40-* كان أوريل أقل صرامة بشأن العقوبات غير الرسمية. عندما شُوِّهت سمعة عزرا باوند بسبب بثوثه الإذاعية الشرسة المعادية للسامية والموالية للفاشية في وقت الحرب، لم يقفز أورويل للدفاع عنه: «ليست معاداة السامية معتقدًا راشدًا. يجب على من يعتنقون مثل هذه الأفكار تحمُّل العواقب». (المؤلِّف)

من أعباء العمل («أختنق بالصحافة»، على حدِّ تعبيره)، وتضمَّنت أيضًا تعهُّدًا بالتخلي عن كل شيء والتركيز على كتابه.

عند قراءة كل ما كتبه أورويل بين أكتوبر 1945 ومايو 1946، تُراود العقل خاطرتان. الأولى هي أن أسلوبه قد نضج إلى درجة أن كتابات قليلة جدًا له تُظهر علامات على الإجهاد أو التسرُّع. والأخرى هي أن كل شيءٍ تقريبًا، عند التفكير بأثر رجعي، يبدو بطريقة أو بأخرى وثيق الصلة بـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وصولًا إلى عبارات وصور بعينها. لم يكن يستحي من استخدام الجملة الجيِّدة مرَّتين.

كان الكتاب قد احتل موقعًا دائمًا في رأسه. قال چورج وودكوك متذكِّرًا: «في مختلف مناسبات الغداء والعشاء ومجالس الشاي وجلسات الشراب السريعة في الحانات والصالونات، سمعت منه شروحات لكل فكرة ظهرت في "ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون" تقريبًا. ورغم ذلك، لم أملك أدنى فكرة عن حبكة الرواية إلى أن رأت النور».

لم يستطع أورويل منع نفسه من الإسهاب في شرح التداعيات السيِّئة لأيِّ تطوُّر اجتماعي جديد. كان قلقًا من أن تتحوَّل المجمَّعات السكنية التي يحتاج إليها المجتمع بشدَّة والتي بدأت تظهر في جميع أنحاء البلاد إلى «مستعمرات لتوفير العمالة سيفقد فيها [الناس] جزءًا كبيرًا من خصوصياتهم»، ووصف مخيَّمات العطلات مثل مخيَّم بوتلين كأنها دول بوليسية توفِّر نوعًا من الاستجمام الجماعي القسري والتمارين الصارمة مثل التي يعاني منها ونستون في آيرستريب وان. «لا ينفرد المرء بنفسه

علـى الإطـلاق»، هكـذا اشـتكى الرجـل الـذي رأى أن الخصوصيـة والعزلـة حقًـا مـن حقـوق الإنسـان الأسـاسية. في مقـال «منـع الأدب»، وهـو خلاصـة رائعـة لأفـكاره حـول الفـن والسياسـة وحاجـة الشـمولية الأسـاسية إلـى الأكاذيـب، اسـتخدم أفـلام الرسـوم المتحركـة التـي تنتجهـا ديزنـي كمثـال لتوضيـح «عمليـة التصنيـع» التـي يمكـن مـن خلالهـا إنتـاج الترفيـه الجماهيـري بعمليـة ميكانيكيـة فـي المسـتقبل. قـد يكـون المثـال غيـر عـادل لرسَّـامي الرسـوم المتحركـة، لكنـه قـاده إلـى ابتـكار إدارة الخيـال فـي وزارة الحقيقـة.

وعلـى العكـس مـن ذلـك، فـإن مقالاتـه الصغيـرة الأنيقـة حـول فنجـان الشـاي المثالـي والحانـة المثاليـة وسـحر تأمُّـل عمليـة تـزاوج الضفـادع، عبَّـرت كلهـا عـن قيـم تسـتحق الانتـزاع مـن بيـن فكَّـي السياسـة: «تتراكـم القنابـل الذريـة فـي المصانـع، ويجـوب رجـال الشـرطة المـدن، وتتدفَّـق الأكاذيـب مـن مكبِّـرات الصـوت، لكـن الأرض مـا زالـت تـدور حـول الشـمس، وليـس فـي اسـتطاعة الطغـاة ولا البيروقراطييـن تقييـد تلـك العمليـة لاختلافهـم معهـا». يبـدو وصـف أورويـل لمتجـر خـردة نموذجـي فـي العمـود الصحفـي الـذي يكتبـه لجريـدة «إيفنينـج سـتاندارد» كأنـه مخطَّـط تفصيلـي لحانـوت السـيِّد تشـارنجتون، ويتضمَّـن ثقَّالـة الـورق المرجانيـة التـي يحتفـظ بهـا ونسـتون سـميث –مثـل قلـم الحبـر أو اسـم شكسـبير أو أغنيـة «برتقـال وليمـون» – كدليـل دامـغ علـى شـكل الحيـاة قبـل حـزب الإنجوسـك.

كانـت كل الخيـوط تتجمَّـع. شـهد مقـال «أمـام أنفـك» رسـم أورويـل لخارطـة عمليـة التفكيـر المـزدوج، أو «الفصـام» السياسـي: «إنـه القـدرة علـى التمسُّـك بمعتقديـن يلغـي كل منهمـا الآخـر فـي

الآن ذاته، وترتبط بها بشكل وثيق القدرة على تجاهل الحقائق الواضحة وغير القابلة للتغيير التي يجب مواجهتها عاجلًا أم آجلًا». حتَّى أن أورويل لاحظ أنه عند ثبوت خطأ الشخص، فهو يميل إلى لوي ذراع الحقائق، أو دفن آرائه السابقة، للإيحاء بأنه كان على حق طوال الوقت. «إن رؤية ما هو أمام أنف المرء لهو جهاد مستمر». كان أورويل يدرس الطرق التي يكذب بها الناس على أنفسهم بالفعل، من دون الحاجة إلى دولة شمولية لإجبارهم على ذلك. يحتاج الطغيان إلى متواطئين.

لاحظ وودكوك أن اهتمامًا آخر من اهتمامات أورويل كان «الطريقة التي ضعف بها الاهتمام بالحرية والحقيقة في الوجدان الجمعي». في مقال «حرية الحديقة»، لفت أورويل انتباه قُرَّاء «تريبيون» إلى اعتقال خمسة أشخاص بتهمة عرقلة سير العدالة لبيع صحف سلمية خارج حديقة هايد بارك، وهي واقعة يسيرة لكنها تذكير ينذر بسوءٍ يميل مواطنو الديموقراطيات الناضجة إلى نسيانه: «الفكرة المهمَّة هي أن الحرية النسبية التي نتمتع بها تعتمد على الرأي العام. القانون لا يمثِّل حماية». إن الحجَّة القائلة بأن الناس لن يتمتَّعوا بحرية التعبير -أو أيِّ حرية أخرى- إلا إذا كانوا مهتمِّين بما يكفي للمطالبة بها، هي الفلسفة التي استند إليها مفهوم العوام في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، الذين تحت أيديهم قوَّة هائلة لكنهم يفشلون في استخدامها.

إذا كانت حرية التعبير حقًّا أصيلًا، فإن جودة ذلك التعبير مهمَّة أيضًا. نُشِر مقال أورويل «السياسة واللغة الإنجليزية» في مجلَّة «هورايزون» لتعليم أجيالٍ من التلاميذ كيفية الكتابة

بوضوح. كي نكون صادقين، فإن المقال مشوَّش إلى حدٍ ما، ويخلط بعض الأمثلة القوية على «الغش والانحرافات» في النثر الأدبي السيِّئ مع مجموعة متنوِّعة غريبة من العقد النفسية. حتَّى العلاقة بين تدهور السياسة وفساد اللغة ليست بهذه البساطة كما يقول: فيمكنك الكذب بكلمات تتكَّون من مقطع لفظي واحد (مثل «الحربُ سلامٌ») وإلقاء الضوء على حقيقة عظيمة بصيغة مستهلكة. لكن الشيء المفقود من المقال هو تواضع أورويل غالبًا. إنه يعترف بأن «قواعده» -أو بالأحرى تطلُّعاته- ليست مُلزِمة، وعلى أيِّ حال فهو يخالف بعضًا منها في نفس المقال. ومع ذلك، لا يوافق سوى قلَّة قليلة على أن «الالتزام بالأرثوذكسية -بجميع معانيها- يبدو كأنه يتطلَّب أسلوبًا منحولًا بلا روح»، أو أن التفكير بعمق في الكلمات التي تستخدمها سيصقل أفكارك. فقط بإزالة الحطام اللفظي، يمكنك أن تفهم بوضوح ليس فقط ما تفكِّر فيه ولكن كيف تفكر. الهدف هو أن تكتب بطريقة لا يمكنك أن تكذب بها على نفسك من دون أن تدرك تمامًا أنك تفعل ذلك.

بشكلٍ مفيد، بلور مقال «لماذا أكتب؟» -الذي كتبه بطلب من مجلَّة «جانجرل» الأدبية صاحبة العمر القصير- أولويات أورويل عندما كان يستعد لكتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». احتجَّ أورويل بأن أربعة محرِّكات رئيسية تتنافس على السيادة في ذهن كل مؤلف: الأنا، والحسُّ الجمالي، والدافع التاريخي، والهدف السياسي. ووصل إلى أن أفضل أعماله منذ عام 1936 قد حفَّزها رابع هذه المحرِّكات. إنه يكتب لأن «ثمَّة بعض الأكاذيب التي

أرغب في كشفها، وبعض الحقائق التي أريد أن ألفت الانتباه إليها، واهتمامي الأولي هو أن أجد من يسمع». من دون رسالة تشحذ قلمه، تصبح كتاباته هُراء لا حياة فيه، وهو يعد أن روايته التالية تحمل رسالة. «حتمًا ستفشل، ففي النهاية، كل الكُتُب فاشلة، لكنني أعرف ببعض الوضوح طبيعة الكتاب الذي أريد كتابته».

كشف آخر عملين صحفيين قدَّمهما أورويل قبل توقُّفه عن رغبة في التغيير. مقالان جميلان عن إيلاء اهتمام بالغ بالطبيعة تناقضا مع مقال سخريته مريرة عن روتين مراجعة الكتب الطاحن. في الرسالة الأخيرة من «رسائل لندن»، ألمح إلى أنه على الرغم من قدوم الربيع، فإن لندن تبدو «رثَّة وقذرة أكثر من أيِّ وقت مضى». كان الوقت الذهاب قد حان.

***

تأخَّرت رحلة أورويل إلى چورا بسبب وفاة أخته الكبرى مارچوري غير المتوقعة نتيجة لمرض في الكلى في الثَّالث من مايو. في ما يزيد قليلًا عن ثلاث سنوات، فقد والدته وزوجته وأخته. وصل أورويل أخيرًا برفقة أخته الصغرى أفريل إلى الجزيرة في نهاية الشهر.

كانت چورا هي المكان الذي ترسَّخت فيه أسطورة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: تلك الصورة القاهرة لرجل حزين ومريض حبس نفسه على صخرة مهجورة في بحرٍ مضطرب، وعاش في حالة من اليأس المعذِّب بشأن مستقبله ومستقبل العالم، حيث كتب الكتاب الذي قتله. من بين أمور أخرى، تسيء

هـذه الصـورة المبتذلـة إلـى چـورا التـي تتمتـع بمنـاخ معتـدل (لكـن رطـب) وجمـال بكـر مذهـل. تقـع بارنهيـل فـي الطـرف الشـمالي مـن الجزيـرة التـي يقل عـدد سـكانها عـن ثلاثمئـة نسـمة، وكانـت بالتأكيـد بعيـدة: تبعـد أحـد عشـر كيلومتـرًا وعـرًا مـن أردلوسـا أقـرب القـرى إليهـا، واثنيـن وثلاثيـن كيلومتـرًا آخـر مـن مسـتوطنة كريجهـاوس الرئيسـة. لـم يكـن بيـت المزرعـة المجهَّـز فـي عجالـة والمكوَّن مـن أربـع غـرف نـوم مـزوَّدًا بهاتـف أو خدمـة بريديـة، وكانـت إمـدادات الميـاه والوقـود لا يمكـن الاعتمـاد عليهـا. كان أقـرب مستشـفى فـي جلاسـكو، والوصـول إليـه يتطلَّـب سيَّارة أجـرة وقاربيـن وحافلة ورحلة قطـار؛ مـا جعـل چـورا اختيـارًا أرعـن لرجـل مريـض. ومـع ذلـك أحبهـا أورويـل، خاصـةً بعـد وصـول سـوزان واتسـون مـع ريتشـارد. بالنسـبة إلـى شـخصية زاهـدة كهـذه، كانـت شِـدَّة المحنـة بالتأكيـد جـزءًا مـن الفتنـة. كانـت چـورا توفِّـر الحيـاة التـي طلبتهـا بهـا آيليـن فـي رسـائلها الأخيـرة: الهـواء النقـي والعائلـة والأدب.

لـم يرغـب أورويـل فـي أن يصبـح ناسـكًا، وقـد وجَّـه دعـوات زيـارة إلـى عـددٍ مـن أصدقائـه. كان مـن بيـن الذيـن قامـوا بالرحلـة الطويلة، الكاتـب الهنـدي مُلـك راج أنانـد، الـذي كان يعرفـه مـن هيئـة الإذاعـة البريطانيـة، وإنـز هولـدن، التـي جـاءت مباشـرةً بعـد تغطيـة محاكمـات نورمبـرج. عقـد أورويـل صداقـة مـع مالـك المنـزل روبـن فليتشـر، الـذي أخبـره عـن تجاربـه فـي معسـكر اعتقـالٍ يابانـي. مكـث بـول بوتـس -الشـاعر الـذي كان رفيقًـا منتظمًـا لـه فـي حانـات إزلينجتـون- لبضعـة أشـهر، قبـل أن يغـادر غاضبًـا بعدمـا اسـتخدمت سـوزان واتسـون بطريـق الخطـأ أحـدث مخطوطاتـه لإشـعال النـار. كان عشـيق

واتسون ضيفًا آخر صعبًا، وهو جندي سابق وشيوعي شاب يُدعى ديڤيد هولبروك، وجد أورويل «عجوزًا تافهًا وبائسًا... كان من المزعج رؤية هذا الرجل يتنصَّل من الإنسانية ويتدفَّق منه هذا القنوط المرير».

لكن هذا ليس الانطباع الذي تأخذه من رسائل ومذكِّرات أورويل، التي كتب فيها عن استمتاعه بدور ابن الطبيعة الجديد الذي يلعبه: زراعة الفاكهة والخضروات، واصطياد الأرانب، وتربية الإوز، وصيد الماكريل والبولوك والكركند. حتَّى أنه ربَّى خنزيرًا في مرحلة ما، على الرغم من أنه أكَّد رأيه الوضيع في «مزرعة الحيوانات» بأنها «حيوانات مزعجة وتخريبية تمامًا، يصعب منعها من الخروج إلى أيِّ مكان لأنها قوية وماكرة جدًا». أخبر أورويل أصدقاءه بأن موقعه البعيد واستقلاليته الغذائية ستكون مفيدة في حالة الحرب النووية، لأن چورا «لا تستحق ثمن القنبلة». لم يكن يبدو كأنه يمزح.

أما بخصوص الرواية التي كان يحترق شوقًا للبدء فيها، فبعد تحرُّره من مطحنة الصحافة، وجد أورويل أنه لا يريد أن يكتب شيئًا على الإطلاق. لا شك أن المصابين بداء المماطلة المزمن سيستمتعون بسلسلة الرسائل التي يشرح فيها أورويل بسعادة لماذا لم يبدأ بعد في الرواية وأنه أجل تاريخ الانتهاء منها إلى نهاية عام 1947 على أقرب تقدير. لم يكشف حتَّى نهاية سبتمبر، في رسالة إلى رئيس تحرير مجلَّة «بوليمك» همفري سلاتر، أنه وضع الحبر أخيرًا على الورق: «لقد بدأت روايتي التي تحكي عن المستقبل أخيرًا، لكنني كتبت نحو 50 صفحة فقط، ووحده

الـرب يعلـم متـى سـأنتهي منهـا. علـى أيِّ حـال، إنهـا بدايـة شـيء علـى الأقـل». عندمـا كان يشـعر بتحسُّـن ويكـون الطقـس لطيفًـا، كان يعمـل فـي غرفـة الجلـوس. عـدا ذلـك، كان يكتـب فـي غرفـة نومـه وسـط ضبـاب دخـان السـجائر وأبخـرة شـمع البارافيـن. مـن المحتمـل أن يكـون أوَّل مـن قـرأ شـذرات مـن «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» همـا واتسـون وهولبـروك، اللـذان كانـا يتسـلَّلان إلـى غرفتـه لقـراءة بضـع صفحـات. «بـدت أنـا تفتقـر إلـى الأمـل بشـكل محبـط، مثـل نظرتـه إلـى كل شـيء»، هكـذا كان تقييـم هولبـروك الحاسـد. علـى الأرجـح، تضمَّـنت تلـك الصفحـات الأولـى مسـوَّدة كتـاب جولدشـتاين الأولـى. قـد يجـد بعـض القـراء هـذا الجـزء طويـلًا إلـى درجـة عسـيرة الهضـم، لكنـه يفسِّـر الأسـباب التـي دفعـت أورويـل إلـى كتابـة الروايـة فـي المقـام الأول. كانـت الأفـكار، وليـس الحبكـة، مدخلـه.

المقـال الوحيـد الـذي تمكَّـن أورويـل مـن إكمالـه فـي ذلـك الصيـف يشـير إلـى أنـه كان يتعامـل مـع مشـكلات نشـأت بسـبب الروايـة. جـاء عنـوان مقـال «السياسـة مقابـل الأدب: تدبُّـر "رحـلات جليڤـر"» مـن التنافـر بيـن خـلاف أورويـل الأساسـي مـع سـويفت والمتعـة التـي اسـتمدَّها مـن «رحـلات جليڤـر». كان يـراه كارهًـا للبشـر ورجعيًّـا، وقـال إنـه «واحـد مـن أولئـك مـن النـاس الذيـن يميلـون إلـى نـوع منحـرف مـن التقليديـة المحافظـة بسـبب حماقـات القطـاع التقدُّمـي مـن الحركـة». كان كتـاب أورويـل «المقـالات النقديـة» الـذي نُشـر فـي أوائـل عـام 1947 مولعًـا بهـذه الفكـرة. ظـلَّ أورويـل يـرى أن حقيقـة كـون كيبلينـج إمبرياليًّـا فظًّـا، وكـون ييتـس مؤيِّـدًا للفاشـية، وكـون دالـي مجنونًـا، لـم تقلـل مـن جـودة أعمالهـم. لكـن مثـل هـذه الحقائـق لا

يمكن إهمالها في الوقت نفسه: «ينبغي للمرء أن يكون قادرًا على التمسُّك في عقله بحقيقتين: أن دالي رسَّامٌ جيِّد وإنسانٌ مثير للاشمئزاز في الوقت نفسه. وإحدى تينك الحقيقتين لا تبطل أو تؤثِّر على الأخرى في المجمل». كتب أورويل لاحقًا أنه عندما تتعارض القيم السياسية أو الأخلاقية مع الأحكام الأدبية، فمن المغري قول: «هذا الكتاب في صفِّي، وبالتالي يجب أن أجد مزايا فيه». وعلى العكس من ذلك، يجب التقليل من مزايا الكتاب الذي ليس في صفِّك. حاد أورويل عن الصراط ليفعل العكس. كان واجبه النقدي هو التصريح بحكمه الأخلاقي والجمالي بصراحة لا تستحي، وعدم الخلط بين الاثنين. خلص أورويل إلى أن سويفت ينجذب إلى الجانب المظلم من الطبيعة البشرية الذي يميل إلى الظنِّ بأن البشرية غارقة في مستنقع من الفساد والحماقة والقذارة، ويسعده تعرُّضها للأسوأ، ما دام أن ذلك الأسوأ مؤقَّت فقط. ما وصفه سويفت كان بعيدًا عن الحقيقة الكاملة لكنه لم يكن كذبًا. هذا ما كان عالقًا في ذهن أورويل في أوَّل صيف له في جورا: الأسلوب الساخر المتمثِّل في «انتقاء حقيقة مخفية واحدة ثم تضخيمها وتشويهها». نعم، هذا يمكن أن ينجح.

***

مات إتش جي ويلز وحيدًا في منزله في 13 أغسطس عام 1946، قبل بضعة أسابيع من عيد ميلاده الثمانين. في مقاله المرح «نعيي الذاتي» قبل سنوات قليلة، تخيَّل نفسه يُعامل بخشونة من الفاشيين في عام 1948 وتسجنه «الديكتاتورية الشيوعية الوجيزة لعام 1952» قبل أن يموت في عام 1963. لكن مرَّة أخرى، كان للتاريخ رأيٌ آخر.

في اليوم التالي، نشرت جريدة «مانشستر إيڤنينج نيوز» نعيًا قدَّمه أورويل قبل تسعة أشهر. على الرغم من أن النعي كان أشبه بإعادة تصحيح مخيِّبة للآمال لأحكامه السابقة بأن العقود التي قضاها ويلز في التبشير بدولة عالمية طمست روعة رواياته المبكرة، فقد كشف عن دماثة واحترام لم يتعكَّرا بعلاقته المؤسفة بويلز: «كان شخصية هائلة لعبت دورًا عظيمًا في تشكيل رؤيتنا للعالم، إلى درجة أننا -في خضم اتِّفاقنا أو اختلافنا مع أفكاره- نميل إلى نسيان إنجازه الأدبي البحت».

في مقدِّمته الكوميدية القصيرة لطبعة عام 1941 من رواية «الحرب الجوِّية»، اقترح ويلز الكلمات التي يريد أن تُوضع على شاهد قبره: «سبق أن حذَّرتكم، أيها الحمقى الملاعين».

***

عندما عاد أورويل إلى لندن لقضاء فصل الشتاء، ابتسم له إله المال أخيرًا عبر المحيط الأطلسي. «يوجد في الولايات المتَّحدة كثير من المال وكثير من الأوراق وكثير من أوقات الفراغ»، هكذا كتب لاحقًا في دراسة استقصائية للأدب الأمريكي، وكان ذلك خبرًا جيدًا للطبعة الأمريكية من «مزرعة الحيوان». طُبِع من الطبعة الأولى 50 ألف نسخة، وهذا أكثر بعشرة أضعاف من طبعة واربورج. وطبع «نادي كتاب الشهر»، الذي اختار الرواية في سبتمبر عام 1946، ما مجموعه 540 ألف نسخة. وصفها أحد أعضاء لجنة النادي بأنها «المعادل العصري لرواية "كوخ العم توم"»، وهذه مجاملة متباينة في نظر أورويل الذي قال عن رواية ستو إنها «كتاب سيِّئ جيِّد» مثير للمشاعر والسخرية في الوقت

نفسه. قارنها إدموند ويلسون في «ذا نيويوركر» بشكل إيجابي بكتابات ڤولتير وسويفت، على الرغم من أن چورج سولي في «ذا نيو ريبابليك» اعتقد أن أورويل كان كالسمكة خارج الماء: «لا تتعامل السخرية في الرواية مع شيءٍ اختبره المؤلِّف، بل مع أفكار نمطية مقولبة عن بلدٍ ربَّما لا يعرفه جيدًا... يجب أن يحاول مرَّة أخرى، وهذه المرة بأجواء أقرب إلى الديار». لم يتَّفق الشعب الأمريكي مع هذا الرأي، فقد احتلَّت «مزرعة الحيوان» رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعًا طوال ثمانية أسابيع.

اعتاد أورويل على كسب أقل القليل إلى درجة أنه لم يكلِّف نفسه عناء فتح الخطابات الواردة من إدارة الإيرادات الداخلية، وأصبح الآن على أورويل الأُمِّي ماليًّا أن يقلق بشأن ضريبة الدخل لأول مرة في حياته. في عام 1947، أسَّس شركته الخاصة، «چورج أورويل للإنتاج المحدودة»، بناءً على نصيحة مُحاسبيه من مكتب «هاريسون وسون وهيل وشركاؤهم» (كتب ذات مرة: «لا يُوجد شخصٌ وطني عندما يتعلَّق الأمر بالضرائب»). تسبَّبت هذه المكاسب المفاجئة في إصابته بصداع ضريبي شديد أطلق عليه اسم «ذهب الحوريات» (نسبةً للحكاياتً الخرافية)، لكنه ظلَّ لديه ما يكفي من المال لتقديم تبرُّعاتٍ سخية للجنة «الدفاع عن الحرية» ومساعدة عديدٍ من الكتاب في ظروف أقل حظًّا. جلبت إليه السمعة التي اكتسبها في أمريكا عروضًا من مطبوعات مثل «ذا نيويوركر»، واهتمامًا من والت ديزني، الذي أراد أن ينتج فيلمًا مأخوذًا عن «مزرعة الحيوان»، وكُتبت عنه لمحة موجزة عنه في مجلَّة «ڤوج». «إن اليساري الكبير چورج أورويل مدافعٌ صلد عن

الحرية، على الرغم من أنه في معظم الأوقات يختلف بشدَّة مع الأشخاص الذين يقاتل في صفِّهم»، هكذا كتبت آيلين تالمي. ليس وصفًا وجيزًا سيِّئًا.

وهكذا تغيَّرت حياة أورويل بسبب دولة لم يزرها قط (عندما سنحت له الفرصة بذلك في عام 1948، كان مريضًا إلى درجة لم يستطع معها السفر) وكان ينظر إليها بعين التعالي والريبة. في كتاباته، صوَّر أورويل الولايات المتَّحدة الأمريكية باستمرار على أنها مراهق مفعم بالحيوية، لكنه فجٌّ وغير منضبط، ويُحتمل أن يكسر الأغراض الثمينة. في رواية «دع الدريقة تطير»، يقول كومستوك: «ينجذب الأمريكيون أكثر من غيرهم إلى أيِّ نوع من أنواع البهيمية، سواءً كان ذلك آيس كريم الصودا أو الابتزاز أو الديانة الثيوصوفية»، وقد أظهر أورويل بضع علامات على تخفيف حدَّة هذا الرأي خلال العقد التالي.

كانت أمريكا أكبر بقعة عمياء لأورويل. اعتقد سيريل كونولي أنه كان «معاديًا للأمريكيين، باستثناء التروتسكيين من مجلَّة بارتيزان ريڤيو». على الرغم من أنه كان قادرًا على الكتابة بحسٍّ مرهف عن الثقافة الشعبية البريطانية (مثل البطاقات البريدية المثيرة، والقصص المصورة، وألغاز الجرائم، وقاعات الموسيقى)، لم يكن أورويل مهتمًا بموسيقى الجاز أو البلوز أو برودواي أو تين بان آلي، وحافظ على اشمئزازٍ متزمِّت من الأدب الشعبي والقصص المصوَّرة الأمريكية، وكان له وجهة نظر تزدري هوليوود. لم يولِ إلا اهتمامًا زهيدًا بإنجازات برنامج روزفلت الاقتصادي «نيو ديل»، أما عن تأثير أمريكا على اللغة الإنجليزية

فقال: «يجب أن ندرك أن التأثير الأمريكي سيِّئ بشكل عام، وقد شوَّه اللغة بالفعل».

على الرغم من أنه كان يحب مارك توين، إلى درجة أنه عرض فكرة كتابة سيرة ذاتية للمؤلف في عام 1934، نادرًا ما تعامل أورويل مع الكُتَّاب الأمريكيين الأحياء، باستثناء هنري ميلر وريتشارد رايت، وقد قال عن رواية الأخير «الولد المحلِّي» إنها «كتاب رائع حقًا وواجب القراءة لكل شخص يريد أن يفهم طبيعة الكراهية على أساس العرق». في حين أنه لم يكن يجهل مشكلة العبودية أو ذبح الأمريكيين الأصليين، شعر أورويل أن أمريكا القرن التَّاسع عشر التي ظهرت في كتابات ويتمان وتوين مثَّلت -بشكل خيالي على الأقل- عالمًا من الديموقراطية والفرص والمغامرة والبراءة أصبح ممكنًا بفضل الموارد غير المستغلة الوفيرة لم يعد موجودًا الآن. «إن الروائي الأمريكي يعيش في عالم من الفوضى الأخلاقية والمادية كذلك. لا أحد يحمل شيئًا من روح الجماعة أو أيِّ مبدأ آخر باستثناء النجاح، الذي يتكَّر عادةً في صورة تعبيرٍ عن الذات... لا يُوجد عمق عاطفي، وكل شيء مباح، وبالتالي لا شيء مهم»، هكذا كتب عام 1940. لم يصدر أورويل مثل هذه التعميمات السخيفة غير لأنه لم يعرف غير عدد قليل جدًّا من الأمريكيين. يبدو أن مقابلة بعضهم لم تساعد. أحد أعمدة «كما يحلو لي» في عام 1943 كان عدائيًا جدًّا تجاه القوَّات الأمريكية المتمركزة في بريطانيا («من الصعب الذهاب إلى أيِّ مكان في لندن من دون الشعور بأن بريطانيا صارت بلدًا محتلًا») إلى درجة أن كثيرًا من القرَّاء اشتكوا. كتب أورويل تعقيبًا على

خطاب أحدهم: «لقد صُدم عاشق الثقافة الإنجليزية هذا عندما اكتشف أن چورج أورويل لا يعرف عن الأمريكيين أكثر ممَّا كان في الماضي».

عجز معظم نقَّاد «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الأمريكيين عن رؤية انعكاس لبلدهم في أوقيانيا، على الرغم من استخدام أورويل للدولارات واسم النشيد الوطني «أوقيانيا، لك أغنّي». تدين ملصقات وشعارات مقاطعة آيرستريب وان الخيالية بقدر كبيرة للدعاية الأمريكية، كما كانت تدين لها الدعاية الشمولية في عالم الواقع. «تعلَّم النازيون (دون الاعتراف بالأمر) من منظَّمات العصابات الأمريكية، بقدر ما تعلَّمت دعايتهم من الدعاية الأمريكية التجارية (باعتراف الجميع)»، هكذا كتبت هانا آرنت. لكن بعد الحرب، بدا أن أورويل يميل إلى انفتاح فكري مع الولايات المتَّحدة، تمامًا مثلما أصبح أغلب اليسار البريطاني أكثر عدائية معها. «من الواضح أنه فيما يتعلَّق بالمسائل الأكثر تأثيرًا على بريطانيا اليوم، فإن الولايات المتَّحدة معادية لتطلعات بريطانيا الاشتراكية بالقدر نفسه الذي تعادي به الاتِّحاد السوڤيتي»، هكذا زعمت مجلَّة «ذا نيو ستيتسمان».

في أثناء سباحته عكس التيار كالمعتاد، تحسَّر أورويل على عداء «تريبيون» المتزايد («أن تكون معاديًا لأمريكا في الوقت الحاضر يعني الهتاف مع الغوغاء»)، واتَّهم المؤرخ الاشتراكي دوجلاس جولدرينج بـ«رهاب الأمريكيين». كان يرى أنه من النفاق شيطنة البلد الذي يعتمد عليه التعافي الاقتصادي البريطاني، واعتقد أن الحرب الباردة فرضت خيارًا بين بديلين لا ثالث لهما.

كتب إلى ڤيكتور جولانش: «يشهد الرب أنني لا أريد اندلاع حرب، ولكن إذا اضطُّر المرء إلى الاختيار بين روسيا وأمريكا، وأفترض أن هذا هو الخيار الذي قد يتعيَّن على المرء أن يتَّخذه، سأختار أمريكا دائمًا».

قرب نهاية ملحق «مبادئ اللغة الجديدة» في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، فإن المقطع الذي اُختير من اللغة القديمة لتوضيح اللغة الأكثر أناقة والمُثُل الأنبل التي سادت في عصر ما قبل الشمولية هو مقدَّمة إعلان الاستقلال الأمريكي.

***

كان شتاء عامي 1946 و1947 ضاريًا. ابتداءً من شهر يناير، رُوِّعت بريطانيا بسبب الثلوج الكثيفة ودرجات الحرارة السيبيرية. تجمَّدت إمدادات الفحم في المناجم أو قبعت في المستودعات لأن كثيرًا من الطرق والسكك الحديدية غطَّاها الثلج؛ ما أدى إلى تقنين الوقود وإغلاق المصانع. انخفضت الحصص الغذائية إلى ما دون مستويات الحرب مع تجمُّد الخضراوات في التربة ونفوق آلاف الدجاج من البرد، وقُيِّدت حصص الخبز لأول مرة في التاريخ. ارتفع معدل البطالة من 400 ألف إلى 1.7 مليون في أربعة أسابيع فقط. أجبر نقص الوقود والورق الناشرين -بما في ذلك مجلَّة «تريبيون» - على إيقاف المطابع. عُلِّق البث التليفزيوني. خلال شهر فبراير -أسوأ شهر في الأزمة- كانت الكهرباء تنقطع لمدَّة خمس ساعات في اليوم. تضرَّرت الحكومة كذلك من ضربة الصقيع. وصفت صحيفة «فايننشيال تايمز» أزمة الوقود بأنها المكافئ المحلي للأحداث التي أسقطت تشامبرلين في عام 1940. «كان الجميع

في بريطانيا يرتجفون»، هكذا لاحظ الروائي البريطاني المُغترب كريستوفر إيشروود، الذي أتى في زيارة من منزله في هوليوود. أخبره بعض الأصدقاء في لندن بأن الوضع أسوأ ممَّا كان في أثناء الحرب.

لاحقًا أرجع أورويل فترة اعتلال صحته الأخيرة إلى هجوم ذلك الشتاء على رئتيه. بخلاف عودته القصيرة إلى بارنهيل في رأس السنة الجديدة لزراعة الأشجار وتعليق المصابيح، أمضى أورويل الفترة من نوفمبر إلى أبريل في لندن، التي كانت في الواقع أبرد وأشح في الوقود من جورا. يمكنك أن تتذوَّق بعضًا من طعم الشتاء الأخير «الذي لا يطاق» الذي قضاه في لندن مقصومة الظهر المقصوفة بالقنابل في الفصول الافتتاحية من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: انقطاع التيَّار الكهربائي المتكرِّر، الاقتصاد المتداعي، المباني المرقَّعة، شفرات الحلاقة الثلمة، الطعام السيِّئ، قسائم الملابس، ركام الأنقاض، الغبار في الهواء. كان على أورويل أن يصعد ستَّة طوابق على الأقدام ليصل إلى شقَّته رقم 27 بي في ساحة كانونبيري. في الرواية يصعد ونستون لاهثًا إلى الطابق السَّابع في «قصور النصر». إن مقاطعة العوام في الرواية، «الواقعة شمال شرق ما كان يُدعى سابقًا بمحطَّة سينت بانكراس»، هي إزلينجتون.

استأنف أورويل الكتابة في عمود «كما يحلو لي». تطرَّق مقاله الأوَّل إلى مجلَّات الموضة والخدمة العامَّة في هيئة المحلَّفين وتقنين الخبز والسلامة على الطرق، قبل أن يكتب مقالين من آخر مقالاته العظيمة: «كيف يموت الفقراء» و «لير، وتولستوي،

والأحمق». بدأ أيضًا يهتم بمسيرته الأدبية، التي كانت تسير بصورة حسنة. تشاور مع واربورج بشأن خطط إعادة طبع مجموعة من أفضل كتبه الأولى في طبعة موحَّدة، وأقنع جولانش بالتخلِّي عن حقِّه التعاقدي في نشر «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كانت ترجمات «مزرعة الحيوان» مزدهرة ومطلوبة بشدَّة (تنافس ثمانية وأربعون ناشرًا في اليابان للحصول عليها)، وظهرت معالجة لها لأول مرة في الراديو في برنامج «بي بي سي» الثَّالث الجديد، بسيناريو لأورويل، حرَّره زميل سكنه القديم راينر هيبنستول. «كان لديَّ شعور بأنهم أفسدوا الرواية، لكن هذا تقريبًا ما يحدث دائمًا عندما يكتب المرء أيَّ معالجة للإذاعة»، هكذا أخبر مامين باجيت.

في مارس عام 1947، تفقَّد أورويل حال جيمس بيرنام، الذي كانت رحلته من اليسار إلى اليمين مستمرة بوتيرة سريعة. في كتابه «الصراع على السلطة»، اختُزِلت الدول الإدارية الثلاث العُظمى على نحوٍ متوقع إلى دولتين، تمثِّلان الشيوعية والديموقراطية. وفي حين ما وضعت عقيدة ترومان الجديدة سياسة لاحتواء الشيوعية السوفيتية، اعتقد بيرنام أن الحرب العالمية الثَّالثة قد بدأت بالفعل، وأن أمريكا يجب أن تكون مستعدة للقيام بضربة وقائية قبل أن يتمكن الروس من تطوير قنبلتهم الذرية، وهو اقتراح قاد أحد أعضاء الكونجرس لمقارنة الكتاب بكتاب «كفاحي». كتب أورويل: «إنه مغرم بشدَّة بالرؤى المروِّعة، ومستعد تمامًا للتصديق في أن عمليات التاريخ الفوضوية ستحدث فجأة وبشكل منطقي». ولكون أورويل قارئًا جيِّدًا عن روسيا (في خطابٍ أرسله

إلى دوايت ماكدونالد عام 1947، أوصاه بنحو عشرين كتابًا)، رأى أن دعوة بيرنام لقمع الأحزاب الشيوعية في الغرب كانت مبنية هي الأخرى على خيال شاطح: «جيش سرِّي ضخم من المحاربين المتعصِّبين، لا يعرف الخوف أو التردد، وليس في رؤوسهم أيَّ فكرة سوى العيش والموت من أجل أرض الآباء».

بصفته اشتراكيًا ديموقراطيًا، شعر أورويل بأنه «طبيبٌ يعالج حالة ميؤوس منها». كان «المرض العقلي» الذي أصاب العالم في الثلاثينيات لم يُشخَّص بعد، فضلًا عن الشفاء منه. مثل أتلي، الذي تحدَّث عن الجمع بين «الحرية الفردية والاقتصاد المُخطَّط، بين الديموقراطية والعدالة الاجتماعية»، كان أورويل يبحث عن طريق ثالث لا تهيمن عليه أمريكا أو روسيا. كان يأمل في وجود كيان اشتراكي يُدعى الولايات الأوروبية المتَّحدة: إذا كان بإمكان المرء أن يعرض في مكان ما مفهوم الأمن الاقتصادي دون معسكرات الاعتقال، فإن حجَّة الخوف من الديكتاتورية الروسية ستختفي، وستفقد الشيوعية كثيرًا من جاذبيتها». لكن العوائق كانت هائلة، وكان المستقبل «مظلمًا جدًا».

باستقراء ما حدث بعد ذلك، نجد أن أورويل كان متشائمًا جدًا. إن كان قد قُدِّر له العيش، كان سيرى في غضون سنوات قليلة أن الاقتصاد البريطاني يمكن أن يتعافى حتَّى في أثناء تفكيك الإمبراطورية، ويرجع الفضل في ذلك جزئيًا إلى خطة مارشال، وأن فرنسا وألمانيا يمكن أن يجتمعا معًا لوضع أسس أوروبا الغربية الموحَّدة، حتَّى لو لم يكن ذلك اتِّحاد الجمهوريات الاشتراكية الذي كان في ذهنه. لكن الخراب الشديد في «ألف

وتسعمئة وأربعة ثمانون» كان استراتيجية بقدر ما كان تعبيرًا عن مخاوفه الخاصة. في مراجعته كتاب فيكتور جولانش «في أحلك أيَّام ألمانيا» عن عالم ما بعد الحرب، أعرب عن قلقه من أن قصص المعاناة لم تعد تحرِّك الرأي العام البريطاني. «مع مرور الوقت وتراكم الأهوال، يبدو أن العقل يفرز نوعًا من الجهل ليحمي نفسه، وهو ما يتطلَّب صدمة أقوى كل مرَّة لاختراقه، تمامًا مثلما يكتسب الجسم مناعة من دواء ما ويتطلَّب جرعات أكبر وأكبر». لإحداث تلك الصدمة العاتية التي لا سبيل للتحصُّن منها، رأى أنه «يجب تطوير تقنية أدبية جديدة».

***

عاد أورويل وأفريل وريتشارد إلى جورا في الحادي عشر من أبريل، تزامنًا مع ذوبان الثلوج وقدوم الربيع. كانت الحديقة في بارنهيل مترعة بأزهار النرجس البري. بحلول نهاية شهر مايو، كان قد كتب نحو ثلث روايته، حتَّى لو كانت «فوضى شنيعة». كتب إلى واربورج يقول: «لا أحب الحديث عن الكتب قبل كتابتها، لكنني سأخبرك الآن بأن هذه رواية تحكي عن المستقبل، أي أنها فانتازية بشكل أو بآخر، لكن في هيئة رواية عادية، وهذا ما يجعلها مهمَّة صعبة. بالتأكيد بصفتها كتابًا تخمينيًا، سيكون من السهل كتابتها نسبيًا». على مدار الأشهر القليلة التالية، أرسل كل ما كتبه بالبريد -باستثناء الفصل الأخير والملحق- إلى ميراندا كريستين، صديقة أنتوني باول التي كانت تستأجر شقَّته في ساحة كانونبيري، وتطوَّعت لكتابة مخطوطة نظيفة لها. بعد أن أمضت فترة الحرب في جاوة تحت الاحتلال الياباني، قالت

كريستين عن مهمَّتها: «كنت متحمِّسة منذ البداية. رأيت فيها تشابهات مع ماضيَّ القريب». قالت إن الغزاة اليابانيين الذين أعادوا تسمية البلدان المحتلة باسم «مجال ازدهار شرق آسيا الكبرى المشترك»، «كانوا سيجسِّدون وزارة الحقيقة في أرض الواقع على أكمل وجه».

ازدحمت مزرعة بارنهيل في ذلك الصيف الحار بالزوَّار. جاء ريتشارد ريس، المدبِّر الأدبي لأورويل، إلى جورا كي يرسم، ومكث عدَّة أسابيع. عادت إنز هولدن وبقيت لفترة طويلة. ساعد بيل دن -وهو جندي سابق مصاب أتى حديثًا إلى الجزيرة- في إدارة المزرعة، وأقام علاقة مع أفريل أدت -بعد وفاة أورويل- إلى الزواج وتبنِّي ريتشارد. جاء همفري داكين، أرمل مارجوري، مع أطفاله الكبار لقضاء عطلة كادت أن تنتهي بمأساة. سُحِب قارب أورويل البخاري، وعلى متنه أورويل وهنري وجين داكين وريتشارد، في الدوَّامة الشهيرة في خليج كوريفريكن، أحد أخطر المسطَّحات المائية في بريطانيا، وتمكَّنت المجموعة من الهروب بأعجوبة. كانت تلك أكثر مرَّة اقترب فيها أورويل من الموت منذ إسبانيا، لكن هنري ذكر أنه لم يظهر أيَّ بادرة هلع: «بدا كأنه يستمتع بالأمر».

هل كانت هذه اللا مُبالاة علامة على الشجاعة أم التهوُّر أم الإيمان بالقدر؟ هل كان قد اعتاد احتمال الموت المبكر؟ ساءت صحَّته في الخريف، ما جعله يهذي بالتفكير في مشروع واعد عن تقديم تقرير عن الحياة في الجنوب الأمريكي، كما فكَّر في قبول تكليف من جريدة «ذا أوبزيرفر» لقضاء ثلاثة أشهر في كينيا وجنوب

إفريقيا. لم يكن ليذهب إلى أيِّ مكان. قال لفايڤل إنه ظلَّ مريضًا طوال العام وخسر وزنًا كثيرًا، لكن «مثل الأحمق» قرَّر مواصلة روايته بدلاً من رؤية الطبيب الذي ظنَّ أنه سيجبره على الراحة وترك الكتابة. أنهى مسوَّدة الأولى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في فراشه في السَّابع من نوفمبر. قبل الكريسماس بقليل، استسلم للمشورة الطبية، وسافر إلى مستشفى هيرمايرز في شرق كيلبرايد بالقرب من جلاسكو لتلقِّي العلاج. لن يتمكَّن من العودة إلى چورا، أو إلى روايته، لمدَّة سبعة أشهر أخرى. قال لاحقًا لسيليا باجيت معترفًا: «شعرت في تلك المرحلة بأنني انتهيت».

***

بدأ أورويل يحلم بالموت. لازمته الكوابيس لبقية حياته، خاصة عندما كان يشعر بضيق في رئتيه ويستيقظ لاهثًا لالتقاط أنفاسه، خائفًا من أنه لن يسترد صحَّته مرة أخرى. كان يسير في أحلامه على البحر، أو بين مبانٍ شاهقة ضخمة، لكنه كان دائمًا تحت أشعة الشمس، ودائمًا يغمره «شعور غريب بالسعادة»، كما كتب في كرَّاس ملاحظاته في المستشفى. لم يخش أورويل الموت نفسه، فقط كان يخشى الألم الذي يسبق الموت. كان يعتقد أنه من الأفضل أن يموت المرء «بعنف وليس عجوزًا على الفراش» كما كتب في «كيف يموت الفقراء». سيكون البديل بالضرورة «بطيئًا ومؤلمًا ورائحته كريهة».

تكمن مشكلة النظر إلى رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على أنها الوصية الأخيرة البائسة لرجل يحتضر في أن أورويل لم يؤمن قط أنه كان يحتضر، أو على الأقل ليس أكثر من المعتاد.

لقد عانى من مشكلات في الرئة منذ الطفولة، وكان مريضًا على فترات متقطِّعة لفترة طويلة حتَّى أنه لم يكن لديه سبب للاعتقاد بأن هذه المرة ستكون الأخيرة. في مستشفى هيرمايرز، شُخِّص بأنه مصاب بالسُّلِّ الليفي المزمن في الجزء العلوي من كلتا رئتيه، وخاصة اليسرى. وفقًا لجمس وليمسون، أحد أطبائه، «قد يكون أورويل قد نَسِي الشعور بتمام الصحَّة تقريبًا»، لكنه لا يزال يستطيع العيش لفترة طويلة.

وبالمثل، يحلم ونستون سميث بالمياه العميقة والأطلال التي تستحم تحت نور الشمس، وهو أيضًا لا يخشى الموت أيضًا. ما لا يستطيع تحمُّله، وما سوف يهزمه في النهاية، هو الألم، «لأن الجسد»، في غرفة التعذيب أو ساحة المعركة «يصبح أهم من أيِّ شيء آخر في الكون». يجسِّد ونستون رعب أورويل من تدهوره الجسدي. إن ونستون في التَّاسعة والثلاثين من عمره فحسب، لكنه يشعر بالفعل بأنه رجل عجوز. وهو في المستشفى، عدَّد أورويل أعراض الانهيار: ضيق في الصدر، وألم في الظهر، وركبتان ضعيفتان، وألم في اللثة، وشيب في الشعر، ودموع في العينين، وقشعريرة لا تزول. بفضل علاقات ديفيد أستور، تمكَّن أورويل من الحصول على بعض الستريتومايسين، وهو عقار جديد لمرضِ السُّلِّ من الولايات المتَّحدة، ولكن ردَّ الفعل التحسُّسي الحاد وغير المتوقع الذي أصابه أجبر الأطباء في النهاية على تعليق العلاج. بدأ يفقد أجزاءً من الجلد والشعر والأظافر. طفح جلده بالحساسية والقرح والبثور. في الليل، كان الدم الخارج من بثور حلقه يتصاعد في فقَّاعات مع الزفير ويتخثَّر على شفتيه

إلى درجة إنه لم يكن يتمكَّن من فتح شفتيه قبل أن يغسلها. كتب إلى چوليان سيمونز يقول: «أعتقد أن حالتي مع كل تلك الأدوية تُشبه إغراق سفينة للتخلُّص من الفئران».

الفارق الجوهري بين أورويل وونستون هو أن ونستون كان يعرف -منذ اللحظة الأولى التي بدأ يكتب فيها في مفكِّرته- أنه محكوم عليه بالهلاك. لكن أورويل لم يلمِّح قط إلى أنه يظنُّ أنه لن يتعافى. وحتَّى أيَّامه الأخيرة، لم يفقد الثقة بالمستقبل.

***

ما كرهه أورويل حقًا في مرضه هو تأثيره على دماغه. كان قادرًا على التفكير والتحدُّث والقراءة بشكل طبيعي، ولكن كلَّما حاول نقل أفكاره إلى ورق، خرجت لغته عقيمة، وحججه غير مكتملة. تساءل عمَّا إذا كان يُوجد تفسيرٌ طبِّي لهذا: ربما كان هناك ما يكفي من الدماء لدماغي كي تنتج أدبًا باهتًا ومباشرًا، ولكن يُوجد ما يكفي منها للإيحاء بأيِّ شيء يستحق العناء؟ في نظر شخصٍ لم يكن يشعر باكتمال ذاته إلا عندما يكتب، كان ذلك عذابًا.

لكنه تمكَّن بطريقة ما من إنهاء مقال واحد ذي مضمون حقيقي. أجاب مقال «الكُتَّاب وليڤياثان» السؤال الذي أعجزه في مقال «داخل الحوت»: كيف يمكن للكاتب الانخراط في السياسة من دون المساس بنزاهته؟ قبل ثماني سنوات، دعا أورويل إلى التقوقع داخل نوع من الحجر الصحي الفكري. الآن كان يصرُّ على أنه «من المستحيل ومن غير المستحسن» الاختباء داخل الحوت، وأن على المرء أن يكون ناشطًا سياسيًا بصفته مواطنًا ما دامت

كتابته لا يلوِّثها النفاق والرقابة الذاتية. كانت هذه حجَّته الأخيرة عن فكرة قوَّة الوعي الذاتي الصارم الوقائية: في عصرٍ تُلوِّث السياسة فيه كل ما يقرؤه المرء أو يكتبه، تنشأ الأفكار المتناقضة لا محالة، ويكون من الضروري مواجهة هذا التنافر بصراحة بدلًا من «ترك السؤال قابعًا دون إجابة في ركنٍ من أركان عقل المرء». إن الخطوط العريضة في كرَّاس ملاحظاته تقتنص جوهر الأمر في تسع وعشرين كلمة: «الخلاصة: يجب الانخراط في السياسة. يجب عدم الخلط بين القضايا. على المرء عدم الانخراط في السياسة الحزبية بصفته كاتبًا. تمييز التحيُّزات المسبقة هو الطريقة الوحيدة الصالحة لإبقائها تحت السيطرة».

بحلول شهر مايو، تحسَّن أورويل بما يكفي لاستعادة آلته الكاتبة واستئناف العمل بحماس. بالإضافة إلى تدوين ملاحظات لعملية مراجعة الرواية، كتب مقالات نقدية قصيرة عن وايلد وأتلي وجراهام جرين، ومقال لائق عن چورج جيسينج، صديق إتش چي ويلز المقرَّب الذي تُوفي -مثل أورويل- بسبب مرض الرئة في السَّادسة والأربعين. في ملاحظاته للمقال كتب أورويل: «روايات جيسينج من بين الأشياء التي تجعل المرء يشعر بأن العالم قد تحسَّن (تأكيد على الكآبة)». لم يكن المرء ليعتقد أن أورويل احتاج أبدًا إلى تذكير نفسه بالتأكيد على الكآبة. من الممكن استشعار اقتراضه من جيسينج -الذي وصفه بـ«مؤرِّخ السوقية والقذارة والفشل» - في مقاطع الوصف البغيضة في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

تمكَّن أورويل أيضًا من إنهاء مقاله الطويل «كم شعرنا من مسرَّات» عن ذكرياته الممزقة عن أيَّام دراسته في «سانت

سيبريان». كان قد بدأ يفكّر فيه (وربّما يكتبه) قبل عشر سنوات، وأرسل إلى واربورج مسوَّدة أولى في عام 1947، لكنه استغرق كل هذا الوقت لإكمالها. لقد كان مقالًا تشهيريًا ضاريًا إلى درجة أنه لم يُنشر إلا بعد وفاته، وحتّى عندما نُشر، ظهرت المدرسة فيه باسم «كروس جيتس» المستعار.*[41] صوَّر أورويل «سانت سيبريان/ كروس جيتس» على أنها «عالمٌ من القوَّة والاحتيال والسرِّية» يُعذَّب الأطفال فيه بـ«أهوال غير منطقية ومغالطات غير معقولة».

لا شكَّ في أن أورويل كره المدرسة حقًّا، لكن زملاءه القدامى وجدوا أن مقال «كم شعرنا من مسرَّات» مبالغ فيه وغير عادل. يبدو الأمر كما لو أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» تسرَّبت إلى ذكريات أورويل وحوّلت مدرسة إعدادية بغيض نوعًا ما إلى كابوس شمولي من القسوة والظلم. يُقارَن أوبراين مرارًا وتكرارًا بمدير مدرسة، وفي سطر محذوف من مسوَّدة أورويل الأوَّلية، يُوصف بارسونز في وزارة الحب كـ«تلميذ سمين متضخم ينتظر الضرب بالعصا». على العكس من ذلك، عندما وصف أورويل تعرُّضه للضرب بالعصا بسبب تبوُّله في الفراش، فإنه يبدو مثل بارسونز الذي اعتُقِل بسبب هزيانه بكلام مارق في أثناء نومه: «من الممكن إذًا ارتكاب خطيئة من دون معرفة أنك ارتكبتها، ومن دون الرغبة في ارتكابها، ومن دون أن تكون قادرًا على تجنُّبها».

لذا فإن احتمالية أن تصيب الرواية الذاكرة بعدوى أمر منطقي؛

41-* لم يُنشر المقال إلا في الولايات المتَّحدة. منعت السيِّدة ويلكس -التي كانت تدير مدرسة «سانت سيبريان» مع زوجها- نشره في المملكة المتحدة حتَّى وفاتها عام 1967. (المؤلِّف)

أما النقيض فيؤدي إلى تحليلٍ نفسي مُدَّعٍ مروِّع. كتب أنتوني وست (ابن إتش جي ويلز وريبيكا وست) مقالًا مؤثِّرًا في صحيفة «ذا نيويوركر» بعد وفاة أورويل يقول فيه: «سواء كان يعرف ذلك أم لا، فإن ما فعله أورويل برواية «1984» هو إرسال كل شخص في إنجلترا إلى كيان خيالي هائل أشبه بـ «مدرسة كروس جيتس» ليخرج منه بائسًا كما كان هو». كان هذا مبالغًا فيه بشدَّة. لم يكن أورويل بأيِّ حال الكاتب الوحيد الذي وصف مدرسةً داخليةً على أنها طغيانٌ مصغَّر. فعلى سبيل المثال، وصفت سونيا براونيل، المتعلِّمة في دير راهبات، الكاثوليك بأنهم «شموليون» يريدون «التحكُّم التام في كل فكرة وشعور». لم يكن أورويل ليصبح كاتبًا ذا شأن لو كانت روايته الأخيرة مجرَّد هجاء انتقامي من مدرسته الإعدادية.

غادر أورويل مستشفى هيرمايرز في 28 يوليو. ظنَّت أفريل أنه كان بإمكانه التعافي تمامًا إذا انتقل إلى مصحَّة، لكن نداء الرواية كان قويًا جدًّا. عاد أورويل إلى جورا بصحبة ريس وأفريل وبيل وأعاد كتابة الرواية سطرًا بسطر بين شهري أغسطس ونوفمبر. كان جيرانه سعداءَ برؤيته يعود إلى المنزل، وهيَّؤوا الحديقة له. قال أحد صيَّادي الكركند متذكِّرًا: «أصابني اندهاش كبير في المرَّة الأولى التي قرأت فيها رواية «1984». لم أصدِّق أن كاتب هذا الكلام هو إريك بلير الذي أعرفه. لم أتمكَّن من تخيُّل أن الرجلين شخصٌ واحد على الإطلاق».

***

من وجهة نظر أورويل «لا يُعدُّ الكتاب موجودًا حتَّى تتم كتابته». لم يشارك مسوَّداته مع أصدقائه ولم يناقش المحتويات على

الإطلاق إلا بأكثر المصطلحات غموضًا، وأصدر تعليمات إلى ريس بتدمير المسوَّدة الأوَّلية للرواية التي كانت لا تزال تُسمَّى «آخر رجل في أوروبا» في حال وفاته في المستشفى. إما أن ينهي كتابتها أو يلقي بها إلى «حفرة الذاكرة» وتتحوَّل إلى رماد.

مع الأخذ في الاعتبار خوف أورويل من رؤية أيِّ شخصٍ لعمله وهو قيد التحضير، فمن المدهش أن النسخ الأولى من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» نجت من الأساس. انتهى الأمر بمجموعة صفحات من أربع مسوَّدات مختلفة -تصل إلى 44 بالمئة من الرواية- في حوزة دانيال چي سيج، وهو جامع من ماساتشوستس وافق على نشر نسخة طبق الأصل منها في عام 1984. حتَّى مثل هذه المجموعة من المقتطفات تعطي انطباعًا جيِّدًا عن عملية أورويل الإبداعية وأولوياته. لقد كان محرِّرًا ذاتيًا لا يرحم، يعيد كتابة الفقرات عِدَّة مرَّات -على صفحات تغصُّ بالتعديلات إلى درجة تجعلها غير مقروءة تقريبًا- للتخلُّص من الصياغة المترهِّلة وتعزيز الأفكار الأساسية. على سبيل المثال، كان السطر الأوَّل الشهير المريك يقول في الأصل: «كان يومًا باردًا وعاصفًا من أيَّام أبريل الأولى، وكان مليون مذياع يُعلن أنها الواحدة بعد الظهر». كان هذا هو الكتاب السَّادس من كتبه الذي يُفتتح بإعلان التوقيت.

حدَّدت الملاحظات التفصيلية التي دوَّنها أورويل في مستشفى هيرمايرز أولويَّاته: توضيح دور العوام، والتركيز على تزوير التاريخ وقمع الجنس في أوقيانيا، وكتابة الفصل الأخير. لم يحذف إلا القليل. اختُصرت الزيارة إلى شقَّة أوبراين؛ ما قلَّل من دور خادمه

الشرير مارتن، وحذف لقاء أوبراين اللاحق مع جوليا. اختزل أورويل بشكل كبير التلميحات إلى المواقع الجغرافية في العالم الحقيقي، والتلميحات إلى التحيُّز العرقي (بما في ذلك مشهد الإعدام خارج نطاق القانون)، والمفارقات التي شعرت بأنها مُبالغ فيها. تُوجد فكاهة جافَّة في الرواية، نراها في «المظاهرات العفوية» المخطَّط لها و «الاشتراكات الطوعية» الإجبارية في الواقع، لكن يُفترض أن أورويل كان ينظر إلى «المسيحيِّين المسالمين»، الذين يطالبون بدفن عشرين ألف سجين من أوراسيا وهم أحياء، باعتبارهم متحجِّري القلوب تمامًا. لم يغيِّر أيٌّ من هذه التعديلات بشكل جذري السرد القصصي للرواية أو مخطَّطها. على العكس من ذلك، تكشف المسوَّدات المبكِّرة عن مدى اتِّساق وتركيز أورويل خلال تلك السنوات الثلاث.

تلاشى تعافي أورويل مع قدوم الصيف. تدهورت صحَّته بشكل كبير إلى درجة أنه صار واثقًا بحلول أكتوبر أنه سيحتاج إلى دخول مصحَّة، لكنه واصل العمل بدلًا من ذلك. حتَّى أنه استطاع خلق وقت لكتابة مقالات قصيرة عن چان بول سارتر وتي إس إليوت، بالإضافة إلى مقال آخر طويل أوضح فيه ما لا تدور حوله روايته. بعد فوات الأوان، ربما يكون أورويل قد ندم على الاسم الذي اختاره لنظامه الشمولي. مثلما يلمح الاختزال القبيح في اللغة الجديدة، لم يكن حزب الإنجوسك أكثر اشتراكية من الاشتراكية القومية (النازية). في رواية كُرِّست فيه وزارات الحقيقة والحب والسلام والوفرة لقيم معاكسة تمامًا، سيكون من الغريب تفسيرها حرفيًّا على أنها اشتراكية إنجليزية. لم يعد

حـزب العمـل موجـودًا، ويوضّـح كتـاب جولدشـتاين الكذبـة المضمنـة فـي اسـم الإنجوسـك: «وهكـذا يرفـض الحـزب ويشـوّه كل مبـدأ قامـت مـن أجلـه الحركـة الاشـتراكية فـي الأصـل، ويختـار أن يفعـل ذلـك باسـم الاشـتراكية». ومـع ذلـك، فـإن كثيـرًا مـن محبّـي أورويـل الأمريكييـن -كمـا سـنرى- سـيفترضون أنـه كان يسـخر مـن حكومـة أتلـي. إن الطريقـة التـي اسـتخدم بهـا الأثـاث المـادي فـي لنـدن مـا بعـد الحـرب لإعطـاء مقاطعـة آيرسـتريب وان مصداقيـة معيشـية ضاعفـت مـن هـذا الانطبـاع الخاطـئ. حتّـى واربـورج فسّـر الكتـاب فـي البدايـة علـى أنـه «هجـومٌ متعمَّـدٌ وسـادي علـى الاشـتراكية والأحـزاب الاشـتراكية بشـكل عـام» قبـل أن يـدرك خطـأه. فـي تقريـره عـن الروايـة، أشـار واربـورج إلـى أنهـا ستُسـعد تشرشـل والصحافـة اليمينيـة و «ستسـاوي مليـون صـوتٍ رائـعٍ لحـزب المحافظيـن». هـذا كلام صـادر عـن رجـل كان يعـرف أورويـل بشـكل شـخصي. كيـف إذًا لـن يرتكـب القـرَّاء الذيـن لا يعرفـون شـيئًا عـن الرجـل ومعتقداتـه الخطـأ نفسـه؟

فـي أعيـن الأمريكييـن، ربّمـا بـدت بريطانيـا كابوسـية تحـت حُكـم حـزب العمـل. وصـف أنتونـي بـاور مراسـل صحيفـة «نيويـورك تايمـز» فـي لنـدن مواطنيهـا بأنهـم «يعانـون نقصًـا فـي التغذيـة ويبـدون منهكيـن ومقيَّديـن ومحجَّميـن تمامًـا، ويكافحـون بشـدَّة لتحقيـق الانتعـاش الاقتصـادي». أظهـر اسـتطلاعٌ للـرأي فـي ربيـع عـام 1948 أن 42 بالمئـة مـن البريطانييـن يفكِّـرون فـي الهجـرة. ومـع ذلـك، ظلَّ أورويـل مؤيِّدًا لحكومـة حـزب العمـل حتَّـى النهايـة، وإن كانـت حكومـة مُرهقـة. منزعجًـا مـن فشـل حـزب العمـل فـي التخلُّص الفـوري

من مجلس اللوردات ونظام التكريم والتعليم الخاص -الرموز الثلاثة الكبرى للامتياز الطبقي- وشاعرًا بالملل من الإصلاحات البيروقراطية، كان أورويل قد عرض سابقًا كتابة مقال لصالح توسكو فايفل في «تريبيون»، يشكو فيه أن أنورين بيفان قد أصبح مشتَّتًا ببناء المنازل والخدمة الصحية الوطنية، وبالتالي رفض ما سيصبح اثنين من أعظم إنجازات الحكومة. لحسن الحظ، رفض فايفل عرضه.

رسم مقال «حكومة حزب العمل بعد ثلاث سنوات» الذي نُشر في مجلَّة «كومنتاري» عام 1948 صورة لحكومة تكافح لحلِّ مشكلات هائلة، لا لديكتاتورية في طور التكوين. أكَّد أورويل فيه قائلًا: «حتَّى الآن، وعلى الرغم من صرخات العذاب الصادرة من صحافة اللورد بيفربروك، لم تتعدَّ الحكومة على الحرية الفردية إلا بأقل القليل. بالكاد استخدمت الحكومة سلطاتها، ولم تنزلق إلى أيِّ فعل يمكن وصفه بشكل معقول بالاضطهاد السياسي». لكنه تساءل بالفعل عمَّا إذا كان حزب العمل سيتخذ منعطفًا استبداديًا في النهاية إذا ظلَّ الاقتصاد راكعًا على ركبتيه بعد عدة سنوات، لكنه لم يلحظ أيَّ ميول شمولية في حكومة أتلي المؤلَّفة من رجال عمليين. ولو كان هناك شيء مقلق، فهو اعتقاده بأنهم شديدو الحذر، خاصَّة عندما يتعلق الأمر بالرسائل المتبادلة. ثم كتب أن التقشُّف والهجرة البولندية «تسبَّبا في استياء أكثر مما ينبغي لو كانت الحقائق الأساسية قد شُرحت بشكل صحيح». شعر أورويل بالفزع من عداء الشعب تجاه اللاجئين البولنديين واليهود، وقال: «ثمَّة شك في أن نتمكَّن من حل مشكلاتنا من دون

تشجيع الهجرة من أوروبا».*[42] لكنه ظلَّ يأمل في الأفضل، وظلَّ يرى أن الحكومة الاشتراكية الديموقراطية الناجحة هي أفضل ترياق ممكن للاستالينية.

كان مقال أورويل المهم الأخير هو «خواطر حول غاندي»، وهو تقييم معقَّد للرجل الذي كان قد اغتيل في وقت سابقٍ من ذلك العام، بعد بضعة أشهر فقط من استقلال الهند الذي جاهد كثيرًا جدًّا لتحقيقه. كان أورويل معجبًا بشدة بشجاعة غاندي وانفتاحه وصدقه الفكري، لكنه لم يتقبَّل تقشُّفه وتدينه. بدت الحياة بلا جنس ولحوم وكحول وتبغ غير إنسانية على نحوٍ مبهم في نظر أورويل. من يريد أن يكون قدّيسًا؟ «إن جوهر الإنسانية هو ألا يسعى المرء إلى الكمال، وأن يكون على استعداد لارتكاب الخطايا أحيانًا في سبيل الولاء، وألا يصل بالزهد إلى نقطة تجعل الجماع الجنسي مستحيلًا، وأن يكون مستعدًا في نهاية المطاف أن تهزمه الحياة وتكسره، وهو الثمن الحتمي الذي يجب دفعه للشعور بالإخاء الإنساني بين البشر». كان ذلك بلا شك جوهر طبيعة أورويل.

* * *

هل أفسد أورويل صحَّته بشكل يتعذَّر إصلاحه بسبب عدم وجود كاتب آلة كاتبة؟ يعتقد فريدريك واربورج ذلك. عندما أنهى أورويل المسوَّدة النهائية في نوفمبر، طلب من ناشره أن يجد

42-* عندما كان أورويل يعيش في إيزلنجتون، لاحظ هو وبول بوتس إعلانًا في نافذة بائع جرائد يقول: «غرف للإيجار، نرحِّب بجميع الجنسيات». التفت أورويل إلى بوتس وقال: «هذا مطلع قصيدة جيِّد لك». (المؤلِّف)

له شخصًا يستطيع القدوم إلى بارنهيل لإعادة كتابة المخطوطة، التي كانت فوضى من الشطب والشخبطة والكتابة المتعجِّلة، لأنه لم يكن يعتقد أن أحدًا سيفهمها إلا إذا كان إلى جواره. لكن كريستين كانت قد عادت إلى الشرق الأقصى، ولم يعثروا سريعًا على كاتب آلة كاتبة يوافق على السفر إلى چورا، وكان أورويل نافد الصبر. بدأ يكتب بنفسه بمعدلٍ قاسٍ يبلغ نحو أربعة آلاف كلمة في اليوم، على مدار سبعة أيّام في الأسبوع، مستندًا إلى الفراش ما دام يستطيع تحمُّل نوبات الحمَّى والسعال الدموي.

في الأسبوع الأوَّل من شهر ديسمبر كتب الكلمات الأخيرة، ونزل بعدها إلى الطابق السفلي وتقاسم آخر زجاجة نبيذ في المنزل مع أڤريل وبيل، ثم عاد إلى الفراش مُضنى من المجهود الذي بذله.

في الثاني من يناير عام 1949، غادر أورويل بارنهيل للمرة الأخيرة للذهاب في رحلة طويلة إلى مصحَّة كوتسوولد في كرانام في جلوستيشاير. آلمه أن يغادر مكانًا مفعمًا بالحياة كهذا. قال لأستور بأسى: «كل شيء هنا يزدهر إلا أنا».



الفصل التَّاسع

تعلن الساعات الواحدة بعد الظهر

أورويل من 1949 إلى 1950

> «كتابي الجديد يوتوبيا في صورة رواية. لقد أفسدتها في حقيقة الأمر، يعود ذلك جزئيًّا إلى مرضي الشديد في أثناء كتابتي لها، لكنني أظنُّ أن بعض الأفكار الواردة فيها قد تثير اهتمامك. لم أستقر على العنوان بشكل نهائي بعد، لكنني أظنها سُتدعى ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

چورج أورويل، خطاب إلى چوليان سيمونز، بتاريخ 4 فبراير عام 1949.

لماذا إذًا سمَّاها «1984»؟

تُوجد نظرية شهيرة جدًّا -شهيرة إلى درجة أن كثيرًا من الناس لا يدركون أنها نظرية- تقول إن العنوان الذي اختاره أورويل كان مجرَّد عكس رقمي ساخر لعام 1948، لكن لا دليل على ذلك بالمرَّة. تبدو تلك الفكرة -التي اقترحها ناشر أعمال أورويل الأمريكي- لطيفة جدًّا إلى درجة لا تلائم كتابًا بمثل هذه الجدِّية، فضلًا عن أنها نكتة مُقيِّدة أُحادية البُعد. أثار الباحثون احتمالات أخرى. كتبت آيلين قصيدة للذكرى المئوية لمدرستها القديمة عنوانها «نهاية قرن: 1984». تُفتتح رواية الهجاء السياسي «نابليون من نوتينج هيل» التي كتبها جلبرت شيسترتون عام 1904 -والتي تسخر من فنِّ التنبُّؤ- في عام 1984. التاريخ أيضًا ذو

أهمِّية في رواية «العقب الحديدية». لكن كل تلك الصلات يتَّضح أنها محض مصادفات بالرجوع إلى مسوَّدات الرواية المبكِّرة التي كان أورويل ما زال يسمِّيها «آخر رجل في أوروبا». في البداية كتب: 1980، ثم 1982، ثم 1984. جاء التاريخ الأكثر شؤمًا في الأدب في هيئة تعديل في اللحظات الأخيرة.

الشيء المهم أن التاريخ لم يكن لمستقبل قريب جدًا. تميل الروايات الديستوبية إلى أن تكون إما على بُعد قرن على الأقل وإما قاب قوسين أو أدنى. إنه قريب بما يكفي من عام 1949 ليكون ملموسًا، ولكنه بعيد بما يكفي ليكون ذا مصداقية. التاريخ الذي وقع عليه اختيار أورويل يحقِّق نفس غرض الموقع الذي اختاره للأحداث (لندن)، ليقول إن الأمر ممكن أن يحدث هنا، وقريبًا. تُفتتح الرواية بونستون في سنٍّ تسعة وثلاثين عامًا، الذي يعلم أنه ولد إما في عام 1944 وإما في عام 1945، ما يجعله معاصرًا لريتشارد بلير. ربَّما كان أورويل يتخيَّل العالم الذي سيبلغ فيه ابنه منتصف العمر. يمكن أن تحدث أمور كثيرة في غضون خمسة وثلاثين عامًا. قبل خمسة وثلاثين عامًا من نشر الرواية، عندما أتى صيف عام 1914 المجيد، كان الأرشيدوق فرانز فرديناند لا يزال على قيد الحياة، وكان أورويل على وشك بلوغ الحادية عشرة، وكانت معسكرات الموت والقنابل الذرية خيالًا علميًّا.

إحدى النكات القاتمة في الرواية هي أن العام الذي تدور فيه الأحداث قد لا يكون عام 1984 من الأساس. عندما شرع ونستون في كتابة مذكراته، أدرك أنه غير متأكِّد من التاريخ لأنه «لم يكن من الممكن هذه الأيَّام تحديد أيِّ تاريخ مضى عليه أكثر

مـن عـام أو عاميـن». لهـذا فـإن السـطر الأوَّل الـذي كتبـه قـد يكون غيـر صحيـح. يخبـر أورويـل القـارئ فـي وقـت مبكِّـر بـأن هـذا كتابًـا لا يمكنـك أن تثـق فيـه بأحـد أو بشـيء، ولا حتَّـى بالتقويـم.

***

خلال الأشـهر التـي سـبقت النشـر، تحدَّث أورويل باسـتخفاف عن الروايـة. فـي رسـائل إلـى أصدقائـه، وصفهـا بأنهـا «كتـاب بغيـض»، و «كتـاب شـنيع حقًـا»، و «فكـرة جيِّـدة خُرِّبـت». كتـب إلـى واربـورج: «لسـت مسـرورًا بالكتـاب وفـي الوقـت نفسـه لسـت مسـتاءً تمامًـا منـه... أعتقـد أن الفكـرة جيِّـدة ولكـن التنفيـذ كان ليكـون أفضـل لـو لـم أكتبهـا تحـت تأثيـر مـرض السُّـلِّ». كان أورويـل قلقًـا بشـأن عـدم قدرتـه علـى كسـب المـال (اعتـاد أن يشـير بسـخرية إلـى أن مـرضَ السُّـلِّ «هوايـة باهظـة الثمـن»)، وتوقَّـع أن يُـدرَّ الكتـاب نحـو 500 جنيـه اسـترليني: «ليـس هـذا كتابًـا سـأراهن عليـه أن يبيـع كثيـرًا».*(43)

إلـى أيِّ مـدى يجـب أن نتعامـل بجدِّيـة مـع ادِّعـاء أورويـل بأنـه «أفسـد الكتـاب»؟ لطالمـا قلَّـل مـن شـأن رواياتـه. يرجـع ذلـك إلـى مزيـج مـن التواضـع وعـدم المغـالاة فـي التوقُّعـات والشـكِّ الحقيقـي فـي الـذات. قـال عـن «أيَّـام بورمـا»: «جعلتنـي أتقيَّـأ»، وعـن «ابنـة القـس»: «كانـت فكـرة جيِّـدة، لكننـي أخشـى أننـي لطَّختهـا بالوحـل»، ووصـف «مـن أجـل استنشـاق الهـواء» بأنهـا «فوضويـة». الرجـل الـذي أكَّـد أن كل الكُتُـب –مثـل كل الثـورات– فاشـلة، كتـب أيضًـا أن «أيَّ حيـاة عنـد النظـر إليهـا مـن الداخـل هـي مجـرَّد سلسـلة مـن الهزائـم».

43–* علـى سـبيل المقارنـة، أكسـبته إصـدارات مختلفـة مـن «مزرعـة الحيـوان» 12 ألـف جنيـه اسـترليني حتَّـى وفاتـه، أي مـا يعـادل 400 ألـف جنيـه اسـترليني اليـوم.

فـي كـرَّاس ملاحظاتـه فـي المستشـفى، تأمَّـل فـي الماضـي ملقيًـا نظـرة علـى واحـد وعشـرين عامًـا مـن الوقـت الضائـع وعـدم الوفـاء بالوعـود. حتَّـى فـي انشـغاله –وقـد كان كذلـك عـادةً– كان يخشـى نفـاد طاقتـه وموهبتـه، كان يخشـى مـن «كونـي عاطـلًا عـن العمـل، ومتأخِّـرًا فـي الوظيفـة الحاليـة، وكون مجمـل إنتاجـي ضئيـلًا بشـكل بائـس». فـي نظـر أورويـل، كانـت حيـاة الكاتـب عبـارة عـن حلقـة مفرغـة عصبيـة. فـي الواقـع، لـم يـر أحدٌ أن أورويـل فاشـل، باسـتثناء الصـوت فـي رأسـه، والـذي لـولاه لمـا كان لينجـز مـا أنجـزه.

بينمـا كان مسـتلقيًا فـي الفـراش بعـد صـراع مرهـق دام ثـلاث سـنوات لكتابـة الروايـة، ليـس مـن المسـتغرب أنـه شـعر أن «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» كان مـن الممكـن أن تكـون أفضـل. لكـن إذا غضضنـا النظـر عـن بعـض الخلـط فـي إطـار فتـرة اعتقـال ونسـتون الزمنـي فـي النـصّ، لـم يجـد المحـرِّر روچـر سـينهاوس مـن «سـيكر آنـد واربـورج» أيَّ أخطـاء بـارزة فـي مرحلـة التدقيـق والمراجعـة. النـدم الوحيـد الـذي أقـرَّ بـه أورويـل يتعلَّـق بمشـهد الغرفـة 101، وقـد أخبـر چوليـان سـيمونز بأنـه كان محقًّـا فـي اتِّهامـه بأنـه «مبالغـة صبيانيـة». فـي الواقـع، يحمـل هـذا المشـهد نفـس النكهـة القويـة الموجـودة عنـد إم آر چيمـس وإدچـار آلان بـو، الكاتبيـن اللذيـن أحبَّهمـا أورويـل وهـو تلميـذ. قـد لا تكـون الروايـة مثاليـة، لكنهـا لا تنطـوي علـى عيـوب خطيـرة يمكـن نسـبها إلـى المـرض أو التسـرُّع. إن تشـاؤمها قـويٌّ ومكثَّـف، وليـس باهتًـا.

صدمـت المخطوطـة واربـورج وأخـذت بلُبِّـه. امتـلأ تقريـره عـن الروايـة –المُصمَّـم لإرشـاد فريـق الترويـج للكتـاب– بالثنـاء المشـدوه:

«هـذا مـن بيـن أكثـر الكتـب المرعبـة التـي قرأتهـا فـي حياتـي... ليس لـدى أورويـل أيُّ أمـل، أو علـى الأقـل لا يتـرك لقارئـه أيَّ أمـل، ولا حتَّـى بصيـص ضـوء شـمعة ذابلـة. هـذه دراسـة لا تسـتحي فـي التشـاؤم، إذا اسـتثنينا فكـرة أنـه إذا كان فـي اسـتطاعة رجـلٍ تخيُّـل عـام 1984 بهـذه القتامـة، فيمكنـه أيضًـا أن يعمـل علـى تجنُّبـه». أوَّل قـارئٍ للروايـة هـو أوَّل مـن أسـاء فهمهـا. وضـع واربـورج افتراضيـن خاطئَيـن ظلَّ يردِّدهمـا مـن بعـده كثيـرٌ مـن القـرَّاء اللاحقيـن. الأوَّل -كمـا رأينـا- هـو اسـتنتاجه أن أورويـل تخلَّـى عـن الاشـتراكية. والثاني هـو نسـب نهايـة الروايـة الكئيبـة إلـى مـرض أورويـل: «لا يسـعني سـوى الاعتقـاد أن هـذا الكتـاب لا يمكـن أن يكتبـه غيـر رجـل فقـد الأمل هـو نفسـه، ولـو مؤقَّتًـا». ومـع ذلـك، لـم يَضعـف حمـاس واربـورج، واتَّفـق معـه زميلـه فـي الدعايـة ديفيـد فـارر: «فعـل أورويـل مـا لـم يفعلـه ويلـز، وخلـق عالمًـا خياليًّـا يبـدو حقيقيًّـا بشـكل مرعـب يجعلـك تهتـم لمـا يحـدث للشـخصيات التـي تعيـش فيـه». كان علـى يقيـن مـن أن الروايـة قـد تصيـر مـن الكتـب الأكثـر مبيعًـا، وأنهـم إن لـم يتمكَّنـوا مـن بيـع مـا لا يقـل عـن خمسـة عشـر ألـف نسـخة «يجـب أن يُقتلـوا رميًـا بالرصـاص».

تحرَّكـت دار «سـيكر آنـد واربـورج» سـريعًا. قبـل أن يغـادر أورويـل جـورا، كان لديـه وقـت لرفـض المقدِّمـة الدعائيـة التـي اقترحهـا سـينهاوس، والتـي جعلـت الروايـة تبـدو «كمـا لـو كانـت قصَّـة مثيـرة مختلطـة بقصـة حـب» لا محاولـة جـادة «لكشـف التداعيـات الفكريـة للشـمولية مـن خـلال طرحهـا بصـورة مبالـغ فيهـا». قطعًـا، كانـت الروايـة كل هـذه الأشـياء فـي الوقـت نفسـه وأكثـر. مـن حسـن الحـظ

أن المخطوطة لم تتطلَّب إعادة كتابة، لأن أورويل لم يكن قادرًا على مثل هذا العمل. كل ما كان يستطيع فعله هو مراجعة نسخة الطبع التي أتت إليه خلال شهري فبراير ومار، وإعداد قوائم بالأصدقاء والكُتَّاب المعاصرين الذين ينبغي لهم أن يتلقَّوا نسخًا مسبقة، ومن ضمنهم ألدوس هكسلي وهنري ميلر. اقترح على واربورج أن برتراند راسل قد يكون على استعداد لكتابة نبذة ترويجية موجزة، وقد كان كذلك بالفعل. من غير المحتمل أن أورويل كان سيوافق لو علم أن ناشريه الأمريكيين هاركورت وبريس سعيا للحصول على كلمة تصديق على الغلاف الخلفي من جيه إدجار هوفر، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي مكارثي النزعة: «نأمل أن تكون مهتمًا بالمساعدة في لفت انتباه الجمهور الأمريكي إلى هذا الكتاب، وبالتالي -ربَّما- المساعدة في درء الشمولية». لكن لأنه إنسان دائم الشكوكية، رفض هوفر الطلب، وبدلًا من ذلك فتح ملفًا لأورويل في المخابرات.

قاوم أورويل أيَّ محاولة «للتلاعب» بالكتاب. رفض بشكلٍ قاطع السماح لـ«نادي كتاب الشهر» في الولايات المتَّحدة بنشرِ طبعة من الرواية من دون الملحق وفقرات كتاب جولدشتاين، حتَّى مع المخاطرة بخسارة نحو 40 ألف جنيه استرليني حسب تقدير واربورج. أيُّ شخص ظنَّ أن هذه المقاطع المقالية في النصِّ يمكن التخلُّص منها لأنها لا تساهم في تحريك الأحداث إلى الأمام لم يستوعب هدف أورويل على الإطلاق. حتَّى قبل أن ظهور «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إلى النور، بدا أن الناس يصرُّون على إساءة فهمها.

***

كانت المصحَّة الخاصة كارنام القابعة فوق أعالي تلال كوتسوولد بيئة أفضل بكثير من مستشفى هيرمايرز. في شاليه أورويل، لم تكن الضوضاء السمعية المزعجة آتية من دوي المذياع المستمر، ولكن من نهيق مرضى الطبقة العليا السخيف من الشاليهات المجاورة. «لا عجب أن يكرهنا الجميع»، هكذا علّق. كان أكثر ما يحزنه هو افتقاده ابنه ريتشارد، فقد أبقى الصبي بعيدًا عنه لفترات طويلة خوفًا من إصابته بالعدوى. بدأ أورويل يقبل -على مضض- أن الإقامة العلاجية في هذه المصحَّة مختلفة: لن يُخرجوه في الوقت المناسب لقضاء صيفٍ آخر في چورا. ومع ذلك كان يأمل في البقاء حيًا من خمس إلى عشر سنوات أخرى، وطلب من واربورج أخذ رأيٍّ طبِّي آخر يخبره بصدق عن الوقت المتبقي له: «لا تظن أنني أحسم أمري للمغادرة. على العكس، لدي أسباب قوية للبقاء على قيد الحياة».

أخبر الدكتور أندرو مورلاند -صديق واربورج وأحد المختصِّين في شارع هارلي ستريت[44]- أورويل بأنه إذا أراد البقاء على قيد الحياة، فسيتعيَّن عليه تجنب العمل لمدَّة عام على الأقل. كانت تلك أخبارًا مؤلمة لهذا الكاتب المجتهد، إذ تركته بلا شيء لفعله سوى القراءة وحل الكلمات المتقاطعة وكتابة الرسائل المليئة بالفطنة والقيل والقال والتحليلات، التي لم تجد جميعها أيَّ مصرفٍ آخر. انتهت حياته المهنية في الصحافة المستقلَّة بمراجعات قصيرة لسيرة تشرشل الذاتية وسيرة ديكنز. أشار

44- شارع في حي مرليبون في لندن اشتهر منذ القرن التَّاسع عشر بعددٍ كبير من عيادات الأطبَّاء الخاصة. (المترجم).

المقال الأخير إلى النظرية الشهيرة التي تقول بأن جولة القراءة الأخيرة «استنزفت ديكنز بشكل كارثي»، وبالتالي يُعدُّ «قد انتحر في الواقع» بالعمل الشاق. هل يستطيع أورويل أن يكتب عن ديكنز في أيِّ مرَّة من دون أن يصف نفسه؟

تطلَّع أورويل إلى المستقبل. ورسم في ذهنه خطَّة جديدة. كان يفكِّر في قضاء الشتاء في مكان جميل على البحر، ربَّما في برايتون، وقضاء الصيف في چورا. عندما صار قادرًا على العودة إلى العمل في عام 1950، خطَّط لإنهاء مجموعة مقالات جديدة بعنوان «مقالات ورسومات»، ستتضمَّن مقالًا عن إيڤلين ووه (الذي وصفه بأنه «روائي كأفضل ما يكون... يتمسَّك بآراء يتعذَّر الدفاع عنها») وآخر عن أدب چوزيف كونراد (وبالأخص روايتيه السياسيتين «العميل السرِّي» و «في الأعين الغربية»). كان يرى أن كونراد، وهو كاتب مغامر آخر مفتون بعلم النفس القومي والسلطة والمثالية التي انحرفت، يتمتَّع بـ«نوع من النضج والفهم السياسي يستحيل وجودهما تقريبًا في أيِّ كاتبٍ آخر في ذلك الوقت». مثل رواية «الرجل الذي كان الخميس» لچيه كي شيسترتون، فإن رواية «العميل السرِّي» حرَّكتها موجة المؤامرات والتفجيرات والاغتيالات الأناركية التي اجتاحت أوروبا في مطلع القرن، ويمكن اكتشاف آثار كلتا الروايتين في أجزاء من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عندما يُجنِّد أوبراين ونستون قبل أن يخونه. هذا العالم السرِّي القابض، الذي يُجرى فيه تبادل الرموز والحقائب والعهود. في مسوَّدة الرواية الأولى، تخيل أورويل أن ونستون وچوليا صارا إرهابيين: «سيأتيان بخمسة كيلوجرامات من الديناميت وبمفجِّر،

ويشقّان طريقهما بين حشدٍ من أعضاء الحزب الداخلي ويفجِّران الجميع إلى أشلاء، بما في ذلك أنفسهم».

كانت هناك روايتان أخريان تتخمَّران في ذهن أورويل في عام 1949، كلتاهما لا علاقة لها بأوقيانيا. كان من المفترض أن تدور واحدة في عام 1945، والأخرى في العشرينيات. قال واربورج عن الأخيرة: «إنها رواية مدفوعة بالشخصيات أكثر من الأفكار، وتدور أحداثها على خلفية بورما». لم ينج إلا نبذة قصيرة كتبها أورويل تقول إنها «قصَّة غرفة تدخين». تشير تلك النبذة الحيوية والمرحة -مثل صفحات مذكَّراته- إلى أنه كان قد أخرج شحنة الشمولية أخيرًا من جسده، وأن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كان من المفترض أن تختتم إحدى مراحل عمله، لا حياته المهنية بالكامل.

بينما كان أورويل مستلقيًا في فراشه، تبلور النظام العالمي السائد بعد الحرب. في أبريل، شكَّلت عشرات الدول الغربية حلف الناتو. وفي أغسطس، فجَّرت روسيا بنجاح أوَّل قنبلة ذرية لها في سهوب كازاخستان. وفي أكتوبر، أسَّس ماو تسي تونج جمهورية الصين الشعبية.

أوقيانيا وأوراسيا وإيستاسيا.

* * *

لم يفتقد أورويل الرفقة في مصحَّة كارنام. بالإضافة إلى المشتبه بهم المعتادين (واربورج وموجريدج وباول وفايفل وبوتس وهولدن وكونولي)، تلقَّى زيارات من إيفلين ووه وآرائه التي يتعذَّر الدفاع عنها، والمؤرِّخ الاشتراكي آر إتش تاوني، وتشارلز كوران

المحاور اللجوج من جريدة «إيڤنينج ستاندارد»، الذي أرهقه بالجدل السياسي والشكوى من «سجائره المخيفة». أما أكثر من تردَّد عليه فكانت داعمته ومشجِّعته الدائمة سونيا براونيل البالغة من العمر تسعة وعشرين عامًا، التي عادت دخول حياته في شهر مايو. كانت تشتهر بأنها رفيقة جيِّدة.

ستعيش سونيا مع رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» واحدًا وثلاثين عامًا. كانت امرأة معقَّدة، تدين بسمعتها أحادية البعد كمتعالية باحثة عن الثراء ووكيلة غير جديرة بممتلكات أورويل للعديد من كُتَّاب السير والمنتجين وكُتَّاب السيناريو الذين عوَّقت جهودهم، وبالتالي لم يكن لديهم أيُّ حافز ليكونوا طيبين معها. حكم عليها هوسها العصابي بحماية إرث زوجها الراحل بحياة مليئة بالأعداء.

مثل أورويل، وُلِدت سونيا في الهند، حيث كان والدها تاجرًا، وترعرعت في إنجلترا. التحقت بمدرسة كاثوليكية داخلية كانت تكرهها بشدَّة رُبَّما أكثر ممَّا كان أورويل يكره «مدرسة سانت سيبريان». رأى أحد المعجبين بها أن تمرُّدها ضد تنشئتها كان أشبه بـ«وقود صاروخي لا ينضب». بعد أن تركت المدرسة، قضت تسعة أشهر رائعة في كلية في سويسرا، لكن الحلم تحطَّم بسبب حادث قارب لقى فيه صديقٌ سويسري -كانت قد أبعدته عنها من قبل- حتفه. في خضم يأسه، مات وجرَّها معه إلى أسفل، وتركها تعاني شعورًا مأساويًا بالذنب.

ألقت سونيا بنفسها بعد ذلك في أحضان لندن البوهيمية الصاخبة، وصارت صديقة وملهمة -وأحيانًا عشيقة- لرسَّامي

«مدرسة يوستون رود». وصفها ستيفن سبندر متذكِّرًا كما يلي: «كانت ربَّة جمال «مدرسة يوستون رود»، بوجهها الرينواري الدائري وعينيها الرائقتين وثغرها الكيوبيدي وشعرها الأشقر. ربَّما كانت شاحبة بعض الشيء، وتبدو كشخصٍ يجاهد دائمًا للانسلاخ من ذاته والهروب من طبقته الاجتماعية والدير الذي تعلَّمت فيه إلى عالم من الجمال الوثني يسكنه الفنانون وعباقرة الأدب الذين سينقذونها». فُتِن الرجال بضحكتها اللعوب الساطعة، والحزن البادي فيها الذي لم تستطع إخفاءه. على الرغم من ذكائها الشديد، وفطنتها الحادة اللامعة، كانت تشكِّك في موهبتها وتشعر بالانجذاب إلى ألمعية الآخرين، وخاصةً الرجال الأكبر سنًا. كتبت لاحقًا: «تُوفِّي والدي وسنِّي ستَّة أشهر، وكان زوج أُمِّي مجنونًا، ولم يكن هناك أيُّ شخص يعتني بي في حياتي».

عندما أطلق سيريل كونولي وجامع الأعمال الفنية بيتر واتسون مجلَّة «هورايزون» في أبريل عام 1940، سرعان ما أصبحت سونيا فردًا لا غنى عنه ضمن الفريق، وهكذا تقاطع طريقها مع طريق أورويل أوَّل مرَّة. كانت صريحة جدًا وماهرة، ولا تتقبَّل على الهُراء، وتعرف كيف تنجز الأمور. أمضت معظم فترة الحرب في وزارة النقل الحربي وعادت إلى «هورايزون» في عام 1945 بشخصية أقوى بكثير. تعرَّفت أورويل بشكل أفضل في تلك الفترة، خلال أيَّام الوحدة اليائسة، ونامت معه مرَّة واحدة على الأقل: كان الأمر عملًا خيريًا نوعًا ما من جانبها. التقيا مرَّة أخرى في لندن خلال عامي 1946 و1947 وأعطته زجاجة براندي ليأخذها معه إلى چورا. رسالته اللاحقة التي دعاها فيها لزيارة

الجزيرة (وهي رحلة لم تقطعها قط) كانت عملية وفاترة، لكنها تضمَّنت جملة واحدة تدلُّ على المودَّة: «في هذه الأثناء اعتني بنفسك وكوني سعيدة».

حاولت سونيا بالفعل أن تكون سعيدة. كانت تمضي الوقت في باريس بصحبة الوجوديين السَّامين المثيرين للجنون سارتر وبوڤوار وكامو، والفاتن الخلَّاب المتزوِّج موريس ميرلو بونتي. كان بونتي ماركسيًّا مثل سارتر. عرض مقالًا على سونيا للنشر في «هورايزون» دون جدوى، مهاجمًا فيه «ما يسمى بإنسانية» أورويل (من جانبه، كان أورويل يرى أن سارتر «جعجاعٌ بلا طحن»). انخرطت سونيا وميرلو بونتي في علاقة طويلة مضطربة تركتها محطَّمة عندما أنهاها الأخير في أواخر عام 1948. لذا عندما عاود كلٌّ من سونيا وأورويل التواصل، كانا شخصين ضعيفين ومجروحين، يُدرك أحدهما مخزون الحزن العميق في جعبة الآخر. أو كما قالت جوليا لونستون في الرواية: «أنا بارعة في اكتشاف اللا منتمين».

يدعم عنوان السيرة المتعاطفة التي كتبتها هيلاري سبيرلينج لسونيا بعنوان «الفتاة من إدارة الخيال» النظرية الشائعة بأن سونيا هي التي ألهمت أورويل لكتابة شخصية جوليا. تقول سبيرلينج: «إنها هي بشبابها وجمالها وصلابتها، وفوق كل شيء بحيويتها المشرقة». كلتا المرأتين نشيطة وصريحة وعملية جدًّا أيضًا. لكن هل يكفي هذا للربط بين الاثنتين؟ كان أورويل مقرَّبًا من سيليا باجيت وإنز هولدن أيضًا، وكان يراهما في أثناء تأليف «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أكثر ممَّا يرى سونيا. لا تبدو

سونيا وجوليا ذات الشعر الداكن متشابهتين، وبالتأكيد لا تتشابهان في التفكير.

في الظاهر، جوليا مواطنة نموذجية تنتج قصصًا ومواد إباحية رخيصة ليستهلكها العوام، وتشارك بحماس في «رابطة مكافحة الجنس» و «دقيقتي الكراهية»، وتفوح منها رائحة «ملاعب الهوكي والحمَّامات الباردة والنزهات المجتمعية» إلى درجة أن ونستون ظنَّ في البداية أنها جاسوسة لشرطة الفكر وتخيَّل تحطيم جمجمتها بحجرٍ. أما في السرِّ، فهي محتالة أكثر من كونها مهرطقة، وتكرِّس دهاءها الكبير لتأمين متع السوق السوداء وإغواء أعضاء الحزب. ولأنها بارعة ولكن غير مثقَّفة (فهي لا تحب القراءة)، فهي «متمرِّدة من الخصر إلى الأسفل فحسب». وقبل كل شيء، هي امرأة واقعية تتمتَّع بمهارات بقاء عبقرية، وقد توصَّلت إلى كيفية لعب اللعبة دون التشكيك في القواعد قط. يوضِّح أحد السطور من مسوَّدة أوَّلية الفرق الواضح: «بينما كان ونستون من يحلم بإسقاط الحزب بتمرُّدٍ عنيف، كانت جوليا من تعرف كيف تبتاع القهوة من السوق السوداء».

من الناحية الفلسفية، تمثِّل جوليا طريقة ثالثة للعيش في ظلِّ حكم الإنجوسك. يدَّعي أوبراين أنه لا يوجد شيء اسمه حقيقة موضوعية، ويصرُّ ونستون على وجودها، بينما تؤكِّد جوليا أن هذا لا يهم. لأنها لا تستطيع تذكُّر الماضي ولا تهتم بالمستقبل، فهي تعيش بالكامل في الحاضر، وهذا ما يريده الحزب. في الواقع، إنها لا تُبالي بالمجتمع الذي تعيش فيه إلى درجة أنها غفت في أثناء ما كان ونستون يقرأ كتاب جولدشتاين بصوت

عالٍ. من بعض النواحي، هي أذكى من ونستون، وتشعر بحدسها أن جولدشتاين وجماعة «الأخوية» الثورية على الأرجح وهمان اختلقهما الحزب. لكن ذكاءها ساخرٌ، بل وعدمي. لقد تفوَّهت بأمور عديدة لا تصدِّقها إلى درجة أنها لم تعد تؤمن بأيِّ شيءٍ لا تستطيع لمسه. عندما يجبرها ونستون على تذكر أن أوقيانيا كانت في حالة حرب مع أوراسيا، لم تستطع فهم أهمية الأمر، وردَّت بصبرٍ نافد: «من يهتم؟ نحن نعيش في حربٍ دموية تلو الأخرى، والجميع يعرف أن كل الأخبار أكاذيب على أيِّ حال».

اعتمدت الدول الشمولية على وجود أمثال چوليا. بعد فترة وجيزة من الحرب، وفي جدالٍ مع أورويل على صفحات «بوليمك»، استشهد الكاتب الشيوعي راندال سوينجلر بالنتائج التي توصَّلت إليها القوَّات الأمريكية التي أجرت مقابلات مع أنصار النازية السابقين في ألمانيا المحتلة: «أوضح النازيون لشعبهم أنه بما أن كل الحقائق نسبية، فمن المستحيل معرفة أو فهم أيِّ شيء... لقد أعفت الرجل العادي من محاولة الفهم، وأعطته في الوقت نفسه وعيًا بالصدق خائب الرجا».

أكَّدت هانا آرنت هذا الانطباع في كتاب «أصول الشمولية»: «المواطن المثالي في نظر حكم الشمولي ليس النازي المقنَّع أو الشيوعي المقنَّع، ولكن الأشخاص الذين لم يعودوا يميِّزون بين الحقيقة والخيال (أي واقع التجربة)، أو بين الصواب والخطأ (أي معايير الفكر)». خلصت آرنت إلى أن الألمان كانوا مهيَّئين بالفعل للشعور بهذه الطريقة بسبب حالة عدم اليقين الفوضوية التي سبقت صعود هتلر:

فـي عالـم دائـم التغيُّـر ومُسـتعصٍ علـى الفهـم، وصلـت الجماهيـر إلـى النقطـة التـي سـيصدِّقون فيهـا -فـي الوقـت نفسـه- كل شـيء ولا شـيء، وسـيؤمنون أن كل شـيء جائـز، وأنـه لا تُوجـد حقيقـة... اكتشـفت البروباجنـدا الجماهيريـة أن النـاس مسـتعدون فـي جميـع الأوقـات لتصديـق الأسـوأ، بغـض النظـر عـن مـدى سـخافته، ولا يعترضـون بشـكل خـاص علـى الخـداع، لأنهـم يعتبـرون أن كل البيانـات كاذبـة علـى أيِّ حـال.

هـا هـو شـعارٌ حزبـي جيِّـد كأيِّ شـيءٍ آخـر توصَّـل إليـه أورويـل: كل شـيء جائـز، ولا تُوجـد حقيقـة.

* * *

مـن اللافـت للنظـر كـم الأفـكار المبدئيـة التـي كتبهـا أورويـل فـي عـام 1943 أو 1944 التـي ظهـرت فـي المخطوطـة النهائيـة: الإنجوسـك، واللغـة الجديـدة، و «معيـار التفكيـر المـزدوج»، وثـلاث الـدول العُظمـى، وشـعارات الحـزب المتناقضـة، وتزييـف التاريـخ، ودقيقتـا الكراهيـة، والخائنـون الثلاثـة، والعـوام. كلهـا موجـودة فـي دفتـر ملاحظاتـه. أيضًـا عناصـر الحبكـة الرئيسـية. «الكاتـب» (ونسـتون) يخـوض محادثـة خطيـرة مـع «س مـن النـاس» (أوبرايـن غالبًـا)، ويقيـم علاقـة قصيـرة مـع «ص مـن النـاس» (چوليـا). كان الهـدف مـن النصـف الثانـي مـن الكتـاب أن يشـمل الاعتقـال والتعذيـب والاعتـراف مـن البدايـة، ومثـل جميـع رواياتـه «الوعـي الأخيـر بالفشـل».

ومـع ذلـك، أجـرى أورويـل بعـض الإضافـات المهمـة. إحداهـا كانـت شاشـات الرصـد المُسـتقبلة والمُرسـلة. مثـل معظـم الشـعب، لـم يكـن أورويـل يملـك جهـاز تلفـاز. بحلـول يونيـو عـام 1948، كان هنـاك خمسـون ألـف جهـاز تلفـاز فقـط فـي بلـدٍ يبلـغ تعـداد سـكّانه خمسـين مليـون نسـمة (علـى الرغـم مـن أن هـذا العـدد كان يتزايـد باطّـراد)، ولـم يكـن يُوجـد سـوى القليـل جـدًّا لمشـاهدته.*[45] شـعر بعـض النـاس بالخـوف مـن أن الجهـاز الجديـد سيشـاهدهم كمـا يشـاهدونه. عندمـا أعلـن مديـر مكتـب البريـد، السـير كينجسـلي وود، وصـول التليفزيـون فـي عـام 1935، شـعر بأنـه مضطـرٌّ لأن يضيـف: «أود أن أطمئـن أيَّ مسـتمعٍ متوتّـرٍ أنـه علـى الرغـم مـن روعـة التلفـاز فـلا يمكـن اسـتخدامه بهـذه الطريقـة لحسـن الحـظ». لكـن كان مـن المنطقـي افتـراض أن التكنولوچيـا سـتتطوّر يومًـا وتلحـق بالرغبـات السياسـية للـدول البوليسـية. تفاخـر المسـؤول النـازي روبـرت لـي ذات مـرة قائـلًا: «الشـخص الوحيـد الـذي لا يـزال يتمتّـع بفرديـة خاصـة فـي ألمانيـا هـو الشـخص النائـم». فـي آيرسـتريب وان، وبيـن شاشـات الرصـد وشـرطة الفكـر والمخبريـن وحوّمـات المراقبـة والميكروفونـات المخفيـة وحِـدّة نظـرة الأخ الأكبـر المخيفـة، يشـعر المواطنـون أنهـم مراقبـون «فـي اليقظـة والنـوم»، ويتصرفـون وفقًـا لذلـك.

45–* من قبيل المصادفة أن المتحكِّم في خدمة تليفزيون «بي بي سي» من عام 1947 إلى عام 1950 كان الروائي نورمان كولينز، الذي حرَّر أعمال أورويل عندما كان يعمل في مؤسَّسة جولانش (ألمح الرجل إلى أن أورويل كان يعاني «نوعًا من عدم الاستقرار العقلي»)، وتقاطعت مساراتهما مرَّة أخرى في قسمِ المحادثات الخارجية. كانت وسائل الإعلام البريطانية وقتها عالمًا صغيرًا جدًّا. (المؤلف).

كان الأخ الأكبر «المعصوم من الخطأ، مطلق القوَّة» ابتكارًا آخر أتى لاحقًا. إن حاكم أوقيانيا المعنوي الغامض مطلق الوجود هو مزيج من «الرقم واحد» الذي ابتكره آرثر كويستلر و «المُنعم» الخاص بزامياتن وهتلر، وقبل هؤلاء «العم جو» أو ستالين، الذي كتب عنه أندريه جيد: «صورته تُرى في كل مكان، واسمه على شفاه الجميع، ولا يخلو خطابٌ عام من الثناء عليه. هل ينبع هذا من عبادة أم حب أم خوف؟ من يعرف؟». غالبًا ما كان يُنعت ستالين بـ«اللغز المستعصي على الحل»، أو «الغامض»، أو «أبو الهول الشيوعي»، الذي تحجبه دائرته الداخلية عن الجماهير. فكلَّما بدا أنه أقل واقعية من البشر الذين يفتقرون إلى الكمال صار أقوى. كتبت آرنت: «أصبح مؤهل الزعيم الجماهيري الرئيسي هو العصمة الأبدية من الخطأ. لا يجوز أن يعترف بأيِّ غلطة... يهتم الزعماء بشيء واحد يطغى على جميع الاعتبارات النفعية الأخرى: جعل توقُّعاتهم تتحقق».

لا أحد يعرف أين يعيش الأخ الأكبر في أوقيانيا، ولا إن كان يعيش من الأساس؟ «أهو موجود كما أنا موجود؟»، هكذا يسأل ونستون أوبراين، فيجيب أوبراين: «أنت غير موجود»، متجنِّبًا السؤال بنقضه. تمتلئ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بمثل هذه الأسئلة. هل الأخ الأكبر شخصٌ حقيقي؟ هل جولدشتاين كذلك؟ من كتب «الكتاب»؟ هل «الأخوية» موجودة بالفعل؟ هل الصواريخ التي تمطر على آيرستريب وان تُطلق من أوقيانيا نفسها حقًّا؟ هل العجوز في وزارة الحب والدة ونستون؟ هل كانت جوليا عضوة في شرطة الفكر بعد كل شيء؟ أيُّ عام هذا حقًّا؟ وكم من الوقت يمر

خلال الأحداث؟ ليس من المستغرب أن يكون للرواية أتباعٌ من المصابين بجنون الارتياب، لأنها تصف عالمًا غير مستقر تكون فيه نظريات المؤامرة مقبولة تمامًا. كما أخبر أوبراين ونستون، متجنّبًا طرح سؤاله حول «الأخوية»: «ما دمت على قيد الحياة، سيظلّ هذا اللغز في ذهنك بلا حل». معظم ما يعرفه ونستون عن طريقة عمل العالم يأتي من كتاب جولدشتاين، الذي قد يكون خدعة من تأليف الحزب. وكل ما يقوله أوبراين له في أثناء الاستجواب قد يكون غير حقيقي، بما في ذلك الادّعاء بأن كتاب جولدشتاين خدعة من تأليف الحزب. يُوجد أقل القليل ممَّا هو حقيقي بشكل قاطع.

هذا الالتباس المستمر هو ما يجعل من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عملًا خياليًا رفيع المستوى، لا مقال سياسي رُكّبت له حبكة. إن سمعة أورويل كمثال على الشفافية، بأسلوبه الصريح وحبه للحقائق القاسية، تحجب براعته الفنية، وتغري الناس بفهم الكتاب بالمعنى الحرفي، حتّى عندما يطالبهم النص نفسه بعدم فعل ذلك. إن الرواية المليئة بالأحلام والهلوسات والذكريات المهتزّة والمعلومات المزيّفة والتلميحات إلى المرض العقلي، لهي حكاية غير مستقرة تمامًا. كان هذا موجودًا في الخطوط العريضة الأصلية التي كتبها أورويل: «تأثير البلبلة على الرؤوس، وإعادة صياغة الأحداث، وتغيير التواريخ، وما إلى ذلك... وشك المرء في سلامته العقلية». بهذا التشتُّت ومع وجود تهديد مبهم يتعذّر فهمه، يبدو الكتاب ككابوس حقيقي ومحاكاة مقبولة في الوقت نفسه للحياة في ظلّ حكم دولة شمولية. يرى ونستون أن

«كل شـيء تحـوَّل إلـى ضبـاب» أو «تلاشـى فـي عالـم الظـلال».

ثمَّـة شـيء واحـد فقـط يعرفـه ونسـتون علـى وجـه اليقيـن. قـد لا تكـون «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» نبـوءة، لكنهـا تحتـوي علـى نبـوءة: علـى تبصُّـرٍ بالهزيمـة والمـوت. كل أبطـال أورويـل فشـلوا فـي مسـاعيهم، لكـن وحـده ونسـتون الـذي كان يعلـم أنـه سيفشـل. قبـل سـبع سـنوات، أخبـره أوبرايـن فـي المنـام بأنهمـا سـيلتقيان «فـي مـكان لا يوجـد فيـه ظـلام»، وقـد تبيـن أنـه يعنـي وهـج المصابيـح الكهربائيـة التـي لا تُطفـأ فـي وزارة الحـب. «لـم يكـن ونسـتون يعـرف مـا يعنيـه الحلـم، لكنـه كان يعلـم أنـه سـيتحقَّق بطريقـة أو بأخـرى». هـذه المعرفـة المسـبقة تطـارده وتقـضُّ مرقـده. فـي اللحظـة التـي يبـدأ فيهـا مذكراتـه، يعلـم ونسـتون أن شـرطة الفكـر ستعثر عليـه فـي النهايـة. توجـد إشـارات عديـدة إلـى «الرعـب المحتـوم» و «المـوت الوشـيك» و «تحقُّـق عمليـة بـدأت منـذ سـنوات». إنـه يختبـر هواجـس الغرفـة 101 قبـل أن يدخلهـا، بـل يختبـر أيضًـا الحجـج التـي سيقدمها أوبرايـن نفسـها. فـي عقـل ونسـتون، الفـرق بيـن الذاكـرة والنبـوءة وبيـن الماضـي والحاضـر والمسـتقبل متذبـذبٌ وغيـر واضـح. «احتُويـت النهايـة فـي البدايـة».

لـذا فـإن المنعطـف الشـهير فـي الروايـة، عندمـا يكشـف السـيِّد تشـارنجتون وأوبرايـن عـن طبيعتهمـا الحقيقيـة، لـم يكـن منعطفًـا مفاجئًـا فـي الوقـع الأمـر علـى الإطـلاق. هـذا مـا كان سـيحدث مـن البدايـة، بطريقـة أو بأخـرى. كتـب أورويـل عـدَّة مـرَّات أن أفعـال ونسـتون «لـم تحـدث فرقًـا». الروايـة بأكملهـا تأريـخٌ لمـوت مُتنبَّـأ بـه -بـل مـا هـو أسـوأ مـن المـوت: التبخيـر، والتلاشـي- علـى الرغـم مـن

أنها تنتهي قبل أن يتلقَّى ونستون الرصاصة التي لا مفرَّ منها. ما إذا كان عزم ونستون على المضي قدمًا يُظهر شجاعةً هائلةً من جانبه أو قضاءً وقدرًا لا يد له فيه، فهو تفصيلة تُركت مفتوحة للتأويل، لكنه يعلم ويتقبَّل عواقب أفعاله. «في هذه اللعبة التي نلعبها، ليس في مقدورنا الفوز»، هكذا أخبر جوليا، ممهِّدًا لجملة أورويل الجوهرية التالية: «بعض أنواع الفشل أفضل من الأخرى، هذا كل شيء».

يقول أوبراين لونستون في وزارة الحب: «لا تخدع نفسك، أنت تعرف ذلك بالفعل، لطالما عرفته». لكن كيف عرف أوبراين أن ونستون يعرف؟ من أوبراين هذا؟ يصفه أورويل بأنه ضخم لكن رشيق، قبيح لكن ساحر، ويفوح منه عبق الذكاء الهائل والسخرية الماكرة والصلابة الغامضة. بصفته أداة لسلطة الدولة، فهو أكثر جاذبية وتعاطفًا من جليتكين بارد الدم الذي ابتكره كويستلر، وبالتالي هو أكثر خطورة. «كان الجلَّاد، وكان الحامي، وكان المحقِّق، وكان الصديق».

تشير لفظة محقِّق (Inquisitor) إلى الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك اسمه، أوبراين، ونسخته الملتوية من التعاليم المسيحية والقربان المقدس. في شقَّة أوبراين، يشعر ونستون «بموجة من الإعجاب، تقترب من التقديس» تجاه هذا «الكاهن المهيمن». كان لأورويل علاقة معقدة بالدين. كان ملحدًا، ومع ذلك كان يعتقد بأن الشمولية لا يمكن أن تزدهر إلا في وسطٍ من الفراغ الروحي، وكان يشعر بميل وجداني نحو البروتستانتية. في آيرستريب وان، صارت إحدى الكنائس السابقة مكانًا لممارسة الجنس المحرَّم أو

لعرض البروباجندا، أو هي مجرَّد اسم في تلك الأغنية القديمة الغربية «برتقال وليمون». لكنه كان منتقدًا راسخًا للكاثوليكية، وكثيرًا ما قارنها بالفاشية والشيوعية بوصفها مثالًا بارزًا على العقيدة القمعية. بل يمكن حتَّى رؤية الخلط بين الفكر والقول والفعل في صلاة الاعتراف بالذنب على أنه الأساس المنطقي الذي أقام عليه مفهوم «جريمة التفكير».

ربَّما يتمتَّع أوبراين أيضًا بقدرات إلهية. نحن نعلم أنه قرأ مذكِّرات ونستون -ومن هنا استعمل معادلة 2 + 2 = 5 كسلاح ضدّه- لكنه استخدم كذلك عبارات أخرى مثل «حُذِفت من مجرى التاريخ» و «نحن في عداد الموتى»، التي لم يدوِّنها ونستون قط. إنه يبدو كأنه يعرف كل فكرة في عقل ونستون، وكمن يتحدَّث إليه في أحلامه. في المرَّة الأولى التي يراه فيها ونستون يشعر «كما لو أن عقليهما انفتحا وأن الأفكار تتدفَّق من أحدهما إلى الآخر عبر أعينهما». في وقتٍ لاحق، يأتيه انطباع بأنه «يكتب اليوميات من أجل أوبراين، وإلى أوبراين». أوبراين هو الشخص الوحيد الذي يثق به تمامًا من الوهلة الأولى، وآخر شخص يجب أن يثق به. إنه شخصٌ حقيقي وجزء من ونستون في الوقت نفسه: إنه ظِله. «لا تُوجد فكرة خطرت على باله، أو قد تخطر على باله، لم يعرفها أوبراين ويختبرها ويرفضها منذ فترة طويلة. كان عقله يحتوي على عقل ونستون». بمجرَّد دخول ونستون إلى وزارة الحب، من المستحيل أخذ الرواية حرفيًّا. حتَّى لو كنت تعتقد أن أوبراين متخاطرٌ ذهني بالفعل (يُقال إن علماء الإنجسوك يعملون على «اكتشاف ما يفكِّر فيه الآخر رغمًا عن إرادته»)، فلماذا

يبدأ بمراقبة عامل نكرة من عمَّال الحزب الخارجي قبل سبع سنوات من تمرُّده؟ وحتَّى في هذه الحالة، فإن عصيان ونستون لا يعدو كونه حفنة سطور زهيدة في يوميَّات مشوَّشة (تُستخدم في الغالب كمثال على عقلٍ شوَّهته البروباجندا) وبعض الممارسات الجنسية في الهواء الطلق. إنه لا يكلِّف نفسه سوى عناء قراءة فصلٍ ونصف من كتاب جولدشتاين ويتركه في منتصف الجملة التي تَعِد بشرح دوافع الحزب الحقيقية. يا له من ثوري هُمام.

لذا فإن ونستون ليس «آخر رجل» حقًّا. إنه فقط آخر ضحية رمزية يُجرى تفكيكها وإعادة بنائها. «هذه التمثيلية التي مثَّلتها معك على مدار سبع سنوات سيُعاد تمثيلها مرارًا وتكرارًا، جيلًا بعد جيل، ودائمًا بأشكال أكثر دهاءً»، هكذا يقول أوبراين. كان يُوجد من هم أمثال ونستون من قبل، وسيأتي من هم أمثاله من بعد. ومثل نظام ستالين خلال «التطهير الكبير»، لا يخشى الحزب الهراطقة. إنه يحتاج إليهم، لأن قوَّته تتجدَّد بسحقهم. أطلق مالكوم موجريدج على ذلك اسم «استعراض القوَّة المستمر»: «إن الحكومة القائمة على الإرهاب تحتاج باستمرار إلى إظهار قوَّتها ورسوخها».

انتقد أورويل الاستالينيين لقولهم إن الغاية تُسوِّغ الوسيلة، لكن في أوقيانيا تُسوِّغ الوسائل نفسها. الهدف في حدِّ ذاته هو ذبح الأضاحي، لكن ليس تقرُّبًا إلى شيء. المواطن المثالي لا خوف منه، التحدِّي هو تمزيق العقل الحر إلى أشلاء. بهذه الطريقة فقط يمكن تحقيق «النصر بعد النصر» في دهاليز وزارة المحبة: الانتصار على الماضي، وعلى الفرد، وعلى الواقع نفسه. أو كما

كتب أورويل في مقال «منع الأدب»: «ربَّما تتطلَّب الشمولية على المدى الطويل عدم الإيمان بوجود ما يُسمَّى بالحقيقة الموضوعية من الأساس».

الآن نأتي إلى أعظم إنجاز ساخر لأورويل: المرحلة الأخيرة المنطقية لحرب الشمولية على الواقع. عندما يدَّعي أوبراين أنه يمكن أن يبرز من الأرض مثل فقَّاعة الصابون، أو يُطفئ النجوم كأنها شموع، أو يُثبت أن الشمس تدور حول الأرض، فهو ليس مجنونًا بل فيلسوفًا. في مواجهة ذاتية أوبراين اللا محدودة، نجد أن اعتراضات ونستون بأنه تُوجد أشياء صحيحة وأشياء خاطئة لا تعدو كونها قلاع من رمال تواجه موجًا عاتيًا. يقول أوبراين: «نحن نتحكَّم في المادة لأننا نتحكَّم في العقل»، وهو بهذا يأخذ فكرة «التلاعب بالعقول» إلى حدِّها الأقصى. «يكمن الواقع في جمجمة الإنسان». قبل أن يتمكَّن من إقناع ونستون بقول إن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة، عليه أن يلغي حقيقة أن للرقمين أربعة وخمسة أيَّ وجودٍ مستقل. الرقم لا يكون خمسة إلا لأن أوبراين يقول إنه خمسة. إذا قال إنه $\sqrt{-1}$، فسيكون $\sqrt{-1}$.

- «كم إصبعًا ترى في يدي يا ونستون؟».

- «لا أعرف. لا أعرف. سوف تقتلني إذا فعلت هذا من جديد. أربعًا، خمسًا، ستًّا. حقًّا لا أعرف».

- «هذا أفضل».

بمعنى آخر، كل شيء جائز، ولا شيء حقيقي.

يظلُّ الهجاء بلا ضحك هجاءً، والغاية كلها هي المبالغة. ليس أوبراين رجلًا، إنه تجربة فكرية، ومقترحٌ متواضع. بشكلٍ عام،

يشـرح الثلثـان الأوَّلان مـن الروايـة بكثيـر مـن المبالغـة مـا حـدث فـي أوروبـا بالفعـل، بينمـا يُلمِّـح الثلـث الأخيـر إلـى مـا يمكـن أن يحـدث إذا أُزيـل كل حـدٍّ يمكـن تصوُّره. يصـف ستيڤـن سـبندر السـرد بأنـه: «متواليـة هندسـية مـن الرعـب». أوبرايـن هـو الجـواب على سؤال: «ما أسـوأ شـيء يمكـن أن يحـدث؟». إنـه هتلـر وسـتالين بعـد تجريدهمـا مـن الخطـب المُسـوِّغة لأفعالهـم. إنـه الحـذاء الـذي يعلـو الوجـه. «لا هـدف مـن الاضطهـاد غيـر الاضطهـاد. ولا هـدف مـن التعذيـب غيـر التعذيـب. ولا هـدف مـن السـلطة غيـر السـلطة».

لـم يكـن الدافـع الـذي حـثَّ أورويـل علـى صـوغ مثـل هـذا السيناريو بالـغ التطـرُّف هـو اليـأس، لكنـه لـم يكـن الأمـل أيضًـا. أوضـح أورويـل فـي بيـانٍ صحفـي بعـد صـدور الكتـاب: «العبـرة التـي يجـب استخلاصها مـن هـذا الموقـف الكابوسـي الخطيـر يسـيرة: لا تسـمح بحـدوث ذلـك. الأمـر يعتمـد عليـك».

***

نُشـرت «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» عـن دار «سـيكر آنـد واربـورج» فـي 8 يونيـو عـام 1949. فـي مدينـة بلاكبـول، عقـد حـزب العمـل اجتماعـه السـنوي. فـي باريـس، وصـل وزراء الخارجيـة إلـى طريـق مسـدود بشـأن مسـتقبل ألمانيـا. فـي واشـنطن، أكَّـد الرئيـس ترومـان دعـم الولايـات المتَّحـدة لكوريـا الجنوبيـة. نشـرت صحيفـة «تايمـز» اللندنيـة فـي عددهـا الصباحـي تقريـرًا على الصفحـة الأولـى عـن مؤتمـر صحفـي للجنـرال چـان سـموتس، رئيـس الـوزراء السـابق لجنـوب إفريقيـا والداعـم البـارز للأمـم المتَّحـدة: «كانـت البشـرية تعيـش فـي حالـة مـن الشَّـفق روحـي، ولـم يكـن أحـد يعلـم مـا إذا كان القـادم فجـرًا أم غروبًـا».

من المؤكد أن أورويل قدَّم العلاج بالصدمة الذي تحدَّث عنه في مراجعته لكتاب جولانش «أحلك أيَّام ألمانيا». ذكر ملحق مراجعة الكتب في صحيفة «نيويورك تايمز» أن رد الفعل النقدي لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كان إيجابيًا بأغلبية ساحقة، وقد «غطَّت صيحات الرعب على صوت التصفيق»، وقارن الملحق «حالة التوتُّر» بالضجَّة التي أحدثتها معالجة أورسون ويلز الإذاعية لرواية «حرب العوالم». قُورن الكتاب بهزَّة أرضية وبحزمة من الديناميت وبمُلصق على زجاجة سم. «قرأتها وأنا تعتريني قشعريرة باردة لم أشعر بمثلها منذ أن قرأت عن الياهوز لسويفت وأنا طفل»، هكذا كتب چون دوس باسوس إلى أورويل، معترفًا بأن كوابيسًا عن شاشات الرصد راودته. أخبر عددٌ من بائعي الكتب واربورج بأنهم لم يتمكَّنوا من النوم بعد قراءة نسخهم المبكِّرة. في نظر إي إم فورستر، كانت الرواية «فظيعة جدًا إلى درجة تحول دون قراءتها دفعة واحدة».

وصل الثناء إلى أورويل في مصحَّة كارنام من آرثر كويستلر في باريس («كتاب مجيد»)، ومن ألدوس هكسلي في كاليفورنيا («شديد الأهمِّية»)، ومن مارجريت ستورم چيمسون في بيتسبرج («رواية ستقف شاهدة على عصرنا»)، ومن لورانس داريل في بلجراد («إن قراءتها في بلدٍ شيوعي لتجربة حقيقية لأنه يمكن للمرء أن يراها في كل مكان من حوله»). في غضون أسابيع قليلة، ذكر النائب المحافظ هيو فريزر الرواية في البرلمان، الذي رأى في أوروبا الشرقية «الدولة التي وصفها السيِّد أورويل مؤخَّرًا في كتابه «1984»». لم يكن جميع القرَّاء الأوائل معجبين. شعرت

چاسينثا بوديكوم، التي كانت قد علمت مؤخَّرًا فقط أن الكاتب الشهير چورج أورويل وصديق طفولتها إريك بلير هما الشخص نفسه، بالرعب إلى درجة أنها قطعت اتصالها بها. قالت متذكِّرة: «كانت «1984» في نظري كتابًا مخيفًا وبائسًا وانهزاميًا. لم أستطع فهم لماذا كتبه، لذلك لم أراسله على الإطلاق».

كان أكثر النقاد ذكاءً هم الذين فهموا رسالة أورويل التي تقول إن جرثومة الشمولية موجودة فينا كما هي موجودة فيهم. في كتاب جولدشتاين، «بالكاد يمكن التمييز» بين أيديولوچيات الدول الثلاث العُظمى التي يُفترض أنها متناقضة، أما الفروق بين البنى الاجتماعية فيها فمطموسة بالكامل. كتب فورستر: «يستتر الأخ الأكبر خلف ستالين، وهو ما يبدو مناسبًا، لكن الأخ الأكبر يستتر أيضًا خلف تشرشل وترومان وغاندي وأيِّ زعيم تستخدمه البروباجندا أو تخترعه». لخَّص جولو مان من صحيفة «فرانكفورتر روندشاو» الألمانية تيمة أورويل على أنها «الخطر الشمولي الذي يكمن داخلنا». لاحظ دانيال بيل في مراجعته الفلسفية في مجلَّة «نيو ليدر» أن «أورويل لم يكتب مقالاً عن السياسة، بل أطروحة عن الطبيعة البشرية».

لكن لم يدرك كل ناقد هذه الحقيقة الجوهرية. لقد كانت الرواية عملًا يضغط بشدَّة على أعصاب القرَّاء السياسية ويكشف عن تحيُّزاتهم. اعتقد النقَّاد المحافظون أن الكتاب لم يكن إدانة قاطعة للاتِّحاد السوفيتي فحسب، بل لجميع أشكال الاشتراكية بما في ذلك اشتراكية أتلي. أفردت مجلَّة «لايف» المعادية للشيوعية بشدة التي يرأس تحريرها هنري لوس ثماني

صفحـات برسـوم كاريكاتوريـة لأبنـر ديـن، وكتبـت: «يعـزِّز الكتـاب الشـكوك المتزايـدة فـي أن بعـض الداعميـن البريطانييـن لحـزب العمـل يسـتمتعون بالتقشّـف ويـودون الحفـاظ عليـه». أمـا جريـدة اللـورد بيڤربـروك «إيڤنينـج سـتاندارد» اقترحـت بخبـث أن الروايـة يجـب أن تكـون «واجبـة القـراءة» للنائبيـن وهـم فـي طريقهـم إلـى مؤتمـر حـزب العمـل فـي برايتـون.

قـرأ النقّـاد الشـيوعيون بدورهـم الروايـة علـى أنهـا تشـويه مباشـر للاشـتراكية. كتـب صمويـل سـيلين، رئيـس تحريـر مطبوعـة «ماسـز آنـد مينسـتريم»، مسـتنكرًا بشـكل هسـتيري «مـرض» أورويـل، مدفوعًـا إلـى حدٍّ كبيـر باشـمئزازه مـن رواج الكتـاب. كتـب أن «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» لـم تكـن مجـرَّد «عفونـة سـاخرة» بـل بروباجنـدا للسـوق الحـرة مثلهـا مثـل كتابـات فريدريـك هايـك. وصفـت صحيفـة «برافـدا» الكتـاب بأنـه «قـذر» وبأنـه كُتِـبَ «بأوامـر وتحريـض مـن وول سـتريت». دفـع هجـوم الروائـي والشـيوعي آرثـر كالـدر مارشـال علـى أعمـال أورويـل وشـخصه فـي جريـدة «رينولـدز نيـوز» نائـب حـزب العمـل وودرو وايـت إلـى الاتّفـاق معـه علـى أن أورويـل «رجـلٌ أجـوف ميـؤوس منـه» لا يتوافـق مـع «أهـداف ومعتقـدات حـزب العمـل».

سـخر أورويـل مـن مراجعـة كالـدر مارشـال («إذا كنـت أبتغـي تشـويه أحـد الأشـخاص لفعلتهـا أفضـل مـن ذلـك»)، لكنـه أصيـب بالجـزع مـن الكاريكاتـور المحافـظ الـذي أظهـره كيسـاري سـابق محبـط يلـوِّح بعلـم الرأسـمالية غيـر المقيـدة. مـن المحتمـل أن يكـون هـذا مـا قصـده -فـي رسـالته إلـى ريـس- بعبـارة «تشـهير مخـزٍ تمامًـا». عندمـا زاره واربـورج فـي كرانـام فـي 15 يونيـو، أمـلاه أورويـل بيانًـا يؤكِّـد ويشـرح

حُجَّة الرواية بأن الشمولية يمكن أن تنشأ في أيِّ مكان، وأن الدول الكبرى المتنافسة «ستتظاهر بأنها تعارض بعضها أكثر ممَّا تفعل في الواقع».

ثم كتب بيانًا ثانيًا في اليوم التالي بعد أن طالب فرانسيس إيه هنسون، وهو مسؤول من اتِّحاد عمَّال السيارات في ديترويت، بتوضيح أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كتاب مناسب لأن يُوصَّى به لأعضاء النقابة. ردَّ أورويل بأنه «لم يكن المقصود من الرواية الهجوم على الاشتراكية، أو على حزب العمل البريطاني (الذي أنا مؤيِّدٌ له)»، ولكنه تحذير من أن «الشمولية -إذا لم تُحارب- يمكن أن تنتصر في أيِّ مكان». كان التوضيح ضروريًا. «لا أعتقد أن المجتمع الذي وصفته سيتحقَّق بالضرورة، لكنني أعتقد -مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أن الكتابَ ساخرٌ- أن مجتمعًا شبيهًا قد يتحقَّق». ما أثار غضبه، أن النقابة أخطأت في أثناء طباعة خطابه المكتوب بخط اليد واستبدلت «سيتحقَّق» بـ«قد يتحقَّق»، لذلك عندما هاتفته مجلَّة «لايف» لتطلب إذنه بإعادة طبع الخطاب، أصر على عدم تكرار الخطأ. حتَّى توضيحه احتاج إلى توضيح.

لم يقل أورويل غير القليل جدًّا عن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» قبل وفاته، إلى درجة أن هذين التصريحين دليلان لا يقدَّران بثمن على نيَّاته، لكن واربورج ظنَّ وقتها أنهما «لم يفعلا خيرًا يذكر». الحقيقة هي أن الغموض المحيط بآراء أورويل السياسية رفع من مبيعاته. في غضون ستَّة أشهر باع الكتاب أكثر من ربع مليون نسخة في المملكة المتَّحدة والولايات

المتَّحدة، وكان الكُتَّاب يتحرَّقون شوقًا لتحويله إلى وسائط أخرى. تمَّت مراسلات بين أورويل والسيناريست والكاتب المسرحي سيدني شيلدون الحائز على جائزة الأوسكار بخصوص كتابة نسخة مسرحية (لم تكتمل أبدًا) كان من شأنها أن تمنح النص ميلًا مناهضًا للفاشية. قدَّم مارتن إيسلين، زميل أورويل السابق، معالجة للرواية لصالح «بي بي سي»، بينما كتب ميلتون واين نسخة رصينة منها للعرض في برنامج «مسرح «إن بي سي» على الهواء» أدَّى فيها ديڤيد نيڤن دور ونستون سميث، وتخلَّلتها استراحة أكاديمية قدَّمها الروائي چيمس هيلتون: «بعد قراءة رواية 1984 للسيِّد أورويل، قد لا تشعر برغبة في مقابلة أيٍّ من شخصياتها، لكنك قد تشعر برغبة في مقابلة السيِّد أورويل، ولو لمجادلته فحسب».

ربَّما كانت حُمَّى الرغبة في تقديم معالجات مختلفة لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» قد نشأت من افتراض أن هذا الكتاب كتابٌ وقتيٌّ فحسب، وليس كتابًا سيعيش لأجيال طويلة. في ملحق مراجعة الكتب في صحيفة «نيويورك تايمز»، اقترح مارك شورر أن عبقرية الكتاب المتَّقدة «قد تعني أن عظمته لحظية فحسب، وأن تأثيره سيشملنا وحدنا، في الوقت الحالي، في هذا الجيل، وهذا العقد، وهذا العام، وأنه محكومٌ عليه بأن يصير عبدًا للتاريخ».

مرَّة أخرى، ربَّما لا.

* * *

بعد زيارته إلى مصحَّة كارنام في 15 يونيو، كتب واربورج تقريرًا مؤلمًا عن حالة أورويل «الصادمة». رأى واربورج أنه إذا لم

يتعاف في نفس الوقت من العام المقبل، فلن يتعافى أبدًا، ولكن تفاؤل أورويل كان معديًا.

في يوليو، طلب أورويل يد سونيا للزواج بطريقته الخجولة المعهودة. وبخلاف سيليا باجيت وآن بوبام، وافقت سونيا. وجد بعض أصدقائه الفكرة مروِّعة. قال ديفيد أستور: «لم يكن أورويل مناسبًا للزواج بأيِّ امرأة. كان بالكاد على قيد الحياة». رأى موجريدج أن فكرة الزواج «مرعبة بعض الشيء وغير مفهومة»، لكن أورويل كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن هذا سيمنحه سببًا ليعيش من أجله. أو كما يقول ونستون عن چوليا: «بدا أن جسدها يصبُّ بعضًا من شبابه وحيويته في جسدي».

لم ير أحدٌ أن سونيا أحبَّته حقًّا. قال بعض الذين عرفوها إنها كانت امرأة أنانية وقاسية تزوَّجته من أجل المال والسمعة لأن مجلَّة «هورايزون» كانت في آخر أيَّامها، ولأنها كانت ستفقد وظيفتها قريبًا. رأى البعض الآخر أن زواجها به كان تضحية نبيلة بالنفس بدافع الشفقة والاحترام. «قال إنه سوف يتحسَّن إذا قبلت الزواج به. لذا لم يكن أمامي خيار كما ترين»، هكذا قالت لهيلاري سبيرلينج بعد عشرين سنة. من المحتمل أن تكون دوافع أورويل وسونيا متداخلة: كان يحتاج إليها، وكانت تحتاج إلى احتياج شخصٍ إليها. قبل سنوات عديدة، في أثناء كتابته عن حياة توماس كارليل العاطفية، تأمَّل أورويل في «الأنانية المدهشة التي ينطوي عليها الحب الصادق».

في الثاني من سبتمبر، انتقل أورويل من مصحَّة كرانام إلى غرفة خاصة في مستشفى كلِّية لندن الجامعية. شكَّ الأصدقاء

في أنه سيغادر تلك الغرفة حيًا. من المحتمل جدًا أن أوان شفائه كان قد فات بالفعل عندما تزوَّج في 13 أكتوبر بسونيا في غرفته بالمستشفى، أمام ستَّة ضيوف فقط. ذكَّر مظهره صديقه أستور بغاندي: «كان جلدًا على عظم». أقيمت مأدبة غداء الزفاف في فندق ريتز من دون العريس.

نشَّط الزواج صحَّة ومزاج أورويل -قال إنه يفكر في تأليف خمسة كتب أخرى ولا يمكن أن يموت حتَّى يكتبها- لكن الأمر لم يستمر لفترة طويلة. بالنسبة إلى الأصدقاء الكُثُر الذين زاروه في أواخر العام، بما فيهم سيمونز وسبندر وفايڤل وبوتس، كان من المحتمل أن يكون كل لقاء معهم هو الأخير. كان لا يزال يستمتع بالحديث عن الكتب والسياسة، لكنه كان يحن بشكل متزايد إلى الماضي، ويسترجع كثيرًا ذكريات إيتون وبورما وإسبانيا والحرس الوطني بطريقة لم يألفها أصدقاؤه منه من قبل. عندما أتى موجريدج لزيارته في يوم الكريماس، لم ير في وجه أورويل إحساسًا بالتقبُّل أو السلام: «كان في ملامح وجهه نوعًا من الغضب، كما لو أن اقتراب الموت يجعله حصبًا».

كانت خطة سونيا هي تولِّي مراسلات أورويل وأمور العمل، واستضافة أصدقائه، والاعتناء به وهو يكتب؛ لكن حالته استدعت حدوث تغييرٍ جذري في المشهد، لذا خطَّط الزوجان للانتقال إلى منتجع مونتانا فيرمالا في جبال الألب السويسرية. حُجزت له طائرة إسعاف في 25 يناير 1950، وانضم إليه الرسَّام لوسيان فرويد، صديق سونيا المقرب، للعمل على تمريضه. قبل سبعة أيَّام من الرحلة، راجع أورويل وصيته، جاعلًا سونيا وارثته

الوحيدة، وريس الوصي على تركته الأدبية. لم يكن يملك أدنى فكرة عن إلى أيِّ مدى سيكون صعبًا على زوجته أن تكون «أرملة رجل أدبي»، كما أخبر آن بوبام.

طلب أورويل جلب صنَارة الصيد الخاصة به معه، أملًا في أن يخرج لصيد السمك في بحيرات جبال الألب. كانت الصنَارة تستند إلى ركن غرفته في الساعات الأولى من يوم 21 يناير، عندما انفجر وعاءٌ دموي في رئته، وسرعان ما نزف حتّى الموت.

***

كان چورج وودكوك يحضر حفلة في ڤانكوڤر عندما أخبره ضيفٌ آخر بأن خبر وفاة أورويل أُذيع منذ لحظات في الراديو. يتذكَّر وودكوك: «حلَّ الصَّمت على الغرفة، وأدركت أن هذا الرجل اللطيف المتواضع الغاضب قد صار بالفعل شخصية أسطورية عالمية».

كان لأورويل أصدقاء ومعجبون فصحاء، وكان لعباراتهم الرنَّانة تأثيرٌ هائلٌ وفوريٌّ على سمعته بعد وفاته، خاصة على آذان القرَّاء الذين عرفوه فقط من روايتيه الأخيرتين.

في مجلَّة «ذا نيو ستيتسمان»، كتب الناقد وكاتب القصَّة القصيرة في إس بريتشت مبلورًا صفات أورويل في بضع مئات من الكلمات: نزاهته، واستقلاله، وغرابة أطواره، وتمرُّده، وتقشُّفه، وخطاياه، و «أسلوبه الأدبي الرشيق الواضح». كان «ضمير جيله اليقظ... وكان أشبه بقدِّيس». في «ذا أوبزرڤر»، زعم كويستلر أن «عظمة ومأساة أورويل تمثَّلت في رفضه التام للمساومة»، وادَّعى أنه كان يُوجد «توافق استثنائي بين الرجل وأعماله». بقراءة

الأنعية، لاحظ موجريدج «كيف تُنشأ أسطورة واحد من البشر». وُلدت أسطورة القدّيس المتمرِّد الذي لم يستطع أن يكذب، وكذلك وُلدت مغالطة أن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت عواء احتضار. لم تذكر أيٌّ من المراجعات السابقة حالة أورويل الصحّية، لكن حقيقة وفاته صبغت عمله الأخير إلى الأبد. شكرت سونيا كويستلر على نعيه لأن «كل الآخرين -وأوّلهم بريتشيت- كتبوا كلامًا فارغًا كئيبًا تمامًا».

كان حزن سونيا قاسيًا ومتفجِّرًا إلى درجة أنه أقنع المشكِّكين فيها أنفسهم. وفقًا لناتاشا زوجة ستيڤن سبندر فإنها «أقنعت نفسها بأنها أحبَّت عقله بسبب كتاباته، لكنها اكتشفت أنها أحبَّته هو حقًّا». وافقها ستيڤن: «لقد ألقت باللوم على نفسها وظنَّت أنها أخطأت فيما فعلت، وبالتالي تولّت الدفاع عن قضية جورج أورويل لبقية حياتها، ولم تتعاف من هذا أبدًا».

رتَّب موجريدج الجِنازة في كنيسة المسيح في شارع ألباني في كامدن، حيث جاء المشيِّعون من كل أركان حياة أورويل غريبة التفاوت: من إيتون، وإسبانيا، وحزب العمل، وهيئة الإذاعة البريطانية، والحرس الوطني، ومجلَّة «تريبيون»، ولندن الأدبية، والشتات الأوروبي، وشوارع إيزلنجتون، ودوائر زوجتيه الاجتماعية. على الرغم من كونه ملحدًا، كان أورويل تقليديًا بما فيه الكفاية ليرغب في الدفن في فناء كنيسة ريفي، واستخدم ديڤيد أستور نفوذه للمرَّة الأخيرة لتأمين قطعة أرض له في كاتدرائية جميع القديسين في سوتون كورتني، في بيركشاير. فقط هو وسونيا كانا حاضرين عندما أُنزل جسد أورويل إلى الأرض ليتمدَّد تحت

شاهد قبرٍ نمطي معتاد، يحمل اسمه وتاريخي الميلاد والوفاة فحسب. كان الاسم لا يزال إيريك آرثر بلير؛ لم يتسنَّ له تغييره قط.

لم يعش أورويل بعد ظهور روايته الأخيرة إلى النور سوى 227 يومًا فقط.



الجزء الثَّاني

الفصل العاشر

الألفية السوداء

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» والحرب الباردة

«لو كان هذا ما سيؤول إليه العالم، ربَّما من الأفضل أن نضع رؤوسنا في أفران الغاز الآن».

شكوى مشاهد لـ«بي بي سي»، ديسمبر 1954.

كانت ليلة 12 ديسمبر من عام 1954 ليلة سيِّئة لچورج أورويل، الموظَّف في شركة شحن من جنوب لندن. في الثَّامنة والنصف مساءً، وبعد برنامج المسابقات الشهير «واتس ماي لاين؟»، جلس أكثر من سبعة ملايين بريطاني لمشاهدة معالجة «بي بي سي» لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» التي بطول ساعتين. كان هذا أكبر جمهور تليفزيوني منذ تتويج الملكة إليزابيث الثانية في يونيو الماضي. في الواقع، قال الأمير فيليب لاحقًا أنه والملكة شاهدا الحلقة وأُعجبا بـ«الإنتاج والرسالة». باثنين وعشرين ممثِّلا، وثمانية وعشرين موقع تصوير، ولقطات مبتكرة مصوَّرة مسبقًا، كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أكثر حلقة تليفزيونية بريطانية طموحة وأكثرها تكلفة حتَّى ذلك التاريخ. كانت أيضًا، على حدِّ تعبير صحيفة «ذا نيويورك تايمز»: «محلّ الجدل الأكثر حِدَّة في سجلَّات التليفزيون البريطاني». ونتيجة لذلك، أمضى الشخص الوحيد الذي يحمل اسم چورج أورويل في دليل الهاتف ليلته في الردِّ على مكالمات من مشاهدين غاضبين من هذه

«التمثيلية الكريهة». طلبت زوجته إليزابيث من جريدة «ذا ديلي ميرور» تصحيح الأمور: «من فضلكم أخبروا الناس بأن زوجي لم يكتب ذلك الفيلم التليفزيوني».

كان كاتب السيناريو نايجل نيل والمخرج رودولف كارتييه قد سبق لهما التعاون في فيلم الرعب الخيال العلمي «تجربة كواترماس»، وقد أتت نسختهم الذكية الواثقة من رواية أورويل، التي لعب بطولتها بيتر كوشينج في دور ونستون سميث، أكثر ضغطًا على الأعصاب، بجوِّها المرهب المخيف ونهايتها المروِّعة داخل وزارة الحب. رأى كارتييه أن الجمع بين العرض التليفزيوني وفكرة شاشات الرصد جعلها فريدة من نوعها، وعلَّق قائلًا على المشاهدين الذين شاهدوا الأخ الأكبر: «حدَّقت عينان باردتان من الشاشة الصغيرة في المشاهد مباشرةً، وألقت في قلبه نفس الخوف الذي كانت شخصيات الفيلم تشعر به كلَّما سمعت صوت الأخ الأكبر يخرج من شاشات الرصد الخاصة بهم».

اشتكى مئات المشاهدين لـ«بي بي سي» وللجرائد من كمٍّ العنف والجنس في المعالجة التليفزيونية. «كانت بغيضة جدًّا إلى درجة أنني شعرت برغبة في تحطيم التلفاز بمطرقة»، هكذا احتدَّ أحدهم. وادَّعى آخر: «لم يسبق أن ظهر على شاشة التلفاز عملٌ بمثل هذه الحقارة والتقزيز، أو على أيِّ شاشة أخرى». اتَّفق بعض نقَّاد الصحف مع تلك الآراء، ووصفوا العمل بأنه «قصَّة غثَّة لا تحمل أيَّ أمل في المستقبل» و«صورة لعالم لا أريد رؤيته مرَّة أخرى». عنونت صحيفة «ديلي إكسبريس» تغطيتَها بـ«مليون كابوس». أيضًا أدت خطَّة إذاعة عرضٍ ثانٍ يوم

الخميس التالي إلى استمرار الجدل. عيَّنت «بي بي سي» حارسًا شخصيًا لكارتييه بعد أن تلقَّى تهديدًا بالقتل، بينما فصل كوشينج هاتفه لتجنُّب المكالمات المسيئة. في برنامج الشؤون الجارية «بانوراما»، تجادل مالكوم موجريدج مع عضو مجلسٍ محلي من تونبريدج ويلز، ادَّعى أن مثل هذه الأعمال ستؤدي إلى موجة من الجرائم. عندما وصلت حالة الجدل إلى البرلمان يوم الأربعاء، قدَّمت مجموعة من أعضاء البرلمان المحافظين -مستفيدة من الذعر الأخلاقي الحالي بشأن كتب الرعب المصورة- اقتراحًا يدين ميل «بي بي سي» إلى «إرضاء الأذواق الجنسية والسادية»، بينما عارضت مجموعة أخرى وقالت إن العمل قدَّم نظرة متعمِّقة مهمَّة في الأساليب الشمولية.

جعل العرض التليفزيوني كلًا من الرواية والمؤلف مشهورين على صعيدٍ وطني. طوال معظم ذلك العام، باعت دار «سيكر وآند واربورج» للنشر 150 نسخة بغلافٍ مقوًّى في الأسبوع. في الأسبوع الذي تلى العرض، قفز الرقم إلى ألف، بينما باعت طبعة «بنجوين» الورقية الجديدة ثمانية عشر ألف نسخة. صارت القصَّة فجأة معروفة جيِّدًا إلى درجة أن الكوميديانات في «ذا جوون شو» صنعوا محاكاة ساخرة تسمَّى «ألف وتسعمئة وخمسة وثمانون»، أدَّى فيها هاري سيكومب دور ونستون سيجون الذي يكدح في شركة الأخ الأكبر، أي «بي بي سي». أعلن سيكومب ساخرًا من صوت المذيع: «أيُّها المستمعون! احذروا! هذا البرنامج لا ينبغي الاستماع إليه!». ربَّما كان أورويل كان سيمتنُّ للسخرية من بيروقراطية مكان عمله السابق المثيرة للجنون ووجباته الرديئة.

خرج العديد من المشاهدين بعد فيلم «بي بي سي» التليفزيوني بانطباع مشوَّه عن أعمال أورويل، ما دفع أحد النقاد إلى توقُّع أنه «ربما سيكتسب سمعة غير مستحقة كالأوَّل من جيلٍ جديدٍ من دعاة الرعب الأدبيين». لكن كما قال كارتييه لصحيفة «إكسبرس»: «إذا افترضنا أن شخصًا كتب رواية في عام 1910 وأطلق عليها اسم "1954" وتنبَّأ بوجود الحكومات الشمولية، و"غسل الدماغ"، ومعسكرات الإبادة، والعمل الاسترقاقي، وأهوال القنابل الذرية والهيدروچينية، لربَّما اتُّهم بالمبالغة الجامحة والتفكير الملتوي المريض».*[46]

عزَّز الفيلم الأهمِّية السياسية للرواية. بدأت صحيفة «إكسبرس» نشر نسخة مختصرة مسلسلة منها، بينما أشادت صحيفة «ذا ديلي ميل» بكشفها عن «وحشية الشيوعية». امتزج التصفيق من اليمين بالصراخ من اليسار، الذي بدأ بعضه مبكِّرًا على نحو مريب. قال مصدر في «بي بي سي» للصحافة إنهم بدؤوا يتلقَّون مكالماتٍ هاتفية بعد دقائق فقط من العرض، مشيرًا إلى أنها «ربَّما نجمت عن التحيُّز السياسي». تحوَّلت صفحة المراسلات في جريدة «ذا مانشستر جاردين» إلى معركة جارية بين مُحبِّي أورويل والمتشدِّد في الحزب الشيوعي البريطاني، آر بالم دوت. زعم دوت أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت «أحط أنواع البروباجندا المبتذلة المناهضة للاشتراكية، كتبها رجل شرطة استعماري سابق من إيتون»، وتلذَّذ بالرد بعنف: «لقد حاولت السلطة إطعام أورويل

46-* دخل مصطلح غسل الدماغ Brainwashing القاموس في عام 1950 بسبب الحرب الكورية، وطُبِّق بأثرٍ رجعي على تحوُّل ونستون النهائي في الرواية. (المؤلِّف).

قسرًا للجمهور، فلفظه الجمهور». اختلف معه مرسلو الخطابات في الأسبوع التالي بالإجماع، واقترح أحدهم أن تأثير العمل تأكَّد من خلال «رسالة غسل أدمغة نموذجية كتبها «الأخ الأكبر» البريطاني نفسه، السيِّد آر بالم دوت».

عبَّر هذا التناقض بإيجاز عن مصير رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» خلال عقد الحرب الكورية والمجر وماو تسي تونج ومكارثي. في مثل هذا السياق المحموم، كافح الاشتراكيون والليبراليون للدفاع عن نيَّات أورويل الأكثر تعقيدًا، بينما هلَّل اليمين للرواية واستنكرها اليسار المتشدِّد واصفًا إيَّاها بأنها دعاية للحرب الباردة. في نظر المؤرِّخ الماركسي آيزك دويتشر، تحوَّلت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إلى «سلاحٍ أيديولوجي خارق»، سواء أحب أورويل ذلك أم لا.

* * *

وصفت جريدة «لندن تايمز» التأثير الثقافي لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» قبل معالجة «بي بي سي» التليفزيونية بأنه «هامشي». قد يكون هذا صحيحًا عند مقارنته بسبعة ملايين مشاهد، لكن الكتاب كان كاسح النجاح بالفعل بأيِّ معيار آخر. باعت طبعة «سيكر آند واربورج» ذات الغلاف المقوى 50 ألف نسخة في أوَّل عامين لها، وسرعان ما قزَّمت طبعة «بنجوين» ورقية الغلاف هذا الرقم. في الولايات المتَّحدة، ظلَّت الرواية على قائمة أفضل الكتب مبيعًا لـ«نيويورك تايمز» لمدَّة عشرين أسبوعًا، وباعت 170 ألف نسخة من الغلاف المقوَّى، و190 ألفًا أخرى من طبعة «نادي كتاب الشهر»، و596 ألف نسخة من طبعة

«كتب ريدرز دايچست الموجزة»، ومليون و120 ألف نسخة من طبعة «المكتبة الأمريكية الجديدة». ليس هذا نجاحًا هامشيًا بأيٍّ حال.

كان أحد مفاتيح شعبية الرواية هو براعة أورويل في ابتكار التعابير المستحدثة اللاذعة. كتب أورويل في عام 1942 أن «كيبلينج هو الكاتب الإنجليزي الوحيد في عصرنا الذي أضاف عبارات إلى اللغة الإنجليزية»، لكن الآن كان من الممكن أن يضيف نفسه. يحبُّ الصحفيون إيجاد كلمات جديدة للّهو بها، خاصة تلك التي تبّسط الظواهر المعقدة. أو كما كتب نايچل نيل في «راديو تايمز»: «بعض المصطلحات التي صاغها أورويل -مثل جريمة التفكير، والتفكير المزدوج، والتلاشي، وجريمة الوجه، واللغة الجديدة، وغيرها- انتقلت إلى اللغة المستخدمة في الخمسينيات بغرض التحذير».

وفقًا لقاموس أوكسفورد الإنجليزي، ظهر مصطلح «اللغة الجديدة» لأوّل مرّة بشكل مستقل عن الرواية في عام 1950، ومصطلحا «الأخ الأكبر» و «التفكير المزدوج» في عام 1953، و «جريمة التفكير» و «التلاشي» في عام 1954. وفي عام 1950، صاغت ماري مكارثي لفظة «أورويلي» -لك أن تتخيّل- في مقال عن مجلّات الأزياء.*[47] في عام 1950، اتّهم وزير الخزانة هيو جيتسكيل معارضة حزب المحافظين بـ«ما سمّاه الراحل چورج أورويل في كتابه الذي ربّما قرأه أو لم يقرأه الأعضاء المحترمون،

47-* «تُعتبر مجلّة "فلير" قفزة إلى المستقبل الأورويلي: إنها مجلّة بلا مُنافسة أو وجهة نظر تتعدّى إعلانها عن نفسها». (المؤلّف).

بـازدواجية المعنـى». فـي الواقـع، لـم يظهـر هـذا المصطلـح فـي الروايـة، لكنـه دخـل منـذ ذلـك الحيـن قامـوس مفـردات السياسـة. أعلـن ونسـتون تشرشـل نفسـه أن «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» «كتـابٌ رائـع جـدًا».

أثبتـت شـخصية «الأخ الأكبـر» شـعبيتها بشـكل خـاص. خـلال حقبـة الخمسـينيات، طُبِّق الاسـم فـي البرلمـان علـى أهـداف متنوِّعـة مثـل حكومـة المحافظيـن، واليسـار العمَّالـي، والرئيـس آيزنهـاور، واللـورد بيفربـروك، ومـاو تسـي تونـج، والخلافـة العُمانيـة، ومجلـس اللـوردات، والقيـادات النقابيـة، ومجلـس الفحـم، ومكتـب البريـد. لـم يفهـم الجميـع الإحالـة. عندمـا اعتـرض أحـد أعضـاء البرلمـان -خـلال نقـاش فـي عـام 1956 حـول سياسـة الوقـود- علـى وصفـه بـالأخ الأكبـر، لـم يرتبـك المتحـدث باسـم مجلـس العمـوم: «ظننـت أنـه مصطلـح يعبِّـر عـن المـودة».*[48]

الاقتبـاس مـن أورويـل يعنـي أن تُسـلِّم -سـواء أكان ذلـك مسـتحقًا أم لا- ولـو بجـزء مـن سـمعته الأخلاقيـة. الكاتـب الـذي لـم يـرق للدخـول فـي منشـورات «هـو إيـز هـو»[49] السـنوية حتَّـى عـام وفاتـه، وفـاز بجائـزة واحـدة فقـط (جائـزة أدبيـة بقيمـة ألـف دولار مـن مجلَّـة «بارتيـزان ريفيـو»)، سـرعان مـا أصبـح مرادفًـا للأمانـة والكياسـة. كلَّمـا أُعيـد

48- * مـن دون منـازع، كان أكثـر قـول لأورويل اقتُبس وأُسـيء اقتباسـه فـي البرلمـان هـو: «جميع الحيوانـات متسـاوية، لكن بعضهـا أكثـر مسـاواة مـن غيرهـا». أيضًـا بعض الإحـالات كانـت أدق مـن غيرهـا. أشـار اللـورد بلفـور مـن إنشـري إلـى «الكتـاب الـذي كتبـه الراحـل السيِّد جـورج أورويل بعنـوان "1980"». (المؤلِّف).

49- «Who's who»: دوريـة تُنشـر سـنويًا منـذ عـام 1849، وتُعدُّ مصـدرًا للسـير الذاتيـة لأكثر مـن 33 ألـف شـخص مؤثـر فـي الحيـاة البريطانيـة مـن جميـع أنحاء العالـم. (المترجم).

نشـر أحـد كتبـه، يعتـرف النقّـاد بمحدوديتـه كروائـي وناقـد ومفكـر سياسـي، لكنّهـم يصفـوه بأنـه عبقـري أخلاقـي، خـرج مـن زمـنٍ قـذرٍ بيديـن نظيفتيـن. «كان شـخص أورويـل هـو مـا يتظاهـر مئـات غيـره بـأن يكونـوه. كان غيـر طبقـي بالفعـل، واشـتراكيًا حقيقيًـا، وصادقًـا حقًّـا»، هكـذا زعـم سـتيڤن سـبندر فـي عـددٍ خـاص مـن مجلّـة «وورلـد ريڤيـو». فـي مقدّمتـه المؤثـرة للطبعـة الأمريكيـة مـن كتـاب «الحنيـن إلـى كتالونيـا» عـام 1952، رسّـخ ليونيـل تريلينـج أورويـل فـي أذهـان العديـد مـن القـراء الأمريكييـن كنمـوذج يحتـذى بـه مثـل مـارك تويـن ووالـت ويتمـان وهنـري ديڤيـد ثـورو: «الرجـل الـذي يقـول الحقيقـة».

بوجهٍ خـاص، كان هنـاك شـعور بأنـه قـال الحقيقـة عـن الشـمولية. لـم يكـن أورويـل عالِمًـا سياسـيًا. وبغـض النظـر عـن الأيّـام القليلـة التـي قضاهـا فـي برشـلونة تحـت سـيطرة الشـيوعية، لـم يختبـر النظـام الشـمولي بشـكل مباشـر. كان مجـرَّد صحفـي يقـرأ كثيـرًا. لـذا فمـن اللافـت للنظـر أن الثـوب النظـري التـي رتّقـه مـن ذكريـات وسـير ذاتيـة ومقـالات وروايـات وتقاريـر، أكّدتـه بصـورة عامّـة دراسـات صارمـة مثـل «الديكتاتوريـة الشـمولية والأوتوقراطيـة» لـكارل چيـه فريدريـك وزبجنيـو بريزينكسـي، و «أصـول الشـمولية» لهانـا آرنـت.

علـى الرغـم مـن أن آرنـت كانـت أكثـر درايـة بألمانيـا وأن أورويـل كان أكثـر اهتمامًـا بروسـيا، فقـد توصّـلا إلـى اسـتنتاجات عديـدة مماثلـة: أن الشـمولية هـي نقطـة تقاطـع غيـر مسـبوقة بيـن الأيديولوچيـا والبيروقراطيـة والتكنولوچيـا والإرهـاب. جادلـت آرنـت بـأن الشـمولية تهـدف إلـى تحقيـق الفانتازيـا، وأن الفجـوة بيـن الأسـطورة والواقـع لا يمكـن سـدّها إلا عـن طريـق الخـداع المسـتمر والقسـوة غيـر المسـبوقة.

> وتحديدًا في سبيل هذه الغاية الفائقة، وفي سبيل تحقيق الاتساق الكامل، من الضروري أن تدمِّر الشمولية كل أثرٍ لما نسميه عادةً بالكرامة الإنسانية، وبناءً عليه، فإن ما تهدف إليه الأيديولوچيات الشمولية ليس تغيير العالم الخارجي أو التغيير الثوري للمجتمع، ولكن تغيير الطبيعة البشرية نفسها.

ردَّد هذا صدى أسوأ مخاوف أورويل، تلك التي عبِّر عنها منذ عام 1939: «في الماضي، أُطيح بكل طغيان في نهاية المطاف، أو على الأقل تعرَّض للمقاومة، بسبب "الطبيعة البشرية"... لكن لا يمكننا أن نكون متأكدين على الإطلاق من أن "الطبيعة البشرية" ثابتة لن تتغيَّر». حظي الكتابان بنفس المحرِّر الأمريكي، روبرت چيرو، وقد تشابكا منذ ذلك الحين. أما الكتاب المصاحب الآخر فكان «الإله الذي فشل»، وهو مختارات نائب حزب العمل ريتشارد كروسمان عام 1949 لمقالات التحرُّر من الوهم الشيوعي، للشيوعيين السابقين آرثر كويستلر وستيڤن سبندر وإينياتسيو سيلون وريتشارد رايت وأندريه جيد ولويس فيشر. استقطب الكتاب كثيرًا من قرَّاء «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وتضمَّن بعض الملاحظات المماثلة. كتب سبندر -الذي أشار صراحةً إلى التفكير المزدوج في مقاله- أن الشيوعيين «شوَّهوا معنى الصفات دون أدنى إدراك منهم أن إساءة استخدام الكلمات ينتج عنها التباس كبير. السلام في لغتهم يمكن أن يعني الحرب، والوحدة القومية يمكن أن تعني الخيانة من الداخل، والفاشية يمكن أن

تعني الاشتراكية». ومع ذلك، كان أورويل يعرف أنهم كانوا يدركون ما يفعلونه بالضبط.

فرق آخر جوهري بين أورويل ومجموعة مقالات كتاب «الإله الذي فشل»، وهو الفرق الذي منحه سلطة أخلاقية استثنائية، هي أنه لم ينخدع أبدًا. في الواقع، رفض بعض معجبيه قبول أنه انتمى إلى اليسار في يوم من الأيَّام. عندما كتب أورويل أن «ديكنز هو أحد الكُتَّاب الجديرين بالسرقة. لقد سرقه الماركسيون والكاثوليك وقبل كل شيء المحافظون»، كان يبصر مصيره الخاص عن غير قصد. زعم كلٌّ من كريستوفر هوليس الكاثوليكي المحافظ، ودعاة الحرِّية اليمينيون في صحيفة «فريمان»، أن أورويل في صفِّه؛ بينما ادَّعى النائب المحافظ تشارلز كوران (الصحفي السابق في جريدة «إيڤنينج ستاندارد» الذي تسبب في تفاقم حالة أورويل في كرانام) ادِّعاءً سخيفًا بأن تأثير الرواية على البريطانيين عامَّة «ربَّما كان له علاقة أكثر من أيِّ عاملٍ آخر بهزيمة الاشتراكيين في الانتخابات العامَّة عام 1951». يستطيع المرء تخيُّل ردَّة فعل أورويل على هذا الادِّعاء. في هذه الأثناء، ومن أقصى اليسار، اختتم مؤرِّخ الحزب الشيوعي إيه إل مورتون تأريخه للأدب اليوتوبي، كتاب «اليوتوبيا الإنجليزية»، باتِّهام أورويل بكتابة تشهير مغرض عن الاشتراكية: «لم يُكتب مثل هذا الافتراء الشنيع من قبل، ولم تُوجَد أداة بمثل هذه القذارة: إن «1984» -بالنسبة إلى هذا البلد على الأقل- هي الكلمة الأخيرة حتَّى الآن في الأفكار المضادة للثورة». تبع مورتون هذه الإدانة بإشادة كبيرة على «تحقيق اليوتوبيا» على يد

ستالين. وفي حاشية محتدَّة بالمثل اتَّهم جيمس والش في مجلَّة «ذا ماركسيسيت كوارترلي» أورويل بالركض «صارخًا إلى أحضان الناشرين الرأسماليين بكتابين هزليين مرعبين جلبا إليه الشهرة والثروة». تشارك والش ومورتون في نبرة الاشمئزاز المتزمِّتة التي كان أورويل قد حدَّدها في عام 1944 على أنها نبرة «الإنجليزية الماركسية، أو إنجليزية المنشورات»، وسخر منها في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بشخصية المتعصِّب في ركن الخطباء الذي يندِّد بالسياسيين العمَّاليين ويصفهم بأنهم أتباع وضباع. لم يكن أورويل ليتفاجأ بمثل هذا التشويه.

بجانب هذه الاتِّهامات التي ترغي وتزبد، كان مقال عام 1955 «تصوُّف القسوة» لآيزك دويتشر بمنزلة اغتيال أنيق لأورويل، وأضفى إنصافًا لامعًا زائفًا على سلسلة من المزاعم المهزوزة تمامًا. اتَّهم دويتشر أورويل ظُلمًا بالسرقة الأدبية من زامياتن وتروتسكي، وبرفض الاشتراكية. وعلى أساس لقائهما في ألمانيا عام 1945، اتَّهمه بأنه مريض بالبارانويا وبأن رؤيته للعالم عبارة عن «تسام فرويدي لجنون الاضطِّهاد». وفي النهاية اتَّهم دويتشر أورويل بكتابة ميلودراما صارخة حثَّت على الذعر والكراهية والغضب واليأس:

> ليست «1984» في الواقع تحذيرًا بقدر ما هي صرخة تصمُّ الآذان تعلن قدوم الألفية السوداء، ألفية العذاب... لقد علَّمت «1984» الملايين أن ينظروا إلى الصراع بين الشرق والغرب من منظور الأسود والأبيض، وقد أرتهم وحشًا مخيفًا وكبشَ فداءٍ مشوَّهًا لكل العلل التي تصيب البشرية.

كان هناك بالفعل جهود متضافرة لجعل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كتابًا عن روسيا وحدها، وبالتحديد في دولة ألمانيا الغربية الوليدة. في مراجعته، جادل جولو مان بأن الألمان «ربَّما أكثر من أيِّ دولة أخرى، يستشعرون ثقل احتمالية تحقُّق يوتوبيا أورويل». لكن بحلول عام 1949، طغت معاداة الشيوعية على اجتثاث النازية كسياسة رسمية، وتلاقت مع توق الألمان لنسيان الماضي القريب. جُسِّد هذا في مجلَّة «دير مونات»، وهي مجلَّة شعبية جديدة تموِّلها الولايات المتَّحدة كانت موضع تقدير أورويل باعتبارها قدِّيسة مناهضة للاستالينية، بنشرها كلٍّ من «مزرعة الحيوان» و «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مسلسلة على صفحاتها. استبعد القرَّاء الألمان ذهنيًّا النازية من الرواية ووجَّهوا أنظارهم نحو الشرق. ولكن ذلك لم يكن يعني أن المسؤولين والمثقَّفين وراء الستار الحديدي اختلفوا. وفقًا للكاتب البولندي تشيسلاف ميلوش فإنه «نظرًا لصعوبة الحصول على الرواية وخطورة حيازتها، لم تكن معروفة إلا لبعض أعضاء الحزب الداخلي... لقد ذُهلوا من حقيقة وجود كُتَّاب غربيين يفهمون طريقة عمل الآلة استثنائية الصنع الذين هم أنفسهم جزء منها». عندما حكم قاضٍ من ألمانيا الشرقية في عام 1958 على مراهقٍ بالسجن ثلاث سنوات لقراءته الكتاب ومناقشته، وَصَفَ أورويل بأنه «أكثر كاتب مكروه في الاتِّحاد السوفيتي والدول الاشتراكية».

* * *

خلال الحرب، روَّجت حكومتا المملكة المتَّحدة والولايات المتَّحدة ستالين على أنه «العم جو» و «حليفنا الشجاع». في عام

1943، خصَّصت مجلَّة «لايف» عددًا كاملًا لروسيا شجعت فيه القرَّاء على «التسامح مع بعض أوجه القصور، مهما كانت مؤسفة»، بينما جمَّلت شركة «وارنر براذرز» صورة فيلم «ستالين في مهمة إلى موسكو»، وهو فيلم دعائي هاجمه أورويل بسبب تشويهه للتاريخ. أورويل نفسه أُجبر على الاحتفال بالبراعة العسكرية الروسية في نشراته الإخبارية في هيئة الإذاعة البريطانية. الآن، مع بزوغ فجر الحرب الباردة، كان الغرب حريصًا تمامًا على تفكيك تلك الصورة البطولية. «إن أوقيانيا في حالة حرب مع أوراسيا: لطالما كانت أوقيانيا في حالة حرب مع أوراسيا».

في فبراير عام 1948، شكَّل وزير الخارجية البريطاني إرنست بيفين «إدارة أبحاث المعلومات»، التي أطلق عليها المؤرِّخ فرانسيس ستونور سوندرز اسم «وزارة الحرب الباردة السرِّية». على الرغم من أن أساليبها قد تدهورت تدريجيًا إلى أن صارت حيلًا قذرة خلال حقبة الخمسينيات، كانت أولوية «إدارة أبحاث المعلومات» هي مواجهة البروباجندا السوفيتية بالتقارير والمقالات التي شجَّعت الوزارة سرًا المفكِّرين الودودين على تمريرها عن طريق عملهم. كما روَّجت للترجمات الأوروبية لمجموعة من الكتب المعادية للسوفيت مثل «مزرعة الحيوان» و «الإله الذي فشل» و «ظُلمة في كَبِد النهار». اثنان من مستشاري «إدارة أبحاث المعلومات» الأساسيين كانا من أصدقاء أورويل، وهما مالكولم موجريدج وآرثر كويستلر.

عندما أمضى أورويل كريسماس عام 1945 مع كويستلر، جلس الرجلان بجوار النار يصمِّمان حركة سياسية لتشجيع

حقوق الإنسان وحرية التعبير. من خلال الأمم المتَّحدة المنشأة حديثًا، ستشجِّع «رابطة حقوق الإنسان» هذه الحوار بين الشرق والغرب بمختلف الأشكال: السفر والإذاعة والكتب والصحف. كما كتب أورويل في مقاله «ملاحظات على القومية»: «يزداد عدم الاكتراث بالحقيقة الموضوعية عن طريق عزل جزء من العالم عن الآخر». كان يأمل أن يؤدي «نزع السلاح النفسي» هذا إلى ثَقب تلك الفقاعة. فشلت خطَّتهما لأسباب مختلفة، ولكن في نظر كويستلر، الفكرة لم تمت.

في عام 1948، سافر كويستلر في جولة لإلقاء محاضرات في الولايات المتَّحدة نيابةً عن لجنة الإنقاذ الدولية، والتقى في جولته كل الأمريكيين المناهضين للشيوعية تقريبًا ممَّن لهم أهمية: صقور التروتسكية السابقين جيمس بيرام وسيدني هوك وماكس إيستمان؛ والمثقَّفين الليبراليين أمثال دوايت ماكدونالد وماري مكارثي وليونيل تريلينج؛ ومؤسِّسي وكالة المخابرات المركزية. بصفته شخصًا أمضى ستَّ سنوات في الثلاثينيات يعمل لدى ويلي مونزينبرج دعائي «الكومنترن»، كان كويستلر يعرف قواعد لعب العدو أفضل من أيٍّ منهم.

إن لفظة «كومنترن»[50] هي إحدى الأمثلة البدائية للغة الجديدة الواردة في ملحق رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «كلمة يمكن نطقها دون تفكير تقريبًا». كان الكومنفورم (مكتب الإعلام الشيوعي) هو خليفة الكومنترن بعد الحرب بصفته منتدًى

50- «كومنترن» أو الشيوعية الدولية، وتُعرف أيضًا باسم «الأممية الثَّالثة»: منظمة دولية تدافع عن الشيوعية العالمية.

للأحـزاب الشـيوعية الأوروبيـة. فـي عـام 1949، رعـى الكومنفـورم مؤتمـرات الفنانيـن والعلمـاء والمفكّريـن فـي باريس ونيويـورك للترويج لروسـيا كقـوّة للسـلام ولتصويـر الأمريكييـن علـى أنهـم دعـاة حـرب إمبرياليـون. بالتشـاور مـع كويسـتلر، وضعـت وكالات الاسـتخبارات الأمريكيـة خطـة لهجـومٍ ثقافـي مضـاد: إذا زعـم الـروس أحقّيتهـم فـي السـلام، فسـتكون الحريـة مـن نصيـب الغـرب. فـي يونيـو عـام 1950، توافـد مفكّـرون مـن جميـع أنحـاء الولايـات المتّحـدة وأوروبـا الغربيـة إلـى برليـن لحضـور «المؤتمـر الافتتاحـي للحريـة الثقافيـة»، برعايـة سـرِّية مـن وكالـة المخابـرات المركزيـة. شـملت قائمـة المدعوّيـن الأصليـة -التـي أُعِـدَّت قبـل أشـهر- أورويـل. بعـد أربعـة أيّـام مـن المناقشـات وحفـلات العشـاء وحفـلات الكوكتيـل، اختُـتم المؤتمـر بمسـيرة حاشـدة، قـدَّم خلالهـا كويسـتلر بيانًـا مـن أربـع عشـرة نقطـة بنـاءً علـى الأفـكار التـي تناقـش فيهـا مـع أورويـل فـي ويلـز، واختتـم المؤتمـر بشـعارٍ حماسـي: «يـا أصدقائـي، لقـد أخـذت الحريـة زمـام المبـادرة!».

بدعـمٍ مـن وكالـة المخابـرات المركزيـة، أصبـح «مجلـس الحريـة الثقافيـة» هيئـة دائمـة لهـا لجـان وطنيـة تابعـة. وعلـى مـدار الأعـوام السـبعة عشـر التاليـة، أشـرفت الهيئـة علـى عديـدٍ مـن المؤتمـرات والمهرجانـات والحفـلات الموسـيقية والمعـارض الفنيـة والنـدوات والمجـلّات فـي أكثـر مـن ثلاثيـن دولـة. اعتمـد نجـاح الهيئـة علـى المجموعـة غيـر الرسـمية التـي صنّفتهـا وزارة الخارجيـة بـ«اليسـار غيـر الشـيوعي»، علـى أسـاس أن الاشـتراكيين والليبرالييـن يمكـن أن يقوّضـوا هيبـة الشـيوعية بشـكل أكثـر فاعليـة مـن أحـد المتشـدّدين

مثل بيرنام. «لقد جلب "اليسار غير الشيوعي" مقدار الأمل المتاح إلى حياتنا السياسية اليوم»، هكذا كتب آرثر ماير شليزنجر في كتابه المنشور عام 1949، «المركز الحيوي»، الذي كان مانيفستو فعّالًا للمجموعة. اقترح شليزنجر قائمة من «الأنبياء» تتضمّن كويستلر وسيلون وجيد و «چورج أورويل، بحسّه السليم القوي، وكراهيته للرثاء».*[51]

انتهى الأمر بمعظم الكُتّاب الذين صادقوا أورويل أو نشروا له أو حرّروا له أو تقابلوا معه أو نقدوه بشكل إيجابي خلال الأربعينيات بلعب دورٍ ما في هذا الصراع الثقافي الجديد. ظلّت مجلّتا «تريبيون» و «بارتيزان ريڤيو» طافيتين في البحار الهائجة لاقتصاد ما بعد الحرب بتمويلٍ من «إدارة أبحاث المعلومات» ووكالة المخابرات المركزية على التوالي. ترأّس اللجنة البريطانية للحرية الثقافية مالكولم موجريدج وفريدريك واربورج وتوسكو فايڤل: الرجال الثلاثة أنفسهم الذين التقوا سونيا بعد جنازة أورويل لمناقشة تركته الأدبية. عندما اشترك مجلس الحرية الثقافية عام 1953 في تمويل مجلّة جديدة تسمّى «إنكاونتر»، وهي المعادل الأنجلو أمريكي لمجلّة «دير مونات» الألمانية، كان ناشرها هو واربورج ومحرّرها البريطاني المشارك هو سبندر. أما

51- * يجدر الاقتباس من مقدمة شليزنجر، لما يتردّد فيها من أصداء قوية من كتابات إدوارد بلامي في ثمانينيات القرن التّاسع عشر وأعمال إتش جي ويلز في القرن العشرين: «إن الرجل الغربي في منتصف القرن العشرين متوتّرٌ ومتردّدٌ وضال. نحن ننظر إلى عصرنا على أنه عصر الاضطرابات وزمن القلق. إن أسس حضارتنا ويقيننا يتفكّكان تحت أقدامنا، وتتلاشى الأفكار والمؤسسات المألوفة عندما نبلغها مثلما تتلاشى الظلال في الغسق». ربّما كل جيل يخالجه نفس الشعور في وقتٍ ما. (المؤلّف).

مجلّة «تمبو بريزنتيه»، المعادل الإيطالي، فكان محرّرها المشارك هو سيلون. بينما كان رئيس تحرير صحيفة «كوادرنوس» الإسبانية عضوًا سابقًا في حزب العمّال الماركسي.

بعد أن اعتاد أعضاء «اليسار غير الشيوعي» على أن يكونوا منبوذين، صاروا الآن محلّ طلبٍ ويسبحون في أموال الحكومة. قال عنهم كويستلر «تلك المجموعة من اليساريين المشرَّدين الذين يسمِّيهم الاستالينيون تروتسكيين، ويسمِّيهم التروتسكيون إمبرياليين، ويسمِّيهم الإمبرياليون شيوعيين دمويين». عَلِم بعضهم بالأمر، ولم يعلم الآخرون، ورفض معظمهم التفكير فيه. عندما كشفت مجلّة «رامبارتس» بشكل قاطع عن تمويل وكالة المخابرات المركزية السرِّي عام 1967، ظل بعض المشاركين يؤكِّدون أنهم لم يشكوا في شيء. اعترض دوايت ماكدونالد قائلًا: «لقد أصبحت متواطئًا في أعمال وكالة المخابرات المركزية القذرة عن غير قصد. لقد ضحكوا عليّ». يمكن للمرء أن يجادل بأنه ضحك على نفسه بعدم طرح الأسئلة.

هل كان أورويل، الفارس الغائب عن اليسار غير الشيوعي، سيُضحك عليه بدوره؟ أم أكان سيكون مشاركًا متحمِّسًا؟ لم يكن مولعًا بالمؤتمرات واللجان، ولكن لربَّما ظهر اسمه على الرغم من ذلك على ترويسة مجلّة «إنكاونتر». ومع ذلك، اعتقد الراديكالي الأيرلندي كونور كروز أوبراين أن أورويل كان سيثور ضد هذه العقيدة الجديدة المعادية للشيوعية، تمامًا كما رفض كل الزُمر المهيمنة الأخرى. كتب أوبراين لصالح مجلس الحرية الثقافية -بعد إفشاءات مجلّة «رامبارتس» - يقول: «من حسن

الحظ أن أورويل مات عندما مات. لو كان قد عاش، ربَّما لم يكن من السهل أن يدَّعي فصيل أحقِّيته فيه، لكن كان من الممكن أن تتَّخذه بعض الطفيليات عائلًا وتستغلَّ وجاهته لخدمة بعض الأنشطة المشبوهة».

تضمَّنت تلك الأنشطة العبث بروايتيه العظيمتين.

***

في ديسمبر عام 1951، وقَّع الزوجان رسَّاما الرسوم المتحرِّكة چون هالاس وچوي باتشلر عقدًا مع المنتج لوي دو روشمونت لصنع النسخة الفيلمية من «مزرعة الحيوان». طمأن هالاس «ذا نيويورك تايمز» أن الفيلم «لن يحيد إلَّا قليلًا عمَّا كتبه أورويل» و «سيحافظ على روح الكتاب». ما لم يعلمه الزوجان أن مصدر تمويل روشمونت الأساسي، والقوَّة المحرِّكة وراء الفيلم، كان «مكتب تنسيق السياسات» (أوه بي سي)، وهو إدارة في وكالة المخابرات المركزية مكرَّسة للعمليات السرِّية.

لم يعترض أورويل على مبدأ استخدام القصص لأغراضٍ سياسية. عندما كان ناقدًا، أوصى بأن يُروَّج لكلٍّ من «الديكتاتور العظيم» و «استعد حريتك» على أنهما بروباجندا مناهضة للنازية. ولاحقًا، كان سعيدًا جدًّا باستخدام «مزرعة الحيوان» في الترويج لمناهضة الاستالينية. كما تنازل عن حقوق ترجماتها في أوروبا الشرقية، ودفع من جيبه الخاص لإصدار طبعة باللغة الروسية، وكتب مقدمة الطبعة الأوكرانية في عام 1947 لتوزيعها على الاشتراكيين المناهضين للاستالينية الذين يعيشون في معسكرات النازحين في ألمانيا، على الرغم من أن معظم نسخ تلك الطبعة

اعترضها الجيش الأمريكي بناءً على طلب الروس. كان الدافع وراء إصدار تلك الطبعة هو الكاتب الأوكراني إيهور شيفتكو، الذي كتب ليخبر أورويل بأنه قرأ فقرات من الرواية على مسمع اللاجئين السوفيت ووجد أنهم تأثروا بشدة: «يبدو أن حالة الكتاب تتوافق مع حالتهم النفسية الراهنة».

لكن فكرة أن تعيد الوكالات الحكومية كتابة الكتب لأغراض الدعاية مسألة مختلفة. في كل مرَّة قدَّمت فيها جوي باتشلر مسوَّدة جديدة من سيناريو «مزرعة الحيوان»، طالب «المستثمرون» بإجراء تغييرات. ربما يمكن أن يكون لنابليون وسنوبول نفس شكل شعر وجهي ستالين وتروتسكي؟ هل يمكن التقليل من تفصيلة المزارعين لتركيز اللوم على الخنازير (ولتجنُّب الإساءة إلى الصناعة الزراعية)؟ سنوبول عطوف جدًّا: لِمَ لا نجعله «مفكِّرًا متطرِّفًا»؟ وهلم جرًّا. أعربت إحدى المذكِّرات عن أسفٍ «لاستنتاج أورويل الواضح أن الشيوعية جيِّدة في حد ذاتها، لكن ستالين وشركاه خانوها». رفض لوثار وولف -الذراع اليمنى للمنتج روشمونت- بعض الاقتراحات الأكثر سخافة، لكن المستثمرين كانوا متعنِّتين، وغالبًا ما نفَّذوا تعديلاتهم.*[52] علاوة على ذلك، أدَّت محدودية الميزانية إلى محو كثير من الشخصيات ونقاط الحبكة الجوهرية في حكاية أورويل الرمزية.

كانت مشكلة «مكتب تنسيق السياسات» الأكبر مع «مزرعة

52-* كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ. اقترح سيناريست الفيلم الأوَّل إدخال مشهد يرسل فيه نابليون خنزيرًا إلى المكسيك لاغتيال سنوبول، على أمل أن ينال إعجاب المشاهدين التروتسكيين. (المؤلِّف).

الحيـوان» هــي النهايـة. مـن المعـروف أن الخنازيـر والبشـر شـكَّلوا علاقـات وديّـة متوتّـرة حـول طـاولات البيـرة وبطاقـات اللعـب، ولـم تعـد الحيوانـات الأخـرى قـادرة علـى التمييـز بيـن الثـوّار والظالميـن. لكـن وفقًـا لحسـابات الحـرب البـاردة، فـإن أيَّ تركيـز علـى غـدر الديموقراطيـات الرأسـمالية لـم يكـن مفيـدًا. فـي الفيلـم، رحـل المزارعـون وحفَّـز انحطـاط الخنازيـر الحيوانـات علـى القيـام بثـورة ثانيـة. يمكـن القـول إن أورويـل تـرك هـذا الاحتمـال مفتوحًـا فـي الفقـرة الأخيـرة مـن الكتـاب: لأوَّل مـرة، تـدرك الحيوانـات جيّـدًا أن الثورة خينـت، لـذا قـد تفعـل شـيئًا حيـال ذلـك. لكن تكاتـف الحيوانات الأخـرى مـن المـزارع المجـاورة لسـحق نابليـون ورفاقـه حتَّـى المـوت جعـل مـن نهايـة أورويـل الكئيبـة مهزلـة. بحلـول الوقـت الـذي حلَّـت فيـه صيغـة الحـرب البـاردة الشـكلية المتداولـة محـل تعليـق باتشـلر الصوتـي المـدروس المشـتق مـن أورويـل، قطعًـا كان هـالاس وباتشـلر قـد توصَّـلا إلـى هويـة المسـتثمرين المتدخّليـن.

ومـع ذلـك، عندمـا عُـرِض «مزرعـة الحيـوان» لأوَّل مـرة فـي نيويـورك فـي 29 ديسـمبر 1954، اتَّضـح أن كل الجهـود المضنيـة التـي بُذلـت لضمـان أن يُرسـل الفيلـم الرسـالة الصحيحـة التـي وافقـت عليهـا وكالـة المخابـرات المركزيـة لـم تكـن ذات نفـع فـي مواجهـة تحيُّـزات النقَّـاد الشـخصية. لـم تمنـع كل هـذه المحـاولات أن يُفسِّـر بعـض النقَّـاد الفيلـم على أنه معادٍ للفاشـية، أو مؤيِّدٌ للشيوعية على نحـوٍ هـدَّام، أو أنـه «هجـاءٌ لاذع لدولـة الرفاهيـة»، أو غيـر مُسـيَّس علـى نحـوٍ أكثـر مـن الـلازم. بينمـا ادَّعـى ملـف أورويـل فـي مكتـب التحقيقـات الفيدرالـي أن الفيلـم «ربـح اليناصيـب»، لـم يكـن الجمهـور

مهتمًا على أيٍّ حال. لقد فشل فيلم «مزرعة الحيوان»، ولم يصل إلى جمهور عريض إلا لاحقًا عندما بدأ يُعرض في المدارس. حكم ديڤيد سيلڤستر على الفيلم في مجلَّة «إنكاونتر» بأنه «إخفاق من النواحي الجمالية والخيالية والفكرية»، غير مدرك على ما يبدو أن كلًّا من الفيلم والمجلَّة مدعومٌ من وكالة المخابرات المركزية.

ربَّما لم يُطرح الفيلم في التوقيت المناسب. لقد طُرح بعد أسابيع قليلة فحسب من معالجة «بي بي سي» لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وما صاحبها من جدل: وهو الحديث الذي طغى على فيلم «مزرعة الحيوان» في المقابلات الترويجية التي أجرتها سونيا مع الصحافة الأمريكية. سألت مجلَّة «توداي سينما»: «هل أعجبك تأويلهم للرواية؟». ردَّت سونيا قائلة: «يجب أن أكون مخلصة لشجاعة «بي بي سي»، لكن كلا، لم تعجبني حقًا». في بريطانيا، حاول الاستوديو المنتج لـ«مزرعة الحيوان» استغلال نجاح معالجة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» التليفزيونية، من خلال الشعار الترويجي: «الخنزير الأكبر يراقبك».

بحلول ذلك الوقت، كان بيتر راثڤون، الرئيس السابق لشركة «آر كيه أوه»، قد حصل على حقوق رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وعلى مئة ألف دولار من «وكالة المعلومات الأمريكية» للمساعدة في صنع «الفيلم المناهض للشيوعية الأكثر فتكًا على الإطلاق»، وذهب لطلب مشورة سول شتاين من لجنة «الحرية الثقافية الأمريكية» في أمر السيناريو، الذي حاول أن يفعل بهذه الرواية ما فعله «مكتب تنسيق السياسات» بـ«مزرعة الحيوان». اعترض شتاين بالمثل على استنتاج أورويل المتشائم: «أعتقد

أننا نتَّفق على أن هذا الوضع يمثِّل وضعًا بلا أمل، في حين أن هناك بعض الأمل في الواقع... لا يمكن أن تُغيِّر الشمولية من الطبيعة البشرية، ويستطيع الحب والطبيعة النجاة حتَّى في ظلِّ انتهاكات الأخ الأكبر المروِّعة». اقترح شتاين نهاية بديلة رقيقة بشكل شنيع يهرب فيها ونستون من مقهى شجرة الكستناء إلى القرية الذهبية، حيث يعيد اكتشاف إنسانيته التي لا تُقهر. لحسن الحظ، ألغى راثڤون هذه الفكرة.

كان سيناريست الفيلم المرشَّح للأوسكار وليم تمبلتون قد كتب من قبل معالجة لمسلسل مقتطفات من شبكة «سي بي إس» بعنوان «استديو وان في هوليوود»، لكن افتتاحية المسلسل (التي تُعلن أنه «مقتبس بتصرُّف من رواية «1984» لچورج أورويل») حذَّرت من أن مزيدًا من الحرية ستؤخذ هذه المرة. لكن هذه الحرية لم تكن دعائية. بدا تمبلتون والمخرج مايكل أندرسون أقل اهتمامًا بالسياسة وأكثر اهتمامًا بالرومانسية بين البطلين غير المناسبين لدوريهما (اللذين كانا أمريكيين لسببٍ غير مفهوم): نجم أفلام العصابات قوي البنية إدموند أوبراين في دور ونستون، والمتألِّقة المبتهجة چان ستيرلنج في دور چوليا. قبل أن تعتقل شرطة الفكر العاشقين في الرواية، يقول ونستون مهزومًا: «نحن في عداد الموتى». أما في الفيلم، تقول چوليا برعشة صوتية: «من الرائع أن يكون المرء على قيد الحياة!». ربَّما تكون وكالة المخابرات المركزية قد أُعجِبت بالتعليق الصوتي المحذِّر («هذه إذًا قصة عن المستقبل. يمكن أن تكون قصة أطفالنا إذا فشلنا في الحفاظ على ميراثهم من الحرية»)، لكنها بالتأكيد

لم تُعجب بملصق الفيلم، الذي صوَّر ونستون وچوليا في لحظة تقبيل حميمية حارَّة، بينما يتجسَّس عليهما ضابط من «الرابطة المناهضة للجنس» (التي لا تظهر في الرواية) من خلال شاشة رصد. «هل ستكون النشوة جريمة في عالم المستقبل المرعب؟ شاهدوا عجائب الغد المدهشة في فيلم لم يُصوَّر مثله من قبل!».

صوَّر أندرسون نهايتين مختلفتين. شاهد الجمهور الأمريكي ونستون يحب الأخ الأكبر، لكن المشاهدين البريطانيين فُوجئوا برؤية ونستون وچوليا يصيحان بتحدٍّ: «يسقط الأخ الأكبر!» قبل أن يُعدما بالرصاص. أن تكون النهاية «السعيدة» هي تلك التي يُقتل فيها البطلان بالرصاص دون أن يحقِّقا شيئًا لهي علامة على مدى سوداوية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». احتجَّت سونيا، التي غضبت إلى درجة أنها رفضت حضور العرض الخاص، قائلة: «يُظهر تغيير النهاية أنهم لم يفهموا الكتاب على الإطلاق. إنه أمرٌ بغيض». كان لدى راثڤون الوقاحة الكافية لادِّعاء أن هذه النهاية كانت هي «النهاية التي سيكتبها أورويل على الأرجح إذا لم يكن يعلم أنه يحتضر». مثل «مزرعة الحيوان»، فشل الفيلم في إثارة إعجاب النقَّاد والجمهور في أيٍّ من البلدين مع إصداره في عام 1956. حتَّى حكومة الولايات المتَّحدة لم تستطع جعل أورويل يحطِّم شبَّاك التذاكر.

رأى العديد من أصدقاء أورويل ومعجبيه أن استيلاء التيَّار اليميني عليه هو نوع من استلاب الجثث، بينما واصل منتقدوه التأكيد على أنه جلب ذلك إلى نفسه. بعد عقود من وفاته، أُعيد فتح النقاش بعد اكتشاف مشاركة أورويل السرِّية في خداع الحرب الباردة.

* * *

في 29 مارس 1949، تلقَّى أورويل زيارة في كرانام من صديقته السابقة سيليا باجيت، التي أخبرته عن وظيفتها الجديدة في «إدارة أبحاث المعلومات». وفقًا لرواية باجيت، فإن أورويل «عبَّر عن موافقته الصادقة والحماسية على أهداف الإدارة»، وأوصى ببعض أسماء الكُتَّاب المناسبين للانضمام. بعد أسبوع، أرسل متطوِّعًا خطابًا إلى باجيت يخبرها بأنه سيرسل «قائمة بالصحفيين والكُتَّاب الذين هم في رأيي شيوعيين مستترين، أو رفاق رحلة، أو يميلون إلى هذا، وبالتالي لا ينبغي الوثوق بهم كدعاة». كان أورويل يحتفظ بدفتر أزرق شاحب يضمُّ أسماء الشخصيات العامَّة التي يعتقد أنها متعاطفة مع الاتِّحاد السوفيتي، تمامًا كما توقَّع ذات مرَّة من قد ينقلب خائنًا في حالة الغزو النازي (كان مولعًا بإعداد القوائم). على مدار العام الماضي أو نحو ذلك، استولى الاتِّحاد السوفيتي على تشيكوسلوفاكيا، وتسلَّط على يوغوسلافيا، وحاصر برلين، واضطَّهد الكُتَّاب اليهود، وكان أورويل يستشيط غضبًا لأن ستالين مع كل ذلك لا يزال يتمتَّع بمدافعين بارزين. ردَّت باجيت بحماس على خطاب أورويل، فأرسل لها قائمة مختصرة من ثمانية وثلاثين اسمًا انتقاهم من دفتر ملاحظاته الذي يضمُّ 135 اسمًا. كتب لها: «القائمة ليست مدهشة جدًّا، ولا أعتقد أن تلك الأسماء ستخبر أصدقاءك بأيِّ شيءٍ لا يعرفونه بالفعل».

لا يُظهر كرَّاس ملاحظات أورويل صاحبه في أفضل حالاته. العديد من التدوينات فيه تافهة ونمَّامة وخسيسة وواهية، وكثيرًا ما يخونه عدم يقينه في هيئة علامات استفهام ونجوم وخطوط متقاطعة كثيرة تجعل الصفحات داكنة. إذا كان قد سلَّم دفتر

الملاحظات إلى «إدارة أبحاث المعلومات»، لكان تصرُّفًا متهوِّرًا رديئًا. لكنه أبقاه في السرِّ، وأولى اهتمامًا كبيرًا وهو يُحرِّر ويعدِّل قائمة باجيت. «تكمن الصعوبة الشديدة في تحديد موقف كل شخص، وعلى المرء أن يتعامل مع كل حالة على حدة»، هكذا أخبر ريتشارد ريس. كان من «الصعوبة بمكان» معرفة ما إذا كان الشخص مؤمنًا حقيقيًا أو انتهازيًا أو متعاطفًا تعوزه الحماسة أو مجرَّد أحمق.

من المشروع الشعور بخيبة أمل من إرسال أورويل مثل هذه القائمة إلى وكالة حكومية (حتَّى لو كانت عمَّالية)، لكن النسخة المعدَّلة كانت دقيقة إلى حدٍّ كبير على الأقل. كان أورويل قلقًا بشكل خاص ممَّن يُسمُّون رفاق الرحلة داخل حزب العمل البرلماني مثل كوني زيلياكوس وجون بلات ميلز: الرجلان اللذان هاجمهما بالفعل في الجرائد ووصفهما أنهما «عميلا دعاية للاتِّحاد السوفيتي». كان هذان هما ما يفكِّر فيهما عندما كتب بيانه حول رسالة رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «أعضاء الحكومة البريطانية الحالية لن يمهِّدوا الطريق عن طيب خاطر للعدو، لكن جيل الشباب مشكوك فيه، وربَّما تكون بذور الفكر الشمولي منتشرة بينهم». كل من ذكَّره بالأشخاص الذين لاحقوه في إسبانيا، أو حاولوا منع كتابته لأسباب سياسية، أثار غضبه. في عام 1946، اشتكى من جريمة انتقاد ستالين التي اتُّهم بها: «اضطُررت أحيانًا إلى تغيير ناشري، والتوقُّف عن الكتابة للصحف، وهو العمل الذي كان يُمثِّل جزءًا من دخلي، تعرَّضت كُتبي للمقاطعة في صحفٍ أخرى، وطُوردت بالرسائل والمقالات المهينة... بل وتلقَّيت تهديدات بدعاوي تشهير».

مـن المهـم تذكُّـر أن أورويـل كان ينصـح باجيـت فقـط بشـأن مـن ينبغـي تجنُّبـه لغـرض محـدَّد هـو: الكتابـة لصالـح «إدارة أبحـاث المعلومـات». بخـلاف ذلـك، لا يُوجـد دليـل علـى أن القائمـة أضـرَّت بوظائـف أيِّ شـخص فـي القائمـة، ولا أنـه كان مقصـودًا منهـا أن تفعل ذلـك. حقيقـة أن الممثِّل مايكل ريدجريف الموجود فـي القائمـة أدَّى دور شـخصية أوبرايـن فـي فيلـم عـام 1956 تُثبـت أنهـا لـم تسـتخدم كقائمـة سـوداء، وكذلـك حقيقـة أن الشـخص الوحيـد الـذي أشـار إليـه أورويـل بأنـه «عميـل روسـي مـن نـوعٍ مـا»، وهـو الصحفـي نمسـاوي المولـد بيتـر سـموليت، لـم يُكتشـف أنـه جاسـوس سـوفيتي إلا بعـد وفاتـه فـي عـام 1980. من شبه المؤكَّد أن سـموليت هـو الرجـل الذي نصـح جوناثـان كيـب بالتخلِّي عن نشـر «مزرعـة الحيـوان» عندمـا كان رئيـس العلاقـات السـوفيتية فـي وزارة الإعـلام.

يجـب أيضًـا الحكـم علـى نيَّـات أورويـل فـي ضـوء دعمـه لحريـة التعبيـر. وصـف أورويـل أيَّ محاولـة لقمـع الأحـزاب الشـيوعية الغربيـة بأنهـا «كارثيـة»، وحشـد أعضـاء لجنـة «الدفـاع عـن الحريـة» ضـد جهـود الحكومـة لتطهيـر الخدمـة المدنيـة مـن الشـيوعيين. أيضًـا أخبـر وودكـوك بأنـه فـي حيـن أن للحكومـات الحـق فـي مكافحـة التجسُّـس، فـإن الطريقـة التـي انتهجهـا حـزب العمـل كانـت «مقلقـة فـي غموضهـا، وتبـدو لـي الظاهـرة برمَّتهـا جـزء مـن الانهيـار العـام للتوقُّعـات الديموقراطيـة». ومـن المفارقـة أن أورويـل نفسـه كان يخضـع لمراقبـة الحكومـة البريطانيـة منـذ أن كان صحفيًّـا فـي باريـس عـام 1929. ذكـر رقيـب شـرطة كان يراقبـه فـي هيئـة الإذاعـة البريطانيـة أنـه يحمـل «وجهـات نظـرٍ شـيوعية متقدِّمـة»، مـع أن

الضابط المسؤول عن ذلك الرقيب -بعد أن قرأ مقالات أورويل- خلص على نحوٍ صائب إلى أنه «غير ملتزم بأفكار الحزب الشيوعي، ولا هم يعتنقون أفكاره».

ومع ذلك، عندما نُشرت رسالة أورويل إلى باجيت في عام 1996، تلذَّذ منتقدوه من التيَّار اليساري بمفارقة «القديس چورج الذي يقوم بدور شرطي الفكر».[53] هنا هو الدليل الدامغ (الضعيف جدًّا) الذي استُخدم لتسويغ عقود طويلة من العداء. قال المؤرِّخ الماركسي كريستوفر هيل: «لطالما عرفت أنه بوجهين. كان هناك شيء مريب حول أورويل... وهذا يؤكِّد أسوأ شكوكي حول الرجل». لم يستطع الصحفي ألكسندر كوكبيرن إخفاء فرحته: «اتَّضح أن الرجل يقظ الضمير شكَّاء، وواشٍ بلا أدنى شك، ومخبر للشرطة السرِّية، وابن عرس مقيم في «مزرعة الحيوان»». محزونًا أكثر منه غاضبًا، أعرب مايكل فوت زميل أورويل السابق في «تريبيون» عن خيبة أمله، بينما قال ابن أخيه بول فوت، صحفي الحملات الانتخابية: «أنا من أشد المعجبين بأورويل، لكن علينا أن نقبل أنه اتَّخذ موقفًا مكارثيًّا في نهاية حياته».

مكارثيًّا؟ كلا، لسنا مضطرين إلى تقبُّل ذلك على الإطلاق.

* * *

53- تسرَّبت قصة القائمة ببطء. في عام 1980، كشف كاتب سيرة أورويل، برنارد كريك، عن وجود كرَّاس الملاحظات في سطرٍ واحد في سيرته، لكن يبدو أن أحدًا لم ينتبه إليه. في عام 1996، أصدر مكتب التسجيلات العامَّة أول خطاب أرسله أورويل إلى باجيت. في عام 1998، نُشرت القائمة الواردة في كرَّاس ملاحظاته. لم تصدر وزارة الخارجية قائمة أورويل المعدَّلة حتَّى عام 2003، بعد وفاة باجيت. هذا يعني أنه على مدى سنوات عديدة، كان منتقدوه والمدافعون عنه على حدٍّ سواء يطلقون أحكامًا متسرِّعة. (المؤلِّف).

بعد تسعة عشر يومًا من موت أورويل، ادَّعى جوزيف مكارثي، عضو مجلس الشيوخ الجديد ذو الواحد والأربعين عامًا، على مسمع ملأٍ من النساء الجمهوريات في مدينة ويلنج بفيرجينيا الغربية، أنه يمتلك قائمة تضم أسماء عشرات الشيوعيين الذين يعملون في وزارة الخارجية، وهكذا بدأ واحدة من أكثر حلقات الحرب الباردة خزيًا.

كان مكارثي أحد تلك الوحوش التي تنفث النيران التي تظهر على السطح من أعماق الهوية الأمريكية من وقت إلى آخر لإفساد القيم الديموقراطية التي تدَّعي الدفاع عنها. بجعجعته ونرجسيته وتعطُّشه للسلطة وعدم نزاهته المرضية، يبدو مكارثي كأنه صُمِّم في مختبر بهدف محدَّدٍ هو الإساءة إلى أورويل. «أختلف دائمًا عندما يقول الناس إنه لا يمكننا محاربة الشيوعية والفاشية وما إلى ذلك إلا إذا طوَّرنا مذهبًا متعصِّبًا مماثلًا. من وجهة نظري، يهزم المرء التعصُّب بألَّا يكون متعصِّبًا».

وهو طالب قانون، استمتع مكارثي بلعب القمار والملاكمة، وطبَّق كلتا المهارتين في السياسة. بحلول الوقت الذي بدأ فيه حملته الصليبية، كان الجواسيس السوفيت أمثال ألچير هيس قد انكشفوا، وجرى تطهير النقابات العمَّالية الرئيسية، وانخفضت أسهم عضوية الحزب. كان الخوف من الاختراق الشيوعي أكبر بكثير من الخطر نفسه، وخلق ذلك فرصة لتاجر خوف محترف. في غضون أشهر، صار مكارثي نجمًا على أغلفة المجلَّات، ومتحدِّثًا مشهورًا يستطيع جمع تبرُّعات تصل إلى ألف دولار يوميًا. عرَّف المؤرخ تيد مورغان المكارثية بأنها «استخدام معلومات كاذبة

في السعي غير العقلاني وراء عدوٍّ وهمي». باستخدام وصف أورويل، كانت المكارثية عرضًا وهميًا، وقد دمَّرت حياة الأبرياء. في هوليوود، ضمَّت قائمة ضحايا المكارثية السوداء اثنين من ممثلين فيلم «استديو وان»، «1984». النجم إيدي ألبرت والراوي دون هولنبيك، الذي انتحر بعد بضعة أشهر من عرض الفيلم. اعتبر المخرج بول نيكيل معالجته نقدًا ضمنيًا لأساليب مكارثي.

المكارثية، التي وصفها السناتور بأنها «الهوية الأمريكية وقد شمَّرت عن ساعديها»، كانت لعنة على كثير من أعضاء «مجلس الحرية الثقافية». وصف أحد رجال الدعاية الأمريكية في روما مكارثي بأنه «ثغرة في درعنا اللامع، وتجسيد دحض كل ما أتفوَّه به». لذلك قُسِّمت لجنة «الحرية الثقافية الأمريكية» إلى قسمين. الأعضاء الليبراليون: دوايت ماكدونالد، وآرثر شليزنجر، وماري مكارثي (التي لا علاقة لها بمكارثي). هؤلاء استنكروا عدم نزاهة السناتور وسلوكه العدواني. بينما اعتقد الجناح المحافظ -چيمس بيرنام، وماكس إيستمان، إيرفينج كريستول- أن تهديد الاختراق الشيوعي يُسوِّغ الإجراءات المتطرفة. كان كتاب بيرنام «شبكة التخريب: الشبكات السرِّية داخل حكومة الولايات المتَّحدة» مكارثية مقنَّعة؛ قادته حِدَّته إلى ترك اللجنة وترك عمله في «بارتيزان ريڤيو» وكذلك وظيفته الاستشارية مع «مكتب تنسيق السياسات». كان أورويل محقًّا بشأنه على طول الخط: «يفكِّر بيرنام دائمًا من زاوية متطرِّفة بدائية... في نظره، يجب أن يحدث كل شيءٍ فجأة وعلى أتمِّ وجه. إما أن يُدرك الأمر كله وإما يُترك كله. إما المجد وإما الانهيار».

كان المكارثيـون مثـالًا بـارزًا علـى مـا سـمَّاه المـؤرخ ريتشـارد هوفسـتاتر فيمـا بعـد «عقيـدة الشـك»، وكانـوا مهوَّسـين بفكـرة «وجـود شـبكة تآمريـة دوليـة واسـعة وشـريرة وكُفـأة تمامًـا، تهـدف لارتـكاب أفعـال ذات طابـع شيطاني». لاحـظ هوفسـتاتر أن معـاداة الشـيوعية تدهـورت بسـرعة وصـارت نسـخة مـن الأرثوذكسـية تختلـف فقـط فـي الدرجـة. معظـم المجرميـن المكارثييـن الأكثـر شـرًا كانـوا شـيوعيين سـابقين سُـمح لهـم بحـقٍّ الارتـداد عنهـا. هـؤلاء اللاجئـون مـن خـداع التفكيـر المـزدوج، الذيـن صُدمـوا مـن أكاذيبهـم وأعذارهـم القديمـة، تحوَّلـوا إلـى مـا سـمَّاه أورويـل «الوطنيـة المنتحلـة». شـخَّص لويـس فيشـر هـذا النـوع مـن البشـر ببراعـة فـي كتابـه «الإلـه الـذي فشـل»:

> هـذا الشـخص يتخلَّـى عـن الشـيوعية فكريًـا، لكنـه يحتـاج إلـى بديـل عاطفـي عنهـا. ولأن هـذا الشـخص هـش مـن الداخـل، ويرغـب فـي الأمـان وعقيـدة مطمئنـة وجماعـة منظَّمـة كبيـرة، ينجـذب إلـى نقيـض آخـر يتَّسـم بالعصمـة مـن الخطـأ والاسـتبداد واليقيـن العقائـدي... وعندمـا يجـد شـمولية جديـدة، فإنـه يحـارب الشـيوعية بعنـف وبتعصـب يشـبه الشـيوعية. إنـه «شـيوعي» مناهـض للشـيوعية.

لـم يسـتحوذ هـذا الإيمـان شـبه الدينـي بالشـيوعية علـى أورويـل قـط، الإيمـان الـذي تحـوَّل فـي رؤيـة الكثيريـن إلـى صورتهـا السـلبية، ولـم يكـن أورويـل أيضًـا مدفوعًـا «بالتقـدُّم الجماعـي والاحتـكار الثقافـي» الـذي اعتقـدت مـاري مكارثـي أنـه حـرَّك المتعصبيـن. ولأنـه غيـر مهتـم بحيـازة السـلطة، لـم يتُـق قـط إلـى أن يكـون عضـوًا فـي

القبيلة الفائزة. كتب أورويل في عام 1946: «في غضون خمس سنوات، قد يكون مدح ستالين خطرًا مثل مهاجمته. لكن لا ينبغي أن أعدَّ هذا تقدُّمًا. لا نفع يعود من تعليم ببَّغاءٍ كلمة جديدة. المطلوب هو الحق في نشر ما يرى المرء أنه حقيقي، دون الخوف من التسلُّط أو الابتزاز من أيِّ طرف».

انتهت مسيرة مكارثي المهنية بالعار لأنه نجح في تنفير البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية والجيش وزملائه في الكونجرس. لكن الفكر المكارثي، الذي عاش من بعده، كان من النوع الذي وصفه أورويل في بيانه عن أهمية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» واسعة النطاق: «في الولايات المتَّحدة، يحمل مصطلح «الهوية الأمريكية» أو «الأمريكية الخالصة»» -وهو مصطلح يرجع تاريخه إلى أوَّل خوفٍ أحمر في عام 1919- «الطابع الشمولي الذي قد يأمله أيُّ شخص».

أحد ابتكارات مكارثي الخبيثة هو التجاهل شبه الشمولي للحقيقة عن طريق استغلال نقاط ضعف الديموقراطية. ظاهريًا، كان هو والصحافة عدوَّين لدودين. لقد قارن مجلَّة «تايم» بمجلَّة «لايف» وبـ «ذا ديلي ووركر»، وخصَّ مراسلًا بتهمة الإساءة إليه أمام حشدٍ هازئ، وتحدَّث بغضب ذات مرَّة عن كيف أساءت الصحافة معاملته أمام جمهورٍ من تلاميذ المدارس المذهولين. ومع ذلك، فقد أحبَّه الصحفيون، وطاردوه، ودعَّموه في نهاية المطاف، لأنه كان مادَّة يمكن الاعتماد عليها لكتابة عنوان جذَّاب رائع. وعلى الرغم من أن كثيرًا ممَّا قاله لا أساس له من الصحة، كان مكارثي يعرف -مثل أيِّ سياسي من قبله- الطريقة المُثلى اختراق

الصحافة الأمريكية. كان يزخرف القصص على مدار عدَّة أيَّام لزيادة التغطية الصحفية، ويعقد مؤتمرات صحفية قبل ساعة من مواعيد تسليم المراسلين النهائية لأخبارهم، كي لا يترك لهم أيَّ وقت للتحقُّق من صحة تصريحاته، ولم يحاول كثيرٌ منهم ذلك.

في عام 1952، اعترفت صحيفة «نيويورك تايمز» بأنها ضلَّلت قرَّاءها بطباعة مزاعم مكارثي من دون تمحيص، لكنها أبرأت ذمَّتها من تعمُّد الخداع: «من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، تجاهل الاتِّهامات التي وجهَّها السناتور مكارثي لمجرَّد أنها عادةً ما يثبت مبالغتها أو زيفها. يقع الإنصاف على عاتق القارئ». عن طريق التلاعب بالنظام، صنع مكارثي نطاقًا فريدًا خاصًا به وراء أراضي الحقيقة يستطيع فيه قول أيَّ شيء. بعد عقود من الزمن، أوضح مراسل مجلَّة «تايمز» جيمس ريستون الشهير باسكوتي أسباب نجاح مكارثي: «كان يعلم أن الأكاذيب الكبيرة تتصدَّر عناوين الصحف، وكان يعلم أيضًا أن معظم الصحف ستطبع أيَّ تهمة شائنة ينشرها سناتور أمريكي علنًا... عرف مكارثي كيف يستغل «طائفة المتحلِّين بالموضوعية» هؤلاء». ثم أضاف أن الجميع تقريبًا «خرجوا من الحقبة المكارثية بشعورٍ غامض بالذنب».

* * *

إحدى أبشع الأعمال التي فعلها مكارثي في عام 1953، هي إرسال مساعديه الشابين المتعصِّبين روي كون وديفيد شين في جولة في مكتبات «وكالة المعلومات الأمريكية» في أوروبا، وهناك عقَّدا الأمور مع كل من التقوهما، ووضعا قائمة بالكتب «الحمراء» المُراد إزالتها، بما في ذلك العناوين التي كانت في السابق مسيئة

لهتلر وستالين وماو. أحرق بعض أمناء المكتبات الألمان الكتب المدرجة في القائمة السوداء، وقد كان المشهد صادمًا تمامًا إلى درجة أن الرئيس أيزنهاور كسر صمته أخيرًا بخصوص مكارثي. قال أيزنهاور أمام دفعة خريجين في كلية دارتموث: «لا تنضموا إلى مُحرِّقي الكتب. لا تعتقدوا أنكم ستخفون العيوب بإخفاء الدليل على وُجودها من قبل».

تزامنت الواقعة مع موضوع رواية صارت -على الصعيدين الثقافي والسياسي- المعادل الأمريكي نوعًا ما لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: رواية الخيال العلمي «451 فهرنهايت» لراي برادبوري. كتب برادبوري: «لا أستطيع التنبُّؤ ما إذا كانت أفكاري حول الرقابة التي يفرضها قسم الإطفاء ستتقادم بحلول الأسبوع المقبل أم لا. عندما تهب رياحٌ مناسبة، تنبعث رائحة كيروسين خافتة من السناتور مكارثي». تحكي رواية برادبوري التي تهجو وسائل الإعلام العامَّة عن موظَّفٍ منبوذ في نظام شمولي، وعن قمع المعرفة ومحو الذاكرة، وعن ظلِّ الحرب المستمر، وعن «التليفزيور»، وعن منطقٍ معكوس أورويلي الطابع جدًّا: في عالم أبنيته مضادة للحريق، تصبح وظيفة رجال الإطفاء إشعال النيران بدلًا من إخمادها، وهؤلاء يصرُّون على أن الأمر لم يكن مختلفًا من قبل قط.

ربَّما كان هذا التقارب مصادفة. عندما سُئِل عمَّا إذا كان تأثَّر بأورويل، أطلق برادبري على «ظُلمة في كَبِد النهار» لقب «الأب والأم والأخ المجنون الحقيقيين» لرواية «451 فهرنهايت». لكن من الآن فصاعدًا، ستكون المقارنة مع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»

هـي الثمـن الـذي يتحتَّـم علـى أيِّ شـخصٍ يكتـب أدبًـا ديسـتوبيًا دفعـه. إبَّـان الحـرب الكوريـة وأزمـة الصواريـخ الكوبيـة، شـمل هـذا الضـرب مـن الأدب روايـات «البيانـو الآلـي: أمريـكا فـي عصـر الإلكترونيـات القـادم» لكيـرت فونيجـوت، و «الحـب بيـن الأطـلال: قصَّـة رومانسـية مـن المسـتقبل القريـب» لإيڤليـن ووه، و «واحـد» لديڤيـد كارب، و «عدالـة الملامـح» لإل بـي هارتلـي، و «صعـود الميروتوقراطيـة: 1870 - 2033» لمايـكل يونـج، و «النشـيد» لآيـن رانـد (التـي نُشـرت أخيـرًا فـي الولايـات المتَّحـدة)، بالإضافـة إلـى كثيـر مـن الأعمـال المنحولـة التـي غفـل عنهـا الزمـن غيـر ظالـم. «فـي حيـن أنـه قبـل عشـرين عامًـا، كان الكاتـب البليـد العـادي يضـع مجتمعـه الاسـتبدادي علـى كوكـب الزهـرة أو فـي المسـتقبل البعيـد جـدًّا، فإنـه فـي الوقـت الحاضـر -علـى مـا أظـن- يضـع الكاتـب نصـب عينيـه علـى الأرض خـلال مئـة العـام القادمـة أو نحـو ذلـك»، هكـذا كتـب كينجسـلي آيمـس فـي كتابـه الاسـتقصائي عـن أدب الخيـال العلمـي «خرائـط جديـدة للجحيـم». بخـلاف الاسـتثنائين البارزيـن المتمثِّليـن فـي «مشـروع والـدن الثانـي» لبـي إف سـكينر، وآخـر أعمـال ألـدوس هكسـلي «الجزيـرة»، فقـد الكُتَّـاب شـهيتهم لليوتوبيـات.

فـي الولايـات المتَّحـدة، حيـث مـلأت روايـة «النشـيد» صفحـات عـددًا كامـلًا مـن مجلَّـة «فيمـوس فانتاسـتيك ميسـتريز»، تـوارى ضـرب الأدب الديسـتوبي داخـل سـحابة الخيـال العلمـي. بغلافهـا المثيـر المسـتقبلي الـذي يقـول: «رؤيـة مفزعـة للحيـاة فـي عـام 1984. حـبٌّ مُحـرَّم، خـوف، خيانـة»، غازلـت طبعـة دار «سـيجنت» مـن روايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» عُشَّـاق آيـزك أزيمـوف وروبـرت آيـه

هينلين. لكن آيمس أشار إلى أن الأدباء المتغطرسين رفضوا قبول فكرة أن كتاب أورويل ينتمي إلى ضرب من الأدب يرونه أدنى من أن يُنظر إليه بجدّية. من زاوية التصنيف الأدبي والسياسي، كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» تستحقّ القتال من أجلها، مثل المنطقة المُتنازع عليها على أطراف أوقيانيا.

***

في مقاله في مجلّة «ذا ماركسيسيت كوارترلي» الذي نُشر في يناير 1956، تنبّأ جيمس والش بأن ««1984» في طريقها إلى الزوال. نحن الآن بحاجة إلى دفعة إضافية للتخلّص منها إلى الأبد». في الواقع، ما كان في طريقه إلى الزوال هو مصداقية الشيوعية السوفيتية في الغرب.

في يونيو، نشرت الصحف النّص المسرَّب «حول عبادة الحاكم وتبعاتها»، وهو خطاب فبراير الذي استنكر فيه الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف كثيرًا من جرائم ستالين. بعد خمسة أشهر، حطّم خروتشوف آمال نهاية شتاء الحرب الباردة بإرسال الدبّابات لسحق انتفاضة شعبية في المجر. تسبّب الحدثان في سيلٍ من الارتداد، وهجر أعضاء الحزب الشيوعي حزبهم في مختلف أنحاء الغرب بعشرات الآلاف. حتّى أنه زُعِم بأن ترجمة مجرية لمنشور ساميزداتي[54] لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت نصًّا مقرَّرًا على متمرِّدي عام 1956.

وهذا يفسِّر أهمِّية قائمة أورويل اللاحقة لمنتقديه من التيّار

54- ساميزدات: نوع من الكتابة والنشر مارسه المنشقّون في الاتّحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية تحدّيًا للرقابة المفروضة على الكتابات المعارضة. كانت المطبوعات المحظورة تُكتب باليد وتُمرَّر من قارئ إلى آخر، وكان من يُدان بنشر أو تداول مثل هذه المنشورات يواجه عقوبات قاسية. (المترجم).

اليساري. بعد المجر، كان على العديد منهم قبول أنهم كانوا مخطئين بشأن طبيعة الشيوعية السوفيتية، وأنه كان محقًا بشكل يثير الغيظ. كان أورويل -أكثر المفكِّرين الاشتراكين اطِّلاعًا في الخمسينيات- معاديًا نزيهًا للشيوعية، والأكثر من ذلك أنه كان ميِّتًا ومحاطًا بهالة من الاستقامة الأخلاقية. وبالتالي كان يبث في النفوس نوعًا من الإعجاب الحانق. في بعض الأحيان كان الحنق يبتلع الإعجاب. في نظر الناقد الماركسي رايموند وليمز، فإنه بتأمُّل الماضي بعد سنوات، تجد أن أورويل كان عقبة سياسية: «إذا حدث وانخرطت في أيِّ جدال اشتراكي، كان هناك تمثال ضخم لأورويل يحذِّرك للعودة. حتَّى الستِّينيات، كانت المقالات الافتتاحية السياسية تنصح الراديكاليين الأصغر سنًا بقراءة أعمال أورويل ورؤية إلى أين أدَّى كل ذلك».

من المؤكَّد أن المرحلة الأولى من الحرب الباردة مكَّنت اليمين من السطو على أورويل بشكل عام، وعلى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بشكل خاص، لكن ذلك لم يستمر. مضى التاريخ قدمًا، مثلما يمضي ضوء الشمس عبر غرفة، وألقى بظلالٍ مختلفة.



الفصل الحادي عشر

هذا الذعر اللعين

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في السبعينيات

«من الصعب تخيُّل فترة سابقة ظهر فيها مثل هذا اليأس المتفشّي في جميع أصعدة الحياة البريطانية».

ستيڤن هاسلر، «موت الديموقراطية البريطانية»، 1975.

في يوم مشرقٍ بارد من أيَّام أبريل عام 1973، صعد ديڤيد بوي وعازف الإيقاع چيف ماكورماك على متن القطار العابر لسيبيريا في خاباروفسك. كان المغنِّي المصاب برهاب الطيران في طريق عودته الطويلة إلى دياره في لندن من جولته اليابانية. الرحلة التي استغرقت أسبوعًا إلى موسكو كانت مرحة في البداية، لكن مع اقترابهما من العاصمة، زادت أجواء التوتر والريبة. في موسكو، شاهد بوي عرضًا عسكريًا استمرَّ يومًا كاملًا من نافذة فندقه في الميدان الأحمر. قال لاحقًا: «في ارتحالي عبر روسيا، شعرت أن هذا بالتأكيد ما تبدو عليه الأنظمة الفاشية. كانوا يسيرون مثلهم، ويؤدُّون التحية العسكرية مثلهم». وعندما كان القطار المتَّجه إلى باريس يمرُّ عبر المنطقة الخالية بين برلين الشرقية والغربية، صُدم الرجلان من مشهد الأنقاض المقصوفة الخاوية. تذكَّر ماكورماك: «بدا أن البقايا المؤسفة الشاهدة على أخطاء البشرية تستمرُّ إلى الأبد مع مضي القطار قدمًا. لم ينبس أحدنا ببنت شَفة».

ضاعفت هذه الرحلة الثقيلة من شعور بوي المتزايد بالجنون والذعر. في المحطّة الأخيرة من رحلته إلى الديار، تحدَّث إلى روي هولينجسورث من «ميلودي ميكر» عن كيف أثَّرت فيه وغيَّرته. قال وهو يدخِّن بشراهة: «أتعلم يا روي، لقد عركت الحياة، وأظن أنني أعرف من يسيطر على هذا العالم اللعين. وبعد ما رأيته من حالة هذا العالم، لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا الذعر اللعين في حياتي».

لم يكن المرء بحاجة إلى السفر عبر روسيا في عهد بريچنيف لينتابه الخوف في بريطانيا في السبعينيات. كانت قنابل الجيش الجمهوري الأيرلندي إحدى سمات الحياة اليومية وقتها، مثلها مثل القنابل الصاروخية في آيرستريب وان. كان الاقتصاد يسيطر عليه الركود التضخُّمي، وهو مصطلح قبيح يصف ظروفًا قبيحة تجمع بين التضخُّم والركود الاقتصادي. في أكتوبر 1973، تآمر إضراب عمال المناجم مع حظر النفط العربي لإنتاج أسوأ نقص في الوقود منذ فبراير 1947. مع رجوع انقطاعات التيار الكهربائي، وتقنين الوقود، وتقليل ساعات البث التليفزيوني، والمصاعد المعطلة، بدأت بريطانيا تبدو كتلك الموصوفة في الصفحات الافتتاحية من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كتب نائب حزب العمل توني بين: «ثمَّة شعور كبير بالأزمة في كل مكان»، مستخدمًا الكلمة المنتشرة وقتها. في استراحة الاحتفال بالكريسماس، قال عضو مجلس الوزراء المحافظ چون ديڤيز لعائلته أن يستمتعوا بوقتهم، «لأنني كنت أعتقد بشدَّة وقتها أن ذلك كان آخر كريسماس من نوعه سنستمتع به».

بحلـول ليلـة رأس السـنة الجديـدة، اختُصـرت أيَّـام العمـل فـي البـلاد إلـى ثلاثـة أيَّـام فـي الأسـبوع لجميـع الأعمـال غيـر الأساسـية لتوفيـر الوقـود. أدَّى انخفـاض الإنتاجيـة إلـى الكشـف بقسـوة عـن الضعـف الكامـن فـي الاقتصـاد، مـا دفـع محافـظ بنـك إنجلتـرا إلـى توقُّـع الدخـول فـي عقـدٍ مـن التقشـف، وهـو بذلـك ينتهـي فـي عـام 1984. ركـود وإرهـاب واضطرابـات صناعيـة وشـعور بتدهـور وطنـي لا رجعـة فيـه: بحـر مـن المشـكلات بـدا أن رئيـس الـوزراء المحافـظ إدوارد هيـث غيـر قـادر علـى الإبحـار فيـه. لاحظـت جريـدة «ذا نيويـورك تايمـز» وجـود «قشـعريرة متزايـدة محسوسـة، خـوف مـن أمـورٍ مروِّعـة قـد تحـدث».

ظهـر أحـد تلـك الأمـور المروِّعـة، وهـو احتمـال حـدوث انقـلاب عسـكري مثـل الانقـلاب الـذي قـام بـه مؤخـرًا الچنـرال بينوشـيه فـي تشـيلي، فـي مقـالٍ بقلـم المحـرِّر السياسـي باتريـك كوسـجريف فـي عـدد الكريسـماس مـن مجلَّـة «ذا سـبيكتاتور». «إن الدولـة التـي تمزِّقهـا فصائـل متحاربـة، والتـي لا يحتفـظ أيٌّ فصيـلٍ منهـا بدعـم الجمهـور لموثوقيتهـا أو كفاءتهـا، هـي بالفعـل دولـة جاهـزة للانقـلاب»، هكـذا توقَّـع كوسـجريف. كان الحديـث فـي حانـات وأروقـة وستمنسـتر محمومًـا. هـل يمكـن أن يحـدث الأمـر هنـا؟ أجـل، هكـذا خلص. يمكـن أن يحـدث بالفعـل. «لا شـيء حتمـي بالتأكيـد. لكـن إن اسـتمر نهـج الإحبـاط والفشـل والتخريـب الـذي وصفتـه، سـواء بوعـي أو دون وعـي، فلـن يكـون لـه إلا نتيجـة واحـدة فقـط».

قطعًـا لـم يشـعر الجميـع فـي بريطانيـا أن الديموقراطيـة تحتضـر علـى فـراش المـوت. أصابـت هـذه الأزمـة الاقتصاديـة، بخـلاف

معظم الأزمات، الأغنياء أكثر من الطبقة العاملة، لذلك لم يكن السياسيون والصحفيون والروائيون من الطبقة الوسطى يعرضون الصورة كاملة. واصل ملايين البريطانيين الاستماع إلى فرقة سليد وفرقة ذا أوزمندز، وذهبوا لمشاهدة فيلم «عِش ودعهم يموتون» و «الحياة التي كنا نعيشها»، واسترخوا أمام مسلسلي السيت كوم «آر يو بيينج سيرفد؟» و «بوريدج»، واستمتعوا بأيَّام الراحة الإضافية، واهتموا بشؤونهم بشكلٍ عام. لكن مزاج ديڤيد بوي كان منسجمًا مع ترددات أكثر حِدَّة. بحثت أغنيته «الحياة على المريخ؟» عن طريق للمضي قدمًا وسط حطام الستينيات، وقدَّمت أغنية «خمس سنوات» عدًّا تنازليًا لنهاية العالم، أما التاريخ المنذر بالسوء في عنوان أغنية «علاء الدين سين (1913 – 1938 – 197?)» فقد حدَّد العقد الذي ستندلع فيه الحرب العالمية الثَّالثة. اعترف بوي في مجلَّة «نيو ميوزيكال إكسبرس» قائلًا: «أنا متشائم بغيض. هذا أحد الأشياء التي تؤخذ عليّ. أتشاءم من البدع المستحدثة والمشاريع الجديدة والأفكار الجديدة التي تتعلَّق بالمجتمع. أعتقد أن كل شيء انتهى. أعتقد أن نهاية العالم حدثت قبل عشر سنوات. تلك هي المشكلة». لم يكن من المستغرب على الإطلاق أن يتَّجه عقله إلى كتابة أغنية روك مستوحاة من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كما أن بوي لم يكن الشخص الوحيد صاحب الرؤية الأورويلية. أعلنت المجلَّة الألمانية «ميركور» في مطلع عام 1974: «بدأ العد التنازلي لعام 1984». بالتأكيد بدأ. باستعارة أحد تشبيهات أورويل نفسه، فإن تاريخه الذي ينذر بشؤم مارس نفس الجاذبية

المنوِّمة على العقول القلقة كما تفعل الأصلة العاصرة بالأرنب. كتب ريتشارد فارمر في كتابه «عالم "1984" الحقيقي: نظرة على المستقبل المنظور»: «من الصادم أن ندرك أنه لم يبق على العام سوى عقد من الزمان. لم يعد العام قابعًا في مستقبلٍ ضبابي بعيد؛ كثيرٌ منا سيعيشون لرؤية كيف سيكون عام 1984 حقًا». أو كما كتب الليبرالي جيروم توسيل في كتابه «من يخاف عام 1984؟»: «لم يسبق في التاريخ أن حمل عامٌ واحد مثل هذه الدلالات المشؤومة لقطاع عريض من البشرية».*[55]

***

بحلول عام 1973، تخطَّت مبيعات «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مليون نسخة في المملكة المتَّحدة، وعلى الأقل عشرة ملايين في الولايات المتَّحدة. لم تعد الرواية موجزًا لمستقبلٍ قاتم فحسب، وإنما خلاصة لحاضرٍ غير مؤكد. كتب الروائي أنتوني برجس: «تُلصق لفظة أورويلي على أيِّ شيء هذه الأيَّام»، مشيرًا إلى أن الكلمة صارت تُستخدم أحيانًا في غير معناها. في البرلمان، ظهر اسم «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في مناقشات حول الصين وكمبوديا والحريات المدنية والخصوصية. وصفت صحيفة «واشنطن بوست» الرواية بأنها «الأشهر والأكثر اقتباسًا من بين جميع الأعمال التي كُتبت في الأعوام الخمسة والعشرين الماضية».

55–* كلا الكتابين كان مناهضًا بشدة لأورويل في الواقع: رؤيتان شبه يوتوبيَّتين لمستقبل أنظف وأكثر حرية وثراءً. لقد استغلَّا تاريخ أورويل الشهير كحيلة ترويجية مفيدة، تمامًا مثلما فعل كتاب «في منتصف الطريق إلى عام 1984» للورد جلادواين، وكتاب «بريطانيا عام 1984: توقُّعات يونيليفر» لرونالد بريك، اللذان نُشرا في الستينيات. (المؤلِّف).

كان استدعاء شبح أورويل هو السمة السائدة في تلك الأيَّام. أدَّى نشر كتابي «المقالات المجمَّعة» و «صحافة ورسائل چورج أورويل» في أربعة مجلدات عام 1968 إلى إثراء فهم القرَّاء بشكل كبير عن شخصيته وأفكاره، ما أدَّى إلى جولة أخرى من تساؤلات: «ما الذي كان سيفكِّر فيه أورويل اليوم؟». تساءل العديد من النقَّاد عمَّا كان سيقوله بشأن قضايا ملحَّة مثل ريتشارد نيكسون وهارولد ويلسون وأدولف آيخمان وفيتنام وإسرائيل وربيع براج وحملة نزع السلاح النووي. لا أحد يستطيع الإجابة بثقة. اختتمت ماري مكارثي مقالتها في «ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس» بملاحظة جافَّة وقاسية: «لو كان قد عاش، لفضَّل العيش في جزيرة صحراوية، ولربما كان موته راحة له». شعرت سونيا بالإهانة إلى درجة أنها كتبت ردًّا منهجيًّا من ستِّ صفحات لمجلَّة «نوفا»، تقول فيها إن زوجها الراحل بدا كأنه يخيِّب آمال مكارثي «لكونه لم يحدِّد أفكاره بشأن الأحداث التي وقعت بعد وفاته».

كان تخمين آراء أورويل مسألة أكثر صعوبة من الوقوف على ما تعنية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الآن. بالنسبة إلى معظم القراء غير الراغبين في تمشيط الرسائل والمجلات، كانت الرواية أشبه بعالم كامل. في السنوات التي تلت وفاة ستالين عام 1953، كانت قد حطَّمت أغلال ربطها ببروباجندا الحرب الباردة وأصبحت كتابًا يستطيع أيُّ فصيلٍ سياسي تقريبًا أن يزعم أنه في صفِّه؛ وهذا ما فعله اليسار بشكل متزايد. وفي حين ما جعلت «جمعية چون بيرش» فائقة المكارثية الأرقام 4 8 9 1 آخر أربعة أعداد لرقم هاتفها، أضافت حركة بلاك بانثرز أعمال أورويل إلى

منهج «مدرسة مجتمع أوكلاند». في رواية سول بيلو «كوكب السيِّد ساملر» التي نُشرت عام 1970، يُخبر طالبٌ ساخطٌ يساريًا مُسِنًا من الثلاثينيات بأن أورويل كان «بغيضًا ومريضًا معاديًا للثورة. لحسن الحظ أنه مات عندما مات»، ومن ناحية أخرى وضع فيليب روث اقتباسًا من مقال «السياسة واللغة الإنجليزية» في مقدِّمة روايته المسرحية الهجائية المعادية لنيكسون «عصابتنا». سخر مفكر حركة اليسار الجديد بروس فرانكلين قائلًا: «هذا الهراء لا يستطيع أن يصمد أمام عواصف الثورة المتصاعدة. على سبيل المثال، كيف يمكن زعم أن القادة الثوريين مجرَّد خنازير، كما فعل أورويل، في ظلِّ وجود مالكولم إكس وهو تشي منه؟». لكن نعوم تشومسكي، اليساري بالقدر نفسه، أكَّد أن أورويل انحاز إلى «الرجل العادي» ضد «القوى القمعية»، لذا فإن «فكرة استخدام كتاباته لمصلحة الأيديولوچيات المناهضة للشيوعية كانت ستكون مرعبة في نظره. على الأقل أنا أجدها مرعبة». كان الراديكاليون الواقعيون في مجلَّة «إنترناشونال تايمز» سعداء جدًّا بقبول هدية سونيا، وهي آلة أورويل الكاتبة، بينما راقب مكتب التحقيقات الفيدرالي مجتمعات الحرم الجامعي التي سمِّيت تيمُّنًا بأورويل تحسُّبًا لأن تكون واجهات للتخريب الاشتراكي.

استوعبت فرق الروك الرواية ودمجتها في صرخاتها الحاشدة للثقافة المضادة. سألت فرقة «اسبيرت» في أغنيتها المنفردة «1984» التي صدرت في أسابيع الستينيات الأخيرة: «أين ستكون عندما تهلك حريتك بعد أربعة عشر عامًا من الليلة؟»، وصرخ چون لينون (الذي اسمه الأوسط ونستون) في أغنية «أونلي

بيبـول»: «لا نريـد دولـة الأخ الأكبـر». قـرب نهايـة أغنيـة «أيُّهـا الأخ الأكبـر»، حـذَّرت فرقـة السـول البيضـاء «ريـر إيـرث» المسـتمعين: «إن لـم نتكاتـف معًـا، سـيراقبنا الأخ الأكبـر». وفـي أغنيـة سـتيڤي وانـدر «الأخ الأكبـر» الرائعـة المُحقِّـره، مثَّـل الأخ الأكبـر إدارة نيكسـون. أصبـح ديكتاتـور أورويـل الآن اسـمًا آخـر للحكومـة.

يبـدو أنـه مـن الملائـم أيضًـا أن تكـون «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» أحـد الكتـب المحبَّبـة إلـى قلـب لـي هارفـي أوزوالـد. كان أوزوالـد ضحيـة لجنـون الارتيـاب ومروِّجًـا لـه فـي الآن نفسـه، وهـي حالـة ازدهـرت فـي السـتينيات وانتشـرت فـي السـبعينيات. تبخَّـر السـحر السـوڤيتي إلـى حدٍّ كبيـر، وبالمثـل تآكلـت الأسـطورة المنافسـة التـي تصـف أمريـكا كقلعـة للحريـة والإنصـاف، بسـبب الحـروب والفضائـح والدسـائس والتجسُّـس والاغتيـالات فـي الداخـل والخـارج. مُغـذَّاة بخـوف أورويـل الشـخصي مـن الخضـوع للمراقبـة، صـارت «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» نصًّـا ضروريًّـا عـن جنـون الارتيـاب لا غنـى عنـه، سُـوِّغت فيـه أسـوأ المخـاوف: أجـل، هـم يكذبـون عليـك. أجـل، هـم يراقبونـك. أجـل الشـخصيات الأبويـة الحاكمـة سـتخون ثقتـك بأكثـر الطـرق رعبًـا. تناغمـت الأجـواء الأورويليـة مـع روح السـتينيات كأفضـل مـا يكـون فـي مسلسـل باتريـك ماكجوهـان التليفزيونـي الرائـع «السـجين».

كان ماكجوهـان كاثوليكيًّـا أيرلنديًّـا ذا سـلوكٍ صـارم وسـاخر، مـا أعطـى انطباعًـا بأنـه يعـرف أكثـر ممَّـا يفصـح عنـه، وكان يجـد ذلـك مسـليًّا علـى نحـوٍ قاتـم. كان مـن الممكـن أن يـؤدِّي شـخصية أوبرايـن ببراعـة علـى الشاشـة، علـى الرغـم مـن أن آراءه السياسـية كانـت مختلفـة

تمامًا. أرجع ماكجوهان كراهيته الشديدة للسلطة إلى التعليم الكاثوليكي الذي يذكّرنا بالتعليم في «مدرسة سانت سيبريان»: «كان من المستحيل تقريبًا فعل أيِّ شيءٍ لا يندرج تحت بند الخطيئة». في عام 1966، استخدم ماكجوهان نفوذه بصفته بطل مسلسل الجاسوسية «رجل خطر» عن الحرب الباردة للتفاوض على ميزانية غير مسبوقة والمطالبة بالتحكُّم الإبداعي الكامل لإنتاج قصَّة رمزية مسهبة عن «الطريقة التي نتحول بها إلى محض أرقام».

في مسلسل «السجين»، يلعب ماكجوهان دور عميل سرِّي يستقيل من الأجهزة الأمنية، وبعدها يُفقده شخصٌ ما وعيه بالغاز، ليستيقظ في دولة بوليسية صغيرة تسمَّى «القرية»، ويكتشف أنه لم يعد لديه اسم. لقد صار يُعرف بـ«رقم ستَّة» فحسب. ما كتبه أورويل حول أن المستقبل ينتمي إلى «مخيَّمات الاعتقال وقنابل دودلباج والشرطة السرية» يمكن أن يكون مخطَّطًا للنظام الشمولي الإنجليزي القُح الموجود في «القرية»، الذي يداري عنفه القمعي بصورة مبهجة. يبدو الشعار ذو الطابع الأورويلي في المسلسل «الأسئلة عبء على الآخرين، والإجابات سجنٌ للمرء» أشبه بنصيحة خارجة من كتاب عن آداب السلوك. أن تكون متمرِّدًا -أو «غير متعاون» - ليس جريمة بقدر ما هو إساءة أدب. عندما يودِّع الناس بعضهم في «القرية» -حيث كل حركة مراقبة بالكاميرات- يقولون: «سوف أراك». بين محاولات هروبه، يحاول «رقم ستَّة» إيقاظ القرويين من حالة تهذيب الزومبيين هذه. يصيح فيهم: «ما زلتم تملكون الاختيار! ما زال بإمكانكم إنقاذ حقِّكم في أن تكونوا أفرادًا! حقُّكم في الحقيقة وحرية التفكير! ارفضوا عالم «رقم اثنان» الزائف هذا!».

في حين أن «رقم واحد» -مثل الأخ الأكبر- يظل خفيًا وغير محدَّد الهوية، تبذل سلسلة من الأشخاص الذين يحملون رقم اثنين كل جهودهم لمعرفة سبب استقالة «رقم ستَّة»، لا من أجل المعرفة، بل للرغبة في كسره. وللوصول إلى هذه الغاية، فإنه يتعرَّض للتعذيب والخداع والإغواء والضرب والصدمات الكهربائية وغسل المخ والتلاعب بعقله مرارًا وتكرارًا. يقول له أحدهم: «إذا ظللت مصرًّا على عيش الحلم، قد تصاب بالجنون». يكمن جوهر المسلسل الفلسفي في الحوارات الملغَّزة بين السجين والسجَّان، التي يتهرَّب فيها الأخير من الأسئلة أو يراوغها أو يقلبها رأسًا على عقب. إن عملية الشد والجذب في افتتاحية المسلسل («من «رقم واحد»؟» «أنت «رقم ستَّة»») لها إيقاع مراوغ مشابه لمحادثة ونستون وأوبراين عن الأخ الأكبر. يشير أحد الحوارات في الحلقة الثانية إلى أن موقع القرية وولاء حكَّامها غير مرتبطين، مثل الاختلافات بين أوقيانيا وأوراسيا وإيستاسيا:

رقم اثنان: لا يهم أيُّ طرف يدير «القرية».

رقم ستَّة: لكنها تُدار من طرفٍ أو آخر.

رقم اثنان: بالتأكيد، لكنَّ الطرفين أصبحا متطابقين. ما أُنشئ في الواقع هو مجتمع دولي. مخطَّطٌ مثالي للنظام العالمي. متى يدرك الطرفان فجأة أنهما ينظران في مرآة، سيرون أن هذا هو نمط المستقبل.

رقم ستَّة: الأرض بأكملها ستكون «القرية»؟

رقم اثنان: هذا ما آمله.

لـم يكـن ماكجوهـان الأخلاقـي الصـارم هيبيًّـا، ولكـن الغرابـة المُهلوسـة التـي ميَّـزت أجـواء مسلسـل «السـجين» -تلـك المشـبَّعة بالهجـاء والشـكّ فـي كل أشـكال السـلطة: البيروقراطيـة، والديـن، والتعليـم، والإعـلام، والعلـوم- تناغمـت مـع الثقافـة المضـادة. أوضحـت الحلقـة الأخيـرة هـذا الارتبـاط مـن خـلال تقديـم الأناركـي رقـم ثمانيـة وأربعيـن المولـع بالسـخرية للمحاكمـة كممثّل عن الشـباب غيـر الموقَّـر، الـذي بشَّـرت بقدومـه أغنيـة البيتلـز المتفجِّرة المرحـة «كل مـا تحتـاج إليـه هـو الحـب».

فـي فيلـم بيتـر واتكنـز «بريڤيلدج»، الـذي صـدر أيضًـا عـام 1967، يسـير الفاشـيون وشـباب الـروك آنـد رول جنبًـا إلـى جنـب. مـن وجهـة نظـر واتكنـز الغاضـب والمتشـكك، لـم تكـن موسـيقى البـوب تعـد بالتحـرُّر، بل بالخضـوع. يحكـي الفيلـم الوثائقـي الوهمـي -الـذي يعلّق عليـه واتكنـز وتـدور أحداثـه فـي منتصـف السـبعينيات- عـن سـتيڤن شـورتر، نجـم البـوب الـذي اسـتغلَّته حكومـة الوحـدة البريطانيـة لـ«تحويـل عنـف الشـباب إلـى مـا ينفـع» مـن خـلال روتينـه المتمـرّد الزائـف: «أبقهـم سـعداء: بعيـدًا عـن الشـوارع وبعيـدًا عـن السياسـة». لعـب دور شـورتر نجـم البـوب الفعلـي بـول چونـز بـأداء اتَّسـم بذهـولٍ حائـر ربَّمـا كان أو لـم يكـن متعمَّـدًا. فـي الفيلـم، يُعلَـن أن شـورتر قـد وُلِـد مـن جديـد وصـار داعيـة للـرب والعلـم، ويـؤدي ترانيـم الـروك الشـعبي فـي الاسـتاد الوطنـي، حيـث يهتـف محبُّـوه «سـنمتثل!» وسـط لافتـات حمـراء وسـوداء وصلبـان مشـتعلة. عندمـا يثـور شـورتر أخيـرًا، يصبـح هـو ومسـيرته المهنيـة فـي خبـر كان، وذلـك «لضمـان ألَّا يُسـيء اسـتغلال شـعبيته مـرَّة أخـرى لقلقلـة راحـة بـال العامَّـة».

ينتهي الفيلم بوعدٍ واضح من الراوي: «سيكون عامًا سعيدًا في بريطانيا، هذا العام في المستقبل القريب».

لم يكن واتكنز الشخص الوحيد الذي شاهد حفلات موسيقى الروك ورأى محاكمات نورمبرج. في أكتوبر 1973، قارن فيلم وثائقي على قناة «آي تي في» بعنوان «الرُسل» مغنّي الجلام روك، مارك بولان، بأدولف هتلر: «نجمان كلٌ في عصره، مختلفان تمامًا ولكن كلاهما يخضع للتملُّق الجماعي». وبالنظر إلى زيجي ستارداست، الأنا الفضائية التي استخدمها ديفيد بوي لشق طريق نجوميته، نجد أن الأخير كان يملك أفكارًا مماثلة. قال بوي لمجلَّة «رولينج ستون»: «أظن أنني كنت لأشكِّل هتلرًا دمويًا جيِّدًا. كنت لأكون ديكتاتورًا ممتازًا غريبَ الأطوار ومجنونًا جدًا».

***

في عام 2013، وضع بوي رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في قائمة كتبه المئة المفضَّلة، مع «داخل الحوت ومقالات أخرى» و«ظُلمة في كَبِد النهار». كان مهوَّسًا برواية أورويل منذ نشأته في بروملي بعد الحرب، في منزل على بعد أقل من ميل من مسقط رأس إتش جي ويلز. قال بوي: «لطالما كنت أشعر بأنني في عام 1984. هذا مثال على المجتمع الكئيب الجامد الذي شعر كثيرٌ منا أننا ترعرعنا فيه... لقد كان مكانًا مثبطًا بشكل رهيب».

في نوفمبر عام 1973، أخبر بوي الروائي وليم بوروز بأنه يصنع معالجة تليفزيونية موسيقية للرواية، وفي نفس التوقيت أعطى العرض الموسيقي الذي أدَّاه لصالح قناة «إن بي سي» عنوانًا مغرضًا هو: «برنامج 1980 الترفيهي». خلال العرض، ظهرت

أغنيته الجديدة «1984/دودو» لأوَّل مرَّة، وكانت واحدة من عشرين أغنية ادَّعى أنه لحَّنها من أجل المعالجة التليفزيونية، على الرغم من أن محاولات كتابة نص فعلي مع الكاتب المسرحي الأمريكي توني إنجراسيا لم تثمر شيئًا. لذا غضب بشدَّة عندما رفضت سونيا أورويل منحه الإذن لصنع معالجته الموسيقية. قال لكاتب مجلَّة «سيركس» بن إدموندز: «بالنسبة إلى امرأة تزوَّجت اشتراكيًا ذا ميول شيوعية، فسونيا أكبر متغطرسة من الطبقة العليا قابلتها في حياتي. لقد صاحت قائلة في وجهي: «يا للهول، ستجعلها غنائية؟». هذا ما حدث بالضبط». لا شك أن سونيا كرهت الفكرة، لكنها أيضًا لم توافق على أيِّ معالجة تقريبًا في أيِّ وسيط منذ الفشل الذريع لفيلم عام 1956، وبالتأكيد لم تقابل بوي شخصيًا، لذلك يجب أخذ روايته بكثير من الشك.*[56] يمكننا الجدال حول ما إذا كان نجم موسيقى الروك مفرط الحداثة مزدوج الميول الجنسية سيحظى بحظٍّ أفضل لو كان تفاوض مع أورويل وهو في سنِّ سبعين عامًا، خاصة إذا أخبره بأن لديه ميولًا شيوعية.

ألبوم بوي الثَّامن، الذي كان عنوانه في البداية «نحن في عداد الموتى»، كان أشبه بعملية إنقاذ إذًا. أخبر بوي إدموندز: «لأكون صادقًا معك، الألبوم برمَّته كان يتمحور في الأصل حول رواية "1984" اللعينة. كان سيكون المعالجة الموسيقية للرواية،

56-* الاستثناء حدث عام 1965، عندما جدَّد نايجل نيل معالجته مع «بي بي سي» لصنع مواد أخرى معتمدة على أورويل، منها نسخة إذاعية جديدة من الرواية قام ببطولتها باتريك تروتون في دور ونستون، قبل أن يصبح الأخير اسمًا مألوفًا بعد تجسيده شخصية الدكتور في مسلسل «الدكتور هو». من قبيل المصادفة أن تروتون ظهر في دور مذيع شاشة الرصد في فيلم عام 1956 من دون ذكر اسمه في التترات. (المؤلف).

لكنها أوقفت المشروع برفضها. لذا غيَّرت فكرته في اللحظات الأخيرة إلى ألبوم جديد اسمه «دايموند دوجز». لم أرغب في تقديم «دايموند دوجز» في هيئة مسرحية موسيقية، أردت تقديم 1984».

كان ألبوم «دايموند دوجز» مزحة مريضة من عقلٍ على حافة الجنون، يتخطَّفه الانحطاط والمرض والرهبة. وصفه بوي بأنه «نظرة على الستينيات والسبعينيات»، وقال إنه «ألبوم سياسي جدًّا»، و «إنه احتجاجي». رُتِّقت أجزاء الألبوم من مشروعين مهجورين («ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ومسرحية موسيقية من بطولة شخصية زيجي ستاردست)، وهو يحكي قصَّة زاهية نصف ناضجة عن مكان يُدعى «مدينة الجوع». في الأغنية الرئيسة وخطبة المقدِّمة التي بعنوان «أسطورة المستقبل»، تبدو «مدينة الجوع» كديستوبيا سبعينية الطباع جدًّا، حيث يقرفص فتية آبدون فوق ناطحات السحاب المهجورة، ويجوبون الشوارع على أحذية تزلُّج (بسبب أزمة الوقود) لنهب الجواهر والفراء. شرح بوي مفسِّرًا: «في رأسي، كان هذا العالم مزيجًا بين «1984» و«الأطفال المتوحشون»، مضيفًا أن أعضاء العصابة «خرجوا من فيلم «البرتقالة الآلية» أيضًا».*[57] كان للشبَّان الهمجيين في رواية أنتوني برجس المنشورة عام 1962 وفيلم ستانلي كوبريك الذي صدر عام 1971 تأثير مستمر: وميض متوهج لم يجده بوي في

57–* كان بوي يقصد العصابة التي تجوب عالم ما بعد الكارثة في رواية وليم بوروز «الصبية الجامحون: كتاب الموتى» التي نُشرت عام 1971. جمع مظهر شخصية زيجي ستاردست التي ابتكرها بوي بين «الصبية الجامحون» و «البرتقالة الآلية». (المؤلِّف).

آيرستريب وان. قال لاحقًا: «كان ذلك عالمنا، لا تلك الحركة الهيبية اللعينة». على الرغم من أن برجس قال: إن «البرتقالة الآلية» «ليست رواية جيدة جدًا من وجهة نظري»، فقد قدَّم الكتاب أكثر مجتمعات المستقبل القريب إقناعًا وأصالة منذ مجتمع أورويل، محدِّثًا الصراع بين الحرية والسيطرة إلى عصر حركتي الـ «مودز» والـ«روكرز»، وساردًا الرواية بلغة النادسات، وهي عامية خيالية أنجلو روسية يستخدمها المراهقون. مثل ونستون، تدمِّر الدولة عقل بطل رواية برجس العنيف، ألكس، في سبيل خلق مواطن مطيع. أوضح برجس وجهة نظره قائلًا: «من الأفضل أن تكون شوارعنا موبوءة بقتلة مجرمين عن أن يُحرم الفرد من حرية الاختيار».

أمَّا بخصوص تأثير أورويل على ألبوم «دايموند دوجز»، فقد يكون من التوهُّم تخيُّل أن التشبيه التالي: «جرذان بحجم القطط»، المجسَّد في أغنية «أسطورة المستقبل» مأخوذ من أغنية الجيش القديمة التي اقتبسها أورويل في كتاب «الحنين إلى كتالونيا» (التي تقول «جرذان كبيرة مثل القطط»)، ولكن كل شيءٍ ممكن، بما أن بوي صار مهوَّسًا بتقنية «التقطيع في الكتابة» التي أكسبها وليم بوروز شعبيتها. تألَّف ألبوم بوي السابق «بين أبس» من أغانٍ مُعاد غناؤها لفرق أخرى، أمَّا ألبوم «دايموند دوجز» فيمكن القول إنه كان إعادة غناء لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، أو استخلاص عيِّنات منها، جمع فيه بوي ما يؤرِّقه، بشذراتٍ من الرواية، لصنع تأثيرٍ خيالي ساحر. كان بوي أوَّل شخص تعامل مع الكتاب على أنه كنزٌ من الأفكار والصور القابلة للتبديل، والمشهورة بما يكفي إلى درجة تسمح العبث بها.

بعض تلك الشذرات جوهرية. الأغنية القوطية الهستيرية «نحن في عداد الموتى» تعيد تخيُّل لحظات چوليا ونستون الأخيرة قبل اعتقالهما: «ارتد ملابسك أيُّها الفتى الآبد، لأنني أسمع وقع خطاهم على الدَّرج». أما أغنية «دودو» التي لم تُدرج في الألبوم لكنها صدرت لاحقًا فتبدو كأنها تُصوِّر ونستون وهو يستيقظ من حلم داخل وزارة الحب، وتشير إلى المخبرين والمذكّرات والملفّات و «الضوء الساطع»، وهي تحكي حكاية دقيقة بشكل لافت للنظر عن خيانة ابنة بارسونز له. في حين ما تبدو أغنية «الأخ الأكبر» كنشيد أشبه بابتهال للسلطة: «شخصٌ ما يُطالِب بنا، شخصٌ جديرٌ بأن يُتبع...». كان چون لينون وستيڤي واندر يكرهان الأخ الأكبر كما هو متوقَّع. فقط بوي يستطيع أن يتخيَّل أنه يحبه. كانت هناك أيضًا إحالات عابرة أخرى. كم مُستمعًا لاحظ الإشارة إلى العام الذي اعتُقل فيه خونة أورويل المزعومين چونز وآرونسون ورزرفورد في عبارة «بحثًا عن الخيانة التي عرفتها في عام 65»، أو لاحظ أن الإشارة إلى «غرفة للإيجار» في أغنية «روك آند رول ويز مي» قد تسمح بتفسير الأغنية التي تبدو ظاهريًا أنها تحكي عن علاقة بوي بجمهوره، بأن تكون أغنية حبٍّ يائسة عن ونستون وچوليا؟ وعندما غنَّى «أنا أبحث عن "بارتي"» في «1984»، فليس بالضرورة أنه كان يقصد بـ«بارتي» حفلة، بل ربَّما قصد حزبًا. بدا الأمر كما لو أن بوي كان يترك خلفه فتات خُبزٍ ليتعقَّبه هواة أورويل.

الأغنية الختامية «تشانت أوف ذا إڤر سيركلينج سكليتال فاميلي» هي أشبه بطقس «دقيقتي الكراهية» وقد تحوَّل إلى رقصٍ شيطاني محموم. إنها تُختتم (أو تفشل أن تُختتم) بالتكرار

المتلعثم «برو برو برو برو» الذي يبدو كأنه لن ينتهي. مثل الحذاء الذي يطأ وجه الإنسان إلى الأبد.

***

وفقًا لعازف البيانو مايك جارسون، اصطبغت جولات ألبوم «دايموند دوجز» في يناير وفبراير 1974 بأجواء «ثقيلة الوطء». وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى بريطانيا التي خيَّمت عليها البطالة وحملة انتخابات عامَّة استثنائية الذعر. في تقريره الانتخابي «معركة بريطانيا، 1974»، شخَّص الكاتب ريتشارد إيدر في صحيفة «نيويورك تايمز» أزمة البلاد بأنها نفسية في الأساس. كتب أن الأوقات كانت صعبة، لكنها لم تكن صعبة بما يكفي لتسويغ «تحذيرات اليمين واليسار في الصحف وعلى شاشات التلفاز من أن نسيجٍ المجتمع البريطاني على وشك التمزُّق». ولأنه زائرٌ من بلدٍ حطَّمته فضيحة ووترجيت والركود الاقتصادي، تساءل إيدر كيف فقدت هذه الدولة التي تشتهر بالرشد عقلها: «من الصعب جدًّا الوثوق بالمستقبل في هذا المناخ البريطاني الغريب الذي يمزج الهستيريا بالفكاهة باليأس بالتفاؤل».

تلك الشروط الأربعة نفسها أسهمت في ألبوم «دايموند دوجز» عسير الهضم الذي طُرح في 24 مايو، والذي وُصِف بأنه «يضع تصوُّرًا لعالم المستقبل بصور عن التدهور والانهيار الحضاري». كانت كلمة انهيار، مثل كلمة أزمة، على شفتي كل معلِّق. لا أحد يبحث عن الاتِّساق السياسي في ألبوم روك، لكن هناك تناقضًا جوهريًا بين آيرستريب وان ومدينة الجوع. إحداهما دولة تملك سيطرة مطلقة، والأخرى لا تملك سيطرة على الإطلاق. بدا بوي منتشيًا ومنزعجًا من الشمولية وفوضى ما بعد نهاية العالم بالقدر نفسه، لكن حقيقة أن «الأخ الأكبر» هي أكثر أغاني الألبوم إثارة

وبهجة، كانت دليلًا مقلقًا على إلى أين يتَّجه.

في جولة ألبوم «دياموند دوجز»، أعطى بوي مصمِّم المناظر مارك رافيتز ثلاثة تلميحات: «السلطة، ونورمبرج، وفيلم «متروبوليس» لفريتز لانج». رسم المغنِّي أيضًا اسكتشات ونماذج لفيلم «مدينة الجوع» الذي لم يخرج إلى النور، والذي كان سيُفتتح بمشهدٍ لطوابق «مبنى مجلس العالم» السفلية، حيث ينغمس حثالة المدينة المتطرِّفين في عالم من القمار واستهلاك المواد الإباحية والمواد الغذائية المصنَّعة التي تُسمَّى «وجباكيين». كانت الكلمة وصفًا مناسبًا لنظام بوي الغذائي في ذلك الوقت. منذ أن بدأ تعاطي الكوكايين في الخريف الماضي، صار شاحبًا ونحيفًا جدًّا: أشبه بخيطٍ أبيض بشري. بالنسبة إلى رجل مصاب بجنون العظمة بالفعل، لم يكن ذلك خيارًا حكيمًا.

كان بوي يعيش في أمريكا الآن. لقد اكتفى من إنجلترا ومن موسيقى الروك آند رول. استكشف ألبومه التالي، «الشباب الأمريكيون»، لونًا جديدًا متأثرًا بالسود أطلق عليه «الروح البلاستيكية». أكثر أغاني الألبوم إثارة للقلق «سام بودي أب ذير لايك مي» هي تأمُّل مُوحٍ وبارع في السُلطة ترويه شخصية تجمع بين أدوار نجم موسيقى الروك المخلِّص، والسياسي الديماجوجي، ومبتكر الإعلانات.*(58)

شرح بوي: «أنا بالفعل شخصٌ لم يحِد عن مساره. ما قلته لسنوات بطرقٍ مختلفة هو أن «احترسوا، لسوف يظهر هتلر آخر في الغرب!». لقد قلتها بألف طريقة مختلفة». ومع ذلك بدأ

58-* عمل بوي لفترة لصالح وكالة إعلانية مثل شخصية كومستوك في رواية «دع الدريقة تطير»، واعتاد أن ينعتها بالـ«شيطانية». كان مفتونًا بدراسة فانس باكارد عن التلاعب النفسي لصناعة الدعاية في كتاب «المقنِعون المستترون». (المؤلِّف).

يتخلّى عن عبارة «احترسوا!» في المقابلات مع تحوُّل هواجسه طويلة الأمد بالسلطة ووسائل الإعلام ورجال نيتشه الخارقين والسحر الأسود والغموض النازي إلى شيء بشع. قال بإعجاب إن هتلر كان «فنّانًا إعلاميًا» استطاع أن «ينظّم دولة». لقد أصبحت الديموقراطية الليبرالية في نظره ضعيفة ومنحلة، وتحتاج إلى إحياء «وعي ذكوري إلهي شديد الصلابة من العصور الوسطى. علينا أن نخرج ونعيد تصحيح العالم مرَّة أخرى». سيتطلّب الأمر ديكتاتورية فاشية مؤقتة. قال بوي، الذي بدا مثل إتش چي ويلز في أسوأ حالاته: «يجب أن تصعد جبهة يمينية متطرِّفة وتكتسح كل شيء وترتِّب بعدها كل شيء. عندها يمكننا الحصول على نوع جديد من الليبرالية».

عند قراءة هذه الحوارات في ضوء سياسات بوي الليبرالية واليسارية اللاحقة، فإن التفسير الواضح هو أنه كان رجلًا مصابًا بجنون العظمة، ومدمنًا على الكوكايين، ومحرومًا من النوم، ومرتبكًا بشدة، ويسعى خلف إجابات في مناطق خطرة، ويسلّي نفسه بصدم الصحفيين الموسيقيين الهيبيين باستفزازات حادَّة غير متَّسقة. سرعان ما خرج بوي من هذه المرحلة عندما انتقل إلى برلين، حيث كانت الشمولية حقيقة ماضية وحاضرة، لا مجرَّد حلم يقظة لنجم موسيقى روك. عندما نظر إلى الوراء بعد سنوات عديدة اعترته رجفة وقال: «ستتحوَّل حياتي كلها إلى العالم الخيالي العدمي الغريب هذا، عالم دنو الهلاك والشخصيات الأسطورية والشمولية الوشيكة. إنه الأسوأ».

حقيقة أن كثيرًا من أعضاء المؤسَّسة البريطانية الذين

لـم يسـبق لهـم أن لمسـوا مخـدِّرًا فـي حياتهـم كانـوا يفكـرون فـي نفس الاتجـاه، تخبرنـا بمـا يمـلأ مجلَّدات كاملـة عـن منـاخ منتصـف السـبعينيات المتقلِّـب. فـي مرحلـةٍ مـا، حـاول بـوي تسـويغ تعليقاتـه الشـاذَّة علـى أنهـا «ملاحظـات مسـرحية لمـا أراه قـد يحـدث فـي إنجلتـرا». فـي الواقـع أنـه لأوَّل مـرَّة منـذ الأربعينيـات، كان الأشـخاص الأقويـاء يتحدَّثـون بجدِّيـة عـن الديكتاتوريـة.

***

بـدأ يطفـو علـى السـطح حديثٌ هامـس عـن حـدوث انقـلاب لأوَّل مـرة ديسـمبر عـام 1973، فـي مقـال باتريـك كوسـجريف فـي مجلَّة «ذا سـبيكتاتور». بعـد شـهرين، بينمـا كان بـوي منغمسًـا فـي صنـع ألبـوم «دايمونـد دوجـز»، صعَّـد مرشَّـح حـزب المحـافظيـن اليمينـي المتطرف ونائـب الاسـتخبارات البريطانيـة السـابق چـورچ كينيـدي يونـج الأمـر بتسـريب أخبـار عـن «لجنـة يونيسـون للعمـل» إلـى تشـابمان بينشـر، المراسـل الأمنـي لصحيفـة «ذا ديلـي إكسـبريس». كتـب بينشـر تقريـرًا أن كبـار رجـال الأعمـال والجنـود السـابقين وعمـلاء المخابـرات السـابقين شـكَّلوا «مجموعـة أهليـة كبيـرة للمسـاعدة فـي حمايـة الأمَّـة مـن اسـتيلاء الشـيوعيين علـى السـلطة»، واقتبـس كلام يونـج دون ذكـر اسـمه: «لسـنا فاشـيين. نحـن بريطانيـون ديموقراطيـون نضـع مصالـح الأمَّـة فـوق مصالـح روسـيا وعملائهـا السياسـيين». نعـت يونـج اللجنـة فيمـا بعـد بـ«منظَّمـة لمناهضـة للفوضـى».

كان يونـج يُظهـر مشـاعر أكثـر إفراطًـا مـن التـي كان المحافظـون يعبِّـرون عنهـا علانيـة خـلال حملـة الانتخابـات العامَّـة فـي فبرايـر. زعـم بيـان حـزب المحافظيـن أن حـزب العمـل الـذي يتزعَّمـه هارولـد

ويلسون قد اخترقه متشدِّدون «ملتزمون ببرنامج يساري أخطر وأكثر تطرُّفًا من أيِّ وقت مضى في تاريخه». نشرت مجموعة اللوبي اليميني «أهداف الصناعة» إعلانات صحفية على صفحاتٍ كاملة -تذكِّر بالملصقات المناهضة لحزب الـ «بوم» في عام 1937- تُظهر قناعًا مبتسمًا نصف ممزَّق يكشف عن وجه ستالين أسفله. كان بعبعهم هم نوَّاب حزب العمل اليساريين بقيادة توني، وزعماء نقابيين مثل ميك مكجاي، نائب رئيس «الاتِّحاد الوطني لعمَّال المناجم» الشيوعي. كان الخوف يأكل الطرفين. طلب كثيرٌ من قادة النقابات -بعد أن سمعوا شائعات عن مؤامرات اغتيال- أن يُعيَّن لهم حرَّاسٌ مسلَّحون. بعد كل ذلك، أسفرت الانتخابات عن برلمانٍ معلَّق وعاد ويلسون -الذي شغل منصب رئيس الوزراء بين عامي 1964 و1970- إلى مبنى حكومة المملكة المتَّحدة على رأس حكومة أقلية. كان ويلسون الذي يشتهر بذكائه وتفاؤله معتلًّا ويعاني جنون الارتياب وضال الطريق، تمامًا مثل بلاده بين انتخابات فبراير وأكتوبر.

قارن بعض المحافظين بريطانيا بألمانيا في فترة جمهورية فايمار، بينما تحدَّث آخرون عن تشيلي قبل الانقلاب. إن استحواذ بينوشيه على السُلطة في تشيلي، و «العلاج بالصدمة» الذي أوصى به الخبير الاقتصادي ميلتون فريدمان، كان يحمل إغواءً شيطانيًا: تحدَّث الأخ الأكبر في تشيلي عن ضرورة «تنظيف عقولنا». بعد زيارته لتشيلي في شهر مايو بتكليفٍ من صحيفة «ذا ديلي تلغراف»، نصح الصحفي بيرجرن ورسثورن القرَّاء بأن يكونوا «أكثر انفتاحًا»، لأنه على الرغم من عمليات القتل والتعذيب

والاختفاء، لم تكن طُغمة بينوشيه العسكرية بهذا السوء. «حسنًا، الديكتاتورية العسكرية قبيحة وقمعية»، هكذا كتب متنحنحًا، ثم واصل: «ولكن إذا سمحت حكومة الأقلية الاشتراكية البريطانية -بالدهاء أو الرشاء أو الفساد والإرهاب والأسلحة من الخارج- إلى تحويل هذا البلد إلى دولة شيوعية، آمل وأدعو أن تتدخّل قوّاتنا المسلّحة لمنع حدوث مثل هذه الكارثة بكفاءة مثلما فعلت القوّات المسلّحة في تشيلي». ذهب فريدمان إلى حد قول إن هذه كانت «النتيجة الوحيدة التي يمكن تصوُّرها».

كان هذا هو نوع التفكير المحموم الذي دفع الجواسيس المنشقّين والنبلاء المستائين إلى التجمُّع في غرف مفروشة جيّدًا للتفكير في الخيانة ومناقشة الشائعات القائلة بأن هارولد ويلسون نفسه جاسوس للمخابرات الروسية، ويدير خلية شيوعية في مبنى الحكومة البريطاني. أثارت المخاوف من حدوث إضراب عام حديثًا عن نزول قوّاتٍ خاصة محمولة جوًّا بالمروحيات فوق صفوف الاعتصام. في رواية روبن موم عن زمن الحرب «1946 إم إس»، يسوِّغ الجنرال بوينتر إعلان حالة الطوارئ في البلاد قائلًا: «اليوم، بسبب الاضرابات في جميع أنحاء بلاده، انعدم الأمن والثقة... أنا متأكّد من أنكم بالتالي ستوافقوني على أنه يجب علينا اتّخاذ كل الإجراءات الممكنة لاستعادة الأمن في هذا البلد». في يوليو 1974، بدا تصريح الجنرال السير والتر ووكر -قائد حلف الناتو في شمال أوروبا حتّى وقتٍ قريب- مشابهًا على نحوٍ غير مريح في رسالته إلى «ذا ديلي تلجراف» التي ناشد فيها أن يظهر رجلٌ قويٌ فعَّال لإنقاذ بريطانيا من «حصان طروادة

الشيوعي الذي بين جنباتنا». وادَّعى أن الاستجابة كانت إيجابية تمامًا. وعندما سُئِل عمَّا إذا كان الشعب يرغب في معادل بريطاني لبيونشيه، أجاب بسلاسة: «ربَّما تختار البلاد أن تُحكم بالسلاح بدلًا من الفوضى». ظهر أوزوالد موزلي، شبح الفاشية الماضي، على شاشات التليفزيون ليؤيِّد خيارًا ثنائيًا مشابهًا. لخَّص اللورد تشالفونت -وهو شريفٌ سابق من حزب العمل كان مغرمًا باقتباس أورويل في مجلس اللوردات- هذه المناورات البغيضة في مقال في صحيفة «التايمز» بعنوان: «هل يمكن أن تكون بريطانيا في طريقها انقلاب عسكري؟»، موبِّخًا كلًّا من «نشطاء اليسار الماركسي الجديد وبلطجية اليمين الفاشي الجديد».

أصبح ووكر -الثعبان المتعصِّب الذي يتَّهم خصومه بالشيوعية- قائدًا لحركة «المساعدة المدني»، التي دمجت فصيلًا منشقًا عن «يونيسن» مع حركة «ريد ألرت» المشابهة في التفكير. أطلق العقيد ديفيد ستيرلنج، مؤسِّس القوَّة الجوية الخاصة، منظَّمة أخرى من «الوطنيين القلقين» تُسمَّى «جيه بي 75». عندما سُرِّبت خطط ستيرلنج إلى مجلَّة «بيس نيوز»، تكهَّن توني بن بأهدافها الحقيقية: «على الرغم من أنني لا آخذ أيًا من أهدافها على محمل الجد، فلا شك في أنها تهدف إلى خلق شعورٍ بأن الفوضى على وشك الاندلاع، وبالتالي نحن بحاجة إلى حكومة استبدادية قوية». كان بين -الذي أصبح وزيرًا للصناعة بعد انتخابات أكتوبر- بمنزلة مانع صواعق الجهود المبذولة لتقويض حكومة ويلسون، وبسبب ذلك تعرَّض لحملة لا هوادة فيها من التشهير والمراقبة والتهديدات بالقتل.

استمرَّت عاصفة الفيوم حتَّى عام 1975. «الشيء المؤكد الذي يشعر به الجميع تقريبًا بشكل غريزي، هو أن الأمور لا يمكن أن تستمرَّ على منوالها الحالي»، هكذا ورد في عمود جريدة «تايمز» الرئيس في مايو 1975، الذي لم يذكر حدًّا للمدى الذي قد يسوء به الوضع قبل أن تسيطر بريطانيا على نفسها: «عندما يصل الحال إلى ما يشبه عام 1938، على المرء انتظار حلول عام 1940». في يناير التالي، قدَّم اللورد تشالفونت فيلمًا وثائقيًا جدليًا بعنوان «يجب ألا يحدث هذا هنا»، وقف فيه بجانب قبر كارل ماركس يعدِّد الطرق التي انزلقت بها بريطانيا بالفعل نحو الشيوعية. عندما شاهد توني بن الفيلم في منزله، شعر بأنه «ينظر إلى وجوه الطُّغمة العسكرية».*[59]

خلال عامي 1975 و1976، سُخِر من موضوع الوطنيين الباسلين الذين يحبطون المؤامرات السوفيتية التي تهدف إلى تدمير الديموقراطية البريطانية في مسلسل السيت كوم «سقوط وصعود ريجنالد بيرين»، وهُوجم في مسرحية ديفيد إدجار «مصير»، واحتُفل به في روايات إثارة مختلفة مثل «المجموعة الخاصة» لتيد أليري و«فعل وحشي» لكينيث بنتون. اعتاد كلٌّ من أليري وبنتون العمل في أجهزة المخابرات. لا يوجد توضيح أفضل لحالة الارتياب التي استولت على بريطانيا في منتصف السبعينيات من حقيقة أن بعض العملاء السابقين كانوا يؤلِّفون

59-* انزعج بن بشكل خاص عندما سمع أن وودرو وايت وصفه بأنه مصدرُ تهديد قطع شوطًا طويلًا جدًا على مدى سبعة وعشرين عامًا منذ أن وبَّخ أورويل لأنه لم يكن يؤيِّد حزب العمل بشكلٍ كاف، وأصبح الآن مناصرًا لحزب المحافظين. (المؤلِّف).

سيناريوهات خيالية يناقشها عملاء سابقون آخرون في الوقت نفسه بجدِّية. أصبحت الحدود بين الخيال والواقع أكثر غموضًا. أحد الملفات المسرَّبة عن حيل المكتب الخامس (المخابرات الحربية) كان تحت مُسمًّى «البرتقالة الآلية».

عزا اللورد تشالفونت فيما بعد نجاح زعيمة حزب المحافظين الجديد مارجريت تاتشر إلى «كل هذه المخاوف من البيروقراطية، ومن الحكومة المفرطة، ومن تآكل حرية الفرد، ومن كل مخاوف الفوضى». قال إن تاتشر «ضربت على وترٍ كان ينتظر أن يُضرب عليه». بينما تلاشت كل من منظَّمات «يونيسون» و «المساعدة المدنية» و «جي بي 75» بالسرعة التي جاءت بها، ظهرت «جمعية الحرية الوطنية»، وهي مجموعة بارعة ومهنية تربطها علاقات قوية مع تاتشر وحزب المحافظين. أحد الشخصيات البارزة في الجمعية، وهو الأكاديمي والصحفي الأسترالي روبرت موس، وسم تدشين المجموعة في أواخر عام 1975 بكتاب مثير للاهتمام بعنوان «انهيار الديموقراطية». اقترح أنه في مواجهة الاستبداد أو الفوضى، قد تجد بريطانيا أن الاستبداد الذي شوهد في تشيلي وإسبانيا والبرازيل خيارًا أقل سوءًا: «لا يحرِّض المرء هاملت على الليدي ماكبث». ووصف البديل المروع في مقال «رسالة من لندن عام 1985» في هيئة قصَّة مفرطة الخيال الديستوبي تحكي عن جمهورية بريطانية مدمَّرة اقتصاديًّا ترزح تحت أعقاب حكومة الشعب العامل. في كابوس موس، أفسحت الشرطة الطريق أمام «ميليشيات المصانع، وحلَّ مجلس النقابات العمالية محلَّ مجلس اللوردات، وأصبح قصر باكنجهام الآن وزارة المساواة. صار

أعضاء حزب المحافظين المحظور يعيشون مثل المقاتلين الثوَّار، يستمعون إلى «راديو بريطانيا الحرة»، ويحاولون مراوغة دولة المراقبة والتفوُّق عليها. يختتم موس بجهامة قائلاً: «إنه عالمٌ بارد دخلناه باسم المساواة والسلام، وأشك فيما إذا كانت تُوجد إمكانية للعودة منه، على الأقل في حياة المرء».

النبوءات كلها خيالية إلى أن تتحقَّق. إذا كان الأدب اليوتوبي قد بدأ كمحاولة لتلطيف الجدل السياسي باستخدام شخصيات وحبكات خيالية، فليس من المستغرب أن يضيف المجادلون الجادُّون بعض التوابل الأوروبلية إلى رؤاهم. في كتاب «موت الديموقراطية البريطانية»، رسم ستيفن هاسلر -الذي وصف نفسه بأنه «ليبرالي حرب باردة» من تيار العمل اليميني- سيناريوهين بائسين للمستقبل القريب: إما فوضى وفقر وعنف لا يمكن السيطرة عليها، وإما ديكتاتورية تقودها النقابات بـ«كل الرطانة الفكرية في كابوس أورويل الروائي «1984»». أثارت مجموعة المقالات التي بعنوان «العام 1985: الهروب من رؤية أورويل «1984»: طريق المحافظين إلى الحرية» مخاوف تحويل حزب العمل لبريطانيا إلى «عضو اشتراكي قومي في حلف وارسو». يبدو أن سمعة التاريخ الشهير وحدها هي التي كانت لها أهمِّية في نظر المساهمين في الكتاب: لم يُذكر اسم أورويل غير مرَّة واحدة فقط في 146 صفحة من العصف الذهني اليميني المتشدِّد، ولم يُقتبس على الإطلاق.

بات من الصعب تمييز التنبؤات عن الخيال. وصلت مخاوف مجيء ديكتاتورية النقابات العمَّالية إلى الذروة مع فيلم ولفريد جريتوريكس التليفزيوني المعادي للاشتراكية «1990»، الذي نرى

فيه الصحفي البطل الذي قام بدوره إدوارد وودوارد يُحرِّض ضد «إدارة الرقابة العامَّة» الشبيهة بالـ«كيه چي بي» في بريطانيا الشمولية المتهالكة التي نتجت عن الإفلاس الوطني. قال وودوارد لـ«راديو تايمز»: «إنه فيلم مخيف أكثر من «1984» بكثير لأنه أقرب إلينا ممَّا كان كتاب أورويل لجيله. إنه حقًّا قاب قوسين أو أدنى». أما «مسرحية تشرشل» للكاتب المسرحي الاشتراكي هوارد برينتون فتدور أحداثها في معسكر اعتقال أنشأته حكومة وحدة وطنية فاشية في عام 1984. يقول برينتون في وصفه الأورويلي لعمله: «إنها هجاءٌ يحذِّر قائلًا: «لا تدعوا المستقبل يؤول إلى هذا»...».

بنت مجلَّة القصص المصوَّرة الجديدة «2000 آيه دي» صدماتها المستقبلية أيضًا على أعنف مخاوف العصر. كان عالم القاضي دريد -الذي ابتكره الكاتب چون فاجنر والرسَّام كارلوس إيزكيرا- يشبه هجينًا من ألبوم «دياموند دوجز» وفيلم «هاري القذر» ورواية «صحوة النائم» ومحاكاة ساخرة لأوهام الچنرال ووكر الاستبدادية. الناجون من الحرب النووية يعيشون في مدن ضخمة مضطربة يحكمها رجال قانون عسكريون متعجرفون لا يكترثون للإجراءات القانونية الواجبة. نقيض البطل دريد هو رجل وحشي شبه فاشي، رسمه إيزكيرا اعتمادًا على ذكرياته عن إسبانيا تحت قيادة الچنرال فرانكو.*[60] أما مسلسل «بليك

60- * في عام 2016، نشرت مجلَّة «2000 آيه دي» عددها رقم 1984. كانت صورة الغلاف عبارة عن ملصق عملاق لدريد يقول: «وزارة العدل تراقبك»، وتحته شعار يقول: «إنما الأمور بخواتيمها...؟». (المؤلِّف).

7» التليفزيوني من إنتاج «بي بي سي» فجمع بين أقسى أفكار أورويل وهكسلي وويلز في عمل أشبه بـ«ستار تريك» للمتشائمين المزمنين. كان باتريك ماكجوهان يموج بالمخاوف بدوره. في مقابلة تليفزيونية عام 1977، قال: «أعتقد أن التقدُّم هو أكبر عدو للإنسان على وجه الأرض، بخلاف ذاته... أظن أننا سنعتني جيِّدًا بهذا الكوكب قريبًا». سأله أحد المشاهدين ما إذا كان الشعب سينتفض ويصحِّح الأمور. قال ماكجوهان: «كلا، لأننا نُدار من قِبل البنتاجون، من قِبل ماديسون أفينيو، من قِبل التليفزيون.. وما دمنا نقبل هذه الأشياء ولا نثور، سيكون علينا السير مع التيَّار إلى مصبِّ الشلال الحتمي».

* * *

كما لاحظ الروائي مارتن آيمس في عام 1978: «لم يعد أحد يكتب يوتوبيات: حتَّى يوتوبيات الماضي تبدو اليوم كأنها ديستوبيات». كتب أميس، الذي كان والده الاشتراكي السابق، كنجسلي، ينفِّس الآن عن مخاوفه في أعمال خيال علمي يمينية كئيبة- هذا في مراجعته كتاب أنتوني برجس الغريب جدًّا «1985». النصف الأوَّل من الكتاب عبارة عن نقدٍ غير متوقَّع لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، مدفوعًا باقتناع برجس أن الرواية كانت في جوهرها كوميديا سوداء عن بريطانيا في فترة ما بعد الحرب. بعد أن رفض برجس «الاستبداد غير المحتمل» في رواية أورويل، يقدِّم البديل. تستند دولته «توكلاند» إلى فكرة روبرت موس الأساسية عن جمهورية بريطانيا (الخراب الاقتصادي ومذهب المساواة البشع التي أحدثتها النقابات العمَّالية العاتية)، ولكن

برجس يحشوها بالمواد الإباحية، وعصابات الشوارع المسلَّحة بالخناجر، والرطانة السوقية التي غزت لغة العمَّال الإنجليزية، والعرب الأصوليين الأثرياء. تلخِّص الأسماء الجديدة للفنادق المملوكة للعرب –الهيلتونز والدايينز– مزيج الرواية التعس من الهجاء الرديء والمحافظة العُصابية. كل إيماءة صريحة لأورويل هي أذى أدبي فعله برجس لذاته.

من بين مشكلات الكتاب التي يصعب حصرها، عدم قدرة برجس عن توقُّع عام 1978، فضلًا عن عام 1985. خمَّن مارتن آيمس أن فكرة الكتاب وُلدت في عام 1976، عندما «بدا أن كل شيءٍ جاهز للمرحلة النهائية»، لكن الحُمَّى كانت قد انطفأت بالفعل بحلول الوقت الذي ظهر فيه. ظلَّت بريطانيا هشَّة ومنقسمة وعنيفة، وهو ما مهَّد الطريق للثورة التاتشرية، لكن أزمة بريطانيا الوجودية الحادَّة كانت قد هدأت. كانت الجبهة الوطنية اليمينية المتطرِّفة التي صارت لفترة وجيزة رابع أكبر حزب في بريطانيا تتراجع. في النهاية، لم يحدث الأمر هنا.

أما بخصوص ادِّعاء برجس بأن «نبوءة» أورويل كانت خاطئة، فهو خارج عن سياق موضوعنا. كتب آيمس أن «الروايات لا تهتم بما إذا كانت ستتحقَّق أم لا، ولقد اجتاز أورويل اختبار الزمن بنجاح ساحق بمعنى آخر تمامًا». لقد أضحت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وعاءً يمكن لأيِّ شخص أن يصبَّ فيها تصوُّره الخاص عن المستقبل. في حين أن جيل الستينيات استندوا إليه روح الوحدة المتحدية الكامنة فيه، تبنَّت ثقافة البانك إحساس الرهبة الذي يغلِّف الكتاب. «اسمع، أنت تعرف ماذا حدث لونستون»،

هكذا زأرت فرقة ذا چام. «الآن جاء عام 1984 يخبِّط على باب دارك»، هكذا سخرت فرقة ديد كينديز. أما أغنية فرقة ذا كلاش الأولى، «1977»، فتنتهي بچو سترامر وهو يصيح بتواريخ السنوات القادمة، قبل أن يتوقَّف فجأة كجسدٍ يسقط من حبل مشنقة قائلًا: «إنه العام 1984!».



الفصل الثَّاني عشر

الهوس بأورويل

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في عام 1984

«كان أورويل يطفو في الهواء. لم أقرأ «1984»،
لكننا جميعًا نعرف ما هي».

تيري جيليام

قبل دقائق قليلة من منتصف ليلة رأس سنة 1983، صار عددٌ قليل من المشاهدين في مدينة توين فولز بولاية أيداهو هم أوَّل جمهور يشاهد ما سيصبح لاحقًا أشهر إعلان تليفزيوني في العقد.

هذا ما شاهدوه: صفوف من العوام البائسين الباهتين يسيرون مثل الروبوتات نحو قاعة، حيث يجلسون للاستماع إلى وجه على شاشة هائلة يصيح متحدِّثًا عن «توجيهات تنقية المعلومات» التي ستخلِّص المجتمع من «الحقائق المتناقضة». تخترق فتاة رياضية شابة صفوفهم، تحمل مطرقة ثقيلة وعلى سترتها صورة كمبيوتر، وتطاردها شرطة مكافحة الشغب على نحوٍ أخرق. إنها المرأة الوحيدة في الغرفة؛ مصدر الحيوية والألوان الزاهية الوحيد. مع اقتراب الخطاب من ذروته، تُطوِّح مطرقتها بقوَّة إلى الشاشة. ينفجر وجه الديكتاتور، وتُغمر الغرفة بالضوء الأبيض وموجة الصدمة. يجلس العوام البائسون كالمنوَّمين، ويقول صوت المعلِّق: «في 24 يناير، ستطرح شركة أبل نظام ماكنتوش. وسترى لماذا لن يكون عام 1984 مثل رواية «1984»».

قبل عدَّة أشهر، طلب الشريك المؤسس متقلِّب المزاج لشركة أبل، ستيف جوبز، من وكالة الإعلانات كيات داي ابتكار فكرة راعدة للترويج لمنتَجه الجديد الذي إما سيكتسح وإما سيفشل. اقترح المخرج الإبداعي لي كلو والمدير الفني برنت توماس ومؤلف الإعلانات ستيف هايدن فكرة أورويلية كانت تدور في عقولهم منذ بضعة أشهر. أحبَّ جوبز، الذي كان لا يزال يرى نفسه متمرِّدًا من الثقافة المضادة، الفكرة. استأجرت شركة كيات داي مخرج فيلم «بليد رانر»، ريدلي سكوت، لتصوير الإعلان في استوديوهات شيبرتون في لندن بميزانية غير مسبوقة. جاء سكوت برامية القرص، أنيا ميجور، في دور البطلة حاملة المطرقة؛ وبديفيد جراهام، الممثِّل الذي أدى صوت شخصية داليكس في «الدكتور هو»، في دور بديل الأخ الأكبر؛ أما الخطاب فكتبه هايدن عن طريق «اقتباس عبارات عشوائية من موسوليني إلى ماو».

حُجِزت قاعة لعرض للإعلان في ليلة رأس السنة الجديدة من دون دعاية، ليصنَّف على أنه إنتاج عام 1983، وبالتالي يستطيع التأهُّل لموسم الجوائز. أمَّا العرض الحقيقي فكان بعدها بثلاثة أسابيع خلال مباراة السوبر بول: أكبر حدث تليفزيوني أمريكي كل عام. كانت هناك مشكلة واحدة فقط. أصاب الإعلان الذي أسعد أعضاء مؤتمر مبيعات شركة أبل السنوي مجلس الإدارة بالرعب، وطلبوا من جوبز تدميره. علَّق كلو: «قالوا إن إنفاق كل هذه الأموال على إعلان لا يعرض جهاز الماكنتوش سيكون تصرُّفًا غير مسؤول». أبقت شركة كيات داي المشروع حيًّا عن طريق التباطؤ والتظاهر بأنهم غير قادرين على إعادة بيع وقت

العـرض باهـظ الثمـن الـذي حجـزوه لعـرض الإعـلان فـي السـوبر بـول. كانـت هـذه المقاومـة السـلبية تصرُّفًـا ذكيًـا. فـي 22 مـن ينايـر، فـي منتصـف المبـاراة بيـن فريـق واشـنطن ريدسـكينز ولـوس أنچلـوس رايـدرز، شـهد سـتة وتسـعون مليـون أمريكـي إعـلان «1984». قـال أحـد المعلنيـن المنافسـين الـذي أعجبـه الإعـلان أنـه أوَّل إعـلان فـي السـوبر بـول علـى الإطـلاق «يجعـل النـاس فـي البـارات يتحدَّثـون عـن إعـلان تجـاري بـدلًا مـن المبـاراة». تحـوَّل الإعـلان علـى الفـور إلـى قصَّـة إخباريـة، وخلـق دعايـة مجانيـة لا تقـدَّر بثمـنٍ. وفقًـا لمجلَّـة «آدڤرتيزينـج إيـج» «لا يوجـد إعـلان تجـاري فـي التاريـخ الحديـث أثـار مثـل هـذا الاهتمـام المهنـي والشـعبي بهـذه السـرعة». كان الإعـلان مثـالًا رائعًـا للتسـويق المناهـض للشـركات، ونجـح فـي تحويـل تحذيـر أورويـل إلـى حكايـة متفائلـة عـن عصـر المعلومـات. مثَّلـت أنيـا ميچـور -راميـة المطرقـة- كلًّا مـن شـركة أبـل ومسـتخدم أبـل: المسـتضعف الشـجاع الـذي يسـتعيد السـلطة مـن الحكومـة. فـي حفـل إطـلاق المـاك فـي 24 ينايـر، ألقـى چوبـز خطابًـا يصـوِّر شـركة «آي بـي إم» الرائـدة فـي الصناعـة علـى أنهـا جالـوت الشـرير الـذي يحـاول سـحق منافسـه الجـاد الوحيـد: «هـل سـتهيمن شـركة الأخ الأزرق علـى صناعـة الحاسـبات بأكملهـا؟ علـى عصـر المعلومـات بأكملـه؟ هـل كان چـورج أورويـل محقًّـا؟». غيـر أن وكالـة كيـات داي الإعلانيـة لـم تكـن تأبـه بـ«آي بـي إم» علـى الإطـلاق. كان هدفهـم تقديـم الصـورة السـلبية عـن اسـتخدام الحاسـبات كأدوات للتطفُّـل والتحكُّـم، التـي رسَّـخت لهـا أفـلام مثـل فيلـم «بليـد رانـر» لريدلـي سـكوت. مـا قالـه الإعـلان ضمنًـا هـو إن أفضـل طريقـة لمكافحـة التكنولوچيـا الخبيثـة

هـي اسـتخدام التكنولوچيـا الحميـدة. آهٍ لـو كان لـدى ونسـتون سـميث مطرقـة.

أظهـر إعـلان «1984» أيضًـا أن أيقونيـة ديسـتوبيا أصبحـت الآن راسـخة إلـى درجـة أنـه يمكـن اختزالهـا فـي مقطـع مدَّتـه ستِّين ثانيـة: العـوام السـلبيون موحَّـدو الـزيِّ والشـرطة العسـكرية وشاشـات التليفزيـون والخطـاب الاسـتبدادي والمتمـرِّد الوحيـد والوجـه المحـدِّق. لقـد فهـم المشـاهدون الأجـواء علـى الفـور. إن سـيناريو الخضـوع الجماعـي الميكانيكـي («نحـن شـعب واحـد، بإرادة واحـدة، وعـزم واحـد، وسـبب واحـد») يعـود إلـى زامياتـن أكثـر مـن أورويـل فـي واقـع الأمـر، وقـد كان مرجـع سـكوت المرئـي الرئيسـي هـو فيلـم إتـش جـي ويلـز «الأشـياء القادمـة». نعـت مديـر كيـات داي التنفيـذي، بـول كونهـون، الإعـلان صراحـةً بأنـه «تأويـل رخيـص لكتـاب أورويـل» صُمِّـم بفـرض «الاسـتفادة مـن الشـهرة التـي منحهـا أورويـل لهـذا العـام». علـى الرغـم مـن براعتـه، لـم يتطلَّـب الأمـر صاحـب رؤيـة منشـقًّا لعقـد تلـك الصلـة.

***

«لـم يتبـقَّ سـوى عـام واحـد!»، هكـذا صرخـت نافـذة عـرض متجـر كتـب جرينويتـش ڤيلـدج التـي زُيِّنـت بطابـع أورويلـي فـي ينايـر عـام 1983. علـى بعـد شـوارع قليلـة، شـارك أكثـر مـن سـبعين شـخصية عالميـة بـارزة، بمـا فـي ذلـك الفنانـة چينـي هولـزر والمهنـدس المعمـاري ريـم كولهـاس، فـي معـرض بعنـوان «1984: لمحـة مسـبقة»، وهـو معـرض «يلقـي نظـرة ثاقبـة علـى نبـوءات أورويـل». فـي الصحافـة، لمَّـع الصحفيـون مـن جميـع الاتِّجاهـات السياسـية كراتهم الكريسـتالية

وشحذوا سيوفهم. في عددٍ خاص من صحيفة «ذا ڤيلدج ڤويس» طُرح تحت اسم «لنواجه الأمر»، كتب چيفري ستوكس أن «تأثير الرواية في عشية عام 1984 كان بنفس قدر تأثيرها تقريبًا عندما نُشرت في عام 1949». أما من منظور الروائي الألماني جونتر جراس، لم يبد أن عامًا واحدًا كان كافيًا، فقد وصف الثمانينيات بـ«عقد أورويل».

بحلول ديسمبر، صار الهوس بأورويل جائحة. «إذا لم يكن لديك رأي حول تصوُّر أورويل للدولة الشمولية مطلقة القوى، فمن الأفضل لك أن تُكوِّن رأيًا»، هكذا نصحت صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل». حذَّر برنارد كريك، كاتب سيرة أورويل والمدافع الدؤوب عنه، من أن «طاعون» الهوس بأورويل من شأنه أن يقترب من حجم نجاح «حروب النجوم». كان مارك هاملتون، القيِّم على تركة أورويل الأدبية، في حالة انتعاش مادي بلا شك. قال لصحيفة «ذا جارديان» إنه رفض طلبات كثيرة للحصول على حق استخدام الرواية في صنع قمصان، وتقويمات، وألعاب لوحية، ومسرحيات موسيقية، وأيَّ شيءٍ آخر قد «يُضعِف» من سمعة أورويل. عندما أبلغه المراسل عن وجود قمصان غير شرعية مكتوب عليها «1984: فَكِّر ازدواجيًا في الأمر»، قال هاملتون متنهِّدًا: «لا نستطيع التحكُّم في كل شيء».

خلال عامي 1983 و1984، باعت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ما يقرب من أربعة ملايين نسخة باثنتين وستِّين لغة. في يناير من العام الذي سمَّته دار «بنجوين» للنشر «عام الكتاب»، بات الكتاب هو الأوَّل على الإطلاق الذي يتصدَّر قائمة الكتب

الأكثر مبيعًا في «نيويورك تايمز» بعد سنوات من نشره أوّل مرة؛ وتعدَّدت احتفالات إحياء الذكرى: ظهرت طبعة أمريكية جديدة بتعقيب من والتر كرونكايت، وطبعة أخرى يشرحها كريك، ونُشِرت نسخة طبق الأصل من المخطوطة المتاحة، وتصدَّرت ملفّات عن الرواية أغلفة «تايم» و «إنكاونتر» و «راديو تايمز» و «دير شبيجل». صدر فيلم ومسلسلان تليفزيونيان ومعالجة مسرحية للرواية، الأخيرة كتبها الروائي التشيكي المتمرِّد بافل كوهوت. صُنع تمثالًا من الشمع لأورويل وهو يكتب على آلته الكاتبة تحت عين رجل شرطة مسلَّح في متحف مدام توسو. بالإضافة إلى سيل لا نهاية له من الأفلام الوثائقية والمؤتمرات. تقفَّى الصحفيون أثر أورويل عبر باريس ولندن وويجان. عَرضت سلسلة «جرائم الفكر» على مسرح باربيكان بلندن أعمالًا سياسية لصمويل بيكيت وفاتسواف هايفل وهارولد بينتر، الأخير الذي كانت مسرحيته الجديدة «كأس أخيرة من أجل الطريق» عبارة عن تأمُّل في اللغة والعنف والسلطة.

كانت معظم احتفالات إحياء الذكرى متوقَّعة، لكن من كان يتوقع ظهور ستيف مارتن وچيف جولدبلوم في اسكتشٍ كوميدي أصبح فيه «ستوديو 54»، قِبلة الديسكو، «وزارة الحياة الليلية»؟ أو أن شعارات أوقيانيا ستُستخدم في الإعلان عن السجَّاد؟ «الحربُ سلامٌ»، هكذا بدأ الإعلان التجاري لمتجر الأثاث «آينشتاين موميچي»، ثم واصل: «الحريةُ عبوديةٌ، الجهلُ قوّة. وسجَّادنا الصوفي الجديد المموَّج بسعر 19.84 دولارًا للمتر المربَّع! بهذا السعر، من الأفضل لك أن تحترس، أيُّها الأخ الأكبر». صارت

الرغبة في عقد اتِّصال -أيِّ اتصال على الإطلاق- بالقدِّيس چورج متهافتة نوعًا ما. اعتقدت مجلَّة «جايد» أن تعاطف أورويل مع الطبقة العاملة من شأنه أن يجعله محبَّبًا بلا شك في مسلسل السيت كوم «تشيرز». كتبت مجلَّة «ميوزيشن» محتدَّة في مراجعة لألبوم فرقة ڤان هالين «1984» عديم الصلة: «الأخ الأكبر يقابل فرقة ذوي الخِصى الكبيرة». أما مجلَّة هيئة السياحة البريطانية فقد تفوَّقت على الجميع بعنوانها الجريء المخادع: «مزارع حيوانات أورويل في 1984». كان التحقيق يتعلَّق بتربية الماشية بالقرب من نهر أورويل.

ليس من المستغرب بعد كل ذلك أن يبدأ الضجر من أورويل بينما العام لا يزال في بدايته. «هل يمكن أن ننسى چورج أورويل لدقيقة أو دقيقتين؟»، هكذا تنهَّد چيمس كاميرون في حواره مع صحيفة «ذا جارديان» في عدد 3 يناير. اشتكى الصحفي بول چونسون في مجلَّة «ذا سبيكتاتور» من أن الإفراط في أورويل صار «كابوسًا أورويليًّا في حد ذاته». سخر النائب عن الحزب الليبرالي ألكس كارليل من زملائه الذين قارنوا كل شيء «بتنبُّؤات چورج أورويل التي ابتُذلت بالفعل عمَّا قد يحدث في عام 1984». حتَّى سنوبي -الشخصية الكارتونية- صُوِّر وهو يتواثب فوق مأواه في رسومات تشارلز شولز، مجهدًا من «التفكير في كل نكات چورج أورويل التي سنضطر إلى الاستماع إليها في عام 1984». ترقَّى أورويل من مجرَّد بطل أدبي إلى شخصية شهيرة كلية الوجود، في حين تحوَّلت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» من رواية إلى «ميم».

حتمًا، ركَّز جزء كبير من الهوس بأورويل على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بصفتها المزعومة كنبوءة. اصطف كُتَّاب مجلة «ذا فيوتشريست» لتقريعه: «بصفته متنبِّئًا بالعالم في عام 1984، فإن أورويل مخطئ جدًا إلى درجة تؤهله لأن يُنبذ من مجلس المتنبِّئين، بل لجعله يتلاشى»، هكذا صاح المحرِّر.*[61]
أصرَّ آيزك أزيموف على أن أورويل «ثَبُت خطؤه» فيما يتعلَّق بالحاسبات والسفر إلى الفضاء، الأمرين اللذين لم يظهرا في الكتاب. كان لإعلان شركة الحاسبات «أوليفيتي» موقف مماثل لا معنى له: «وفقًا لأورويل، سيصبح البشر والحاسبات أعداء في عام 1984. لكن نظرته المتشائمة كانت خاطئة». في الواقع، لم يكن أورويل يحاول من الأساس توقُّع شكل التقدُّم التقني في الأنظمة الديموقراطية الناجحة. لكن على المرء أن يقرأ الكتاب ليعرف ذلك.

من بين الأشخاص الذين لم يفعلوا ذلك فنان الفيديو الرائد نام چون بايك. في يوم رأس سنة 1984، نظَّم بايك برنامجًا تليفزيونيًا متعدد الوسائط بالقمر الصناعي للاحتفال بقوَّة الوسيط في تعزيز الاتصال. كان من ضمن المشاركين في البرنامج فيليب جلاس وچون كيدج وبيتر جابريل ولوري آندرسون وميرس كاننجهام وألين جينسبيرج وچوزيف بويز وسلفادور دالي (الذي وصفه أورويل ذات مرة بالـ «الوغد الصغير القذر»). كان

61– * يبدو أن المجلَّة كانت محو مقال عام 1978 بقلم ديفيد جودمان في «حفرة الذاكرة»، المقال الذي حدَّد وجود 137 تنبُّؤًا منفصلًا في الرواية، وخلص إلى أن أكثر من مئة منها تحقَّق بالفعل. (المؤلِّف).

عنوان البرنامج الساخر هو «صباح الخير يا سيِّد أورويل». وعلى صعيدٍ آخر، غنَّت فرقة أوينجو بوينجو في أغنية «استيقظوا، إنه العام 1984!»: «الأخ الأكبر يصرخ لكننا لا نهتم/ لأنه لا يملك شيئًا ليقوله/ فكِّروا في المستقبل، فكِّروا في النبوءة/ فكِّروا في أطفال اليوم». قال بايك لصحيفة «نيويورك تايمز»: «لم أقرأ كُتُب أورويل قط، إنها مملَّة. لكنه كان أول نبي للاتصالات الإعلامية». يبدو أن بايك قد افترض أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» رواية عن التليفزيون.

سألت إحدى الصحف نجلَ أورويل، ريتشارد بلير (الذي كان في التَّاسعة والثلاثين من عمره الآن مثل ونستون سميث)، عمَّا كان والده سيقول عن كل هذا الجنون به. قال: «أعتقد أنه كان سيصاب بالفزع الشديد من الطريقة التي فسَّر بها الناس ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

* * *

كيف يمكن لرواية أن تكون «خاطئة»؟

لم يتحدَّث أورويل كثيرًا عن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، لكن ما شدَّد على قوله هو أنها ليست نبوءة. ربَّما كانت هجاءً أو تحذيرًا أو محاكاةً ساخرةً، لكنها ليست نبوءة. كما قال في تصريحه لفرانسيس إيه هينسون عام 1949: «لا أعتقد أن المجتمع الذي وصفته سيتحقَّق بالضرورة، لكنني أعتقد أن مجتمعًا شبيهًا قد يتحقَّق». من الواضح أن هذا لم يحدث. لقد تعرَّض الغرب للإحباط والتشويه من نواحٍ عديدة بسبب مكايد الحرب الباردة، لكنه لم يتحوَّل إلى استبدادٍ مماثل. البلد الذي يمكنك فيه قراءة

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ليس هو البلد الموصوف في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بطبيعة الحال. في غياب هذا التطوُّر، لم يكن إطلاق أبل لحاسوب ماك يشكِّل أيَّ فارقٍ على الإطلاق. إذا كنت تبيع منتجًا في عام 1984 -سواء كان حاسوبًا شخصيًا أو اقتصاديات ليبرالية جديدة- صار من الضروروي أن تُصرِّح أن أورويل (الصورة الرمزية للتشاؤم) كان خاطئًا. لكن هذا لم يكن حُجَّة بل شعارًا ترويجيًا. عندما طلبت صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل» من أورسولا كيه لو چين (التي تلقَّت أكثر من أربعين دعوة للتحدُّث في فاعليات متعلِّقة بأورويل) تقييم بصيرة أورويل، اعترضت قائلة: «أنا لا أعمل في مجال العرَّافين». وأضافت أن أدب الخيال العلمي يستخدم استعارات من الحاضر، فكيف يمكن أن يكون صحيحًا أو مخطئًا بشأن المستقبل؟*[62]

يجدر التوقُّف هنيهة لملاحظة حجم الإنجاز الاستثنائي لكتاب استطاع أن يجعل عامًا، أي إحدى رحلات الكوكب الروتينية حول الشمس، بهذه الأهمِّية. لطالما كان العام 2000 حدثًا كبيرًا منتظرًا، لكن عام 1984 أصبح عامًا بارزًا فقط لأن رجلًا واحدًا قرَّر -في اللحظات الأخيرة- تغيير عنوان روايته. إذا كان أورويل قد تمسك بعنوان «آخر رجل في أوروبا»، ما كان أيٌّ من هذا ليحدث. كما كتب چورچ شتاينر في مقالٍ جيِّد وقاسٍ في مجلَّة «نيويوركر»: «لم يحدث قط أن استطاع رجلٌ، أو جرَّة قلم، شطب

62- * أعادت رواية لو جوين «المسلوب» المنشورة عام 1974، مثل رواية «امرأة على حافة الزمن» لمارج بيرسي، إحياء الخيال العلمي اليوتوبي بسياسات الثقافة المضادة في السبعينيات، ومن ثم تجاوزت تأثير أورويل تمامًا. (المؤلف).

عـام مـن رزنامـة الأمـل غيـر أورويـل. هـل سـتتبخَّر روايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» مـن الوجـدان الجمعـي بعـد عـام 1984؟ هـذا -فـي رأيـي- سـؤالٌ صعبٌ جـدًا».

***

فـي 4 أبريـل 1984 (وهـو تاريـخ أوَّل تدويـن فـي يوميـات ونسـتون سـميث)، نقلـت صحيفـة «لنـدن تايـم» خبـر إضـراب عمَّـال المناجـم البريطانييـن الـذي كان قـد مَّـر عليـه وقتهـا شـهر واحـد فقـط. طُـرد المتظاهـرون مـن معسـكر السـلام النسـائي فـي قاعـدة جرينهـام الجويـة المشـتركة. خضـع مهنـدس فـي وادي السـيليكون للمحاكمـة بتهمـة التآمـر لبيـع بيانـات أبحـاث الصواريـخ لـوكلاء بولندييـن. نُشـر خبـر قصيـر عـن عرضـي معالجتـي 1954 و1956 لـ«ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» فـي مسـرح السـينما الوطنـي بلنـدن، تحـت صـورة كئيبـة للممثِّـل چـون هِـرت فـي موقـع التصويـر النسـخة الأحـدث.

توفِّيـت سـونيا أورويـل مـن جـراء ورم فـي المـخ فـي 1 ديسـمبر 1980، بعـد أن أنهكتهـا معركـة قانونيـة مريـرة لاسـتعادة السـيطرة علـى شـركة چـورج أورويـل للإنتـاج، الشـركة التـي أسَّسـها محاسـبو أورويـل فـي عـام 1947، وبعـد مـرور ثلاثيـن عامًـا مـن العيـش فـي ظـلِّ زوجهـا الرَّاحـل الهائـل. ماتـت سـونيا فـي الثانيـة والسـتين مـن عمرهـا، وقـرب النهايـة قالـت لإحـدى صديقاتهـا: «لقـد أفسـدتَ حياتـي».

قبـل أسـابيع قليلـة مـن وفاتهـا، التقـت سـونيا محاميًـا مـن شـيكاجو، وصانـع أفـلام طامحًـا اسـمه مارڤيـن روزنبلم غمـر نفسـه فـي أعمـال أورويـل لإغرائهـا لبيعـه حقـوق تحويـل الروايـة إلى السـينما

والتليفزيون. بعد عدَّة محادثات، «تحدَّث خلالها عن أورويل مثل النافورة»، نجح روزنبلم في مسعاه. على مدار السنوات الثلاث التالية، لم يقابل أيَّ معوِّقات لإعادة إنتاج «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في عام 1984، لكنه لم يستطع التوقيع مع مخرج ومنتج يلتزمان بالعقد الذي يحظر الاقتراب من «نمط الخيال العلمي الخاص بـ«حروب النجوم» أو «2001: أوديسا فضائية»». نجح روزنبلم في ذلك بعد عدة محادثات «تحدث خلالها عن أورويل مثل النافورة» مرَّة أخرى. لم يتوصَّل إلى اتفاق إلا بحلول أكتوبر 1983، وقد أجراه مع المخرج البريطاني مايكل رادفورد والمنتج سيمون بيري، بعد نجاح فيلمهما الدرامي عن الحرب العالمية الثانية «وقت آخر، ومكان آخر». «كان علينا أن نضمن أن الفيلم سيصدر في نهاية عام 1984، لذلك كان علينا أن نبدأ على الفور»، هكذا أخبرني رادفورد البالغ من العمر 72 عامًا في «نادي تشيلسي للفنون» في لندن في صيف عام 2018.

تحرَّك صنَّاع الأفلام سريعًا. بحلول كريسماس عام 1983، انتهى رادفورد من كتابة السيناريو واستطاع بيري الحصول على ستَّة ملايين دولار من شركة إنتاج ريتشارد بارنسون الوليدة «فيرجن فيلمز». اتَّفق الرجلان على أن أحدًا لن يلعب دور ونستون سميث غير جون هِرت، الممثِّل البريطاني العليل الذي يبدو دائمًا كأنه يعاني من سعال سيِّئ وضمير يقظ أسوأ. قال رادفورد: «لقد كان التجسيد الأمثل لونستون سميث. هذا الشخص المُضنى المؤرَّق. كان رياضيًا جدًّا في الحقيقة، لكنه يستطيع القسوة على جسده». لحسن الحظ كان هِرت من عشَّاق الرواية، وأراد أن يلعب

دور ونستون منذ أن قرأها وهو طالب في الخمسينيات. قال هِرت: «الشيء العظيم في أورويل أنه يدعم ما تشعر به بشكل غريزي». الممثلة الطفلة السابقة سوزانا هاميلتون صارت چوليا، في حين ما مكَّنت دعوة مفتوحة لاختيار ممثل لدور الأخ الأكبر المخرج رادفورد من العثور على بوب فلاج، كوميديان النوادي الذي يتمتَّع «بعينين ثاقبتين جدًا». لم يكن اختيار ممثِّل شخصية أوبراين بالسهولة نفسها: كان شون كونري مشغولاً ورفض الدور، وكان أجر مارلون براندو مرتفعًا جدًا، وكانت ساق بول سكوفيلد مكسورة. فقط بعد مرور أسابيع من التصوير استطاع رادفورد استدراج ريتشارد بيرتون من تقاعده في هايتي، لأداء الدور الذي سيكون آخر وقوف له أمام الكاميرا قبل وفاته في أغسطس. وفقًا للمخرج، ارتدى بيرتون بذلة العمَّال الوحيدة التي فُصِّلت في شارع أزياء الرجال الراقي الشهير سافيل رو. قال رادفورد: «كان ممثِّلا استثنائيًا. المجهود الوحيد الذي بذلته معه هو الاستمرار في إنزاله من عليائه، بليونة ونعومة». بدأ بيرتون يجد منطق أوبراين المجنون مغريًا بشكل مزعج، وقال لهِرت: «هذا مخيف حقًا. لقد بدأت الاعتقاد بالفعل في أن ما أقوله صحيح».

عندما قرأ رادفورد الكتاب أوَّل مرَّة عندما كان مراهقًا، كان يعلم «بالضبط كيف يبدو شكل العالم. هناك الكثير ممَّا يمكن فعله». يحتوي كتاب أورويل على أماكن كثيرة لا تُنسى، واستخدامه للبث الإخباري والملصقات لأغراض السرد القصصي وبناء العالم هو في حدِّ ذاته جزء من أدوات السينما الأساسية لتجسيد مجتمعات المستقبل القريب. «شاشات الرصد هي ما شكَّلت صدمة كبيرة

فـي نظـري»، هكـذا قـال المخـرج الـذي اسـتخدم تقنيـة «الإسـقاط الخلفـي» لإيهـام المشـاهد بالشاشـات العملاقـة. «كانـت تهيمـن علـى كل شـيء، كمـا يفعـل التليفزيـون. لكـن كان مـن الرائـع أن تكـون قـادرًا علـى قـول شـيئين فـي نفـس الوقـت». بعـد الإبحـار فـي تاريـخ البروباجنـدا، صمَّـم رادفـورد تحيـةً وعلمًـا وشـعارًا ونشـيدًا وطنيًّـا خاصـة بـه، واعتمـد فـي إحـدى البيانـات الإعلاميـة فـي الفيلـم علـى بكـرة فيلميـة حقيقيـة تتحـدَّث عـن زمـن الحـرب كتبهـا الشـاعر ديـلان تومـاس لصالـح وزارة الإعـلام. قـال رادفـورد موضِّحًـا اسـتخدامه التكنولوچيـا القديمـة والأزيـاء القديمـة: «اعتـدت أن أقـول للنـاس إن هـذا عالـم مـوازٍ: عـام 1984 كمـا تخيَّلـه رجـلٌ فـي عـام 1948». اسـتخدم المصـوِّر السـينمائي روچـر ديكينـز طريقـة مبتكـرة لإعطـاء الفيلـم مظهـره البـارد باهـت الألـوان. عـادةً، تُغسـل بكـرات الأفـلام مـن نتـرات الفِضَّـة لجعـل الألـوان زاهيـة، لكـن ديكنـز تركهـا كمـا هـي. «الشـيء المهـم فـي نظـري هـو خلـق عالـم يصدِّقـه النـاس»، هكـذا قـال رادفـورد.*(63)

جـدَّدت أخبـار الفيلـم اهتمـام ديڤيـد بـوي بـ«ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون». التقـى بـوي رادفـورد وبرانسـون لمناقشـة تأليـف الموسـيقى التصويريـة للفيلـم، لكـن بـوي لـم ينفـك عـن الحديـث عـن «الموسـيقى العضويـة» ولـم يفهـم أيُّ شـخصٍ آخـر معنـى ذلـك. لكنهـا قطعًـا لـم تكـن تبـدو شـبيهة بالمقطوعـات التـي أرادهـا برانسـون، لذلـك رفـض

63-* فـي أثنـاء زيارتـه لموقـع التصويـر، تلقَّـى مارڤـن روزنبلـم مكالمـات هاتفيـة تسـأل مـا إذا كان إعـلان «1984» لشـركة أبـل مقطعًـا مـن الفيلـم، مـا دفعـه إلـى تهديـد شـركة كيـات داي بأنـه سيقاضيهم، لكـن أوان ذلـك كان قـد فـات. (المؤلِّـف).

الاستمرار والتفت بدلًا من ذلك إلى مغنّيي فرقة يوريثمكس المتعاقدين مع شركته «فيرچن ريكوردز»، وهو الأمر الذي لم يعرفه رادفورد إلا عندما اتصلت به مغنية الفرقة آني لينوكس من استوديو في جزر الباهاما لتسأله لماذا لم يحضر. وصل الخلاف المحتدم بين رادفورد وبرانسون إلى صفحات الأخبار وصنع دعاية ممتازة لفيلم لم يكن من السهل بيعه حول. كان الخلف يدور حول ما إذا كان من الأفضل استخدام موسيقى فرقة يوريثمكس غير الملائمة لأجواء الفيلم («الجنس، الجنس، الجنس، الجنس، جريمة الجنس»)، أم موسيقى دومينيك مولداوني.

يتذكّر رادفورد: «كانت الفكرة الشائعة في الوسط هي أن الفيلم لن يحقّق نجاحًا لأن نهايته لم تكن سعيدة. أيضًا لأنه لم يكن روايةً حقًّا، وإنما مقال عملاق الطول في الأساس. قالوا لي: "سيكون جمهورك من هم في سنّ خمسة وثلاثين عامًا وعلى دراية بأورويل. سيكون نجاحه محدودًا". لكن الفيلم حقّق نجاحًا كبيرًا، وتراوح سنّ الجمهور الذي شاهده من خمسة عشر إلى عشرين عامًا. لماذا؟» قالها وضحك. «لأنه كان يحكي بالكامل عن اليأس. الشباب يحبّون اليأس».

قال بيري في ذلك الوقت: «كنا مثقلين بواجب ثقيل هو أن نُخرج الفيلم بشكلٍ يصلح لكل الأزمنة». يشبه فيلم رادفورد إلى حدٍّ كبير تخيُّل القارئ لما يجب أن تكون عليه أجواء رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كان هذا الإخلاص يعني أن الفيلم -بغض النظر عن موسيقى يوريثمكس- لم يتقادم. لكن في الوقت نفسه الذي كان رادفورد يصنع فيه فيلمه، كان فنانون آخرون يدمجون الأفكار

الأوروبليـة فـي رؤى ديسـتوبية جديـدة تمامًـا ترتبـط مباشـرة بمـزاج الثمانينيـات: «في فور ڤينديتـا»، و «حكايـة الجاريـة»، و «برازيـل».

***

لـن يكـون مـن الدقَّـة أن نقـول إن المخـرج تيـري جيليـام كان متأثّـرًا بروايـة «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» وهـو يصنـع فيلـم «البرازيـل»، لأنـه لـم يكن قـد قرأهـا بعـد. لكنـه كان متأثّـرًا بأجـواء «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» التـي تغلغلـت فـي الثقافـة العامَّـة: «كانـت المعرفـة العامَّـة فـي الجـو، فـي الأمـور نتعلَّمهـا فـي الكلّيـة والتـي تتحـدَّث الـكلام عـن 1984».

عندمـا بـدأ جيليـام تطويـر الفكـرة فـي أواخـر السـبعينيات، كان اسـم الفيلـم المؤقَّـت «الـوزارة»، وكان هنـاك اسـم آخـر أيضًـا هـو «1/2 1984»: وهـو تكريـم مـزدوج لأورويـل وفيلّينـي، للإشـارة إلـى طبيعـة الفيلـم المنسـوجة مـن الخـوف والخيـال. قـال جيليـام لاحقًـا للروائـي سـلمان رشـدي: «إن فيلـم «برازيـل» نتاج لتلك الفتـرة تحديـدًا، لاقتـراب عـام 1984 الـذي يجثـم فـي الأفـق... لكـن لسـوء الحـظ، صنـع هـذا النغـل المدعـو مايكل رادفـورد نسـخة مـن روايـة «1984»... لـذا أُسـقط فـي يـدي». يمكنـك تكويـن فكـرة عـن طابـع الفيلـم الفريـد مـن حقيقـة أن جيليـام فكَّـر أيضًـا فـي اسـم «وزارة التعذيـب» و «كيـف تعلَّمـت التعايـش مـع النظـام، حتَّـى الآن»، قبـل الاسـتقرار علـى اسـم «برازيـل»، تيمُّنًـا بالأغنيـة التـي تصـدح فـي الفيلـم. تبـدو كأنهـا أسـماء ثلاثـة أفـلام مختلفـة تمامًـا.

مـن الواضـح أن جيليـام التقـط بعـض الأفـكار المهمـة التـي اسـتخدمها أورويـل. إن البيروقراطـي السـلبي سـام لـوري (جوناثـان

برايس) وسائق الشاحنة الجامد چيل لايتون (كيم جريست) على شاكلة ونستون وچوليا تقريبًا. تُوجد أيضًا وزارة إعلام تستخدم مصطلح «استرجاع المعلومات» كناية عن التعذيب. واسم الوثيقة الرسمية 27 بي-6 هو إشارة طريفة لعنوان شقَّة أورويل الأخيرة في لندن: رقم 27 بي، ساحة كانونبيري. لكن هدف جيليام لم يكن هجاء الشمولية. لا يُوجد متعصِّبون في «برازيل، ولا ديكتاتور. فقط المديرون البيروقراطيون الذين يبقون على آلة الدولة تعمل. بُذرت بذرة الفيلم في رأس جيليام عندما قرأ إحدى وثائق محاكمات الساحرات في القرن السَّابع عشر. تضمَّنت الوثيقة قيم المبالغ المالية التي كان على المتَّهمين دفعها مقابل تعذيبهم وإعدامهم. تلك القسوة العبثية المتمثِّلة في تحويل عنف الدولة إلى عمل تجاري ألهمت هذا الفيلم الذي يهجو بيروقراطية خيالية عديمة الشفقة تسوِّغ جميع أفعالها: تبدأ الحبكة بسبب خطأ كتابي في الوزارة.

يتجسَّد هجاء جيليام في الاعتداءات الإرهابية التي حلَّت محل قنابل أورويل الصاروخية كوسيلة لإبقاء الشعب في حالة حرب دائمة. أحبط المخرج المراسلين الذين حاوروه بقوله إنه حتَّى هو لا يعرف ما إذا كان الإرهابيون حقيقيين أم عملاء للدولة. «الوزارة بحاجة إلى إرهابيين سواء كانوا موجودين بالفعل أم لا»، هكذا وضَّح رئيس سام، السيِّد هلبمان، في مسوَّدة سيناريو أوَّلية كتبها جيليام وتشارلز ألفرسون. «إن لم يكونوا موجودين، ستُوجدهم الوزارة... بمجرَّد ما بدأ النظام العمل، ثبت أنه مكتفٍ ذاتيًا بالكامل... تغذِّيه من الداخل وفرة من جنون العظمة

والطموح». تتطلّب أوقيانيا كذلك إمدادًا لا ينقطع من المجرمين، سواء كانوا مذنبين أو غير مذنبين، لأن «عمليات التطهير والتبخير جزء ضروري من آليات الحكومة»، لكن جيليام أعاد صياغة هذه الفكرة إلى نكتة مجنونة.

في افتتاحية فيلم «برازيل»، يوضّح سطرٌ على الشاشة أن الأحداث تدور في «وقتٍ ما من القرن العشرين». مثل «1984»، يمزج الفيلم الحاضر والمستقبل بأربعينيات القرن الماضي، عن طريق ملصقات زمن الحرب الدعائية، وتصميمات موجة «آرت ديكو»، والأنابيب الهوائية، والتكنولوچيا العتيقة. في الواقع، استخدم كلا الفيلمين طاقم اختيار مواقع التصوير نفسه. تذكَّر رادفورد: «استخدمنا كثيرًا من مواقع التصوير نفسها. واصلنا العثور على آثار لفيلم "برازيل"، لكن لم يكن لديَّ فكرة حقيقية عنه في ذلك الوقت». كان الفيلمان مثل التوأمين المنفصلين: خاضت سوزانا هاميلتون تجربة أداء للعب دور چيل، بينما رُشِّحت چيمي لي كورتيس لدوري چيل وچوليا.

صارت شبه التحيَّة التي قدَّمها جيليام لأورويل نعمة ونقمة في الوقت نفسه بمجرَّد الانتهاء من الفيلم. كان فرانك برايس، رئيس شركة يونيڤرسال، محرِّر قصَّة نسخة «استديو وان» عام 1953 من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، واعتبر أن «برازيل» لا يعدو كونه محاكاة سيِّئة. نعته الناقد السينمائي چوديث كريست بـ«1985»، بينما وصفته بولين كايل في «ذا نيويوركر» بأنه «مهزلة ثملة لـ1984». بالتأكيد المهزلة الثملة لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لا تمثِّل رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على الإطلاق. عادة

جيليام الدائمة في مشاكسة السُلطة، التي تضمَّنت معركة شرسة مشهورة مع يونيفرسال حول نسخة العرض النهائية من «برازيل»، حصَّنته ضد التشاؤم. ربَّما كانت النهاية متشائمة جدًّا في نظر شركة يونيفرسال، لكن وفقًا لمعايير أورويل، فإن حقيقة وفاة سام قبل أن يستسلم مثالية جدًّا. أخبر جيليام سلمان رشدي بأن سام أصبح بطلًا عندما توقَّف عن أن يكون ترسًا في آلة: «جوهر فيلم «برازيل» في نظري هو المسؤولية والمشاركة.. لا يمكنك السماح للعالم بالاستمرار في فعل ما يفعله من دون التورُّط». هذا أيضًا هو جوهر «في فور فينديتا».

* * *

كان لدى أورويل دراية عابرة بقصص الأبطال الخارقين المصوَّرة. في عام 1945، تلقَّى طردًا يحتوي على بعض القصص المصوَّرة التي نشرتها دي سي وتايملي (التي صارت «مارفل» بعد ذلك)، وقد عرَّفه على أسماء مثل سوبرمان وباتمان والشعلة البشرية. لم يكن من المعجبين بهذا النوع من القصص، وكتب: «من الواضح تمامًا أنها تميل إلى تحفيز أوهام عن القوَّة، وفي نهاية المطاف يمكن تلخيص جوهرها في السحر والسادية. لا يمكنك أن تنظر إلى صفحة من دون أن ترى شخصًا يطير في الهواء، أو شخصًا يلكم آخر على فكه، أو شابة لا ترتدي ما يكفي من ملابس وتقاتل من أجل شرفها، ومن المحتمل بالقدر نفسه أن يكون عدوُّها روبوتًا فولاذيًا أو ديناصورًا طوله خمسة عشر مترًا مثلما قد يكون إنسانًا. الأمر برمَّته مجرَّد إثارة رخيصة لا معنى لها».*(64)

64-* في ذلك العام، نشرت مجلَّة «تايم» مقالًا بعنوان «هل القصص المصوَّرة فاشية؟»، وصف فيه الأستاذ اليسوعي والتر چيه أونج سوبرمان بأنه «مثال لبطل الدولة الخارقة، له اهتمام واضح بأيديولوچيات سياسات القطيع». (المؤلِّف).

ربَّما لم يكن أورويل ليغيِّر رأيه أبدًا، ولكن بحلول الثمانينيات، كما ظهر مع قصص «القاضي دريد»، أصبحت القصص المصوَّرة وسيلة فعَّالة للهجاء اليساري. جاء الكاتب ألان مور بفكرة الإرهابي غريب الأطوار الذي يحارب دولة شمولية أوَّل مرَّة في عام 1976. بعد ستِّ سنوات، بدأ ينشر مع ديڤيد لويد، الرسَّام المتشائم بالقدر نفسه، رواية «ڤي فور ڤينديتا» مسلسلة ضمن كتاب المختارات القصصية المصوَّرة البريطانية «وورير»، وجعل الأحداث تدور بعد خمسة عشر عامًا في المستقبل. بافتراضه الخاطئ أن حكومة مارجريت تاتشر التي لا تحظى بشعبية ستخسر الانتخابات العامَّة المقبلة، تخيَّل مور أن حزب العمل سيتبنَّى سياسة نزع السلاح من جانب واحد، التي ستحمي بريطانيا من حرب نووية ستدمِّر معظم العالم. لكن الخراب الذي تُسبِّبه الحرب على المناخ والإمدادات الغذائية يجعل بريطانيا فريسة سهلة لحكومة «نورسفاير» الفاشية الجديدة، التي استولت على السلطة في عام 1992 وأرسلت الأعداء السياسيين والأقليات غير مرغوب فيها إلى معسكرات الاعتقال. أحد هؤلاء الأعداء، الذي حوَّلته تجربة علمية (وهو الامتثال الوحيد في القصَّة لقواعد الأبطال الخارقين)، يهرب ويصبح الإرهابي الأناركي ڤي. وصف لويد -الذي ابتكر قناع ڤي المستوحى من جاي فوكس- الفكرة بأنها قصَّة مصوَّرة «للأشخاص الذين لا يغلقون القنوات الإخبارية».

قائمة الأعمال الطويلة التي أثَّرت في مور -والتي نُشرت في «وورير» – تضمَّنت أعمالًا للثلاثي الديستوبي: أورويل وهكسلي وبرادبوي؛ بالإضافة إلى قصص «القاضي دريد»، ومسلسل

«السجين»، وديفيد بوي، وموجة الخيال العلمي الجديدة. رسومات لويد للندن الرمادية المنهكة لها نكهة أوروبية، كما هو الحال مع شعارات النظام، «القوَّة من خلال النقاء، والنقاء من خلال الإيمان»، والشعار الأكثر إثارة للأعصاب الآن ممَّا كانت عليه في ذلك الوقت: «لنجعل بريطانيا عظمية مرَّة أخرى». مثلما الحال في مقاطعة آيرستريب وان، قُضي على تراث الأدب والموسيقى. فقط في «المعرض الخفي» الذي يملكه ڤي، ما زال يمكن الاستماع إلى أصوات الماضي، من شكسبير إلى موتاون. أنتجت معرفة مور العميقة بهذا الضرب من الأدب نكتة واحدة على الأقل جيِّدة جدًّا. يتتبَّع المسلسل التليفزيوني الناجح في «نورسفيار» المغامرات العنصرية للبطل الآري ستورم ساكسون في عام 2501 في «دولة إنجلترا المستقبلية كابوسية». إذًا هذا ما يعتبره حكَّام الدولة الديستوبية ديستوبيًا.

غابت رواية «ڤي فور ڤينديتا» في عالم النسيان عندما أُغلقت مجلَّة «ووريـر» في عام 1985. بحلول الوقت الذي أعاد فيه مور ولويد إحياءها وإكمالها لصالح «دي سي» في عام 1988، بعد تسع سنوات من حكومة تاتشر، استطاعا تدقيق توقُّعاتهما السابقة. قرَّر مور أنه كان شديد التفاؤل عندما فكَّر في أن «الأمر سيتطلَّب أزمة هائلة مثل صراع نووي وشيك لدفع إنجلترا نحو الفاشية». صار الآن يعتقد أن الأمر لن يكون بهذه الصعوبة على الإطلاق.

* * *

بدأت مارجريت آتوود كتابة «حكاية الجارية» في برلين الغربية في ربيع عام 1984. مثل أورويل عندما شرع في «ألف وتسعمئة

وأربعة وثمانون»، كانت في بداية الأربعينيات وتعرف تمامًا ما تريد قوله. وُلدت الرواية بملف من قصاصات الجرائد بدأت تجمعه في أثناء ما كانت تعيش في إنجلترا. كانت القصاصات تغطِّي مواضيع مثل الحقوق الدينية، والسجون في إيران، وانخفاض معدَّل المواليد، والسياسات الجنسية النازية، وتعدُّد الزوجات، وبطاقات الائتمان. لقد تركت هذه الملاحظات المتنوِّعة تتخمَّر، مثل السماد العضوي، حتَّى نشأت قصَّة منها. أسفارها في ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا، حيث اختبرت «الحذر والشعور بالمراقبة وتكميم الأفواه وتغيير المواضيع والطرق المنحرفة التي يمكن للناس من خلالها نقل المعلومات»، غذَّت الرواية أيضًا، بالإضافة إلى هوسها القديم بالديستوبيات والحرب العالمية الثانية. تذكَّرت ارتباطها بونستون لأنه كان «على خلافٍ صامت مع الأفكار ونمط الحياة المتاحان أمامه». (قد يكون هذا أحد الأسباب التي تجعل قراءة «1984» أفضل عندما تكون مراهقًا: معظم المراهقين يشعرون بذلك). «لقد أقنعتها الرواية أن تلك الأمور يمكن أن تحدث لها بالفعل، حتَّى في كندا في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي. نفت آتوود أن تكون «حكاية الجارية» عملًا ينتمي إلى الخيال العلمي، وفضَّلت تسميَتها «خيال تخميني أورويلي الطابع».

تُروى الرواية على لسان أوفريد (أي «المملوكة لفريد»)، وهي «جارية» دورها الوحيد في دولة جلعاد، الثيوقراطية الفاشية التي وصلت إلى السلطة عن طريق انقلاب وحشي وبسبب أزمة

خصوصية مزمنة، هو إنجاب الأطفال للطبقة الحاكمة العقيمة.*[65] مهندسو جلعاد متعصِّبون يوتوبيون يؤمنون حقًّا أنهم يبنون عالمًا أفضل وأسعد. «يُوجد أكثر من نوع واحد من الحرية»، هذا ما قالته العمَّة ليديا البيروقراطية الرزينة للجاريات. «في أيَّام الفوضى، سادت الحرية. أما الآن فتُمنحن التحرُّر. لا تقلِّلن من شأن ذلك». في اللغة الجديدة، الجذر اللغوي «حر» يعني التحرُّر فحسب؛ أما مفهوم الحرية فلم يعد موجودًا.

الملحق الذي أوردته آتوود في نهاية الرواية، «ملاحظات تاريخية على حكاية الجارية»، يجمع بين تحيَّة لملحق «مبادئ اللغة الجديدة» ومحاكاة ساخرة للأوساط الأكاديمية: العنوان الذي منحه باحثو القرن الثاني والعشرون المتخيَّلون لحكاية أوفريد لهو نكتة تشوسرية الطابع. لكن هذا الملحق هو آخر وأوضح بصمات «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على رواية آتوود. تُوجد أيضًا مذكِّرات سرِّية (مسجَّلة صوتيًا على شريط لا مكتوبة، لأن الكتابة من الأمور المحرَّمة على النساء في جلعاد) بلا ضمان أن يسمعها أحد. يُوجد شنق عام، ومخبرون، وكتب ممنوعة (بعبارة أخرى كل الكُتُب) ومحو للتاريخ. هناك «نساء تتلاشى» ورجال شرطة اسمهم «الأعين» يراقبون الجميع. تُوجد طقوس عنف مقنَّن تسمَّى «الانتشال»، وهي أشبه بـ«دقيقتي كراهية» دمويَّتين. مرَّة أخرى، هذه الأفكار استقتها آتوود من العالم الحقيقي بقدر

65- * كما لاحظ أورويل في أثناء كتابته عن رواية «العقب الحديدية»، فإن كلمة برول prole، أي العوام، تأتي من كلمة بروليتاريين proletarii اللاتينية، التي تعني: أولئك الذين تكون قيمتهم الوحيدة للدولة إنتاج النسل. (المؤلِّف).

ما استقتها من أورويل. وضعت آتوود قاعدة لنفسها: «لن أُدرِج في الرواية أيَّ تفصيلة لم يفعلها البشر بالفعل في مكان ما أو زمنٍ ما». يذكر الملحق إيران وروسيا ورومانيا. استوحت آتوود أيضًا بعض الابتكارات الوحشية من النازيين، وأسياد العبيد الأمريكيين، والطُغمة العسكرية في أمريكا الجنوبية، وصيَّادي الساحرات في سالم. تكمن عبقرية جلعاد، مثل عبقرية أوقيانيا، في التوليف.

يعود التساؤل من جديد عن مصدر الإلهام. كثير من تفاصيل «حكاية الجارية» من ابتكار آتوود. بدءًا من حسِّ الدعابة اللاذع والأسلوب القوي، إلى التعامل مع قضايا الجنس والجنسانية والعرق والتطرُّف الديني التي بالكاد استوعبها أورويل. كان يدرك جيِّدًا أن الشمولية تتسلَّح بالأمومة والتزمُّت الجنسي: «جريمة الجنس» هي أيُّ ممارسة باستثناء «الجماع الطبيعي بين الرجل والزوجة لغرض وحيد هو إنجاب الأطفال، ودون متعة جسدية من جانب المرأة»، وهذا يجعل مرافقة ونستون لجوليا «عملًا سياسيًا». لكن اهتمامه بحياة المرأة الداخلية كان طفيفًا، على نحوٍ يضرُّ به بصفته كاتبًا وإنسانًا.

ما يجعل أجواء جلعاد تبدو أورويلية حقًّا هو مناخ عدم الواقعية المُشِل. تفترض أوفريد أن أخبار المعارك البعيدة بين جلعاد والفصائل الدينية المتنافسة قد تكون مزيفة وأن حركة المقاومة مايداي، مثل جماعة «الأخوية» في كتاب أورويل، قد لا تكون موجودة. حتَّى ذكرياتها تخونها: عندما تحاول تخيُّل وجهي زوجها وابنتها المفقودة، يذبلان كالصور المحترقة. تسمِّي أوفريد نفسها «لاجئة من الماضي». سيكون الجيل القادم من النساء

أسـعد وأطيـع «لأنهـن لـن يحتفظـن بـأيٍّ ذكريـات عـن أيِّ عالـم آخـر».
مثـل ونسـتون سـميث، ليسـت أوفريـد راديكاليـة. إنهـا تبحـث فحسـب
عـن أشـياء لتتمسَّـك بهـا قبـل أن تسـتحيل ضبابيًـا. علـى الأقـل احتفـظ
ونسـتون باسـمه، علـى الرغـم مـن أن إنجلتـرا لـم تفعـل: يمكـن تخيُّـل
أن يكـون اسـم آيرسـتريب وان الآخـر هـو «المملوكـة لأوقيانيـا».

بصفتهـا أوَّل ديسـتوبيا مدروسـة عـن المسـتقبل القريـب ركَّـزت
علـى اضطِّهـاد المـرأة، باعـت «حكايـة الجاريـة» أكثـر مـن مليـون
نسـخة فـي أوَّل عاميـن. وتبعهـا فيلـم مبنـي علـى سـيناريو لهارولـد
بينتـر عـام 1990. منـذ ذلـك الحيـن، لـم تنفـك آتـوود تُسـأل بانتظـام
عمَّـا إذا كان الكتـاب تنبُّـؤًا. إجابتهـا عـن السـؤال يمكـن أن تنطبـق
علـى «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون»: «لنقـل إنهـا نقيـض التنبُّـؤ:
إذا كان مـن الممكـن وصـف هـذا المسـتقبل بالتفصيـل، فربمـا لـن
يحـدث».

* * *

كان أورويـل سـيبلغ مـن العمـر واحـدًا وثمانيـن عامًـا فـي عـام
1984. جميـع أصدقائـه الذيـن تحدَّثـوا فـي المؤتمـرات أو نشـروا
مذكِّـرات أو أجـروا مقابـلات فـي ذلـك العـام وحولـه كانـوا قـد تخطُّـوا
السـبعين.*[66] حتَّـى المعجبـون الأصغـر سـنًّا الذيـن تعاركـوا حـول
أحقيتهـم إرثـه فـي أوائـل الخمسـينيات كانـوا فـي السـتينيات مـن

66- * كان مـن بيـن الباقيـن علـى قيـد الحيـاة سـتيفن سـبندر وتوسـكو فايفـل ومالكولـم موجريـدج وأنتونـي بـاول وجوليـان سـيمونز وجاسـينثا بوديكـوم وجـورج وودكـوك وديفيـد أسـتور وبـول بوتـس. أمـا ريتشـارد ريـس وإنـز هولـدن وجـاك كومـون فكانـوا قـد رحلـوا منـذ فتـرة طويلـة. بينمـا رحـل فريدريـك واربـورج وآرثـر كويسـتلر وأفريـل دان مؤخَّـرًا نسـبيًا. (المؤلِّـف).

أعمارهم. لهذا كانت آراؤهم مثقلة بعقود من الأحمال وبالإحساس الملح بأن من سيربح معركة رضاء أورويل الأخيرة المتخيَّلة سيفوز بالحرب. كانوا يقاتلون من أجل صلاحية ذكرياتهم والخيارات التي اتَّخذوها، حتَّى مع اعتراف بعضهم بحماقة ادِّعاء أن أفكار أورويل موالية لفكرهم السياسي. قال في إس بريتشيت لمجلَّة «تايم»: «لقد فهمته إلى حد ما. كان من الصعب تعريفه لأنه ما أن تحدِّد وجهة نظر، تجده يتعارض معها».

كان الحلُّ -الذي لا يزال شائعًا حتَّى يومنا هذا- هو تسليط الضوء على الاقتباسات التي يرى أيُّ كاتب أنها تدعم حجَّته، وإلقاء تلك غير المفيدة في حفرة الذاكرة. لكن داخل عقولهم، أصرَّ هؤلاء الكتاب ببساطة على الحقيقة. لقد تماثلوا بشدة مع نزاهة أورويل الأخلاقية واستقلالية عقله إلى درجة أن رؤية خصومهم وهم «يسرقونه» كانت تجرحهم وجدانيًا. في حين أن بعضًا من بقايا شيوعيي الثلاثينيات كانوا يبغضونه ويتمنُّون انقطاع سيرته (وصف الصحفي ألاريك چيكوب البالغ من العمر أربعة وسبعين عامًا «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بـ«أحد أكثر الكتب المثيرة للاشمئزاز في التاريخ»)، أراد جميع المعلِّقين الآخرين تقريبًا القديس چورج في صفِّهم، واتَّهم بعضهم بعضًا -بغضبٍ حقيقي- بالتضليل الفاحش.

أوضح أورويل أنه كان اشتراكيًا ديموقراطيًا عارض المحافظين والشيوعيين على حدٍ سواء، لذا فقد تمثَّلت أكثر محاولة مثيرة للمشاعر لاستخدام سمعة الرجل في ملف غلاف مجلَّة «هاربر» عام 1983: «إذا كان أورويل على قيد الحياة اليوم»، الذي كتبه

نورمان بودهوريتز، أحد المحافظين الجدد الأمريكيين. «عادةً ما يكون تخمين ما كان سيقوله رجلٌ ميِّت عن أحداث لم يعشها قط تجرُّؤًا لا طائل من ورائه»، هكذا اعترف بودهوريتز، قبل أن يصرَّ بقوَّة على أن أورويل العجوز كان سيقول إن نورمان بودهوريتز على حق. بالنظر إلى أن مؤسَّسة المحافظين الجدد الفكرية، «لجنة العالم الحر»، قد أطلقت بالفعل «أورويل برس»، وهي ذراع النشر الخاص بها، فإن أيَّ استنتاج آخر كان سيكون غير مريح. ردَّ الاشتراكي البريطاني المشاكس كريستوفر هيتشنز اللطمة بترسانته الخاصة من الاقتباسات «لإثبات» أن أورويل كان سيظلُّ اشتراكيًا ديموقراطيًا يتبنَّى وجهة نظر سلبية قاتمة عن «عبَّاد السلطة الأثرياء الذين أصبحوا مفكِّرين هذه الأيَّام». استمرت لعبة شد الحبل هذه لشهور، ولم يكن من الممكن الفوز بها بالتأكيد. أشادت «ناشيونال ريڤيو»، المجلَّة المحافظة التي شارك في تأسيسها جيمس بيرنام، بأورويل، وكذلك الروائي اليساري إي إل دكتورو والتحرُّريون المدنيون الذين ألَّفوا كتاب «رزنامة 1984: تاريخ أمريكي». استشهد الديموقراطيون والجمهوريون على حدٍّ سواء بـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في رسائل جمع الأموال خلال حملة الانتخابات الرئاسية عام 1984.

فُتحت جبهة معركة أخرى على صفحات الصحافة البريطانية، حيث نشرت «تريبيون» سلسلة مقالات حول أشهر كتَّابها. أصرَّ المحافظان بيرجرن ورسثورن وألفريد شيرمان أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» معادية للاشتراكية بوضوح. لا، لم تكن كذلك، هذا كان رد برنارد كريك وتوني بين. في ليلة رأس السنة الجديدة، ورد

ذكر الرواية في رسائل العام الجديد التي أرسلها زعماء الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة في بريطانيا. أعلنت مارجريت تاتشر أن عام 1984 سيكون «عام الأمل والحرية»، وبالتالي «كان چورج أورويل مخطئًا»، في الوقت الذي نشر فيه نيل كينوك من حزب العمل مقالًا في صحيفة «لندن تايمز» دافع فيه عن الرواية ضد «لصوص القبور» اليمينيين. ردَّت بالمثل جريدة «ذا صن» -وهي من نوعية الصحف الصفراء التي كان أورويل يكرهها- بأن حزب نيل كينوك هو جنين حزب الإنجوسك في الواقع: إن كان حزب العمل قد فاز في الانتخابات العامَّة عام 1983 تحت حكم «الماركسي» مايكل فوت -زميل أورويل السابق في «تريبيون» - «لكنا الآن نُساق إلى دولة الشركات، ولما كانت هناك عودة إلى وراء». لكن -حمدًا للرب!- نجت بريطانيا من هذا الكابوس الأورويلي على يد مارجريت تاتشر. تحايل المقال الذي نشرته «ذا صن» بعنوان «20 شيئًا لم تكن تعرفها من قبل عن چورج أورويل» ولم يذكر كلمة «اشتراكية» مرة واحدة.

لاحظ بول چونسون من مجلَّة «ذا سبيكتاتور» أن هذه «المبالغات الأيديولوچية» لا يمكن أن تؤدي إلا إلى التعادل: «بما أن الجميع من اليسار واليمين والوسط يمكنهم -ويتخطَّفون بالفعل- الرجلَ البائس لخدمة كل غرض سياسي يمكن تصوره، فإن المحصِّلة النهائية تكاد تكون صفرًا». ومع ذلك، لم يفكِّر أحد في احتمال أن تضمَّ صفوفُ أولئك الذين يحاولون الاستيلاء على أورويل بروباجنديين روس.

في جهد منسَّق بشكل واضح، نشرت ثلاث مجلَّات سوفيتية بارزة مقالات تزعم أن أورويل في الحقيقة كان يسخر من الغرب،

سواء كان يعرف ذلك أم لا. قدَّمت صحيفة «نوفوي فريميا» رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على أنها «تحذير قاتم للمجتمع البورجوازي الديموقراطي المتجذِّر -كما أشار أورويل- في معاداة الإنسانية، وفي النزعة العسكرية الطاغية، وفي إنكار حقوق الإنسان». بينما قالت جريدة «ليتراتورنايا غازيتا» أن رونالد ريجان هو الأخ الأكبر، وأن شاشات الرصد هي وكالة الأمن القومي، وأن آيرستريب وان هي تجسيد لمواقع الأسلحة النووية الأمريكية في جرينهام كومون البريطانية. أما جريدة «إيزفستيا» فقالت إن التاريخ قد حوَّل أوقيانيا إلى «صورة واقعية تمامًا للرأسمالية الإمبريالية المعاصرة».

كان من الممكن أن يدَّعي هؤلاء الكُتَّاب أن الرواية تدور على سطح المريخ ولن يعرف قرَّاؤهم شيئًا، لأن النخبة الحزبية فقط هي التي يمكنها الوصول إلى نسخة منها بشكل قانوني، تمامًا كما يضع الحزب الداخلي وحده يده على كتاب جولدشتاين في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كان سعر الرواية في السوق السوداء يكلِّف ثلثي متوسِّط الراتب الشهري. في مثالٍ مذهل على التفكير السوفيتي المزدوج، تزامنت تلك النزعة التحريفية لأفكار أورويل مع محاكمة المترجم اللاتفي جونارس أسترا، الذي حُكم عليه بالسجن سبع سنوات في معتقل سيبيريا بتهمة «التحريض والدعاية المناهضة للسوفيت» بسبب جرائم تضمَّنت توزيع نسخة ساميزداتية من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كان من السهل على مارجريت تاتشر أو ستيف چوبز أن يقولا إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت تخمينًا سيئًا، لكن بالنسبة

إلى بعض القراء، كان العمل تشريحًا مفصَّلًا بشكل مذهل لنظام يألفونه جيِّدًا. كتب كونور كروز أوبراين: «لم يسبق لأحد أن عاش في ليليبوت، وما إلى ذلك. لكن مئات الملايين من الناس يعيشون اليوم في ظل ظروف سياسية يمكن مقارنتها إلى حدٍّ كبير بجوهر صورة أورويل». شمل ذلك إيران والصين وكوريا الشمالية، لكن كان للكتاب طابع خاص في الكتلة السوفيتية. في أثناء رحلاته عبر أوروبا الشرقية، قابل الصحفي تيموثي جارتون آش بانتظام معجبين مستترين بأورويل. هؤلاء اعتادوا أن يسألوه: «كيف عرف؟». حسنًا، لأنه كان منتبهًا. لقد راقب السلوك الشيوعي في إسبانيا، واستمع إلى المنفيين، وقرأ كل كتاب وقع في طريقه. وكانت جهوده موضع تقدير. في كتاب «اليوتوبيا في السلطة»، وصف ميشيل هيلر وألكسندر نيكريتش أورويل بأنه «المؤلِّف الغربي الوحيد تقريبًا الذي فهم طبيعة العالم السوفيتي».

لذلك أطلق مجيء عام 1984 العنان لطوفان من الذكريات. قال المهاجر الليتواني توماس فينكلوفا، الذي قرأ نسخة مهرَّبة من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في أوائل الستينيات وربط القصة بأصدقائه كما لو كانت حكاية شعبية، إنها غيرت حياته: «كان أوَّل من شرح لي أن الشخص الطبيعي لا يستطيع العيش في ذلك المجتمع». في مقدِّمته لنسخة ساميزداتية تشيكية جديدة (قرأها بينتر بصوت عالٍ في سلسلة «جرائم الفكر» على المسرح)، استدعى ميلان لحظة تجلٍّ مماثلة: «صُدمت عندما قرأت قصة ونستون سميث لأنني أدركت فجأة أنني أقرأ قصَّتي أنا... أينما أذهب، وأيَّما أسمع في الإذاعة والتليفزيون، أتذكَّر

لندن في 1984». لذا، ففي حين ما اتَّهم بعض النقَّاد اليساريين في الغرب أورويل بكراهية البشر والانهزامية، وجد كثيرٌ من الناس الذين يرزحون تحت مظلَّة الشمولية الكتاب ملهمًا، لأنهم شعروا بأن شخصًا يفهمهم: لقد اعتادوا أن يُشاهدوا، لكن لا أن يُروا. قارن شيمتشيكا تجربة قراءته للرواية بردَّة فعل ونستون على كتاب جولدشتاين: «أفضل الكتب هي التي تخبرك بما تعرفه بالفعل». نشر المجري جيورجي دالوس تتمَّة ذكية مريرة للرواية بعنوان «1985»، فيها أطاح ثوَّار «ربيع لندن» بحزب الإنجسوك قبل أن يُقمعوا في النهاية، تمامًا مثل أسلافهم في العالم الحقيقي في المجر وتشيكوسلوفاكيا.

صارت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كليشيهًا مبتذلًا بين مفكِّري الستار الحديدي إلى درجة أن ميلان كونديرا بدأ يكرهها. قد تبدو مقولة كونديرا الشهيرة «صراع الإنسان ضد السلطة هو صراع الذاكرة ضد النسيان» مستوحاة من أورويل، لكنه كان يعتقد أن الرواية شجعت أصدقاءه التشيكيين على رؤية حياتهم على أنها «كتلة غير متمايزة من المخاوف». وأصرَّ على أن الحياة تحت الحكم السوفيتي لم تكن سيئة مثل الحياة في أوقيانيا. ألم يستمتعوا –على الرغم من كل شيء– بالفن والدعابات والصداقة والحب؟ كل ملذَّات الحياة العنيدة التي لا يمكن اختزالها في السياسة؟ اشتكى قائلًا: «في حديثهم عن الأعوام الأربعين المروعة، كانوا جميعًا يضفون صبغة أورويلية على ذكريات عن حياتهم».

بحلـول الوقـت الـذي نشـر فيـه كونديـرا هـذه الكلمـات فـي عـام 1993، سـقطت أوراسـيا.

***

غالبًـا مـا يُنسـى أن أورويـل لـم يتّفـق مـع أوبرايـن فـي موضـوع الشـمولية التـي لا تقهـر، وأكّـد فـي مقالاتـه الصحفيـة أن النظـام يحمل داخلـه بـذور سقوطه. وافقـه فـي هـذا الـرأي المتمـرِّد الروسـي أندريـه أمالريـك. فـي عـام 1970، نشـر أمالريـك مقـالًا نوقش كثيـرًا بعنـوان «هـل سيسـتمر الاتّحـاد السـوفيتي حتّـى عـام 1984؟» (اختـار فـي الأصـل عـام 1980 موعـدًا للانهيـار، لكـن صديقًـا لـه أقنعـه بتبنّـي موعـد أورويـل الحاسـم بـدلًا مـن ذلـك). بسـبب ذلـك المقـال، زُجَّ بأمالريـك خمـس سـنوات فـي معتقـل سـيبيريا وتُوفّـي لاحقًـا فـي المنفـى. بمجـيء عـام 1984، تعـرَّض أحـد أصدقائـه للسـخرية فـي السـجن مـن ضبّـاط الـ «كيـه جـي بـي»: «لقـد مـات أمالريـك منـذ فتـرة طويلـة، لكننـا مـا زلنـا موجوديـن». يبيِّـن واقـع مـا جـرى بعـد ذلـك أن أمالريـك لـم يكـن مخطئًـا بشـأن نقـاط الضعـف القاتلـة فـي الاتّحـاد السـوفيتي، فقـط هـو توقّـع تاريخًـا أبكـر قليـلًا. جـادل الاشـتراكي اليوغوسـلافي المخضـرم ميلوفـان دجيـلاس أنـه بحلـول عـام 1984 كانـت الشـمولية قـد تفكّكـت بالفعـل، ولـم يتبـقَّ منهـا غيـر «نظـام طقسـي». عُرفـت لغـة هـذا النظـام باسـم نوفويـزاك: أي اللغـة الجديـدة.*[67] السُلطة بـلا إيمـان لا تعنـي الكمـال، كمـا كان

67– * فـي كتابهـا «اللغـة الجديـدة: لغـة الشـيوعية السـوفيتية» المنشـور عـام 1989، يتوافق تحليل فرانسـواز ثـوم مـع تحليـل أورويـل: «علـى اللغـة الجديـدة إظهـار أن السـلطة تعسُّـفية وغيـر محـدودة فـي الوقت نفسـه، وعليهـا أيضًـا تجسـيد عنـف السـلطة. تفعـل اللغـة الجديـدة ذلـك بطريقتيـن: مـن خـلال معارضـة كل الأدلـة، وعـدم تكليـف نفسـها عنـاء إخفـاء تناقضاتهـا». (المؤلِّف).

أوبراين يعتقد، بل الاضمحلال. من دون أيديولوچيا وإرهاب لم يعد النظام السوڤيتي شموليًا. الدولة الشمولية، من دون شمولية، لا يمكن أن تستمر.

في عام 1987، طلبت حكومة جورباتشوف الإصلاحية من عالم الاجتماع المخضرم يوري ليڤادا تدبير دراسة غير مسبوقة للرأي العام الروسي. انتهز ليڤادا الفرصة لاستكشاف نظرياته الخاصة حول الإنسان الذي خلقته عقود العزلة والأبوة والامتثال: الهومو سوڤيتيكاس. التفت ليڤادا إلى أورويل والتفكير المزدوج لوصف الأفكار المتناقضة المطلوبة من الإنسان الروسي العادي، المُجبر على الإيمان بالتقدُّم والمساواة وهو لا يختبر أيًّا منهما. أكدت الإجابات على استطلاع الرأي فرضيته القائلة بأن معظم مواطني الاتِّحاد السوڤيتي كانوا يتظاهرون فقط بأنهم يؤمنون بالشيوعية: الجميع يعرف الحركات جيِّدًا إلى درجة أنهم واصلوا الرقص حتَّى عندما لم يعد بإمكانهم سماع الموسيقى. بعد ثلاثين عامًا، لخَّص الصحفي الروسي الأمريكي ماشا جيسن النتائج التي توصَّل إليها ليڤادا حول الإنسان السوڤيتي (الهومو سوڤيتيكاس) في كتابه «المستقبل هو التاريخ»: «كان عالمه الداخلي يتألَّف من تناقضات، وكان هدفه البقاء، وكانت استراتيچيته هي التفاوض المستمر: دورة لا نهائية من الألاعيب والتفكير المزدوج». في عالم أورويل، الإنسان السوڤيتي هو چوليا: «كانت تُسلِّم بأن الجميع، أو الغالبية العظمى، يكرهون الحزب سرًّا، وأنهم سيخالفون القواعد إذا أمنوا العقاب».

كان ألكساندر ياكوڤليڤ هو مُخطِّط سياستي «الانفتاح والشفافية» و «إعادة الهيكلة» الخاصة بجورباتشوف. كان أحد

مشاريع ياكوفليف هو رفع الرقابة عن بعض الكتب ونشرها لأوَّل مرَّة، مثل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» و «نحن». في يوليو عام 1991، وصف ياكوفليف روسيا بعبارات كان من الممكن أن يميِّزها قرَّاء تلك الكتب الجدد: «مجتمعنا سقيم جدًا. أرواحنا فارغة بشكل دائم. صرنا نفترض أن الجميع مذنبون طوال الوقت، وبالتالي خلقنا مئات الآلاف من العسَّاسين الذين يراقبون أخلاقنا وضمائرنا ونقاء نظرتنا إلى العالم وامتثالنا لرغبات السلطات. لقد حوَّلنا الحقيقة إلى جريمة».

بعدها بخمسة أشهر، لم يعد اتِّحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية موجودًا بشكل رسمي.

***

ربَّما كان من المتوقع أن يؤدِّي سقوط الشيوعية إلى جعل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عملًا متقادمًا يحكي عن حقبة معيَّنة، مثل «ظلمة في كَبِد النهار»، أو «أرخبيل جولاج» لألكسندر سولچينتسين، لكن مناقشة الكتاب كانت قد تمحورت بالفعل حول موضوع الآلة. يجب التأكيد على أن أورويل كان أقل اهتمامًا بالعلم في روايته من ويلز أو زامياتن أو هكسلي. على الرغم من أن شاشة الرصد ذُكرت في الرواية ما لا يقلُّ عن 119 مرة، لم تُستعرض طريقة عملها إلا بشكل ثانوي، وهي في الحقيقة وسيلة أقل فاعلية للتحكُّم من أدوات رجال الشرطة والمخبرين القديمة، أو قوَّة عيني الأخ الأكبر التي تبدو خارقة للطبيعة. العلم في أوقيانيا لا يملأ صفحتين من كتاب جولدشتاين. أو كما كتب البولندي ليوبولد لابيدز -أحد المحافظين الجدد- في مجلَّة

«إنكاونتر» عام 1984: «في نظر أورويل، المشكلة هي تكنولوچيا السلطة لا قوَّة التكنولوچيا... الأخ الأكبر ليس روبوتًا فضائيًا». لكن كانت هذه صرخة واهنة لمحارب بارد قديم. عندما قرَّر أحد المدرِّسين في نيويورك الرواية على تسعة وأربعين طالبًا بالغًا في عام 1982، قرأها واحدٌ فقط على أنها معادية للشيوعية. أما الباقي فذكَّرتهم بمكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة المخابرات المركزية ووترجيت والتليفزيون وأجهزة الكمبيوتر. لقد صار الكتاب يُسمع الآن على تردُّداتٍ مختلفة.

تضمَّن العدد المخصَّص لأورويل من صحيفة «ذا ڤيلدج ڤويس» الأسبوعية قصَّة قصيرة كتبها بوب بروين بعنوان «ووردلينك 2029»، يعمل فيها من هم أمثال أوبراين لصالح شبكة كمبيوتر عالمية هي مزيج من شاشات رصدٍ متقدِّمة وإنترنت بدائي. كتب بروين: «الأخ الأكبر الأسوأ هو آلة بلا روح يديرها رجالٌ اقتربوا هم أنفسهم من التحوُّل إلى آلات». منذ عام 1949، ربطت مجلَّة «تريبيون» مراجعتها لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بخبر عن الآثار المشؤومة لـ«عقل» ميكانيكي جديد طوَّره الباحثون في جامعة مانشستر. الآن، تعكس شعبية الفكرة الخيالية عن الذكاء الصناعي الواعي مطلق القوَّة -مثل سكاينت في «ترمينتور» وفيت في «ڤي فور ڤينديتا» - مخاوف الجمهور بشأن قواعد البيانات والأقمار الصناعية وكاميرات المراقبة. هذا القلق المتزايد بالضبط هو الذي جعل شركة كايت داي للدعاية ترغب في «تحطيم الكذبة القديمة بأن الحاسوب سوف يستعبدنا»، والتبشير بحقبة جديدة من التكنولوچيا اليوتوبية التي تقودها

شركة أبل. وهذا هو السبب أيضًا الذي جعل والتر كرونكايت يكتب في مقال «إعادة نظر في 1984» في صحيفة «نيويورك تايمز» للترويج لحلقته الخاصة على قناة «سي بي إس»: «إذا تمكَّن الأخ الأكبر من ربط كل بنوك البيانات الخاصة والحكومية في أمريكا، فسيكون قد قطع ثلاثة أرباع الطريق إلى هدفه». اتَّفق ناقد صحيفة «نيويورك تايمز» التليفزيوني مع تشخيص كرونكايت بصورة عامَّة، لكنه اعتقد أنه أغفل شيئًا مهمًّا: «الرضا، بل اللهفة، التي يتبنَّى بها البشر التقنيات الجديدة».

كان هذا تخوُّفًا يتعارض مع إعلان شركة أبل «1984». ماذا لو لم يتطلَّب فقدان الحرية وجود الأخ الأكبر أو حزب الإنجوسك؟ ماذا لو فعلنا ذلك بأنفسنا لأنفسنا؟



الفصل الثَّالث عشر

أوقيانيا 2.0

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في القرن الحادي والعشرين

«عناد الواقع نسبي. يحتاج الواقع إلى حمايتنا له».

هانا آرنت، 1951.

في عام 1984، وخلال حلقة نقاش عن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، قال الناقد الإعلامي الأمريكي نيل بوستمان إن التليفزيون الأمريكي غيَّر الثقافة والسياسة والسلوك البشري بشكل جذري، بطريقة تشبه إلى حد بعيد «عالم جديد شجاع» أكثر من كتاب أورويل. ثم حوَّل هذه النظرية إلى كتاب جدلي قوي بعنوان «تسلية أنفسنا إلى حدِّ الموت»: «كان أورويل يخشى أن ما نكرهه سيفسدنا، بينما كان هكسلي يخشى أن يفسدنا ما نحبه. هذا الكتاب يدور حول احتمالية أن يكون هكسلي -لا أورويل- على حق». ثم نقرأ هذه العبارة اللافتة للنظر في الفصل الأخير: «في النبوءة الهكسلية، لا يراقبنا الأخ الأكبر باختياره. بل نحن من نراقبه باختيارنا». لم يتوقَّع بوستمان أن يؤخذ كلامه بشكل حرفي.

جاءت فكرة برنامج تليفزيون الواقع «الأخ الأكبر»، الذي عُرض أوَّل مرَّة في هولندا عام 1999، من معرفة أنه بينما لا يزال يُوجد أشخاص يدَّعون أنهم يشعرون بالقلق من أن يكونوا مراقبين، فإن عددًا كبيرًا من الأشخاص سيتطوَّعون لأن يخضعوا للمراقبة. في

عام 1996، ركّبت طالبة جامعية في ولاية بنسلفانيا تدعى جينيفر رينجلي كاميرا ويب في غرفة نومها و «بثّت» كل تحرُّكاتها وسكناتها عبر موقعها الشهير «جيني كام». بعدها بثلاث سنوات، أخذ رائد الأعمال غريب الأطوار جوش هاريس الفكرة عدة خطوات إلى الأمام من خلال عرض مشروع فني وتجربة اجتماعية تسمَّى «هدوء: نحن نعيش على الملأ». دعا هاريس أكثر من مئة متطوِّع للعيش في مستودع من ستَّة طوابق في مانهاتن، مجهَّز بجميع المواد الغذائية والمُسكِرات ووسائل الترفيه التي قد يحتاجون إليها، وأخبرهم بأنهم أحرار في فعل ما يحلو لهم، مع العلم أن كل شيء يُسجَّل عن طريق ترسانة من كاميرات الويب. أنتج هاريس نسخة حيَّة ممَّا سيصيره الإنترنت بعد ذلك: مكان يقايض فيه الناس الخصوصية مقابل المتعة والراحة والاهتمام. قال أحد المتطوِّعين: «لقد أحببت العيش في عالم بلا أسرار أو إحساس بالوقت. عالم كنَّا فيه أطفالًا صغارًا يُعتنى بنا». سرعان ما صُنِّف مشروعي هاريس ورينجلي على أنهما «أورويليان».

إذا كان برنامج «هدوء» تعبيرًا رائدًا عن فكرة قوية، فإن برنامج «الأخ الأكبر» هو نسخة وقت الذروة منه. إنه تجربة اجتماعية انحدرت إلى عرض معاتيه تلصُّصي. كان مبتكر الفكرة الهولندي، جون دي مول جونيور، يتكتَّم المصدر الذي أوحى باسم البرنامج. ولكن عندما وصل قالب البرنامج إلى الولايات المتَّحدة في عام 2000، أفشى اسم شركة الإنتاج السر: «شركة أورويل المحدودة للإنتاج». رفع المحامي وليم إف كولسون دعوى قضائية نيابةً عن مارفن روزنبلم وتركة أورويل، متّهِمًا صنَّاع البرامج الأمريكيين

بـ«تمييـع الجـودة المميِّزة لهـذه العلامـة وتقليـل قيمتها». كان كولسـون يشـيـر إلـى قيمـة اسـتغلال حقـوق البـثّ التليفزيونـي، ولكـن البرنامـج فعل شيئًا مشـابهًا لأفـكار أورويـل. فـي «الأخ الأكبـر»، تعيش مجموعة مـن شـركاء السـكن تحـت المراقبـة طـوال أربع وعشـرين سـاعة («وهـم نائمـون أو مسـتيقظون، وهـم يعملـون أو يأكلـون، فـي الداخـل أو فـي الخـارج، فـي الحمَّـام أو فـي السـرير»، علـى حـد تعبيـر الروايـة)، ويُسـتدعون إلـى غرفـة اليوميـات (المعروفـة فـي بعـض البلـدان التـي أنتجـت نسـخها الخاصـة مـن البرنامـج باسـم «غرفـة الاعتـراف») بالنيابـة عـن «أخ أكبـر» غيـر موجـود. فـي معظـم نسـخ البرنامـج، يُحظـر اسـتخدام الكتـب وأدوات الكتابـة. كتـب كاتـب سـيرة أورويـل الغاضـب برنـارد كريـك يقـول: «فهـم أورويـل الفـرق بيـن «مـا يهتـم بـه العامَّـة» و«المصلحـة العامَّـة». لهـذا كتـب ذلـك الكتـاب الـذي جـرى التعامل مـع تحذيـره بـازدراء سـاخر، وصـار يعامل فـي حـد ذاتـه علـى أنـه ترفيـه سـطحي». فـي نفـس الوقـت تقريبًـا، بنـت هيئـة الإذاعـة البريطانيـة نموذجًـا للغرفـة 101 -غرفـة تعذيـب أورويـل- كمسـتودع لطيـف لمـكاره المشـاهير.

لـم تكـن كل الإحـالات إلـى «ألـف وتسـعمئة وأربعـة وثمانـون» خـلال عقـد التسـعينيات تتَّسـم بالخفَّـة. كانـت الغرفـة 101 عنـوان سـكن بطل فيلـم عـام 1999 «الماتركس»، الـذي غـاص فـي مسـائل الحريـة والمجتمـع وطبيعـة الواقـع. ظهـرت أيضًـا اقتباسـات مـن الروايـة فـي كلمـات أغنيـة «تسـتيفاي» لفرقـة ريـج أجينسـت ذا ماشـين، وكلمـات أغنيـة «فاسـتر» لفرقـة مانيـاك سـتريت بريتشـرز، وظلَّـت محتفظـة بنفـس التأثيـر الكاسـح. ومـع ذلـك، كان يبـدو كمـا لـو أن الكتـاب فـي

نهاية المطاف قد يُسخر منه ويُحَطُّ من شأنه مثلما سُحق على ونستون سميث. لم يكن يمكن أن يحدث هذا إلا في عقد نهاية الألفية الذي اتَّسم بالرضا عن الذات، عندما كان بإمكان الأذكياء أن يقولوا باقتناع إن تحذير أورويل قد نجح. «لقد انتهى عالم «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في عام 1989»، هكذا كتب تيموثي جارتون آش في مايو عام 2001. ظلَّ أورويل مرجعًا لا غنى عنه في مسألة تشويش وخداع اللغة السياسية، هكذا أكَّد جارتون آش، لكن ثالوثه غير المقدس -الإمبريالية والفاشية والشيوعية- كان قد سقط: «بعد أربعين عامًا من موته المبكِّر المؤلم، انتصر أورويل».

بعدها بأربعة أشهر، اصطدمت طائرتا رُكَّاب ببرجي مركز التجارة العالمي.

***

في عام 2003، حلَّت الذكرى المئوية لميلاد چورج أورويل -بسيرها الذاتية وإعادات الإصدار والمؤتمرات والأفلام الوثائقية التي لا مفرَّ منها- في عالم منقسم بسبب غزو العراق الذي قادته الولايات المتَّحدة. ربَّما هذا هو السبب في أن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» حازت لقب الكتاب الإنجليزي المثالي في استطلاع للرأي أجرته إذاعة «راديو بي بي سي 4»، متفوِّقة على الأعمال الأخف وطأة لزادي سميث وچيريمي باكسمان وبيل برايسون وجوناثان كو. علَّق برنارد كريك قائلًا: «تتمحور «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» حول السلطة مطلقة العنان. ربَّما يشعر الناس حاليًا بالرعب من «أخوين كبيرين» خارجين عن السيطرة،

أو ربَّما ثلاثة. علينا وضع صدَّام إلى جوار بوش وبلير».

تهافت منتقدو الحرب على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». استنكر بول فوت في صحيفة «ذا جارديان» «التفكير المزدوج» في «أوقيانيا» (الولايات المتَّحدة وبريطانيا). افتُتِح ألبوم فرقة راديوهيد «هيل تو ذا ثيف» بأغنية شرسة ومذعورة بعنوان «2 + 2 = 5»، مدفوعة بـ«العبارات الأورويلية الملطَّفة» التي سمعها مغني الفرقة الرئيس توم يورك في الأخبار. ظهرت سياسات إدارة بوش بعد 11 سبتمبر بشكل كبير في الأفلام الوثائقية مثل «أورويل يتلوَّى في قبره» و«أورويل ضد التيَّار»، بينما اختتم المخرج مايكل مور الفيلم الجدلي «فهرنهايت 11/9» بفقرة مُعاد صياغتها من كتاب جولدشتاين: «تشن الزمرة الحاكمة الحرب ضد رعاياها، وهدفها ليس الانتصار على أوراسيا أو إيستاسيا، ولكن الحفاظ على بنية المجتمع سليمة». من المؤكَّد أن فكرة «الحرب على الإرهاب» التي لا نهاية لها أعادت أوقيانيا إلى الأذهان، البلد الذي تُسوَّغ فيه كل القيود المفروضة لأن «هناك حرب دائرة». عكست الحياة الفن إلى درجة مثيرة للقلق عندما قال أحد كبار مساعدي الرئيس بوش (عُرف لاحقًا أنه كارل روف، رغم نفيه ذلك) لصحيفة «نيويورك تايمز» إن الإدارة ليس لديها ما تخشاه من «المجتمع الذي يحتكم إلى الواقع... الذي يعتقد أفراده أن الحلول تنبع من الدراسة الحكيمة للواقع المحسوس. لم تعد هذه هي الطريقة التي يعمل بها العالم حقًا. نحن إمبراطورية الآن، وعندما نتحرَّك، فإننا نخلق واقعنا الخاص». عند قراءة هذه الكلمات، تكاد تسمع صوت أوبراين. أو كما تسخر إحدى

المقولات الشائعة: لم يكن من المفترض أن تكون «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كُتيِّب إرشادات.

في الوقت نفسه، نشر صقورٌ مثل نورمان بودوريتز وكريستوفر هيتشنز -اللذان وحَّدتهما الحرب ضد «الفاشية الإسلامية» بعد عشرين عامًا من المعارك في مجلَّة «هاربر» - كلمات أورويل لإحراج خصومهم من اليسار. هذا النهج تجاوز حرب العراق: أطلق المحافظون بشكل روتيني مصطلح «شرطة الفكر» على أيِّ شخصٍ يدافع عن لغة «صحيحة سياسيًا». كان الهوس بتخيُّل ما يمكن أن يقوله أورويل عن الأحداث الجارية يولِّد الاستياء والتعب. فرَّق العالم السياسي سكوت لوكاس -مؤلِّف كتابين قاسيين جدليين عن الكاتب- بين أورويل الإنسان وأورويل الرمز: «لقد استُخدم أورويل كعصا لضرب أولئك الذين يُنظر إلى آرائهم على أنها مزعجة أو مهدِّدة بأيِّ شكل من الأشكال». شاركت دافني باتاي، أحد أكثر المراجع احترامًا في الأدب الديستوبي، لوكاس في نفاد صبره للتخلص من فكرة «القديس چورج»، والنظر إلى أورويل كشخصية معقَّدة ومتناقضة وليس كنموذجٍ أخلاقي. قالت دافني في عام 2003: «لا يتمتَّع شكسبير بالسُّلطة الأخلاقية لإعطائنا رأيًا بشأن غزو العراق. لم يكن أحد ليتخيَّل مثل هذا الأمر، لكن أورويل يُستشهد به فيه».

في هذه الأثناء، وبالنسبة إلى العديد من مبدعي الأدب الديستوبي الجديد، ظلَّت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» البناء الأشمخ في مدينة الكوابيس؛ لم يكن المرء مضطرًا إلى دخوله، لكن لا يمكن له تجاهله تمامًا. في رواية «1Q84»، تلاعب

هاروكي موروكامي بعنوان أورويل وعدَّله (الرقم تسعة والحرف كيو متجانسان في اللغة اليابانية)، وجعل أحداث روايته تدور في عام 1984 وتبدأ في أبريل، وأعطى إشارات واضحة إلى أورويل في عالم من الأكوان الموازية والطوائف الدينية. أمَّا بطل رواية «قصَّة حب حقيقية حزينة جدًا» لجاري شتاينجارت -وهي هجاء عن فائض الشركات والانحدار الفكري- فهو كاتب يوميات متعب، سنُّه 39 عامًا يعشق امرأة متهكِّمة أصغر سنًا. قدَّم چيمس مكتيج مخرج فيلم «في فور ڤينديتا» تحيَّة لأورويل عن طريق اختيار چون هِرت في دور الديكتاتور آدم سوتلر (كان من الممكن أن يكون الاسم أكثر مكرًا)، الذي يعنِّف مرؤوسيه من شاشة عملاقة، وبالتالي حوَّل ونستون سميث من نسخة مايكل رادفورد إلى «أخٍ أكبر» عنيف. لاقى الفيلم -على الرغم من عدم نضجه السياسي وبلادته البصرية- صدىً واسعًا، عندما صارت النسخ البلاستيكية الرخيصة من قناع جاي فوكس الخاص الذي يرتديه ڤي رمزًا عالميًا للاحتجاج. قال ديڤيد لويد، الفنان المسؤول عن التصميم: «صُمِّم فيلم «ڤي» للتحذير من احتمال قاتم: إنه نسخة القصص المصوَّرة من عالم «1984». ومثلما وصلت رسالة چورج أورويل إلى عددٍ كبير من القراء لأنها تناولت أمورًا عالمية ذات أهمية لنا جميعًا، فليس من المستغرب أن رسالتنا فعلت ذلك أيضًا».*[68]

ومع ذلك، لفتت أكثر ديستوبيات القرن الحادي والعشرين بروزًا

68-* زار الكاتب آلان مور، مؤلِّف «ڤي فور ڤينديتا»، رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مرَّة أخرى في روايته المصوَّرة «تحالف الخارقين: الملف الأسود»، التي افتُتِحت في لندن بعد سقوط حزب الإنجوسك. (المؤلِّف).

الأنظار لبعدها عن أورويل. أعمال متنوِّعة مثل رواية «لا تدعني أذهب أبدًا» لكازو إيشيجورو، وسلسلة «ألعاب الجوع» لسوزان كولينز، وكوميديا مايك جَدج الوحشية «ديموقراطية الأغبياء»، وفيلم بيكسار «والي» الذي سخر من الرأسمالية المترهِّلة بدلًا من الشمولية.*[69] أنكر فيليب روث أن «مؤامرة ضد أمريكا»، روايته التي تحكي عن خط زمني بديل يهزم فيه الطيار تشارلز ليندبيرج الرئيس روزفلت في انتخابات عام 1940، ويؤسِّس للفاشية في أمريكا، تشترك في كثير من الأمور مع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «تخيَّل أورويل تغييرًا هائلًا في المستقبل أدَّى إلى عواقب وخيمة على الجميع. أما أنا فحاولت تخيُّل تغييرًا طفيفًا في الماضي أدَّى إلى عواقب وخيمة على قِلَّة نسبية». أما أكثر ديستوبيا لافتة للانتباه في العقد الأوَّل من القرن الحادي والعشرين فهي «أبناء البشر»، فيلم المخرج ألفونسو كوارون المقتبس عن رواية بي دي جيمس المنشورة عام 1992. إن إنجلترا في المستقبل القريب في الفيلم لئيمة ومبهرجة وعنيفة ولكنها غير قادرة على فرض شمولية. على الرغم من كاميرات المراقبة ومعسكرات الاعتقال، فإن الحالة المزاجية السائدة هي الفوضى بدلًا من السيطرة، وأثاث الرأسمالية لا يزال في مكانه وإن كان باهتًا ورثًا، لأنه في عالم لم يُولد فيه أطفال منذ ثمانية عشر عامًا، لا يُوجد مستقبل حرفيًا. يبدو عالم كوارون المنهك الذي استنفد إمكانياته وثيق الصلة أكثر بمخاوف القرن

69 * مثل فيلم وودي آلان الكوميدي «سليبر» عام 1973 من قبله، أبقى فيلم «ديمقراطية الأغبياء» على تقليد روايتي «النظر إلى الماضي» و «صحوة النائم»: رجل عادي يستيقظ بعد خمسمئة عام من السبات على عالم مختلف. (المؤلِّف).

الجديد -خاصة بعد أزمة عام 2008 المالية- من استبداد أورويل مطلق القوّة.

وكذلك الحال مع المسلسل التليفزيوني «بلاك ميرور» لكاتب السيناريو البريطاني تشارلي بروكر، الذي صار الديستوبيا المميِّزة للعقد الأوَّل من القرن الحادي والعشرين لأنه عبَّر عن مخاوف عصرية جدًّا بخصوص اعتمادنا غير المدروس على التكنولوچيا. تتناول كل حلقة أحد الاتِّجاهات السائدة حاليًا (تليفزيون الواقع، وسائل التواصل الاجتماعي، الواقع الافتراضي، السياسة كعمل استعراضي) وتأخذه إلى حدوده القصوى. قال بروكر في عام 2016: «في أيِّ وقت يظهر فيه اختراعٌ جديد، يقول الناس: أوه، هذا أشبه بـ بلاك ميرور». لكنهم لم يفهموا المقصود. إن جوهر «بلاك ميرور» -كما قال هكسلي عن «عالم جديد شجاع» - لا يكمن في «التقدُّم العلمي في حدِّ ذاته، بل تأثير التقدُّم العلمي على الأفراد من البشر». إن عبارة نيل بوستمان حول كتاب هكسلي - «ما نحبه سوف يفسدنا» - تصلح لأن تكون شعارًا لديستوبيات بروكر الذي تتحقَّق باشتراكنا في الجريمة. في نسخة قناة «إتش بي أوه» من «451 فهرنهايت» الصادرة عام 2018 والشبيهة بأجواء «بلاك ميرور»، نجد أن السلطة الاستبدادية الحارقة للكتب هي نتيجة تحالف بين الحكومة وشركات التكنولوچيا. تقول إحدى الشخصيات: «لم تفعل الوزارة هذا بنا. لقد فعلنا ذلك بأنفسنا. لقد طالبنا بعالمٍ كهذا».

هناك حقيقةً في ذلك. تتمحور صناعة التكنولوچيا في القرن الحادي والعشرين حول البيانات. يُخبر جميع مستخدمي الإنترنت

-باستثناء أولئك الأكثر حذرًا- بشكل روتيني شركات مثل فيسبوك وجوجل بما يحبُّونه ومن يعرفون وأين يذهبون وغير ذلك الكثير. نعتت الكاتبة ريبيكا سولنيت جوجل باسم «الأخ الأكبر العصري». وكتبت عن شركة أخرى من تلك الشركات -أبل- في الذكرى الثلاثين لإعلانها التجاري الأشهر: «ربَّما كان إعلان شركة أبل "1984"هو بداية رؤية مجتمع وادي السيليكون لنفسه كحل وليس مشكلة؛ كمتمردٍ منشق، لا المؤسَّسة الجديدة الصاعدة». جادلت سولنيت -مستشهدة بالمراقبة الحكومية واختراق الخصوصية والابتزاز بالمواد إباحية وإدمان الآيفون- بأن التشدُّق بمقولة «أورويل كان مخطئًا» في الثمانينيات كان سابقًا لأوانه في أحسن الأحوال، إن لم يكن غشًا. لم تكن ثقافة الإنترنت التي شكَّلتها شركات قوية تحمل ازدراءً تجاريًا وفلسفيًا لفكرة الخصوصية «قطيعةً مع الماضي، بل تضخيمًا لأسوأ ما كان في ذلك الماضي... لقد صار عام 2014 يشبه إلى حدٍّ كبير عام 1984». استعرض ديف إيجرز مثل هذه الهواجس في روايته «الدائرة» عام 2013.

القصة التي تحكي عن دخول شابة تُدعى ماي هولاند إلى عالم شركة «الدائرة» التكنولوجية هي هجاء رشيق لوادي السيليكون ذي النزعة اليوتوبية، وتحمل إيماءات خبيثة إلى أسلافها. أُعيدت كتابة ثالوث الشعارات الشهير من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ليناسب عصر وسائل التواصل الاجتماعي: «الأسرارُ أكاذيب - المشاركةُ اهتمام - الخصوصيةُ لصوصيةٌ». المتمرِّد المفعم بالحيوية الذي تسوقه الجموع التلصُّصية إلى حتفه يستدعي إلى

الأذهان جون الهمجي في نهاية رواية «عالم جديد شجاع». إن هدف «الدائرة» الأسمى المتمثّل في «الشفافية»، وأن يعيش المرء حياته بأكملها على الملأ تحت مظلّة «علانية جديدة مذهلة، في عالم من الضوء السرمدي»، يجعل منازل زامياتن الزجاجية وشاشات أورويل الراصدة تبدو بدائية. فقط في الفصل الأخير تتحوَّل الرواية إلى ديستوبيا حقيقية أُلغيت فيها «الحياة الخاصة» من دون الحاجة إلى اللجوء إلى القوَّة: تثبت ماي حبها للأخ الأكبر من خلال تحويل حياتها إلى منزل مستباح للمراقبة والتلصُّص. تساءلت مارجريت آتوود في مراجعتها: «ماذا سيحدث لنا إذا فُرض علينا أن نكون مرئيين طوال الوقت؟ سنكون إذًا في سجنٍ ساطع تحت الإشراف أربعًا وعشرين ساعة. العيش على الملأ بشكل كامل لهو شكل من أشكال الحبس الانفرادي». إن «الدائرة» تجسيد جديد للمكان الذي لا يوجد فيه ظلمة.

كان توقيت إيجرز وليد الصدفة. في 5 يونيو عام 2013، قبل بضعة أشهر من نشر رواية «الدائرة»، كشفت جريدتي «ذا جارديان» و «واشنطن بوست» عن وُجود كيان مراقبة إلكتروني هائل تابع وكالة الأمن القومي، باستخدام وثائق سرَّبها مهندس الكمبيوتر إدوارد سنودن. قال سنودن لاحقًا إن أورويل «حذَّرنا من خطورة هذا النوع من المعلومات» لكن جهاز المراقبة في أوقيانيا «لم يكن ليقارن بما لدينا اليوم». في حين ما دافع الرئيس أوباما عن وكالة الأمن القومي بالمقارنات مع الأخ الأكبر، وصفها السناتور بيرني ساندرز بأنها «أورويلية جدًا»، وتساءلت جريدة «ذا نيويوركر»: «إذًا، هل نعيش في عام 1984؟». ارتفعت مبيعات «ألف

وتسعمئة وأربعة وثمانون» بعدَّة آلاف في المئة على أمازون، التي هي نفسها شركة تقنية عملاقة متعطِّشة للبيانات.*[70]

لم يتنبَّأ چورج أورويل بالإنترنت (على الرغم من أنه يمكن القول إن إي إم فورستر فعل ذلك)، ولم يكن لديه سوى فهم بدائي للتكنولوچيا، ومع ذلك كان حاضرًا في مثل هذه المحادثات منذ الثمانينيات. رأى المتفائلون أمثال نام چون بايك مبتكر برنامج «صباح الخير يا سيِّد أورويل»، في الإنترنت قوَّة لا يمكن إيقافها تجعل من الاستبداد أمرًا مستحيلًا: «كان چورج أورويل مخطئًا بعد كل شيء عندما كتب 1984». أعاد بيتر هوبر كتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في كتاب «انتقام أورويل: طِرس 1984» ليقول إن أورويل كان «مخطئًا بشكل شنيع لا يمكن إصلاحه» بخصوص شاشات الرصد لأن الاتِّصال الشبكي، مثل شبكة الإنترنت العالمية الوليدة، من شأنه أن يؤدي إلى عالم «يتولَّى فيه العوام المراقبة، ويُجبر الحزب على الخضوع».

وفي المقابل، كتب الروائي توماس بينشون في مقدمته لطبعة عام 2003 من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أن الإنترنت كان «تطوُّرًا يعد بالسيطرة الاجتماعية على نطاق لا يمكن أن يحلم به طغاة القرن العشرين الطريفون القدماء بشواربهم البَلْهاء». أدت اكتشافات سنودن إلى تغيير الموقف لصالح تحليل بينشون. بدأ

70-* في مصادفة أخرى، بثَّ «راديو بي بي سي 4» موسمًا حافلًا بمعالجات جديدة لأعمال أورويل. قام كريستوفر إكليستون في معالجة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بالأداء الصوتي، ما جعله الممثِّل الرَّابع (إلى جانب بيتر كوشينج وباتريك تروتون وچون هِرت) الذي لعب كلا من شخصيتي ونستون سميث والدكتور هو. (المؤلِّف).

التفاؤل بشأن قدرة الإنترنت على محاسبة السلطة -في ضوء فيض المعلومات المستمر غير المحدود- يبدو أحمق.

***

كان يُنظر إلى «عالم جديد شجاع» و «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على أنهما ديستوبيتان تستبعد إحداهما الأخرى. لكن في عام 1984، بينما كان نيل بوستمان يؤلِّف كتاب «تسلية أنفسنا إلى حدِّ الموت»، توصَّلت كاتبة سيرة ألدوس هكسلي، سيبيل بيدفورد، إلى استنتاج مختلف، واصفة الاختيار بأنه ازدواجية مغلوطة: «لقد دخلنا عصر الطغيان المختلط». كانت تعني بهذا أن الباحث المعاصر عن السُلطة سيلجأ إلى أيِّ مزيجٍ من الإكراه والإغواء والإلهاء يثبت أنه أكثر فاعلية.

«الفاعلية» هي إحدى كلمات السر في طغيان فلاديمير بوتين المختلط، أو «الديموقراطية الموجَّهة». منذ أن أصبح رئيس روسيا في عام 2000، مدعومًا بالتعطُّش إلى القوَّة والاستقرار بعد الاضطرابات المدمِّرة للأعصاب في حقبة ما بعد الشيوعية في التسعينيات، أعاد الضابط السابق في الـ «كيه جي بي» ملامح النظام القديم تدريجيًا مثل عبادة الزعيم، والمسيرات العسكرية، والاعتقالات الجماعية، والمحاكمات الصورية، والسجناء السياسيين، والعدوان الإقليمي، ودولة الحزب الواحد، والرقابة، واللغة الجديدة، والبارانويا المستشرية. في عام 2012، أعلن بوتين حلمه بتشييد بديل للاتِّحاد الأوروبي تتزعَّمه روسيا، «من لشبونة إلى ڤلاديڤوستوك»، غير مقيَّد بمفاهيم مزعجة مثل حقوق الإنسان والانتخابات الحرَّة النزيهة. متأثِّرًا بالمفكِّر الفاشي

ألكسندر دوجين، أطلق على حلمه اسم أوراسيا. في عام 2014، وصلت شعبية ستالين بعد وفاته في روسيا إلى ذروة جديدة بلغت 52 بالمئة، ممَّا يثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الهومو سوفيتيكاس (الإنسان السوفيتي) عاش أطول من الاتِّحاد السوفيتي.

تختلف مُسوِّغات بوتين -بالتأكيد- عن مُسوِّغات ستالين: القومية والمحافظة الثقافية بدلًا من الأيديولوچية الماركسية. كما أن حكمه أقل وحشية، ويتظاهر بالحفاظ على حرية التعبير والمعارضة السياسية. إن هدف الاستبداد الذي ينتهجه ليس السيطرة الكاملة بل السيطرة الفعَّالة. في آخر مقابلة مهمة له قبل وفاته في عام 2005، وصف المصلح الكبير ألكساندر ياكوفليف احتياج روسيا إلى قادة أقوياء بأنه «مرض»، وتحسَّر على تراجعها إلى دولة مركزية على حساب مجتمع سليم. قال: «إذا رغبت الدولة، سيكون المجتمع متحضِّرًا، أو شبه متحضِّر، أو مجرَّد قطيع. ارجعوا إلى أورويل للحصول على وصف جيد لهذا». صحيح، لكن ارجعوا إلى هكسلي أيضًا.

عندما بدأ الصحفي والمخرج السينمائي بيتر بوميرانتسيف العمل في التليفزيون الروسي الحكومي في عام 2006، لاحظ الكيفية التي يولِّف بها المسؤولون بين «صناعة الترفيه والبروباجندا والسلطوية». كان العقل الإعلامي المدبر لبوتين في ذلك الوقت هو ڤلاديسلاف سوركوف، وهو مدير مسرح سابق ومدير علاقات عامَّة ذو وجه رقيق ولطيف وعقل فولاذي استطاع تحديد «اللغة والأنماط التي تفكر وتشعر بها الدولة». كان سوركوف رائدًا في سياسة تجاوز الحقائق، ونجح في خلق

ضبابٍ مُشوِّش من الأكاذيب والحيل والتناقضات، التي كانت الاستجابة الطبيعية لها هي السخرية العدمية من جوهر مفهوم الحقائق الثابتة. أعاد عنوان كتاب بوميرانتسيف عن روسيا في عهد بوتين وسوركوف صياغة عبارة آرنت التي لا تنسى حول مفهومي الشمولية والحقيقة: «لا شيء حقيقي وكل شيء جائز». سمَّاها الخبير الروسي بوم هاردينج «أرض المجاز».

هذا نوع جديد من الأورويلية. عانى جيل أورويل من عواقب الأكاذيب الكبيرة اللا معقولة إلى درجة أنه لم يكن يمكن الحفاظ عليها إلا من خلال سيطرة الشمولية محكمة القبضة. ولكن، لا يحتاج طغاة القرن الحادي والعشرين إلى الذهاب إلى هذا الحد. كتبت المؤرِّخة آن أبلباوم في مقال نُشر عام 2018 في مجلَّة «ذا أتلانتيك»: «إنهم لا يحتاجون إلى أن يؤمن الناس بأيديولوچية تامة النضج، وبالتالي لا يحتاجون إلى عنف أو شرطة إرهابية. إنهم لا يجبرون الناس على الاعتقاد بأن الأسود أبيض، وأن الحربُ سلامٌ، وأن مزارع الدولة حققت ألف بالمئة من الإنتاج المخطط لها». لكنهم يعتمدون على «الأكاذيب متوسطة الحجم» بدلاً من ذلك: «جميعهم يشجِّعون أتباعهم على الانخراط -على الأقل بعضًا من الوقت- في واقعٍ بديل». مكَّن الإنترنت هذه العقلية من الانتشار إلى ما وراء حدود روسيا، عندما صدَّرت الجهة الرائدة عالميًا في إنتاج المعلومات المضللة واقعها البديل إلى الديموقراطيات التي لم تكن تملك أدنى فكرة عن مدى ضعفها.

***

عندما استخدمت مستشارة الرئيس ترامب كيليان كونواي مصطلح «حقائق بديلة» في 22 يناير عام 2017، عادت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مرَّة أخرى إلى قوائم أفضل الكتب

مبيعًا. وصفت «هوليوود ريبورتر» الرواية، التي أُسندت بعد ذلك إلى المخرج بول جرينجراس، بأنها «أهم تركة أدبية على الساحة». أعلنت عشرات دور السينما في جميع أنحاء الولايات المتَّحدة أنها ستعرض فيلم مايكل رادفورد «1984» يوم 4 أبريل، لأن «الساعات تعلن الواحدة بعد الظهر بالفعل». وطلب المنتجان المسرحيان سونيا فريدمان وسكوت رودين من المؤلفين المسرحيين البريطانيين روبرت آيك ودانكان ماكميلان نقل مسرحيتهما الناجحة «1984» إلى برودواي في أقرب وقت ممكن. أخبرني آيك عندما تحدثت إليه هو وماكميلان في مسرح ألميدا بلندن في العام التالي: «ازدادت شعبية الرواية بسرعة صاروخية في غضون خمسة أيَّام. قالوا لنا: «نعتقد أنه من المهم أن تُعرض تلك المسرحية في برودواي الآن»».

كما تسأل إحدى الشخصيات في بداية المسرحية: «كيف يبدأ المرء الحديث عن أحد أهم الأشياء التي كُتبت على الورق؟». إن النظام الشمولي الذي يمثِّله حزب الإنجوسك في حد ذاته مسرحية، لها نص وأدوار محدَّدة وديكورات وإكسسوارات ووقفات للتصفيق. ولكن عندما بدأ آيك وماكميلان في عام 2011 التفكير في عرض «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على المسرح، أرادوا تجنُّب ما هو واضح. قال آيك: «أتذكَّر أنني قلت إننا لا نريد رجلًا يرتدي بذلة زرقاء يسير أسفل ملصق كبير، لأن هذا صار مألوفًا جدًّا إلى درجة أنه فُرِّغ من معناه. يتطلَّب التفاعل مع الكتاب بشكل صحيح قدرًا معينًا من الغرابة والارتباك: «هل تعرف تلك الرواية جيدًا كما تعتقد بالفعل؟». قرأ الرجلان «ألف

وتسعمئة وأربعة وثمانون» مرارًا وتكرارًا بحثًا عن «مفتاح الباب الخلفي» الذي لم تعثر عليه أيُّ معالجات سابقة. هذا المفتاح كان هو «نظرية الملحق»، التي تُحوِّل بقية الكتاب إلى وثيقة تاريخية درسها وحرَّرها أشخاص مجهولون. بمجرَّد الدخول في هذه المنطقة، تصبح الرواية متاهة موتِّرة من الغموض والألغاز والمفارقات. قال ماكميلان: «لو قرأتها بشكل صحيح، ستجد أنها تتكشَّف لنا جميعًا بطرق مختلفة. كل شيء صحيح وخاطئ في الوقت نفسه. إنها بنية هيكلية للتفكير المزدوج».

في حين أن فيلم مايكل رادفورد يوضِّح نص أورويل (مع الحفاظ على التمييز بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي)، نجد أن المسرحية تنغمس في غموضها. تضمَّنت معالجة آيك وماكميلان إحالات إلى ديفيد لينش، وفيلم «ذا شاينينج»، وفيلم «إترنال سانشاين أوف ذا سبوتلس مايند»، وأحلام غيبوبة توني سوبرانو من مسلسل «آل سوبرانو». باختصار: الأعمال التي تستكشف العالم السفلي بين الواقع والخيال والذاكرة. ثم طُلب من الممثلين التدرُّب على التفكير المزدوج عن طريق لعب الشخصيات بطريقة تسمح بنظريات متعدِّدة حول ما هو حقيقي ومن ينبغي الوثوق به. تنتهي المسرحية بقارئ من مستقبل ما بعد الملحق يسأل سؤالًا أخيرًا: «كيف نعرف أن الحزب سقط؟ ألن يكون من مصلحتهم هيكلة العالم بطريقة نعتقد بها أنه لم يعد لهم وجود...».

قال ماكميلان: «لم نكن نريد حل اللغز للناس. حاولنا تقديم مدى تعقيده. كان من المثير للاهتمام قراءة المراجعات وسماع الناس يخرجون كل ليلة يتجادلون حول ما شاهدوه»، ثم أضاف

ضاحكًا: «عندما ألقينا نظرة على تويتر في أثناء فترة عرض المسرحية، وجدنا أن الجميع يعتقدون أن الآخرين لم يفهموها».

شك آيك في أن معالجتهما التجريبية للكتاب ستكون «حفلة لن يرغب أحد في حضورها سوانا»، ولكن عندما افتُتِحت «1984» في نوتنجهام بلاي هاوس في سبتمبر 2013 بعد ثلاثة أشهر من اكتشافات سنودن، حقَّقت نجاحًا كبيرًا. قُدِّمت عروض المسرحية الثلاثة اللاحقة في وست إند في أجواء سياسية مختلفة: افتتح الثَّالث منها في يونيو 2016، في أثناء حملة استفتاء خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي وقبل مقتل النائب العمالي جو كوكس على يد إرهابي يميني متطرف. في أثناء عرضها في مسرح نيويورك هادسون الذي بدأ في 18 مايو 2017، لاحظ المخرجان أن رد فعل الجمهور كل ليلة يتأثَّر بما فعله دونالد ترامب في ذلك اليوم. في الليلة التي أعقبت تغريدة ترامب على تويتر التي تضمَّنت كلمة «covfefe» التي لا معنى لها، كانت هناك رغبة في الفكاهة إلى درجة أن أحد الممثلين أصيب بالذهول وقال: «لقد شاركت في مسرحيات كوميدية أقل ضحكًا من هذه». في ليلة أخرى، كانت الأخبار سيئة تمامًا وكان المزاج حادًا إلى درجة أن بعض الناس فقدوا الوعي. وفي ليلة ثالثة، عندما سأل أوبراين: «أيُّ عام هذا؟»، صاحت امرأة: «إنه عام 2017 وهو سيئ جدًّا!». على الرغم من أن آيك وماكميلان أضافا المقطع المأخوذ من إعلان الاستقلال في ملحق أورويل إلى نسخة برودواي، قاوم الرجلان الضغط لجعل المسرحية أكثر موضوعية، وأزالا بضعة سطور تبدو الآن وثيقة الصلة جدًّا بما يحدث. تساءل آيك بعد

ذلك عمَّا إذا كان المسرحيّ قد جاءت في وقتها أكثر من اللازم: «كانت المدينة تشعر بالخجل والحزن بقدر ما تشعر بالغضب في ذلك الوقت. لم يكن الناس مستعدين لمواجهة الأمر». في التوقيت نفسه، وفَّرت مسرحية برودواي الأخرى «هالو دوللي!» التي أنتجها سكوت رودين هروبًا خالصًا من الواقع. اقترح آيك أن چوليا لو كانت تعيش بيننا لاختارت «هالو دوللي!».

في أثناء عرضها في برودواي، انتشر اقتباس عظيم التبصُّر من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «الشعب لن يثور. إنهم لن يرفعوا أعينهم عن شاشاتهم لفترة كافية تسمح بملاحظة ما يحدث بالفعل». إلا أن السطر لم يكن من الكتاب على الإطلاق. لقد كُتِب خصّيصىً للمسرحية. امتنَّ آيك وماكميلان لمفارقة إعادة كتابة التاريخ غير المقصودة هذه.

***

قال ريتشارد بلير في عام 2017: «أظن أن دونالد ترامب كان سيُسلي أبي بطريقة تبعث على السخرية، ولربَّما كان سيجعله يقول في نفسه: "هذا هو الرجل الذي كتبت عنه كل تلك السنوات"». يجب القول إن دونالد ترامب ليس الأخ الأكبر. وأيضًا على الرغم من إحيائه عبارات سامة مثل «أمريكا أوَّلًا» و «عدو الشعب»، فإنه لا يمثِّل ارتدادًا إلى الثلاثينيات. إنه يحمل قسوة وتعطُّش الديكتاتور إلى السلطة، لكنه لا يتمتَّع بضبط النفس أو الفكر أو الأيديولوچيه المطلوبة. قد تكون المقارنة الأكثر ملاءمة مع باز ويندرب، الشعبوي الساذج من رواية سينكلير لويس «هذا لا يمكن أن يحدث هنا»، أو في العالم الحقيقي مع چوزيف مكارثي،

الديماجوجي الذي أظهر مستويات مماثلة من النرجسية والخداع والاستياء والطموح الفظ وقدرة خارقة على جعل الصحفيين يرقصون على إيقاعاته حتَّى وهم يكرهونه.*[71]

وعلى الرغم من ذلك، تُوجد سوابق في كتابات أورويل. خلال حملة ترامب ضد هيلاري كلينتون، كان من الصعب مشاهدة المرشَّح وهو يصرخ في أنصاره «احبسوها!» من دون تذكُّر «دقيقتي الكراهية» ووصف أورويل لعقلية الحزب. «نوبة مسعورة متواصلة من كراهية الأعداء الخارجيين والخونة الداخليين، والفرحة بالانتصارات، والتذلُّل أمام سلطة الحزب وحكمته». يعيد شعار ترامب «لنجعل أمريكا عظيمة مرَّة أخرى» إلى الأذهان إشارة أورويل إلى «الأمريكية الخالصة». يوافق الرئيس معظم معايير تعريف أورويل للفاشية التي كتبها عام 1944: «إنها شيءٌ قاسٍ، عديم الضمير، متعجرف، ظلامي، مناهض لليبرالية ومعادٍ للطبقة العاملة... سيقبل أيُّ مواطن إنجليزي غالبًا كلمة "متسلِّط" كمرادف لكلمة فاشي». أكَّد أورويل أن هؤلاء الرجال لا يمكنهم الارتقاء إلى القمة إلا عندما يفشل الوضع الراهن في تلبية حاجات المواطنين إلى العدالة والأمن وتقدير الذات، لكن انتصار ترامب تطلَّب عنصرًا أكثر أهمية. إنه لم يستول على السلطة بثورة أو انقلاب. لم يحرِّكه ركودٌ اقتصادي أو فظائع إرهابية، فضلًا عن حرب نووية أو أزمة خصوبة. لقد مرَّ طريقه إلى البيت الأبيض عبر «أرض المجاز» الأمريكية.

71- * أصبح روي كون، ربيب مكارثي، مُعلِّم ترامب في السبعينيات. كما لو كان ينقل العدوى. (المؤلِّف).

عندما صدَّق بعد مستمعي معالجة أوروسون ويلز الإذاعية «حرب العوالم» من دون التحقُّق من مصادر أخرى، كانوا مدفوعين بالإيمان المفرط بسلطة وسائل الإعلام. أما ناشري المعلومات المضلِّلة المعاصرين فمدفوعون بالقليل جدًا، أو كما جادلت كاتبة الخيال العلمي مارتا راندال في عام 1983، يمكن أن يؤدي انهيار الثقة في الروايات الرسمية الناجم عن فضائح مثل ووترجيت وأوراق البنتاجون إلى بلد «يتوقَّف فيه المواطنون عن الاعتماد على القصص الإخبارية الرسمية بالكامل»، ويتجاوزون حدَّ الشكوكية الصحِّي بكثير.

خلال العقدين اللذين سبقا انتخابات عام 2016، أظهرت مجموعات مثل منكري التغيُّر المناخي، ومناهضي التطعيم، والخلقويين، وحركة بيرثر، وحركة حقيقة أحداث 11 سبتمبر، وأصحاب نظريات المؤامرة من كل نوع، تجاهلًا شرسًا للأدلة الواقعية التي تتعارض مع معتقداتهم، والتي غالبًا ما تعزِّزها وسائل الإعلام اليمينية مثل «فوكس نيوز» ومحطة «توك راديو» والمجتمعات المغلقة على الإنترنت. هذه العقلية التي تتزايد شعبيتها هي مزيج سام من التسفيه والسذاجة. كان الأشخاص الذين يعلنون بفخر شكوكيتهم في شبكة «سي إن إن» أو في جريدة «ذا نيويورك تايمز» سعداء تمامًا بتصديق منشورات فيسبوك دون الرجوع إلى مصادر، وقبول العلم الزائف كحقيقة؛ أولئك الذين شكَّكوا في هيئة الإذاعة البريطانية وافقوا بحماسة على بروباجندا الدولة في عهد بوتين أو بشَّار الأسد في سوريا.

ربما كان أكثر المشاهد خطورة في «ألف وتسعمئة وأربعة

وثمانـون» هـو مشـهد «دقيقتـي الكراهيـة». علـى الشاشـة، يتحـدَّث جولدشـتاين عـن الحقيقـة «ويصـرخ بشـكل هسـتيري قائـلًا إن الثـورة قـد تعرضـت للخيانـة» لمـن يهتـم بالاسـتماع أو التصديـق، ولكـن أحـدًا لمـن يكـن كذلـك باسـتثناء ونسـتون. لـم يكـن الحـزب ليبـث هـذا الـكلام دون رقابـة مـا لـم يعلـم أنـه سيُقابل بالتجاهـل. وإن كنـت لا تعتقـد أن جولدشـتاين موجـود بالفعل، يكـون التسـفيه أكثـر بـذاءة. وبالمثل، فـإن نجـاح الأخبـار الكاذبـة التـي يصنعهـا ونسـتون فـي وزارة الحقيقـة يعتمـد علـى جهل القُـرَّاء وكسـلهم وتحيُّزهـم بقـدر مـا يعتمـد علـى سـلطة الدولـة.

إن عواقـب تخلِّـي كثيـر مـن الأمريكييـن عـن الواقـع كارثيـة. خـلال حملـة الانتخابـات الرئاسـية عـام 2016، أغرقـت «وكالـة أبحـاث الإنترنـت» -وهـي لجنـة إلكترونيـة روسـية- وسـائل التواصـل الاجتماعـي بقصـص إخباريـة مزيفـة مصمَّمـة لإثـارة الارتبـاك والتسـفيه والانقسـام. ورد فـي إحـدى الميمـات المشـهورة للوكالـة مـا يلـي: «يصـدِّق النـاس مـا تخبرهـم بـه وسـائل الإعـلام. مقولـة لجـورج أورويـل». الاقتبـاس ملفـق. لـم يسـتخدم أورويـل قـط عبـارة «وسـائل الإعـلام»، التـي لـم تدخـل إلـى نطـاق الاسـتخدام الشـائع إلا بعـد وفاتـه، ولـم يكـن ليقـدِّم مثـل هـذا الادِّعـاء المبسـط. إن مفارقـة وضـع الـروس كلمـات علـى لسـان أورويـل لاسـتغلال سـمعته كمدافـع عـن الحقيقـة لتقويـض الإيمـان بالصحافـة مذهلـة.

بعـض حسـابات وسـائل التواصـل الاجتماعـي التـي نشـرت هـذه الأخبـار والصـور الهزليـة كانـت فـي حـد ذاتهـا مزيفـة -أسـماء مزيفـة، وصـور مزيفـة، وسـير ذاتيـة مزيفـة- لكـن كثيـرًا منهـا لـم يكـن كذلـك،

لأن مصمّمي المعلومات المضلِّلة وجدوا أنهم كانوا يدفعون بابًا مفتوحًا بالفعل. بعد تشريح وباء الأخبار الخادعة في منتديات «ريدت»، كتب ستيف هوفمان، رئيس الشركة التنفيذي: «أعتقد أن الخطر الأكبر الذي نواجهه نحن معشر الأميركيين هو ضعف قدرتنا على تمييز الواقع من الهراء. أتمنى لو كان يُوجد حلٌ سهلٌ كحظر جميع أشكال البروباجندا، لكن الأمر ليس بهذه السهولة». طرح الرئيس السابق باراك أوباما نقطة مماثلة: «أحد أكبر التحديات التي تواجهها ديموقراطيتنا هو عدم اتفاقنا حول مرجع مشترك للحقائق. استغلَّ الروس أننا نعيش في فقّاعاتٍ معلوماتية مختلفة تمامًا». كانت أزمة أمريكا المعرفية فرصة ذهبية لترامب، واستطاع الفوز في انتخابات عام 2016 لأن عددًا كبيرًا من الأمريكيين كانوا يعيشون فعليًا في واقع موازٍ.

جعلت وسائل التواصل الاجتماعي هذه العملية سهلة جدًا، لأنها أصبحت مصدر الأخبار الرئيسي لملايين الأمريكيين، في حين ما تفتقر إلى الرقابة التحريرية المفروضة على وسائل الإعلام التقليدية. ردًا على الانتقادات في عام 2017، أشار أليكس ستاموس، رئيس قسم سياسات الأمان في فيسبوك، إلى أن استخدام أداة الذكاء الاصطناعي ذاتي التعلُّم غير المشحوذة لاستبعاد الأخبار المزيفة يمكن أن يحوِّل المنصة إلى «وزارة حقيقة بأنظمة ذكاء اصطناعي»، ولكن بسبب الفشل في التصرُّف في الوقت المناسب، كان فيسبوك يسمح بالفعل للأطراف الفعَّالة الفاسدة مثل «وكالة أبحاث الإنترنت» بنشر معلومات مضلِّلة دون رادع. ومن المرجَّح أن تزداد المشكلة سوءًا. إن رواج عملية تخليق

الصور المعروفة بـ«التزييف العميق» التي تجمع بين الكمبيوتر جرافيك والذكاء الاصطناعي لخلق وهم لا يمكن تحديد زيفه إلا عن طريق تحليل الخبراء، لديه القدرة على إنشاء متاهة من الارتياب ستُرى فيها الصور المزيفة على أنها حقيقية، والحقيقية على أنها مزيفة، وفقًا لتحيُّز المشاهد. من خلال تركيب الصور، يمكن جعل شخصية الرفيق أوجلفي الخيالية التي اخترعها ونستون يمشي ويتحدَّث، وفي الوقت نفسه يمكن تجاهُل صورة جونز وآرونسون وراذرفورد باعتبارها خدعة. لا يُوجد علاج تكنولوچي. الخلل يكمن في الطبيعة البشرية.

إنه لأمر أورويلي حقًّا أن ترامب ورفاقه الاستبداديين قلبوا عبارة «الأخبار الكاذبة» رأسًا على عقب لوصف الأخبار الحقيقية التي لا تروق لهم، في حين ما أصبحت الأكاذيب الصارخة «حقائق بديلة». في مارس 2019، عدَّت صحيفة «واشنطن بوست» 9014 ادِّعاءً كاذبًا صرَّح بها ترامب خلال أوَّل 773 يومًا في منصبه. ارتفع المتوسِّط من أقل من ستَّة تصاريح في اليوم خلال عامه الأول، إلى 22 تصريحًا في اليوم في عام 2019. يخلق ترامب واقعه الخاص ويقيس قوَّته بعدد الأشخاص التابعين لها: كلَّما كانت الكذبة فظَّة زاد نجاحها. قدَّم محامي ترامب، رودي چولياني، عن غير قصد شعارًا فجًّا يناسب «أرض المجاز» الأمريكية، عندما صرخ في وجه محاوره: «الحقيقة ليست حقيقية!». «يكمن الواقع في جمجمة الإنسان».

عادت الكوابيس الديستوبية القديمة إلى الظهور في أمريكا في عهد ترامب بقوَّة متجددة. بفضل معالجة «هولو» التليفزيونية لرواية «حكاية الجارية»، باعت رواية آتوود ثلاثة ملايين ونصف

مليون نسخة أخرى، وألهمت موجة جديدة من الديستوبيا النسوية، وجعلت زيَّ الخادمات المكوَّن من عباءات حمراء وأغطية رأس بيضاء مشهورًا بين المتمرِّدين مثل قناع في. رفعت امرأة محتجَّة على تنصيب ترامب لافتة مكتوب عليها: «لنجعل رواية مارجريت آتوود خيالًا مرَّة أخرى». أعلنت آتوود أنها ستنشر رواية ثانية عن جلعاد في 2019 باسم «العهود». على عكس أورويل، لقد عاشت لتكتب الجزء الثاني بنفسها. شكَّلت الأيديولوچية الترامبية كواليس معالجة «هولو» لـ«حكاية الجارية»، ومعالجة «إتش بي أوه» لـ«451 فهرنهايت»، ولـ «الأحلام الكهربائية»، وهو مسلسل من إنتاج «أمازون» يستند إلى قصص الخيال العلمي القصيرة لفيليب كيه ديك. كشفت الكاتبة والمخرجة دي ريس أن معالجتها الراديكالية في إحدى حلقات المسلسل لقصَّة «الغريب المعلَّق»، التي أصبحت الآن تعليقًا لاذعًا على البارانويا السياسية، انبثق مباشرةً من حملة الانتخابات الرئاسية في 2016. كتبت دي ريس: «أُعلنت أفكارٌ عديدة خطيرة، ورُعيت، وسُمح لها بالانتشار... قالوا إن ما يحدث لا يحدث حقًّا. قالوا إن ما تراه ليس ما تراه حقًّا. قالوا إن ما تسمعه ليس هو المقصود حقًّا».

خلال خطاب ألقاه في يوليو 2018، قال ترامب نفسه: «ما تراه وما تقرؤه ليس ما يحدث بالفعل». انتشر بعدها اقتباس آخر من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على نطاق واسع، وهو اقتباس حقيقي هذه المرة: «طلب الحزب من الناس رفض تصديق ما تراه أعينهم وما تسمعه آذانهم. كان هذا هو توجيهه الأخير والأهم».

***

قد يشعر المرء بحنين إلى تلك الأيَّام قبل عشرين عامًا عندما كان الأخ الأكبر مُزحةً وكان أورويل هو الذي «ربح». إن مثل هذه الحقبة التي ابتُلِيَت بالشعبوية اليمينية المتطرِّفة، والقومية الاستبدادية، وفيض المعلومات المضلِّلة، وتراجع الإيمان بالديموقراطية الليبرالية، ليست حقبة يمكن فيها نبذ رسالة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بسهولة، بشرط إمكانية قراءة هذه الرسالة في المقام الأوَّل. في الصين، التي تدير أكثر أنظمة الرقابة تعقيدًا في العالم، تُحذف أيّ إشارة إلى كتاب أورويل من الإنترنت، وأيّ همسٍ آخر للمعارضة.

كان أورويل متشائمًا تمامًا وغير متشائم بما فيه الكفاية في الوقت نفسه. من ناحية، لم يستسلم الغرب للاستبداد. وأصبحت النزعة الاستهلاكية -لا الحرب الأبدية- محرِّكة الاقتصاد العالمي. لكنه لم يقدِّر صلابة العنصرية والتطرُّف الديني. كما أنه لم يتوقَّع أن يتبنَّى الرجل والمرأة العاديان التفكير المزدوج بحماسة مثل المثقَّفين، وأنهما سيختاران الاعتقاد -من دون الحاجة إلى إرهاب أو تعذيب- بأن ناتج جمع اثنين واثنين يمكن أن يكون أيَّ شيءٍ يريدان.

تحكي رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عن أمور كثيرة، ومخاوف قُرَّائها هي التي تملي أيَّ أمرٍ منها سيكون الأبرز في مراحل التاريخ المختلفة. خلال الحرب الباردة، كانت كتابًا عن الشمولية. وفي الثمانينيات، أصبحت تحذيرًا بشأن اجتياح التكنولوچيا. اليوم هي دفاع عن الحقيقة في المقام الأول. في نهاية الأسبوع الأوَّل لترامب في منصبه، اعتذر آدم جوبنيك إلى

مجلّة «نيويوركر» عن اعتقاده السابق بأن تحذير أورويل كان شديد الفظاظة في عالمنا الحديث: «يُذكّر المرء دومًا بما كان أورويل محقًا بشأنه فيما يتعلّق بهذا النوع من الاستبداد الغاشم، وهو أنه بشكل أساسي يعتمد على الأكاذيب التي تُروى مرارًا وتكرارًا، إلى أن تصبح محاربة الكذبة أمرًا ليس خطرًا بل أكثر إرهاقًا من الاستسلام إلى تكرارها... ليس المطلوب من الناس هو تصديق الكذب، بل أن يخشونه. لا يكمن الكذب في ادّعاء أمور زائفة بشأن حقائق بعينها؛ إنما الجنون هو التحدّي المتعمَّد لمفهوم رجاحة العقل برمَّته». وهكذا، نجد أننا عدنا من حيث بدأنا، مع أورويل في إسبانيا. لقد اقتُبس من مقال «النظر إلى الحرب الإسبانية من جديد» في السنوات الثلاث المنقضية أكثر من السنوات الثلاث والستين الماضية:

> أنا على استعداد للاعتقاد أن التاريخ في معظمه غير دقيق ومنحاز، ولكن ما يميِّز عصرنا هو التخلّي عن فكرة أن التاريخ يمكن أن يُكتب بصدق. في الماضي كذب الناس عمدًا، أو أضافوا أهواءهم إلى ما كتبوه دون وعي، أو كافحوا من أجل الوصول إلى الحقيقة، وهم يعلمون جيدًا أنهم لا بُدَّ مرتكبون أخطاء كثيرة؛ ولكن في كل حالة كانوا يؤمنون بأن «الحقائق» موجودة وقابلة للتكشُّف إلى حدٍّ ما... هذه الأرضية المشتركة المتَّفق عليها، بما تعنيه ضمنًا أن البشر جميعهم نوع واحد من الحيوانات، وأن الشمولية مدمِّرة... الهدف الضمني لهذا التفكير هو عالم كابوسي يتحكَّم فيه

الزعيم القائد -أو الزمرة الحاكمة- ليس فقط في المستقبل، بل في الماضي.

خوف أورويل من فكرة أن «مفهوم الحقيقة الموضوعية ذاته يتلاشى من العالم» هو قلب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» المُظلم. هذا هو ما استحوذ عليه قبل وقت طويل من ابتكاره الأخ الأكبر أو أوقيانيا أو اللغة الجديدة أو شاشات الرصد، وهو أهم من أيٍّ منها. في مراجعتها الأصلية عام 1949، حدَّدت مجلّة «لايف» بشكل صحيح جوهر رسالة أورويل: «إذا استمر البشر في الإيمان بالحقائق التي تخضع للقياس وتقديس روح الحقيقة المتمثّل في السعي وراء معرفة أكبر، لن يستطيع أحد استعبادهم بالكامل». بعد مرور سبعين عامًا، تبدو هذه الجملة الشرطية عسيرةً جدًّا.



أنت تعرف كيف تنتهي «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». يجلس ونستون سميث -مدمَّرًا من تجربة الغرفة 101- في مقهى شجرة الكستناء، مخمورًا بـ«جن النصر»، ويرسم بخدر معادلة على طاولة يعلوها الغبار. لكن ما هذه المعادلة بالضبط؟ في الطبعة الأولى، وفي كل الطبعات منذ عام 1987، يكتب ونستون: «2 + 2 = 5». لكن لما يقرب من أربعين عامًا، حذفت طبعة «بنجوين» العدد خمسة وجعلتها: «2 + 2 = ».

لم يكتشف أحدٌ حتَّى الآن دليلًا يفسِّر الحذف. تقول إحدى النظريات إنه كان مجرَّد خطأ مطبعي، وإن كان ذا مغزى مريب. وتقول نظرية أخرى إن عامل طباعة متمرِّد، غير قادر على التفكير في الهزيمة الكاملة، أزالها. الاحتمال الثَّالث هو أن أورويل نفسه أجرى التغيير قبل وقت قصير من وفاته. أيًّا كان السبب، فإن تلك الثغرة في النص تترك بصيصَ أمل لونستون، وبالتالي تُغيِّر فحوى رسالة أورويل جذريًا. في فيلم مايكل رادفورد، كتب چون هِرت «2 + 2» ثم توقف. قال رادفورد: «أعتقد أن المشاهد كان بحاجة إلى تلك اللحظة. ربَّما سيجد مخرجًا. كنت سأستاء بشدَّة إذا وضعت معادلة 2 + 2 = 5 كاملة. هذا أمر قاتم تمامًا، ولم يعد يخاطب الروح البشرية».

مثل نظرية الملحق، تكشف مسألة العدد خمسة المفقود عن رغبة قوية في الاعتقاد أن قصة ونستون ليست كئيبة كما تبدو، وأن أورويل كان يوحي ببصيص أملٍ للقرَّاء اليقظين: لقد صمدت «الروح البشرية» على الرغم من كل شيء. أنا شخصيًا لا أظن

أن الكتاب خالٍ من الأمل. بتعضيد أحدهما للآخر، استطاع الرعديد والمتهكِّمة أن يصيرا باسلين وخاطرا بكل شيء. دُمِّر ونستون في نهاية المطاف لأن رجلًا كاسح النفوذ جعل وظيفته الوحيدة في الحياة تدميره. تذكَّر أيضًا أن كلام أوبراين بشأن خلود حزب الإنجوسك واستحالة المقاومة يجب ألَّا يؤخذ بظاهره. لكنني أعتقد أن قوَّة تحذير أورويل تعتمد على «شعور» القارئ بأن الأوان قد فات بالفعل بالنسبة إلى ونستون وجوليا في عام 1984، لتذكيرنا بأنه ما زال هناك وقت في العالم الحقيقي.

منذ اليوم الأول، اتَّهم نقَّاد الرواية العدائيون أورويل بالتخلي عن الإنسانية: المستقبل سيكون مروِّعًا، ولا يمكنك فعل أيِّ شيء حيال ذلك. لكن لا شيء في حياة أورويل وعمله يدعم اليأس. على العكس من ذلك، وبغضِّ النظر عن تذبذبه القصير في «داخل الحوت»، استخدم أورويل باستمرار «عزيمته في مواجهة الحقائق غير السارة» بغيَة إذكاء مزيد من الوعي، بما في ذلك وعيه الذاتي، ولاجتثاث الأكاذيب والمغالطات التي ابتُليت بها الحياة السياسية والتي تهدِّد الحرية. لم يكن أورويل ليتكلَّف كل هذا العناء المدمِّر لكتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إذا كان جُلُّ ما يريد هو إبلاغ قرَّائه بأنهم محكوم عليهم بالهلاك. أراد أورويل أن يحفِّز، لا أن يشلَّ الحركة، كما أكد فيليب راهف من مجلَّة «بارتيزان ريڤيو» في مراجعته عام 1949: «إن قراءة هذه الرواية كمجرَّد تنبُّؤ صريح لما سيأتي هي قراءة خاطئة لها. ليس تقييد الإرادة البشرية أمرًا قدريًا. كانت نيَّة أورويل بالأحرى دفع العالم الغربي إلى مقاومة نشطة أكثر وعيًا للڤيروس الشمولي الذي يتعرَّض له الآن». بعبارة أخرى: قد يكون المستقبل مروِّعًا ما لم تفعل شيئًا حياله.

تحلُّ ذكرى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» السبعون في وقتٍ مظلم للديموقراطية الليبرالية بلا شك. ومع ذلك يواصل ملايين الأشخاص في جميع أنحاء العالم في «المجتمعات المحتكمة إلى الواقع» مقاومة الأكاذيب متوسطة الحجم، لإعادة تأكيد أهمية الحقائق، والنضال للحفاظ على الصدق والنزاهة، والإصرار على حرية قول إن اثنين واثنين يساوي أربعة. في نظر هؤلاء، لا يزال لدى الكتاب الكثير ليقدِّمه. نظرًا لأن أورويل كان مهتمًا بالنفس البشرية أكثر من اهتمامه بالأنظمة، فـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هي خلاصة وافية قوية لكل ما تعلَّمه عن الطبيعة البشرية من حيث صلتها بالسياسة، وما زالت دليلًا صامدًا لما يجب الاحتراس منه: كل تحيُّز معرفي، كل تعصُّب غير مدروس، كل تسوية أخلاقية، كل خدعة لُغوية وآلية سلطة تمكِّن الظلم من السيطرة. كان أورويل يكتب لعصره، ولكن أيضًا -مثل ونستون- «للمستقبل، ولأولئك الذين لم يُولدوا بعد». أو كما كتب في مقدِّمته لـ«مزرعة الحيوان»: القيم الليبرالية «عرضة للتدمير، ويجب الحفاظ عليها بعدَّة طرق منها الجهد الواعي».

كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مساهمة أورويل الأخيرة والجوهرية في هذا الجهد الجماعي. في البيان الذي أملاه على فريدريك واربورج من فراشه في مصحة كرانام في الأشهر الأخيرة، أوضح السبب الرئيسي وراء كتابة الرواية: ليس لتقييد إرادتنا، بل لتقويتها.

«العبرة التي يجب استخلاصها من هذا الموقف الكابوسي الخطير يسيرة: لا تسمح بحدوث ذلك. الأمر يعتمد عليك».

شكر وتقدير

«إن تأليف الكتب لمعاناة مريعة ومرهقة أشبه بصراع طويل مع مرض مؤلم»، هكذا كتب چورج أورويل في مقال «لماذا أكتب؟». على الرغم من المخاطرة بتخييب أمله، يجب أن أقول إن تأليف هذا الكتاب كان من أكثر التجارب إمتاعًا ونفعًا في حياتي. يرجع ذلك إلى حدٍّ كبير إلى الشعور بأنني لم أكن وحيدًا.

لقد آمن بي وبفكرتي وكيليَّ أنتوني توبنج وزوي باجنامينتا، عندما كانت معنوياتي في الحضيض. من دون مجهودهما الدؤوب، وتشجيعهما ونصائحهما، لم يكن هذا الكتاب ليرى النور. فَهِمَ محرِّراي، چيرالد هوارد من «دبليداي» ورافي ميرشانداني من «بيكادور»، بالضبط ما كنت أحاول فعله منذ البداية، ومكَّنتني مشورتهما الحكيمة وروح الدعابة التي يتمتَّعان بها من تحقيق ذلك. أنا أيضًا ممتنٌّ لزملائهما، وأخص بالذكر نورا جراب من «دبليداي» وبول مارتينوفيتش من «بيكادور». أشكر ديفيد بيرسون ومايكل وندسور على تصميمات الأغلفة الرائعة، وإيمي ستاكهاوس على تدقيقها الصارم، وألكسندرا داو على أوَّل صورة مؤلِّف لائقة أُخِذت لي منذ سنوات عديدة.

قرأ كل من دان چولين ولوسي چولين وچون مولين وألكسيس بتريديس وبادريج ريدي وچود روچرز المسوَّدات المبكِّرة لفصولٍ مختلفة (كل الفصول في حالة لوسي)، وقدَّموا لي ملاحظات لا تقدَّر بثمن. ناقشت الفكرة مع دان قبل أن أخط كلمة واحدة في مقترح الكتاب الذي تقدَّمت به، وقد ساعدني في تحويل

شيءٍ مهلهلٍ وغير متماسك إلى مشروعٍ مركّز. شجعني أصدقاء لا حصر لهم في أثناء تأليف هذا الكتاب؛ ما منحني قناعة حيوية بأنه سيكون شيئًا سيرغب الناس في قراءته. ساعدني كل سؤالٍ مدروس وكل تعليق متحمّس قرأته على فيسبوك. شكر خاص لجوشوا بلاكبيرن ومات بلاكدين وجود كلارك وسارة ديتوم وسارة دونالدسون وتوم دويل وإيان دنت وبول هيوسون وكيتلين موران وبريدن ميرفي ميتشل وريتشارد نيلاند وهيوجو ريفكيند، وأمّي تولا، وأختي تامي.

أنا شديد الامتنان لروبرت آيك ودنكان ماكميلان ومايكل رادفورد على تخصيص وقتٍ كافٍ للجلوس معي لمناقشة معالجاتهم لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ونظرياتهم الخاصة عن الرواية. سهّلت إيما بريتشارد من مسرح ألميدا وأليس فيبس من «يونايتد آيجنتس» عقد تلك المقابلات. قدّمتني هيلين لويس لروبرت. أجاب توني إنجراسي وكريس أوليري وبول ترينكا عن أسئلتي حول علاقة ديڤيد بوي بـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». عرضت سوزي بويت بسخاء أن تريني رسائل غير منشورة كتبها أورويل إلى والد زوجها ديڤيد أستور. شاركني مايكل أنجلو ماتوس بحثًا متعلّقًا بأورويل من كتابه القادم عن الموسيقى في عام 1984، الذي لا أطيق الانتظار لقراءته. أرسل لي إيوان بيرسون مصدرًا ليس من السهل الحصول عليه. نصحني چون نيڤن بحكمة بالتخلّي عن عنوان الكتاب المؤقّت، وقد استغرق الأمر مني عامًا لاتّباع نصيحته: أرجو أن يحب العنوان الجديد. بصفتي صحفيًا مستقلًا، اعتمدت على محرّريّ لمنحي إجازة من

التزاماتي المعتادة، ولإبقاء الباب مفتوحًا عندما أكون مستعدًا للعودة. أنا ممتنٌ جدًا لتيد كيسلر ونيال دوهرتي وكريس كاتشبول من مجلّة «كيو»، ولبيل برنس من مجلّة «چي كيو»، ولهيلين لويس من «ذا نيو ستيتسمان»، ولنيك دي سيملين من «إمباير»، ولروب فيرن ولورا سنابس وكل المحرّرين التابعين لي في «ذا جارديان»، ولأندرو هاريسون وزملائي في «ريمينياكس بودكاست». شكرًا أيضًا لمستمعي «ريمينياكس» لتحمُّلهم عددًا غير معقول من الإحالات لأورويل. ماذا عساي أن أقول؟ لقد عشَّش الرجل في رأسي.

أيضًا عشَّش بعض الأشخاص الذين كتبوا عن أورويل في رأسي. صحيح أنني لم أقابل أيًا منهم مطلقًا، لكنني استمتعت بقضاء وقتٍ بصحبتهم إن جاز التعبير، وأخصُّ منهم روبرت كولز وبيتر دافيسون وچيفري مايرز وچون رودن ووليم شتاينهور ودي چيه تايلور والراحل برنارد كريك. أنا مدين لما تعلّمته منهم. كما أنني ممتنٌ لموظَّفي «أرشيف أورويل» في جامعة لندن والمكتبة البريطانية، حيث أجريت بحثي وكتبت معظم هذا الكتاب. أنا أعتبر المكتبة البريطانية أعزَّ مؤسَّسة عامَّة في بريطانيا بعد خدمة الصحة الوطنية. شحذ تأليف كتاب موضوعه الأساسي أهمِّية الحقيقة الموضوعية تقديري لكل مدقِّقي الحقائق من الصحفيين والعلماء والقدِّيسين الذين يسعون إلى تصحيح الحقائق في عصر تتفشَّى فيه الأكاذيب والخدع والشائعات والأخطاء. من هؤلاء كل المحرِّرين والمساهمين في ويكيبيديا وسنوبس، وهي مجتمعات إنترنت لا تعرف الكلل، تجدِّد إيماني بتصميم الناس

على رؤية الأمور على حقيقتها.

لم يبذل أحدٌ جهدًا أكبر لضمان ألا يكون هذا الكتاب معاناة مروِّعة ومرهقة من لوسي آيتكين، التي كانت معي في كل خطوة على الطريق، من البداية إلى التحرير النهائي. بالإضافة إلى قراءتها مسوَّدات عدَّة فصول، وإلى إسهامها بمعرفتها العميقة بمجال الدعاية في الجزء المتعلِّق بإعلان أبل التجاري «1984»، أبدت فضولًا لا ينقطع ومنحتني حبًّا وتشجيعًا لا ينضبان. هذا الكتاب مُهدى لها، ولابنتينا إلانور وروزا. عسى أن نعيش جميعًا لنرى أوقاتًا أفضل.



ملحق

موجز رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»

الجزء الأوَّل

الفصل الأوَّل

إنه يوم صافٍ بارد من أيَّام أبريل، والساعات تشير إلى الواحدة بعد الظهر. يعود ونستون سميث البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا إلى شقَّته في «قصور النصر» في لندن، في آيرستريب وان، في أوقيانيا، ليبدأ الكتابة في مذكِّراته السريَّة. هذا مسعى خطير في تلك الدولة التي يحكمها حزبٌ واحد، حيث تفرض شرطة الفكر -التي تراقب عن طريق حوَّامات تجسس وشاشات رصد مزوَّدة بأجهزة إرسال واستقبال- مناخًا من المراقبة المستمرَّة. ملصقات زعيم أوقيانيا الغامض المنتشرة في كل مكان الغامض تقول: «الأخ الأكبر يراقبك». يشارك ونستون في صنع البروباجندا في إدارة السجلَّات في مقرِّ وزارة الحقيقة؛ المبنى الهرمي الأبيض الشاهق المزيَّن بشعارات الحزب: «الحربُ سلامٌ، الحريةُ عبوديةٌ، الجهلُ قوَّة». وزارات الحب والسلام والوفرة تحمل أسماءً تهكُّمية كذلك. جاء ونستون وحيٌّ جعله يبدأ كتابة مذكِّراته هذا الصباح في أثناء «دقيقتي الكراهية»، وهو طقس موجَّه ضد الخائن المزعوم إيمانويل جولدشتاين، مؤلِّف كتاب الهرطقة، وزعيم حركة المقاومة السرية المعروفة باسم «الأخوية». في أثناء انعقاد الطقس، ركَّز ونستون بصره على شخصين شعر بأن لهما أهمية كبيرة: مسؤول من حزب الإنجوسك الداخلي اسمه أوبراين، وامرأة ذات شعر بنِّي تعمل في إدارة الخيال قد تكون جاسوسة لشرطة الفكر. يلحُّ عقل

ونستون عليه لكتابة جملة واحدة: «يسقط الأخ الأكبر». منذ تلك اللحظة، يدرك ونستون أنه هالك.

الفصل الثَّاني

تطلب زوجة بارسونز، جار ونستون وزميله في إدارة السجلَّات، منه أن يساعدها في تسليك حوض المطبخ. أطفال آل بارسونز جواسيس. بإيعاز من الحزب، سيُبلغون عن أيِّ شخصٍ لو شكُّوا في ارتكابه «جريمة التفكير» حتَّى لو كان أباهم أو أمهم. في أثناء تسليكه الحوض، يتذكَّر ونستون حلمًا حلم به منذ سبع سنوات، رأى فيه أوبراين يعده أن يقابله في مكانٍ لا ظلام فيه. عند العودة إلى شقَّته، يكرِّس ونستون مذكَّراته إلى الماضي والمستقبل.

الفصل الثَّالث

يحلم ونستون بأمه وأخته اللتين اختفتا في الخمسينيات، ويثقله شعور كاسح بالذنب لا يعرف سببه. يتحوَّل الحلم إلى الفتاة داكنة الشعر. يراها تخلع ملابسها في جنَّة ريفية يُسمِّيها «القرية الذهبية». في أثناء أداء تمارين بدنية إجبارية أمام شاشة الرصد، يشرد عقل ونستون في الطريقة التي يعيد بها الحزب كتابة التاريخ: «من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل. من يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي». على سبيل المثال، لا يمكن الاعتراف علنًا أن أوقيانيا كانت في الماضي في حرب مع إيستاسيا وليس أوراسيا. هذا مثال على «التفكير المزدوج»، وهي عادة عقلية متمثِّلة في تصديق شيئين متناقضين في الوقت نفسه، اتِّباعًا لأوامر الحزب. يشعر ونستون بأنه غير قادر على الوثوق بذكرياته الخاصة.

الفصل الرَّابع

يعود ونستون إلى وزارة الحقيقة، حيث يُعدِّل بأثر رجعي نسخًا من جريدة «التايمز» لتعكس آخر توجُّهات الحزب، ويحرق النسخ السابقة في «حفرة الذاكرة». يتفحَّص ونستون زميليه: رجلٌ ضئيلٌ عصبيٌّ اسمه تيلوتسن، وشاعر شارد الذهن اسمه أمبلفورث. يعيد ونستون كتابة خطبة للأخ الأكبر لاستبعاد أيِّ ذكرٍ لويذرز، وهو بطل حرب سابق مُحي وجوده وصار في عداد المتلاشين، ويستبدل به الرفيق أوجلفي، وهو شخصية من اختراعه. عندما أنهى ونستون عمله، أصبح أوجلفي شخصًا حقيقيًا، وتلاشى ويذرز.

الفصل الخامس

يتناول ونستون وجبة الغداء في المقصف مع الكادح الخنوع بارسونز والفقيه اللُغوي سايم، الذي يتغنَّى بتطوُّر ما يُعرف بـ«اللغة الجديدة»: وهي مجموعة مفردات مكثَّفة مصممة لتقييد التفكير. يرى ونستون الفتاة داكنة الشعر مرَّة أخرى، ولا يزال يشتبه في أنها جاسوسة للحزب.

الفصل السَّادس

يتذكَّر ونستون زواجه القصير غير السعيد من كاثرين الموالية للحزب قبل عقد من الزمن، وزيارته إلى عاهرة قبل ثلاث سنوات. تجعله الذكريات يفكِّر في مسألة قمع الرغبة الجنسية في أوقيانيا.

الفصل السَّابع

يفكِّر ونستون في وضع طبقة البروليتاريا وفي تزييف التاريخ. يتذكَّر رؤيته للخونة المزعومين جونز وآرونسون ورزرفورد في مقهى شجرة الكستناء، ثم عثوره على صورة بعدها بسنوات

تُثبت براءتهم، وعلى الرغم من ذلك أحرقها على الفور وقتها. يتعهَّد ونستون لنفسه بالتشبُّث بسلامته العقلية والإيمان بالحقيقة الموضوعية، التي تتجسد في المعادلة: 2 + 2 = 4.

الفصل الثامن

يتحدَّى ونستون الحظر المفروض على الفردية أو الحياة الخاصة، ويجازف بدخول منطقة البروليتاريا، حيث يسأل رجلًا مسنًّا مشوَّشًا دون جدوى عن الحياة قبل حزب الإنجسوك. يذهب بعدها إلى حانوت الخردوات الذي ابتاع منه دفتر مذكِّراته، ويشترى ثقَّالة ورق زجاجية مصقولة في قلبها قطعة مرجان. مالك الحانوت السيِّد تشارنجتون يحكي له عن أغنية قديمة اسمها «برتقال وليمون». في طريقه إلى بيته، يرى ونستون الفتاة داكنة الشعر مرَّة أخرى، ويفكِّر في حتمية تعذيبه وموته.

الجزء الثَّاني

الفصل الأوَّل

تمرِّر الفتاة ذات الشعر الدَّاكن ورقة إلى ونستون تقول فيها: «أنا أحبك». يتَّفقان على اللقاء في ميدان النصر في أثناء عرضٍ عسكري لأسرى أوراسيين، حيث يرتِّبان موعدًا غراميًا في الريف الواقع غرب لندن.

الفصل الثَّاني

يقابل ونستون الفتاة ذات الشعر الدَّاكن في الحقول التي تكاد تكون مطابقة للقرية الذهبية التي يراها في أحلامه. تقول له إن اسمها چوليا، وتكشف له أنها كذلك تكره الحزب، ثم يتطارحان الغرام وسط زهور الأجراس الزرقاء.

الفصل الثَّالث

إنه شهر مايو. مع تطوُّر العلاقة الغرامية السرِّية بين ونستون وچوليا، يعرف أكثر عن طبيعة تمرُّدها الخاص غير السياسي ضد الحزب. يقول ونستون لها: «نحن في عداد الموتى».

الفصل الرَّابع

يستأجر ونستون غرفة فوق حانوت تشارنجتون لتكون عُشَّ حب. من نافذة الغرفة، يسمع امرأة من العوام تغنِّي أغنية من إنتاج قسم الموسيقى. كانت الأغنية -للغرابة- قويَّة التأثير.

الفصل الخامس

شهر يونيو. سايم اختفى. تجري تحضيرات أسبوع الكراهية على قدم وساق. يتبادل ونستون وچوليا وجهتي نظريهما عن العالم.

الفصل السَّادس

يدعو أوبراين ونستون لزيارته في منزله ليعطيه نسخة من آخر إصدار من قاموس اللغة الجديدة.

الفصل السَّابع

في الحلم، يتذكَّر ونستون خيانته لأمه وأخته في يوم اختفائهما من أجل قطعة شوكولاتة. ذكَّره حلمه أن العوام -بخلاف أعضاء الحزب- ظلُّوا بشرًا.

الفصل الثَّامن

يزور ونستون وجوليا شقَّة أوبراين ويطلبان منه أن ينضمَّا إلى أخوية جولدشتاين. بحضور خادمه مارتن، يجعلهما أوبراين يتعهدان بتقديم تضحيات هائلة وارتكاب جرائم رهيبة باسم «الأخوية». يرتِّب أوبراين لونستون طريقة للحصول على نسخة من كتاب جولدشتاين الذي يشرح الطبيعة الحقيقية لحزب الإنجسوك. يتبادل الرجلان أبياتًا من قصيدة «برتقال وليمون».

الفصل التَّاسع

شهر أغسطس. مع بلوغ أسبوع الكراهية ذروته، يُعلَن على الملأ أن أوقيانيا في حالة حرب مع إيستاسيا بالفعل: لطالما كانت أوقيانيا في حربٍ مع إيستاسيا. في المسيرة، يتسلَّم ونستون كتاب جولدشتاين «حكم الأقلِّية الشمولي: النظرية والتطبيق». في الفراش مع جوليا، يقرأ ونستون أفضل الأجزاء من فصلين، تلك التي تشرح سبب الحرب المستمرَّة، والتشابه بين الدول العُظمى، وهيكل الحزب، وعملية التفكير المزدوج. يتوقَّف ونستون عن القراءة عند نقطة جوهرية لأن جوليا غطَّت في النوم.

يستيقظ ونستون بقناعة أن المستقبل ينتمي إلى العوام. ينهار تفاؤله عندما يسمع صوتًا معدنيًا يخرج من شاشة رصدٍ مُخفاة في الغرفة يُعلن أنه وچوليا رهن الاعتقال. يكشف السيِّد تشارنجتون حقيقة أنه عضو في شرطة الفكر، وتتحطَّم ثقَّالة الورق إلى شظايا.



الجزء الثَّالث

الفصل الأوَّل

يستيقظ ونستون في زنزانة بيضاء الجدران عديمة النوافذ في وزارة الحب. من بين رفاقه في الزنزانة بارسونز (الذي أبلغت عنه ابنته)، وأمبلفورث، وامرأة عجوز قد تكون أم الأخير. بعض السُجناء سيقوا إلى غرفة تُدعى الغرفة 101. يصل أوبراين ويكشف له أنه كان يعمل في الحزب طوال الوقت.

الفصل الثَّاني

يستمر تعذيب ونستون لأسابيع، ويعترف بجرائم وهمية عديدة. في أحد الأيَّام، يستلقي مُقيَّدًا على سريره بينما يستجوبه أوبراين، ويتلقَّى صدمة كهربائية في كل مرة يعطي فيها إجابة خاطئة. يخبره أوبراين بأنه مجنون ويجب علاجه قبل قتله.

الفصل الثَّالث

يستمر التحقيق. يزعم أوبراين أنه هو الذي ألَّف الكتاب المنسوب إلى جولدشتاين مع أعضاء زملاء له في الحزب الداخلي. يوضح لونستون أن الدَّافع الذي يحرِّك الحزب هو السلطة المطلقة، التي يجب أن تظهر من خلال الإرهاب المستمر والسيطرة على الواقع. عندما يحتجُّ ونستون بقول إن روح الإنسانية ستنتصر، يجبره أوبراين على النظر إلى المرآة لمواجهة خرابه الجسدي. كان محطَّمًا كما توقَّع، إلا من ناحية واحدة: هو لم يخُن جوليا، على الرغم من زعم أوبراين أنها خانته.

الفصل الرَّابع

تمـرُّ شـهورٌ أو أسـابيع. يشـعر ونسـتون بتحسـنٍ كبيـر الآن بعـد أن استسـلم للتفكيـر المـزدوج وحِكمَـة الحـزب. لكنّـه مـا زال يحـب جوليـا، ولا يـزال -رغـم دهشـته- يكـره الأخ الأكبـر. يخبـره أوبرايـن بـأن عليـه دخـول الغرفـة 101.

الفصل الخامس

تُجسِّـد الغرفـة 101 لـكل شـخص أسـوأ وأخبـث شـيء يـراه فـي العالـم. فـي قامـوس ونسـتون، هـذا الشـيء هـو الجـرذان. عند تهديده بجرذيـن جائعيـن علـى وشـك تمزيـق وجهـه، يخـون جوليـا. لقـد هُـزم ونسـتون بالكامـل.

الفصل السَّادس

يجلـس ونسـتون وحيـدًا مخمـورًا فـي مقهـى شـجرة الكسـتناء ينتظـر الأخبـار. أوقيانيـا فـي حالـة حـربٍ مـع أوراسـيا: لطالمـا كانـت أوقيانيـا فـي حالـة حـرب مـع أوراسـيا. يسـتعيد فـي ذهنـه لقـاء جوليـا -التـي سُـحقت مثلـه- فـي الحديقـة. لـم يشـعر أحدهمـا بشـيء تجـاه الآخـر. يتذكَّـر أمـه وأختـه للمـرَّة الأخيـرة. تملـؤه أخبـار الانتصـار العسـكري فـي إفريقيـا بالفرحـة، وكـذا فكـرة إعدامـه. لقـد صـار يحـب الأخ الأكبـر.

ملحق: مبادئ اللغة الجديدة

شـرح علمـي للُّغـة الجديـدة يتأمَّـل فـي أحـداث عـام 1984. تاريـخ ومؤلِّـف الملحـق غيـر مذكوريـن.



D O R I A N L Y N S K Y

ضريبة الشعبية الهائلة لأيِّ فنان هي ضمان أن يُساء فهمه. يعرف الناس ظاهريًا عن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أكثر ممًّا يعرفونها بالفعل.

هذا الكتاب محاولة لاستعادة بعض التوازن عن طريق شرح عمًّا تدور حوله رواية أورويل حقًّا، وظروف كتابتها، وكيف غيَّرت العالم -على مدى سبعين السنة الماضية- بعد رحيل مؤلِّفها. بالتأكيد لا يقتصر معنى أيِّ عملٍ فني على مقاصد مُبدعه، لكن في حالتنا هذه، تستحقُّ مقاصد أورويل -التي كثيرًا ما شُوِّهت وأُهملت- إعادة النظر، إذا ما أردنا أن يُفهم الكتاب بصفته كتابًا، لا مجرَّد منبع نافع لا ينضب للإحالات الشعبية الساخرة. إنه عملٌ فني ووسيلة لفهم العالم على حدٍ سواء.

هذه إذًا قصَّة كتاب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». لقد كُتبت سيرٌ عديدة لجورج أورويل، وأجريت بعض الدراسات الأكاديمية عن السياق الفكري لكتابه، لكن لم تُجرَ محاولة من قبل لدمج الأمرين في سردٍ واحد، مع محاولة استكشاف صيرورة الكتاب أيضًا. أنا مهتم بحياة أورويل لأنها في المقام الأول وسيلة لإلقاء الضوء على التجارب والأفكار التي غذَّت كابوسه الشخصي هذا، الذي دمَّر فيه بشكل منهجي كل ما كان يقدِّره: الصدق والنزاهة والعدالة والذاكرة والتاريخ والشفافية والخصوصية والفطرة السليمة والتعقُّل وإنجلترا والحب. سأتقفَّى أثر أورويل عبر قصف لندن وقوَّات الحرس الوطني وهيئة الإذاعة البريطانية ولندن الثقافية وأوروبا المنهكة بعد الحرب، وصولًا إلى جزيرة جورا حيث كتب روايته أخيرًا، كي أهدم الأسطورة التي تقول: إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت نحيبًا طويلًا سبَّبه اليأس، صدر عن رجلٍ وحيد يحتضر غير قادر على مواجهة المستقبل. أريد أن ألفت الانتباه إلى ما كان يفكِّر فيه حقًّا، وكيف تأتَّى له هذا التفكير.


ISBN 978-9921-730-40-1



